

ناريخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت من: ب ٧٦٩



نايخ أوروبّا في العصور الوسطى

اهداءات ٢٠٠١

أ.د. اسمتة محمود خنيم

أستاذ التاريخ بأداب الإسكندرية

نايخ أوروبا في العصور الوسطى

تأليف
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بجامعة القاهرة وبيروت العربية

الأستاذ الدكتور
إبراهيم عفيف

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول

الامبراطورية الرومانية

يبدأ المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوروبا في العصور الوسطى باستعراض أحوال الامبراطورية الرومانية في أقصى مراحل قوتها وعظمتها • وليس معنى هذا أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى يبدأ بداية دقيقة من هذه المرحلة ، وإنما نستهدف من هذا العرض أن يساعدنا على فهم الأسس والعوامل التي كيفت التاريخ الأوربي في العصور الوسطى (١) • هذا الى أن حضارة أوروبا في العصور الوسطى ليست في حقيقة أمرها الا مزيجاً من حضارة الرومان من جهة وحضارة العناصر البربرية التي اجتازت حدود الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها واختلطت بأهاليها من جهة أخرى (٢) •

والواقع أن الامبراطورية الرومانية كانت أعظم وحدة حضارية وسياسية عرفها التاريخ ، اذ لم يقدر لامبراطورية أخرى في تاريخ البشر القديم أو الحديث أن تبلغ ما بلغته الامبراطورية الرومانية من قوة واتساع • ذلك أن هذه الامبراطورية ضمت بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة - باستثناء فارس والهند - وذلك عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) (٣) • وقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غرباً حتى الفرات شرقاً ، فشملت في الغرب البلاد المعروفة بأسماء بريطانيا وغاليا وأيبيريا وإيطاليا وإيبيريا فضلاً عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس ، في حين شمل الجزء الشرقي من الامبراطورية

(1) Stephenson: Med. History. p. 5.

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 3.

(3) Cary : A Hist. of Rome down to the Reign of Constantine, pp. 646.647.

البلقان وآسيا الصغرى وأعلى بلاد النهرين فصلا عن الشام ومصر وبرقه (١) .
هذا مع ملاحظة أن نفوذ روما امتد بعيدا الى ما وراء حدودها السياسية ، حتى
بلغ فارس والهند ، وتطرق الى النوبة والسودان ، ونفذ الى جوف الصحراء
الكبرى عبر جبال أطلس ، كما بلغ الشعوب الجرمانية الضاربة فى مجاهل
أوربا شرقى الراين وشمالى الدانوب (٢) .

وترجع عظمة الامبراطورية الرومانية الى أن السلطة المركزية فيها استطاعت
أن تحكم سيطرتها على هذه المساحات الجغرافية المترامية الأطراف ، وعلى تلك
الشعوب والأمم المتباينة الأصول والحضارات ، الأمر الذى تطلب من الحكومة
الرومانية اصدار قوانين وتشريعات تناسب ذلك العدد الضخم من الشعوب التى
اختلفت بعضها عن بعض فى تراثها التاريخى وحضاراتها ولغاتها ودياناتها .
وليس هذا وحده هو مصدر عظمة الامبراطورية الرومانية ومثار الإعجاب بها ،
وانما تبدو هذه العظمة واضحة جليلة فى مقدرة امبراطورية الرومان على
استيعاب شعوب عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونانيين ، جتبا الى
جنب مع شعوب أخرى حديثة المولد وما زالت فى فجر تاريخها مثل الغالين
والرومان . وهنا نلاحظ أن امتداد الامبراطورية الرومانية على شواطئ البحر
المتوسط جعل من هذا البحر شريانا رئيسيا يربط بين مختلف أجزائها ، فى
حين ساعدت الأنهار الداخلية على الربط بين اطراف الولايات (٣) ، هذا فضلا
عن الطرق المعدة التى اشتهرت بها حضارة الرومان ، والتى أقاموا منها شبكة
واسعة مترامية ليس لها نظير فى التاريخ (٤) .

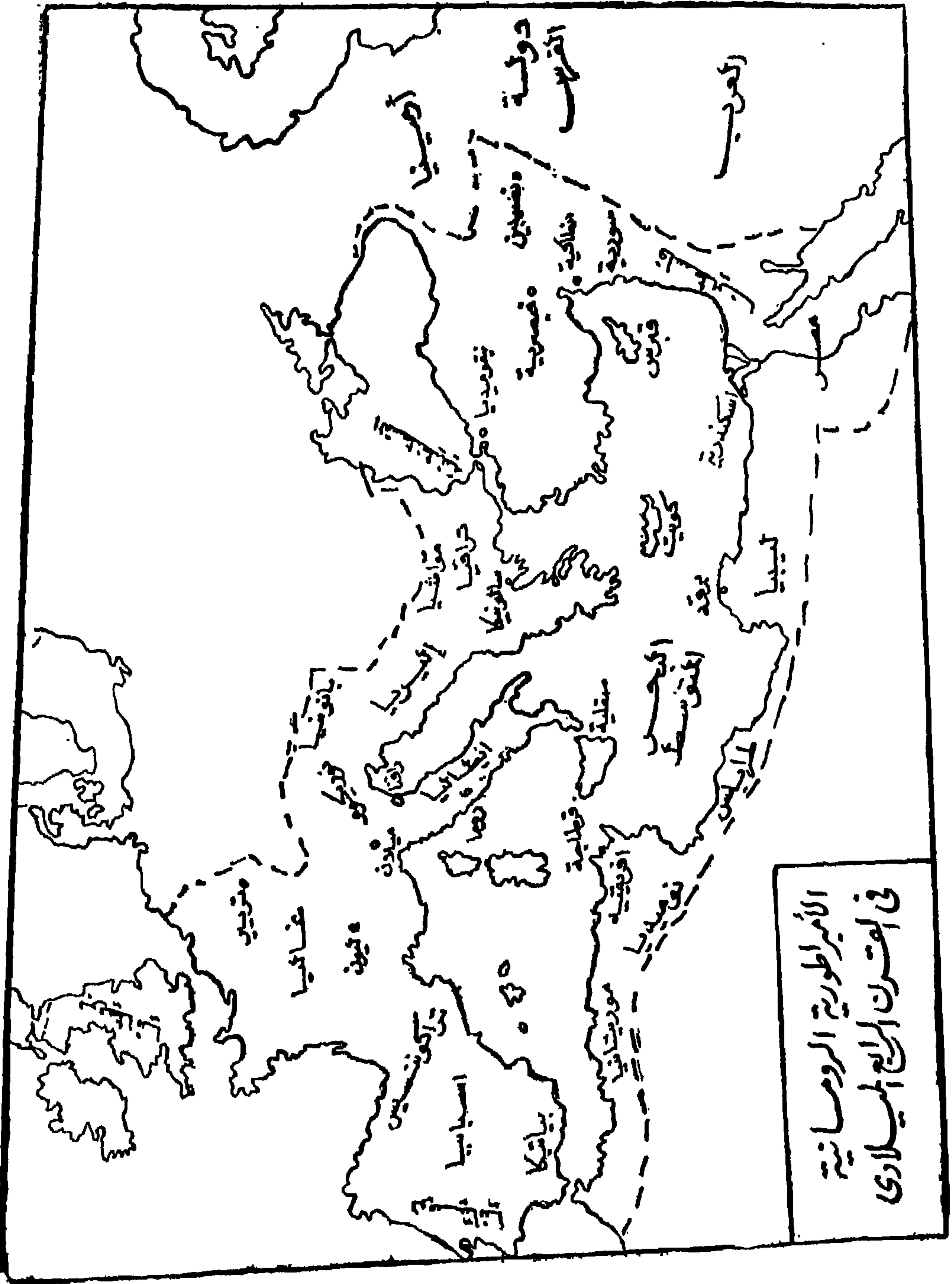
وكانت الامبراطورية الرومانية فى أزهى عصورها - وهى الفترة الواقعة بين
قيام أوغسطس سنة ٢٧ ق.م . ووفاة ماركوس أورليوس ١٨٠ م - تمثل بناء
اجتماعيا سليما مترابط البنيان . ذلك أنها كانت فى نظر الطبقات العليا تعبر عن

(1) Chapot : Le Monde Romain, pp. 68-71.

(2) Thompson : The Middle Ages, Vol. 1. p. 4.

(3) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol.
2. p. 286.

(4) Chapot : Le Monde Romain, p. 103-105.



الأميراطورية الرومانية
في أعترن الأربع لميلادي

نظام إدارى امتاز بالكفاية والدقة ، فى حين اعتقدت الطبقات الدنيا أن الحكومة الرومانية تقوم بحماية الممتلكات والأرواح فى ظل قانون عادل دون أن تحاول التدخل فى حياة الناس اليومية أو تعمل على تغيير لغاتهم أو معتقداتهم أو نظمهم الاجتماعية (١) .

أما عن طابع الحكومة الرومانية فى أوائل عصر الامبراطورية - أى حتى الإصلاحات العظيمة التى أدخلها دقلديانوس فى أواخر القرن الثالث - فيلاحظ أن هذه الحكومة كانت ملكية مع احتفاظها بكثير من مظاهر العصر الجمهورى السابق (٢) ، أو ربما كن من الأدق القول بأنها ظلت جمهورية مع ظهور رأس للدولة وللجيش الرومانى يتمتع بمنصبه طوال حياته . وهكذا ظل السناتو يباشر سلطاته الواسعة ، واستمرت المناصب العليا فى الدولة بأيدى الأرستقراطية من كبار ملاك الأراضى ، كما بقى المواطنون الرومان يمثلون طبقة ممتازة وإن فقدوا كثيرا من أهميتهم السياسية (٣) . ولذلك يبدو من الخطأ أن ننظر الى هذه الحكومة على أنها كانت عسكرية بحتة أو استبدادية مطلقة . حقيقة أنها لم تكن ملكية دستورية ، ولكنها امتازت - ولا سيما فى العصر الأول للامبراطورية - بسيادة العرف والتقاليد والقانون ، كما تمسكت بكثير من مظاهر العصر الجمهورى مما أكسب الحكومة الرومانية عندئذ مظهرا دستوريا واضحا (٤) .

والواقع أن النظام السياسى الذى وضعه أوغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م) يعتبر حلا وسطا بين النظامين الملكى الاستبدادى والجمهورى الدستورى (٥) . ذلك أنه كان أمام أوغسطس أن يختار بين نظامين للحكم ، الأول نظام قيصر الذى قام على أساس حكم عسكري اعترف فيه جميع الناس - سواء فى إيطاليا أو الولايات - بالطاعة العمياء لسيدهم الأعلى ، والثانى نظام الحكم الجمهورى

(1) Thompson : op. cit. pp. 4—5.

(2) Cam. Ancient Hist. Vol. 10 : p. 160.

(3) Stephenson : Mediaeval History, p. 6.

(4) Lot : The End of the Ancient World, pp. 6—7.

(5) Cam. Ancient Hist, Vol. 10. p. 158—168.

الذى يقر أهمية المواطنين الرومان فى إيطاليا والولايات الى جانب الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة فى الدولة • وهنا لجأ أوغسطس الى التوفيق بين النظامين ، أى بين الزعامه العسكرية التى ورثها عن أسلافه والتى أضحت ضرورية للمحافظة على سلامة الامبراطورية وأمنها وصالحها العام ، وبين رغبة المواطنين الرومان فى الاحتفاظ بمكانتهم الممتازة - على الأقل فى الميدانين الاجتماعى والاقتصادى ، ان لم يكن فى الميدان السياسى (١) • وهكذا نبذ أوغسطس حكم تيسر المطلق ولكنه ركز فى يد الامبراطور معظم السلطات التى اعتاد أن يباشرها كبار الموظفين فى العصر الجمهورى ، وبخاصة القيادة الحربية التى انتقلت من أيدي القناصل الى يد الامبراطور • واذا كان السناتو قد ظل محتفظا بهيئته ومكانته القديمة فى ظل النظام الجديد ، الا أن سلطاته التشريعية والقضائية والادارية تناقصت بصورة واضحة (٢) ، كما أصبح يتألف من أعضاء يختارهم الامبراطور من مختلف أنحاء الامبراطورية على الاطلاق ، بعد أن كان فى العصر الجمهورى يمثل أقلية ممتازة محدودة ، مما جعل الطبقة السناتورى Senatorial Class تعتمد على أوغسطس اعتمادا تاما (٣) •

وقد عاب بعض المؤرخين على الامبراطورية الرومانية فى أوائل عهدها افتقارها الى وجود قانون وراثى ثابت ينظم وظيفة الامبراطور • ونحن لا ننكر مدى خطورة هذه الثغرة فى النظم الرومانية عندئذ ، ولكننا يجب أن نعترف بأن علاجها لم يكن أمرا يسيرا بالدرجة التى قد نتصورها • ذلك أن ثمة حقيقة كبرى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، هى أن الامبراطورية الرومانية فى عصرها الأول لم تكن مجرد امبراطورية فى قالب جمهورى فحسب ، بل كانت استمرارا للنظام الجمهورى السابق وامتدادا له ، مما تعذر معه وضع قانون وراثى ثابت للحكم دون

(1) Rostovtzeff : A Hist. of the Ancient World, Vol. 2. pp. 175—176.

(2) Cam Ancient Hist. Vol. 10 pp. 161—165.

(3) Rostovtzeff : op. cit. p. 191.

التخلص من هذا القناع الجمهورى الذى استترت خلفه الامبراطورية الجديدة (١) • وعلى هذا فقد كان من الصواب - بل من الضرورى من الناحية السياسية - أن تحتفظ الامبراطورية الرومانية بهذا المظهر الجمهورى فى عصرها الأول عندما كان أنصار التقاليد والمبادئ الجمهورية القديمة مازالو يمثلون أغلبية ذات نفوذ قوى فى السنااتو •

على أن ضعف الامبراطورية الرومانية أخذ يبدو واضحا فى القرن الثالث، عندما انعدم النظام وتحكمت القوات العسكرية فى عزل الأباطرة واقامة غيرهم بعد أن كان الجيش خادما مخلصا للامبراطور (٢) • ولم تلبث الفرق الامبراطورية فى مختلف الولايات أن أخذت تتحكم فى اختيار قادتها وفق مشيئتها لا وفق رغبة الامبراطور والسنااتو، مما جعل الأباطرة وأعضاء السنااتو ألعبوة فى أيدي رجال الجيش (٣) • ولكن لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن جميع السنااتو فى القرن الثالث كانوا غير أكفاء فقد أظهر أول الأباطرة العسكريين فى ذلك القرن وهو سبتيوس سيفروس (١٩٣ - ٢١١) مقدرة كبيرة، على الرغم من نزعته الاستبدادية، حتى أن عهده يعتبر مرحلة تحول فى تاريخ الامبراطورية والنظم الرومانية جميعا • وقد استطاع هذا الامبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر ظلت فى الحكم حتى سنة ٢٣٥، واشتهر من أباطرتها كاراكلا (٢١١ - ٢١٧) بسبب القانون الذى منح به الجنسية الرومانية لجميع أهالى الامبراطورية من الأحرار (٤) • ومهما يكن من أمر، فإن الفضل يرجع الى الامبراطور سبتيوس سيفروس فى تأجيل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية • ويتضح نفوذ الجيش الرومانى فى ذلك الوقت ونظرة الأباطرة الى رجال الجيش فى النصيحة التى قدمها هذا الامبراطور

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 8.

(2) Cary : op. cit. pp. 721—723.

(3) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 303.

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 33.

الى أبنائه وهو على فراش الموت ، اذ قال « أجزلوا العطاء للبحند ، ولا تهتموا بالآخرين (١) » .

وبتولى الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ - ٢٥١) منصب الامبراطورية ، بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهوري ، حتى جعلوا من الجمهورية نظاما استبداديا يعتمد على الجيش في تنفيذ مشيئة الامبراطور والضغط على أهالى الامبراطور^(٢) . وهكذا أمست الحاجة ملحة في الداخل الى اصلاح النظم الادارية الخاصة بالولايات فضلا عن نظم الضرائب والعملة . أما فى الخارج فقد أخذ يتزايد ضغط الجرمان وبخاصة على جبهتى الراين والدانوب ، فى الوقت الذى ازداد الخطر الفارسى على الولايات الآسيوية (٣) .

وفى وسط الفوضى الشاملة والحروب الأهلية التى عمت الامبراطورية عقب انتهاء حكم أسرة سفروس سنة ٢٣٥ ، ظهر جندى دلماشى من أصل متواضع - هو الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) - ليتدارك الموقف ويعالج مشاكل الامبراطورية فى عزم واصرار ، فأحدث ثورة ضخمة فى نظم الحكم الرومانية مما جعل عهده من أهم عصور تاريخ الامبراطورية . ذلك أن جميع المتاعب الداخلية والخارجية التى واجهت الامبراطورية فى أواخر أيامها كانت قد أخذت تتبلور لتظهر عندئذ فى صورة خطيرة واضحة . وفى الداخل تفاقم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ، وفى الخارج اشتد خطر الجرمان والفرس وضغطهم على حدود الامبراطورية (٤) . وبمارة أخرى فان العوامل التى أدت الى اضمحلال الامبراطورية الرومانية ثم سقوطها ظهرت واضحة فى أواخر القرن الثالث (٤) .

(١) Lot : op. cit. p. 10.

(٢) Ibid.

(٣) Cary : op. cit. pp. 723—726.

(٤) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 12.

ويحسن بنا قبل أن نعالج اصلاحات دقلديانوس ، أن نبدأ أولاً باستعراض المشاكل الأساسية الهامة التي شكت منها الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث • وكانت أولى هذه المشاكل هي كيفية احتفاظ الامبراطورية الرومانية بوحدةها سليمة كاملة ، بعد أن اتجهت بعض الولايات - في الشرق والغرب - نحو الانفصال عن جسم الامبراطورية ، وقامت فيها فعلاً - وذلك منذ وقت مبكر يرجع الى سنة ٢٠٠ - حركات ثورية انفصالية (١) • ومن الخطأ وسوء المبالغة أن ننسب هذه الحركات الى مطامع بعض الأفراد الطموحين وتتجاهل روح الاستياء والغضب التي عمت أهالي الولايات ، والتي كانت العامل الأساسي في تشجيع هؤلاء الطموحين على الظهور • فاذا دققنا النظر في معظم الثورات التي نشبت في مختلف ولايات الامبراطورية منذ القرن الثالث ، وجدنا من ورائها جميعاً عوامل مشتركة - اقتصادية واجتماعية وعنصرية - حركتها وساعدت على سرعة اشتعالها • وهنا نشير الى أنه ليس من الصواب الأخذ بالرأي القائل بأن ازدياد تركيز السلطة الحكومية في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية هو سبب اضمحلال هذه الامبراطورية لأنه أدى الى كبت الروح العنصرية في الولايات • فالواقع أن الحكومة الرومانية اضطرت الى اتباع سياسة التركيز هذه في أواخر عصر الامبراطورية نتيجة للفساد الذي عم الولايات فعلاً ، ولا سيما بعد أن أصبح حكام الولايات على قسط غير كاف من المقدرة مما أفقدهم ثقة الحكومة ، في الوقت الذي أصاب مجالس الولايات الانحلال والوهن (٢) • لذلك لجأت الحكومة المركزية الى التدخل لمحاولة اصلاح الأوضاع الادارية في الولايات ، وكان العلاج المألوف عندئذ هو تصغير مساحة الولاية عن طريق تقسيمها أو تفتيتها ، فضلاً عن الفصل بين السلطتين المدنية العسكرية في الولاية (٣) وهكذا أخذ عدد الولايات الرومانية في تزايد مستمر نتيجة لهذه السياسة حتى قفز هذا العدد من ست وأربعين ولاية سنة ٤١ الى مائة وتسعة عشر ولاية سنة ٣٢٧ • ولم يكن الانحلال

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 24—25.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 25—26.

(3) Chapot : op. cit. p. 127.

فى الحكومات البلدية الخاصة بالمدن ذات الإدارات المستقلة عن إدارة الولاية - أقل وضوحاً منه فى حكومات الولايات ، فكثير من المدن أسرفت فى إقامة المنشآت العامة وزخرفتها كالحمامات والمسارح والملاعب ، الأمر الذى تطلب زيادة أعباء الضرائب المحلية (١) وقد دفع ذلك بعض الأباطرة الى تعيين مراجعين ومحاسبين لفحص دفاتر بلديات المدن ، كما دفعهم أحياناً الى حرمان بعض البلديات من حرياتها واستقلالها الذاتى وجعلها تابعة لحكومة الولاية (٢) .

أما الناحية الاقتصادية فقد ساءت فى الامبراطورية نتيجة لكثرة الحروب الأهلية التى مزقت وحدة الدولة وجعلت طسرق التجارة غير مأمونة فى البر والبحر (٣) وزاد الطين بلة ثقل عبء الضرائب فى القرن الثالث ، سواء تلك التى فرضتها الحكومة المركزية أو التى جمعتها السلطات المحلية . وذلك أن الامبراطورية أصبحت مقسمة الى دوائر جمركية عديدة ، فى حين فرضت الضرائب على جميع السلع التجارية بنسبة تتراوح ٢٪ ، ١٢٪ ، هذا فضلاً عما فرضته المدن من ضرائب صغيرة على المأكولات - كالخضر والفواكه والطيور واللحوم - التى ترد إليها من الأقاليم المجاورة (٤) . وكان من المتبع أحياناً أن تكون هذه الضرائب عينية ، أى تؤخذ من نوع البضاعة أو الصنف ، بعكس الحال فى الضريبة الذهبية 'إفضية' Chrysargyrum ، وهى الضريبة الرئيسية فى الإنتاج الصناعى والتى سميت بهذا الأسم لأنها كانت تدفع نقداً (٥) .

ومهما يكن من أمر ، فإن العبء الأكبر للضرائب وقع على الأراضى والمزارعين . وإذا كان العالم الرومانى قد اشتهر بالملكيات الزراعية الكبيرة ، فإن المفروض هو أن تقوم طبقة كبار الملاك بتحمل الجزء الأكبر من أعباء الضرائب . ولكن الواقع العملى لم يطابق هذا الفرض النظرى ، اذ تحرر كبار

(١) Dill : Roman Society from Nero to Marcus Aurelius pp. 245—250.

(٢) Chapot : op. cit. pp. 113—125.

(٣) Rostovtzeff : op. cit. p. 317.

(٤) Charlesworth : The Roman Empire, pp. 70—81.

(٥) Lot : The End of the Ancient World, p. 121.

الملاك من هذا العبء الباهظ وألقوا به على كواهل المستأجرين ، عن طريق رفع قيمة الايجار أو عن طريق ائفالهم بالالتزامات والخدمات التي يتعين عليهم أدائها للمالك (١) . أما المزارع الصغير فكان يلجأ الى رهن أرضه عندما يعجز عن الوفاء بما عليه من ضرائب ، وعندئذ يستولى كبار الملاك المجاورين على الأرض ويصبح المزارع المحرقا ، أو يترك مزرعته لينزح الى احدى المدن وينضم الى جموع الدهماء التي أخذت تتكاثر في المدن الرومانية (٢) . وبالإضافة الى ذلك وجدت في الامبراطورية الرومانية ضريبة اجبارية يؤديها أهل الولاية نفدا أو سخرة لصيانة الطرق والجسور والقنوات وغيرها من المرافق العامة . هذا عدا الضرائب المستحقة على جميع الأحرار ، والتي اقتصرت في أول الأمر على المواطنين الرومان الذين تمتعوا بالجنسية الرومانية حتى منح كاراكلا هذه الجنسية سنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية الأحرار للحصول على ايراد أوفر وأعم ، وان كان هذا الاجراء قد ترتبت عليه نتائج خطيرة بالنسبة للامبراطورية ونظمها (٣) .

وهكذا نلاحظ ازديادا مطردا في الضرائب المباشرة وغير المباشرة داخل الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث . ذلك أن الأمر لم يقتصر على تضاعف عدد الضرائب المفروضة ، بل صاحب ذلك ارتفاع نسبة الضريبة الواحدة ارتفاعا مستمرا (٤) . وقد أثر هذا الوضع تأثيرا خطيرا في بناء المجتمع الروماني الذي احتل توازنه نتيجة لأن الأغنياء - وهم الطبقة الارستقراطية المؤلفة من كبار ملاك الأراضي - ازدادوا غنى ، في الوقت الذي ازداد الفقراء فقرا . أما الطبقة الوسطى في المدن والأرياف فقد أخذت تتناقص وسارت في طريق الاضدلال السريع نتيجة لتحويل أفرادها الى فئة من الأتباع والعبيد

(1) Rostovtzeff ; op. cit., pp. 313—315.

(2) Katz : The Decline of Rome, p. 37.

(3) Rostovtzeff ; op. cit., Vol. 2 p. 317.

ويلاحظ أن الهدف الأساسي الذي توخاه كاراكلا من منح الجنسية الرومانية لجميع أهالي الولايات الأحرار ما زال موضع نقاش وجدل بين المؤرخين

(4) Chapot ; op. cit. pp. 106 — 111.

(م - ٣ - أوروبا)

فى ميدان الزراعة والصناعة • كذلك أدى هذا الوضع الى تدهور الانتاج وانخفاض قيمة العملة التى لم يتردد بعض الأباطرة فى تزيفها والاكثار من سكها • ذلك أن الأباطرة عندما وجدوا أنفسهم لا يملكون المعادن الكافية لسك العملة ، لجئوا الى خلط الذهب بالفضة ، والفضة بالنحاس ، والنحاس بالرصاص ، وبذلك انحطت قيمة العملة وأفلس من التجار من كان ثريا بسبب التلاعب فى النقد(١) • هذا الى أن تزيف العملة أدى الى اختفاء النقود الجيدة من السوق ، وقصر التداول على النقود الرديئة - وفقا لقانون جريشام الحديث - الأمر الذى أدى الى ارتفاع الأسعار ارتفاعا جنونيا(٢) • وفى ضوء هذه الاعتبارات جميعا يمكن تفسير الثورات العديدة التى انتشرت فى مختلف ولايات الامبرطورية فى القرن الثالث ، عندما أخذ المزارعون والفلاحون يهجرون مزارعهم ويهاجمون المدن المجاورة لتهبها ، كما اتسع نطاق أعمال السلب والقرصنة حتى عم الفساد البر والبحر(٣) •

وبالإضافة الى هذه المفاصد والمشاكل الداخلية ، تعرضت الامبرطورية الرومانية لأخطار خارجية جسيمة نتيجة لهجمات أعدائها على حدودها وتوغلهم داخل هذه الحدود فى القرن الثالث • فالفرنجة أغاروا على أراضي الراين الأدنى سنة ٢٣٥ ثم سنة ٢٥٦ (٤) ، والقوط الذين اجتاحتهم اقليم داشيا غزوا مواشيا سنة ٢٥١ ولم يكن طردهم من هذا الاقليم الا بعد أن انتصر عليهم كلوديوس سنة ٢٩٨(٥) • وفى سنة ٢٧٠ اندفع الألمانى خلال ممرات الألپ مهددين شمال ايطاليا • وفى عهد الامبراطور فالريان (٢٥٣ - ٢٦٠) دأب البدو الرحل والبربر الضاربون على الحدود الصحراوية لولاية أفريقية الرومانية على مهاجمة هذه الولاية مرة بعد أخرى لنهب مدنها ومزارعها •

-
- (1) Rostovtzeff ; op. cit. Vol, 2, p. 317.
 - (2) Stephenson : Med. Hist. p. 38.
 - (3) Katz ; op. cit. pp. 36—37.
 - (4) Cary : op. cit. p. 723
 - (5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 204—206

هذا في الوقت الذي تطرقت جموع البرابرة المعروفين باسم اللان الى آسيا الصغرى من جهة الشمال الشرقي عبر القوقاز (١) .
وزاد من هذه الأخطار الخارجية التي هددت الامبراطورية الرومانية موقف دولة الفرس الساسانية التي أخذت منذ سنة ٢٣٣ تهدد أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدا خطيرا مستمرا ، حتى تمكن الفرس من انزال الهزيمة بالامبراطور فالريان وأسرء سنة ٢٥٩ (٢) . واذا كان بعض الأباطرة الرومان قد نجحوا بعد ذلك في احراز شيء من الانتصارات الجزئية على الفرس ، الا أن هذه الانتصارات ليس معناها وقف الخطر الفارسي أو حتى الاقلال منه (٣) .

٢٠ الامبراطور دقلديانوس :

وهكذا بدت الامبراطورية الرومانية على شفاهاوية عندما اعتلى الاسبراطور دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ ليقوم بأعظم عملية ترميم في بناء الامبراطورية المتداعى . ويبدء أنه لس من الواقع في شيء أن نعتبر دقلديانوس أول الأباطرة المصلحين الذين عملوا على انقاذ الامبراطورية في القرن الثالث ، اذ وجد من الأباطرة الذين تعاقبوا على عرش الامبراطورية بين سنتي ٢٥٣ ، ٢٨٢ جماعة أحسوا بخطورة الموقف ورغبوا في الاصلاح ، ونخص بالذكر الامبراطور أورليان Aurelien (٢٧٠ - ٢٧٥) الذي أطلقت عليه الوثائق المعاصرة لقب « مجدد الامبراطورية »
ولكن المشكلة كانت أشد تعقيدا من أن تحل في سهولة ، فاكفى هؤلاء الأباطرة المصلحون ببعض الاصلاحات الجزئية التي تناولت الضرائب والعملية الزراعية كما سمحوا لبضعة آلاف من العناصر الجرمانية المرابطة على حدود الدولة باجتياز هذه الحدود والاقامة داخلها ، وذلك لتوفير الأيدي العاملة اللازمة

(1) Thompson ; op. cit. Vol. 1 p. 16

(2) Cary; op. cit. p. 724.

(3) Moss; The Birth of the Middle Ages, pp. 6—7.

(4) Vasiliev: Hist, de l'Empire Byzantin; Tome 1;
p. 77.

للزراعة من جهة ولا لقاء شر هذه العناصر وخطرهما من جهة الأخرى (١) •

ولكن أحدا من أباطرة القرن الثالث لم يستطع أن يقوم بما قام به دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) من اصلاح شامل بعيد الأثر في مختلف مرافق الامبراطورية • وهنا نجد دقلديانوس يوجه جهوده نحو ثلاثة أهداف كبرى ، هى تقوية نفوذ الحاكم أو الامبراطور ، واعادة تنظيم الجهاز الحكومى ، وتجديد نظام الجيش (٢) ولتحقيق هذه الأهداف بدأ هذا الامبراطور باقرار الأمن والنظام فى مختلف الولايات الامبراطورية ، فأخضع الثورات المتأججة فى غاليا ومصر وولاية أفريقية وبريطانيا ، كما صد البرابرة على امتداد جبهتى الراين والدانوب • ولم يكد دقلديانوس يفرغ من ذلك حتى هاجم الفرس سنة ٢٩٧ واسترد منهم بلاد ما بين النهرين ، وبذلك امتدت الحدود الرومانية شرقا مرة أخرى حتى نهر دجلة ، كما عادت رقعة الامبراطورية من جديد الى ما كانت عليه سنة ١١٧ باستثناء إقليم أو اقليمين (٣) وقد فكر دقلديانوس فى حماية العالم الرومانى من الأخطار الجسيمة التى كانت تهدده ، وذلك بإنشاء قوة حربية متقلة - أى غير مرتبطة بجهة واحدة - لتتحرك فى أى وقت الى أية جهة حسب الظروف ووفق مشيئة الامبراطور (٤) •

على أن الخدعة الحقيقية التى أداها دقلديانوس للامبراطورية والتى تركت أثرا بالغا فى أحوالها ، لم تكن فى ميدان الحرب بقدر ما كانت فى مبدان الإصلاح الإدارى • ذلك أنه أعاد تنظيم الجهاز الإدارى فى صورة حرمت ايطاليا مما كان ليا فى العصور القديمة من مكانة ممتازة ، كما قضت على التفرقة بين الولايات الامبراطورية وولايات السناو (٥) • وقد أدرك دقلديانوس بثاقب بصره أن المركز الحقيقى لقوة العالم الرومانى لم يعد فى الغرب وانما أصبح فى الشرق ، حيث امتازت الولايات بوفرة الخيرات وكثرة السكان ومهارة

(1) Bloch : L'Empire Romain, pp. 188—194

(2) Rostovtzeff ; op. cit. Vol. 2, p. 320

(3) Thompson : op. cit Vol. 1 p. 17

(4) Stephenson ; Med. Hist. p. 38

(5) Ostrogorsky ; Hist. of the Byzantine State, p. 32

الأيدي العاملة في الزراعة والصناعة والتجارة • لذلك مهد دقلديانوس لما فعله
الأمبراطور قسطنطين فيما بعد (١) فاتخذ عاصمة جديدة للامبراطورية في
الشرق ، هي مدينة نيقوميديا في الشمال الغربي من آسيا الصغرى على بحر
مرمرة (٢) • هذا فضلا عما تطلبته الاعتبارات العسكرية من نقل عاصمة إيطاليا
من روما الى ميلان ، وهي المدينة التي تتحكم في معظم ممرات جبال الالب
مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الامبراطورية منها الى غاليا أو ألمانيا
لصد هجوم أو اخماد أية فتنة (٣) •

وقد صحب تغيير عاصمة العالم الروماني اعادة تنظيم الجهاز الاداري تنظيما
جوهريا شاملا • ذلك أن دقلديانوس أدرك ضرورة ايجاد علاج للخطر الناجم
عن تضاعف عدد الولايات ، وما ترتب على هذه الظاهرة من فيادات انفصالية •
لهذا فكر في ربط الولايات الرومانية بعضها ببعض ، فقسم الامبراطورية الى
أربعة أقاليم أو أقسام ادارية كبرى ، على رأس كل قسم منها حاكم اداري
عام يتمتع اما بلقب « أوغسطس » أو بلقب « قيصر » ، ويعتبر من الناحية
العملية شريكا للامبراطور في حكم الامبراطورية (٤) • أما هذه الأقسام
الادارية الأربعة الكبرى فكانت غاليا (وتشمل بريطانيا وغاليا وأسبانيا والجزء
المعروف حاليا باسم مراكش) ، وإيطاليا (وتشمل الأراضي الواقعة بين
الدانوب والبحر الأدرياتي فضلا عن إيطاليا والبلاد المعروفة حاليا بأسماء
الجزائر وتونس وطرابلس) ، وإيريا (وتشمل داشيا ومقدونيا وبيسلاد
اليونان) ، ثم أخيرا اقليم الشرق ويشمل بقية الامبراطورية أي تراقيا
وآسيا الصغرى والشام ومصر (٥) • وقد احتفظ دقلديانوس لنفسه بالقسم
الأخير ومركزه نيقوميديا ، هذا فضلا عن احتفاظه بلقب الامبراطورية
ووظيفتها •

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1 p. 24

(2) Cary : op. cit., p. 195

(3) Bloch : op. cit. p. 195.

(4) Idem, pp. 194—195

(5) Painter; A Hist. of the Middle Ages, pp. 5—6.

وهكذا أصبحت الامبراطورية من الناحية النظرية مقسمة الى أربعة أقسام كبرى يحكمها أربعة حكام ، اثنان منهم أعلى مقاما ويحملان لقب «أوغسطس» والاثنان الباقيان أقل درجة ويحملان لقب « قيصر » ويخلفان الأولين ، في حالة الوفاة أو العجز (١) . أما الامبراطور نفسه فلم يعد أن يكون أحد الحاكمين الأولين ، ولكن كانت بيده السلطة العليا في الامبراطورية والاشراف العام على جميع شئونها كما كان القائد الأعلى للجيش (٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كانت السلطة الادارية في الامبراطورية قد قسمت أو وزعت ، الا أن الامبراطورية نفسها ظلت وحدة قائمة لا تتجزأ ، بحيث أن كل أوغسطس كان له حق المرور في اراضي القيصر التابع له . كذلك يلاحظ أنه اذا كانت السلطة العليا في النواحي التشريعية والادارية قد أصبحت نظريا في أيدي الأوغسطين ، الا أن دقلديانوس ظل من الناحية العملية يقبض على زمام الأمور في الامبراطورية (٣) . وبعبارة أخرى فإنه ليس معنى تقسيم السلطة أن الامبراطورية نفسها انقسمت ، اذ ظلت هذه الامبراطورية تمثل وحدة على عهد دقلديانوس (٤) . ثم كان أن قسم دقلديانوس هذه الأقسام الأربعة الكبرى الى سبعة عشر وحدة أصغر Dioceses كل وحدة منها يرأسها نائب Vicarus عن الحاكم العام ، وتشمل عددا من الولايات . أما هذه الولايات فقد أصبح عددها مائة ولاية وولاية ، لكل منها ثلاث ادارات هامة تشرف احداها على العدالة والثانية على المالية والثالثة على الأملاك الخاصة بالباطرة (٥) . وهكذا أصبح حكام الولايات مسئولين أمام نواب الحاكم العام ، والنواب مسئولين أمام الحاكم العام للاقليم ، وهؤلاء الحكام مسئولين أمام دقلديانوس الذي كان يتمتع بسلطة تامة في تعيينهم أو عزلهم . وعن هذا الطريق أراد دقلديانوس أن يجعل الاجراءات الادارية تتم بصورة أسرع وأدق ، وفي الوقت نفسه يقضى على عوامل الانفصال والفساد المحلية التي

(1) Vasiliev, op. cit. Tome 1, p. 78

(2) Rostovtzeff . op. cit. Vol. 2; pp. 321-323.

(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 14

(4) Vasiliev, op. cit. Tome, 1, p. 78

(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol 2, 325

طائفا سبيت متاعب جسيمة للامبراطورية فى القرن الثالث • وهكذا رفض دقلديانوس التعلق بأذيال النظم الجمهورية اسطحيه التى لم يبق منها سوى أوهام خيالية ، فتخلص من مظاهر الحكم الجمهورى بحيث بدت الامبراطورية فى عهده - كما كانت فعلا فى باطنها - ملكية استبدادية مطلقة • وهذا يحاول بعض الكتاب تفسير هذه الاتجاهات فى ضوء النفوذ الشرقى • بحيث لم يقتصر أثر هذا النفوذ على تنظيمات دقلديانوس فحسب ، بل امتد أيضا الى اعلاء كلمة الامبراطور وتمتعه بسلطة مطلقة أشبه بسلطة الأكاسرة (١) •

أما نظام الجيش فقد أقامه دقلديانوس على أساس الاعتماد على الجند الذين يرجع أصلهم الى أكثر شعوب الامبراطورية تخلفا فى الميدان الحضارى ، وبخاصة الجرمان • فبقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة ، بقدر مسا ازدادت أهميته ومكانته ، وهكذا اعتمد دقلديانوس على الفرق المؤلفة من البرابرة المرتزقة فى حماية الامبراطورية ، وجعل مراكزهم قرب عواصم كبار الحكام الأربعة حتى يكونوا على أهبة السير الى الحدود فى أى وقت يطلب منهم ذلك (٢) • وليس هناك شك فى أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس ، كما أصبح الطريق مفتوحا أمام الجندى ليرتقى ويصبح ضابطا ثم يتدرج فى مختلف درجات القيادة حتى يصل الى مرتبة القائد الأعلى للجيش • وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات فى هذه الحالة هو أن يكون شجاعا خيرا بفضه مخلصا للامبراطور (٣) •

ثم أتبع دقلديانوس هذه التنظيمات الادارية والحربية باصلاح النظم المالية والضرائب فقام بعملية واسعة تستهدف حصر الأراضى الزراعية فى الامبراطورية وتحديداتها لتقرير الضرائب فى صورة عادلة • واذا كان دقلديانوس لم ينجح فى علاج الأزمة الاقتصادية علاجا ناجحا ، الا أنه نجح فى حماية الفقراء من جشع المستغلين والمنجرين فى أقوات الأهالى (٤) • وكان العلاج الذى لجأ اليه

(1) Katz; op. cit. p. 44.

(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 323.

(3) Idem, p. 324.

(4) Chapot : op. cit. p. 111

دقلديانوس هو سلك عملة صحيحة سليمة حازت ثقة التجار والمتعاملين من جهة ، ثم تحديد كميات البضائع المتداولة والتي تعرض للبيع من جهة أخرى . هذا فضلا عن تسعير الحاجيات الأساسية والأجور من جهة ثالثة (١) على أن هذه المقاييس لم تفلح في علاج ما كان يعانيه أهالي الامبراطورية من ضغط وفاقه بسبب كثرة الضرائب التي وقع الجزء الأكبر من عبئها على الطبقات الدنيا في حين تمتعت الطبقات العليا بكثير من الاعفاءات المالية (٢) . وهكذا يمكن القول بأن كل ما فعله دقلديانوس لاصلاح الحالة المالية هو أنه بسط جهاز الضرائب وحاول منع وفوق أزمة مالية ، ولكنه لم يستطع بأي حال اعادة الأوضاع المالية في الدولة الى حالتها الطبيعية نتيجة لتدهور مستوى المعيشة (٣) . هذا الى أن اصلاحات دقلديانوس المختلفة وما تطلبت هذه الاصلاحات من نفقات طائلة ، ألقت حملا ثقيلا على الأهالي في وقت كانت مالية الامبراطورية تعاني اجهادا شديدا منذ أوائل القرن الثالث ، مما زاد الحال سوءا .

الامبراطور قنسطنطين :

ثم كان أن ننحى دقلديانوس عن عرش الامبراطورية سنة ٣٠٥ بعد أن بلغ الستين من عمره . واستبد به المرض . وأحس أن الوقت قد حان ليتخلى عن الحكم لغيره بعد أن أدى واجبه في انقاذ الامبراطورية وتدعيمها (٤) . وقد أعقب نزول دقلديانوس عن منصب الامبراطورية قيام حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة ، وبرزت خلالها شخصية قنسطنطين الذي استطاع أن يتغلب على خصومه ومنافسيه واحدا بعد آخر حتى تم توحيد الامبراطورية الرومانية مرة أخرى سنة ٣٢٣ ، وعندئذ أخذ هذا الامبراطور على عاتقه مهمة اتمام الاصلاحات التي بدأها دقلديانوس (٥) .

(1) Lot : op. cit, pp. 18—19

(2) Stephenson ; Med. Hist. pp. 38—39

(3) Rostovtzeff ; op. cit, Vol. 2, p. 327

(4) Lot: op. cit. pp. 22—23

(5) Vasiliev: op. cit, Tome 1, p. 80.

والواقع ان الامبراطور قنسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) يتمتع بأهمية خاصة فى التاريخ نظرا للأعمال الهامة التى قام بها ، والتى كان لها أثر واضح فى تغيير وجه التاريخ ، وتحقيق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى (١) . ذلك أن هذا الامبراطور قام بخطوتين على جانب كبير من الأهمية : الأولى اعترافه رسميا بالديانة المسيحية ، والثانية نقله عاصمة الامبراطورية من روما القديمة على ضفاف التير فى ايطاليا الى روما جديدة شيدها على ضفاف البسفور (٢) . وسوف نرجىء الكلام عن الجانب الدينى من أعمال قنسطنطين الى الباب الآتى مكثفين فى هذا الباب بالإشارة الى الركن الدنيوى من أعماله .

يجب أن قنسطنطين اقتفى فى اصلاحاته الادارية أثر السياسة التى نلديانوس ، فقام باتمام الأعمال التى بدأها هذا الامبراطور ، حتى أننا نجد من الصعب فى كثير من الأحيان الفصل بين الامبراطورين . وهنا نلاحظ أن الاصلاحات الادارية التى انوس وقنسطنطين فمت على أساس التفرقة بين السلطتين الحربية وظهرت هذه التفرقة واضحة فى حكم الولايات ، اذا اصبح مسئولا عن شئونها الادارية المدنية فحسب ، فى حين اختص بالاشراف على النواحي الحربية فى ولايه أو أكثر من ولايات . على أن أهم تغيير أدخله قنسطنطين كان ادخال مبدأ الحكم الوراثى ، فأصبح المنصب الامبراطورى وراثيا فى أسرته التى اعتمدت على تأييد الجيش من جهة وعلى الدعامة الدينية الجديدة من جهة أخرى (٦) . أما من الناحية العسكرية فقد اتجهت تنظيمات قنسطنطين نحو انقاص عدد

(1) Bynes : Constantine the Great and the Christian Church ; p. 3.

(2) Vasiliev: op. cit. Vol. 1. p. 54.

(3) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1, p. 1.

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 80

(5) Ostrogosky: op. cit. p. 33.

(6) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 332.

أفراد الفرق العسكرية ، كما استمر في سياسة فتح الباب أمام الجسرمان
للاخراط في سلك الجيش الروماني كجند نظاميين •

وعلى الرغم من أن قسطنطين كان مشرعا نشيطا ، إلا أن كفايته الادارية
ما زالت موضع شك • ذلك أنه ضاعف من الضرائب والخدمات الجمركية ،
وأُنزل طبقة الصناع الى مرتبة العبودية عندما جعل الحرف والأعمال وراثية
حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب (١) • هذا في الوقت الذي شدد في
فرض العقوبات على جامعي الضرائب في المدن اذا عجزوا عن استيفاء الضرائب
التي قررتها الحكومة • أما بخصوص المزارعين فقد وضع تشريعا مشددا يمنع
أولئك الذين يغرقون في الديون - نتيجة لكثرة الضرائب وارتفاع الأسعار -
من ترك أراضيهم والانتقال الى ولايات أخرى ، عسى أن تكون الأحوال
الاقتصادية فيها أقل قسوة ، الأمر الذي عجل بالقضاء على طبقة المزارعين
الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة الى أقدان مربوطين بالأرض (٢) •

على أنه ليس هناك من شك في أن تأسيس القسطنطينية واتخاذها عاصمة
للامبراطورية الرومانية ، يدل على أن قسطنطين أوتي بصيرة سياسية حكيمة •
حقيقة أن الفضل في فكرة نقل عاصمة الامبراطورية الى الشرق لا يرجع الى
قسطنطين بقدر ما يرجع الى دقلديانوس ، الذي أقام في مدينة نيوميديا على
الشاطئ الشرقي لبحر مرمرة واختصها برعايته وأنشأ فيها كثيرا من المباني
الجميلة الرائعة (٣) • ولكن اصرار قسطنطين على نقل العاصمة رسميا يدل
على بعد نظره وعلى حقيقة تفهمه للأوضاع الجديدة التي أمست فيها
الامبراطورية الرومانية ، كما يدل على أنه امتلك من الشجاعة والعزيمة ما
مكنه من تنفيذ رأيه •

(1) Katz : op. cit. p. 50.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 27

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 72.

ومهما تكن الأسباب التي دفعت الامبراطور قسطنطين الى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة ، وسواء كان الدافع الأساسي اليها هو أن الامبراطور وجد أن سياسته الدينية واعترافه بالنسبانية لا يمكن أن تستقيم في روما حصن الوثنية ودرعها الحامي ، ففكر في نقل عاصمته الى الشرق حيث يزداد عدد المسيحيين ، أو كان الدافع غير ذلك من الاسباب الحربية أو السياسية أو الشخصية ، فالهم هو أن قسطنطين نفذ فكرته فعلا سنة ٣٣٠ فشيّد عاصمة جديدة محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف البسفور (١) . وتمثل المنطقة التي أقيمت عليها هذه العاصمة شبه جزيرة ، اذ تحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة ومن جهة الشرق مياه مضيق البسفور ، ومن الشمال مياه القرن الذهبي الذي هيأ مرفأ طبيعيا عظيما للمدينة الجديدة (٢) . ومن الواضح أن موقع هذه المدينة على درجة كبيرة من القوة والمناعة لأنها تسيطر على المضائق التي تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط من جهة ، كما انه يصعب مهاجمتها والاستيلاء عليها من جهة أخرى . هذا الى أن القسطنطينية كانت مركزا تجاريا ممتازا اذ أصبحت ملتقى الطرق التجارية العظيمة التي تربط البحر الأسود ببحر ايجه ، وشمال أوروبا وغربها بآسيا (٣) . ولم يدحر قسطنطين نفسه وسعا هي أن يجعل هذه المدينة الجديدة التي سميت باسمه روما ثانية ، فأقام بها قصرا امبراطوريا وسوقا ومحاكم ودارا للسنانو وحمامات وملعبا عظيميا . وسرعان ما أثبتت القسطنطينية أنها مصدر قوة وثروة لكل حكومة قامت بها منذ القرن الرابع حتى وقتنا الحالى (٤) .

والواقع أن أحدا لا يستطيع أن يقلل من خطورة هذه الخطوة التي اتخذها قسطنطين وأثرها في التاريخ ، لأن قيام القسطنطينية في القرن الرابع عمر وجه التاريخ الأوربي الألف سنة التالية . فلولا قيامها لما استطاعت البابوية الوصول الى ما وصلت اليه من مجد وعظمة في العصور الوسطى ، ولحرم

(1) Lot : op. cit. pp. 36—37.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 17.

(3) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental. p. 4

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 36.

شرق أوروبا من تلك القلعة المنيعه التي صمدت في وجه المسلمين وبالتالى حالت دون غزوهم شرق أوروبا (١) . هذا بالإضافة الى أن القسطنطينيه صارت حصنا للحضارة اليونانية وللدراسات والآداب الهلنسية ، ولولاها لأدت غزوات العناصر السلافية لشبه جزيرة البلقان فيما بعد الى اقتلاع جذور هذه الحضارة مما يستتبع تغيير وجه التطور الحضارى لأوروبا . .

الامبراطورية الرومانية بعد قسطنطين :

تم حدث بعد وفاة قسطنطين ٣٣٧ أن قسمت الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، حتى استطاع أحدهم - وهو قسطنطيوس - توحيدها مرة أخرى سنة ٣٥٠ تحت حكمه الذى استمر حتى سنة ٣٦١ (٢) . وعلى الرغم من ذلك فإن الامبراطورية الرومانية سرعان ما أخذت تتعرض للانحلال السريع فى النصف الأخير من القرن الرابع عندما اشتدت هجمات الأعداء على حدودها ، دون أن تفلح جهود الأباطرة الذين تولوا الحكم فى هذه الفترة مثل جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) وجوفيان (٣٦٣ - ٣٦٤) ، وفالتر (٣٦٤ - ٣٧٨) فى صد ذلك الخطر أو فى رفع نيار الانحلال . ذلك أن جوليان قتل أثناء الحرب مع الفرس سنة ٣٦٣ فى حين لجأ حليفه جوفيان الى شراء السلم من الفرس عن طريق التنازل لهم عن أراضى ما بين النهرين (٣) . أما فالتر فقد عاد مسرعاً من الجبهة الفارسية لمواجهة خطر القوط والنقى بهم فى موقعة أدرنسة (أديانوبل - أغسطس سنة ٣٧٨) حيث تمكن القوط الغربيون - بمساعدة اخوانهم الشرقيين - من محو الجيش الرومانى وقتل الامبراطور نفسه فى المعركة (٤) . ويعتبر مقتل هذا الامبراطور نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية ، إذ أخذت قبائل القوط الغربيين عندئذ داخل أراضى الامبراطورية تحت ضغط الهون الأيوين . هذا فى الوقت الذى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 18-19

(2) Vasiliev : op. cit. Tome, 1 p. 82.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 85.

(4) Ostrogorsky, op. cit. cit. p. 48

أخذت الكنيسة تظهر على درجة من القوة والثروة حتى أصبحت المسيحية ديانة الامبراطورية الرسمية على عهد الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥) • وبذلك أسمى مصير الامبراطورية الرومانية معلقا بين أيدي الجرمان من جهة ورجال الكنيسة من جهة أخرى •

وقد انتهى الأمر عند وفاة ثيودسيوس سنة ٣٩٥ بتقسيم الامبراطورية الرومانية الكبرى بين ولديه الى قسمين شرقي وغربي ، فكان القسم الشرقي من نصيب ابنه أركاديوس في حين صار القسم الغربي من نصيب ابنه هو هونوريوس (١) • ومن الواضح أن هذا التقسيم جاء طبيعيا ، لأن القسم الشرقي اليوناني يختلف اختلافا بينا في حضارته واتجاهه وميوله وعقليته عن القسم الغربي اللاتيني • على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا التقسيم أنه منح الامبراطورية قوة جديدة ، بل على العكس لا يمكن اعتباره الا مظهرا من مظاهر التفكك والانحلال الذي أصاب الامبراطورية الرومانية ، والذي حاول الأباطرة المصلحون مثل دقلديانوس وقسطنطين تداركه ، ولكن عواميل الانحلال كانت أقوى من جهودهم التي لم تؤد الا الى تأجيل الكارثة التي حلت بالامبراطورية فيما بعد (٢) •

ذلك أن عوامل الانحلال اشتد خطرهما في النصف الأخير من القرن الرابع عندما ازداد الفساد الاداري وتضاعف عبء الضرائب وتفاقم الخلل الاجتماعي ، بعد أن تكاثرت عدد العبيد المشتغلين بالزراعة والصناعة وتناقص عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن بوجه عام (٣) • وهكذا بسهل على دارس أحوال الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع أن يدرك أنها كانت تعاني عندئذ آلام الموت البطيء ، وبالتالي فإن العصور القديمة أمست في طريق الزوال وباتت الأحوال ممهدة لأن تنتقل أوروبا الى طور جديد من أطوار تاريخها أكثر ارتباطا بالعصور الوسطى (٤) •

(1) Vasiliev: op. cit, Tome. 1 pp. 82—83.

(2) Moss : op. cit. pp. 78—79

(3) Katz : op. cit. pp. 78—79

(4) Cam. Med. Hist, Vol, 1 pp. 543—552.

وقد أجهد المفكرون أنفسهم في الوقوف على أسباب انحلال الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، فمنهم من قال بأن السبب في ذلك هو فشل هذه الامبراطورية في حل مشكلة العلاقة بين الفرد والدولة ، ومنهم من نادى بأن انهيار نظام المدينة الحرة ذات الحكم الذاتى هو مصدر اضمحلال الامبراطورية (١) ، فى حين قال فريق ثالث أن سبب الكارثة هو الافراط فى الاعتماد على المدن والتوسع فى منحها استقلالاً ذاتياً ، مما أفسد وحدة النظام الادارى فى الولايات وأثار البغضاء بين أهالى المدن وأهالى الريف ، كما أوجد تعارضا بين الأوضاع الاقتصادية التى سادت المدن من جهة وتلك التى سادت الريف من جهة أخرى . وأخيرا يأتى رأى رابع يعلل الكارثة التى حلت بالامبراطورية الرومانية بازدياد نفوذ أرستقراطية كبار الملاك الاقطاعيين ونموها على حساب الطبقة الوسطى من الأحرار التى تناقص أفرادها فى الريف والمدن وتحولوا الى عبيد (٢) .

ويشبه بعض المؤرخين الامبراطورية الرومانية بشجرة ضخمة امتدت جذورها القوية فى مختلف الاتجاهات ، مما يجعلها أقوى من أن تنهار نتيجة لعامل واحد أو سبب بعينه . لذلك يرجعون انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها الى عدة أسباب تضامنت جميعها لاسقاط الامبراطورية . وسواء كانت هذه الأسباب طبيعية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو حربية أو دينية (٣) ، فإن يجب أن نعترف بأنه لم توجد دولة أو حكومة فى التاريخ استطاعت الخلود والبقاء على حال واحد من الرفعة أو الحطلة ، وأن الدول تتفق مع الكائنات الحية فى خضوعها لسنة الموت والبعث .

(١) Idem. p. 553.

(٢) Thompson. op. cit. vol, 1 pp. 28—29

(٣) Cary, op. cit. pp. 778—779.

الباب الثاني

الإمبراطورية والمسيحية

ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام أثناء عهد الامبراطور أوغسطس (ت ١٤ م) في بيت لحم بفلسطين ، في وقت أخذ العالم الروماني يشعر بنوع من الفراغ أو الجذب الروحي . فالرومان أنفسهم بدعوا ينظرون الى عبادة الدولة الرسمية وتقديس الأباطرة ، على أنها أمور شكلية (١) ، مما دفع المتعلمين منهم بوجه خاص الى الاستخفاف بالعقائد الدينية النائدة - سواء أكانت يونانية أو رومانية الأصل - ومن ثم أخذ بعضهم يتجه نحو الآراء التي نادى بها الرواقيون (٢) . ولكن حتى هذه التعاليم الزواقية أخذت هي الأخرى تبدو تدريجيا أضعف من أن تشبع الحاجة الروحية للمثقفين نظرا لما امتازت به من تطرف في الجمود والمنطق فضلا عن بعدها عن الآفاق السماوية (٣) .

والواقع أن القرنين الثالث والرابع لم يشهدا انتصارا سريعا للمسيحية فحسب ، بل أيضا لكثير من الديانات الأخرى الوثنية . ذلك أن الديانة الرومانية لم يكن لها وقع عاطفي في نفوس الناس الذين قاموا بتقديم القرابين للآلهة الوثنية لا لشيء سوى قضاء مصالحهم الدنيوية الخاصة . أما الآلهة ذات الأصل الأجنبي التي وجدت في روما أو غيرها من أنحاء الامبراطورية - مثل غاليا وبريطانيا - فكانت هي الأخرى رموزا شكلية لا تثير حماسة دينية في نفوس المعاصرين (٤) . وفي وسط هذا الفراغ الديني الكبير لم يجد أهالي الامبراطورية وسيلة سوى الاتجاه شطر العقائد الدينية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. I. p. 89

(2) Stephenson : Med. Hist. pp. 51—52

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 345 & Glover. op. cit. p. 155

(4) Cary : op. cit. p. 531 & 590

المختلفة المستوردة من الشرق مثل ديانة سبيل (Cybele) من آسيا الصغرى وديانة مثراس Mithras من فارس وديانة ايزيس من مصر ، وأخيرا المسيحية التي نبتت في فلسطين (١) .

ومن الواضح أنه لا يوجد محل للمقارنة بين المسيحية وغيرها من الديانات التي عرفها الشرق منذ أقدم العصور حتى ذلك الوقت ، لأن قصة المسيح وحياته فاقت في سموها وجمالها بقية القصص الدينية المعاصرة . ويكفى ان تعاليمه مستمدة من كتاب مقدس يمكن أن يفهمه ويتأثر به الخاصة والعامة ، لا من فلسفة اليونان التي لا يمكن أن يفهمها سوى فئة من خاصة المثقفين . فاذا أضفنا الى ذلك أن المسيحية جاءت دينا سماويا عاما دون أن تختص بطائفة أو تميز فريقا على آخر ، أدركنا سر انتشارها السريع وتفوقها في النهاية على غيرها من العقائد الشرقية المعاصرة (٢) .

ومن المعروف أن معلوماتنا عن تاريخ الكنيسة في عصرها الأول ، وكذلك عن انتشار المسيحية في أركان الامبراطورية الرومانية ضئيلة وغير كافية ، وإن كان من الثابت أن الفضل الأول يرجع الى القديس بولس في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط به من فلسفة المسيحية المتعلقة بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود ، فضلا عن جهوده في وضع دعائم الكنيسة الكاثوليكية العالمية (٣) . وهكذا أخذت المسيحية تنتشر انتشارا حثيثا بحيث لم يكد ينتهى القرن الأول الا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية ، بل ان المسيحيين كونوا جالية ملحوظة في روما نفسها منذ وقد مبكر يرجع الى سنة ٦٤ مما عرضهم لنقمة الامبراطور نيرون واضطهاده (٤) . وهنا نشير الى أنه ليس من الواقع في شيء ما يظنه البعض

(1) Dill: op. cit. pp. 529—546

(2) Glover : The Conflict of Religions in the Early Roman Empire pp. 33—74

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2, p. 335

(4) Painter : op. cit. p. 11.

من أن إنتشار المسيحية في أوائل عهدها اتخذ اتجاهها أفقيا فحسب ، أعنى بين الطبقات الفقيرة والمعدمة في المجتمع الرومانى دون غيرها من الطبقات ، اذ ثبت الواقع أن هذا الانتشار الأفقى صحبه انتشار آخر رأسى تصاعدى ، من الطبقات الدنيا الى الطبقات الراقية العليا التى تمثل الجانب الأرستقراطى فى المجتمع الرومانى (١) • ويبدو هذا بوضوح فى كتابات الرومان المعاصرين فى قبرس وسالونيك وبيشنيا وغيرها من الولايات الرومانية ، فضلا عن رسائل القديس بولس (٢) • حقيقة ان الغالبية العظمى ممن اعتنقوا المسيحية فى أوائل عهدها كانوا من الطبقة العاملة ، وأن الطبقات العليا فى المجتمع الرومانى لم تقبل على اعتناق المسيحية فى أعداد ضخمة الا بعد أن تم الصلح بين الكنيسة والدولة بمقتضى مرسوم ميلان سنة ٣١٣ ، ولكن ليس معنى ذلك أن المسيحية عدت أنصارا لها بين أفراد الطبقة الارستقراطية خلال القسرون الثلاثة الأولى عن عمرها (٣) •

وهنا نلاحظ أن ظروف الامبراطورية الرومانية والأوضاع التى أحاطت بها كانت أكبر مساعد على سرعة انتشار المسيحية بين ربوعها • فهذه الامبراطورية امتازت بشبكة واسعة من الطرق الضخمة التى ربطت مدنها وأطرافها برباط وثيق ، فضلا عن الأمن والسلام الذين سادا ربوعها ، ونشاط التبادل التجارى بين مختلف أجزائها • هذا كله عدا سيادة اللغة اللاتينية فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، واللغة اليونانية فى أجزائها الشرقية ، مما جعل من اليسير انتقال الآراء والأفكار والمعتقدات فى سهولة بين مختلف أنحاء الامبراطورية ، وبالتالي انتشار المسيحية ووصولها الى أقصى أطراف البلاد فى سرعة فائقة (٤) •

(١) Thompson, op. cit. vol. 1, p. 32

(٢) Katz : op. cit., pp. 64—65

ومن ذلك ما جاء فى العهد الجديد « فاقتنع قوم منهم وانحازوا الى بولس وسيلا ، ومن اليونانيين المتعبدین جمهور كثير ومن النساء المتقدمات عدد ليس بقليل » •

(سفر أعمال الرسل ، الاصحاح السابع عشر ٤٠)

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 1, pp. 95—96

(٤) Duchesne : Hist. Ancienne de l'Eglise; Tome 1, p. 9

(م ٤ - أوروبا)

على أن التعارض لم يلبث أن ظهر حادا بين تعاليم المسيحية وعقائدها من جهة والنظم والقواعد التي قامت عليها الدولة الرومانية من جهة أخرى • هذا الى أن فكرة قيام منظمة دينية أو كنيسة منفصلة عن الدولة جاءت غريبة عن العقلية الرومانية والفكر الرومانى جميعا (١) •

وكان الوضع المعروف فى النظم الرومانية أن فئة واحدة من كبار الموظفين لها أن تمسك بزمام جميع الوظائف الكبرى فى الدولة من سياسية ومدنية وحربية ودينية ، مع ترك حرية العقيدة لكل مواطن رومانى طالما هو يعترف بآلهة الدولة الرسمية من جهة ، وطالما أن عقيدته لا تهدد سلام الامبراطورية من جهة أخرى (٢) • وكل ما هنالك هو أنه يجب على الرعايا - مع اختلاف عقائدهم - أن يعترفوا بعبادة الامبراطور القائم ، وهو اجراء يشبه يمين الولاء للحاكم فى أيامنا • ولم يعف من هذا التكليف الأخير داخل حدود الامبراطورية الرومانية سوى اليهود ، فى حين لم يتمتع المسيحيون بهذا التقدر من الحرية الدينية (٣) •

ومن الثابت أن المسيحية لم تكن الديانة الأجنبية الوحيدة التى كان على الحكومة الرومانية أن تحدد موقفها منها ، لذلك يبدو أن الأمر اختلط على الرومان فى أول الأمر فظنوا أن المسيحية ليست الا فرقة من الديانة الموسوية اليهودية (٤) ، لا سيما أن المسيحيين رفضوا - مثل اليهود - تأليه الامبراطور وعبادته • ولكن لم يكد ينتهى القرن الأول حتى اتضح الأمر وظهرت الفوارق واضحة بين الديانتين ، لأن المسيحيين لم يؤمنوا بأية عقيدة أخرى وأخذوا يجتمعون سرا لمباشرة طقوسهم الدينية ، كما رفضوا الخدمة فى الجيش الرومانى ، واتخذوا الأحد أول أيام الأسبوع ليكون ذا صفة دينية بدلا من السبت عند اليهود (٥) • وهكذا أخذت الحكومة الرومانية تغير نظرتها الى

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 52

(2) Katz. op. cit. p. 58

(3) Stephenson : op. cit. p. 53

(4) Hardy : Studies in Roman History, vol. 1 ; p. 2

(5) Katz ; op. cit. p. 62

المسيحيين وتعتبرهم فئة هدامه تهدد أوضاع الامبراطورية وسلامتها (١) *
والمعروف أن أية حكومة تعتبر الاجتماعات السرية الخاصة التي يعقدها
فريق من رعاياها أمرا يخشى منه على كينها ، لا سيما اذا كانت هذه
الاجتماعات تضم الطبقات الفقيرة التي انتمى اليها معظم المسيحيين الأوائل (٢) *
وبعبارة أخرى، فإن سبب حنق الحكومة الرومانية على المسيحية كان اجتماعيا
لا دينيا ، لأن المسيحية بدت فى صورة ثورة اجتماعية خطيرة تنادى بمبادئ من
شأنها تقويض الدعائم التي قام عليها المجتمع الرومانى (٣) * وهنا نلاحظ أن
نظرة الحكومات الى الطوائف والجماعات الصغيرة تختلف عنها الى الجماعات
الكبيرة ، بمعنى أن نظرة الحكومة الرومانية الى المجتمعات المسيحية الصغيرة
فى أول الأمر كانت لا تعدو الاستخفاف بها والتهوين من أمرها ، بعكس ما
أصبح الحال عندما ازداد انتشار المسيحية وكثر أتباعها وعندئذ تحوالت نظرة
الحكومة الرومانية الى نوع من الخوف والشك فى أمره (٤) *

وكان أن بدأت الحكومة الرومانية تعتبر اعتناق المسيحية جرما فى حق
الدولة ، فمكنت اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم *
ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين
المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذى قدم مسيحى روما طعاما للنار العظيمة التي
أشعلها سنة ٦٤ فحسب (٥) ، بل شارك فيها أيضا فئة من خيرة الأباطرة
المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهادريان
وأنطونيوس بيوس وداركوس أورليوس (٦) ومن أولى الوثائق التي تصور لنا
بداية عهد المسيحيين بالاضطهاد ، تلك الرسالة التي أرسلها بلينى الصغير
حاكم بيشيا الى الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧) يفيد فيها بأنه عفا عن جميع
المشكوك فى أمرهم بعد أن قبلوا تقديم القرابين لتمثال الامبراطور ، فى حين

(1) Charlesworth : op. cit. p. 149

(2) Painter : op. cit. p. 15

(3) Hardly : op. cit. vol. 1, p. 34

(4) Idem, p. 37

(٥) Cary : op. cit. p. 531

(6) Duchesne, op. cit. Tome 1, pp. 110—115 & 359

أعدم الذين امتنعوا عن فعل ذلك • وقد أجاب الامبراطور تراجسان معبرا
عن استحسانه لتصرفه (١) •

على أنه يبدو أن هذا الاضطهاد أتى بنتيجة عكسية ، لأن روح الشجاعة
والصبر والايمان اتى واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع
اعجاب الكثيرين الذين أقبلوا هم الآخرون على اعتناق الديانة الجديدة (٢) •
وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث الا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة
نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا ، مما دفع الامبراطور دقلديانوس الى
التطرف فى قمعها فى أوائل القرن الرابع ، لاسيما بعد أن أدى ازدياد نفوذ
المسيحية بين رجال الجيش الى التهديد بالقضاء على ولاء الجند للامبراطورية (٣) •
وقد أصدر هذا الامبراطور عدة مراسيم منع فيها صلاة المسيحيين وأمر بهدم
كنائسهم واحرق كتبهم وحبس قساوستهم وطردهم نهائيا من انوظائف
الحكومية ، الى غير ذلك من الاجراءات المشددة التى جعلت المسيحيين يطلقون
على الفترة الأخيرة من حكمه « عصر الشهداء » (٤) • ويبدو أن هدف
دقلديانوس من هذه السياسة كان محاولة اجبار الكنيسة - عن طريق
الاضطهاد - على الخضوع للدولة ، شأنها شأن بقية الهيئات والمنظمات
الاجتماعية فى الدولة الرومانية • ذلك أن قيام الكنيسة كهيئة مستقلة أو كدولة
داخل الدولة ، أمر يتعارض مع المبدأ الأول الذى أقام عليه دقلديانوس نظامه
وبنى اصلاحاته ، والذى يقضى بخضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة (٥) •
وهنا نلاحظ أن اضطهاد الأباطرة والىحكام لم يكن الخلل الوحيد الذى هدد
المسيحية فى هذا الدور من تاريخها ، بل كان على الديانة الجديدة أن تواجه
عندئذ تهديدا خطيرا من شأنه أن يفقدها طابعها الأساسى ، وذلك من ناحية
الأدريين (الغنوصيين) Gnostics الذين حاولوا خلط تعاليم المسيحية

(1) Hardy : op. cit. Vol. 1, pp. 78 - 94

(2) Katz : op. cit. p. 94.

(3) Rostovtzeff : op. cit. vol. 2 p. 346 & Lot. op. p. 24

(4) Duchesne : op. cit. Tome 2. pp. 6 - 15

(5) Rostovtzeff : op. cit. Vol. 2, p. 350

بالآراء الميتافيزيقية والأفلاطونية الحديثة ، هذا فضلا عن الهجوم الذي واجهته المسيحية من جانب اليهود (١) .

ومما يكن من أمر فان المسيحية خرجت من جميع هذه المعارك ظافرة مرفوعة الرأس ، لاسيما بعد أن أخذ الامبراطور قسطنطين بسياسة الأمر الواقع فأصدر مرسوم ميلان الشهير سنة ٣١٣ معترفا بوضع الديانة المسيحية كاحدى الشرائع المصرح بعتناقها داخل الامبراطورية ، بمعنى أن يتمتع المسيحيون فى الامبراطورية بكافة الحقوق التى تمتع بها غيرهم من أتباع الديانات الأخرى (٢) . وهنا يصح أن نتوقف قليلا لتدبر أهمية هذه الخطوة الجريئة التى أقدم عليها قسطنطين . فاذا تذكرنا أن الامبراطورية الرومانية قامت على أساس الوثنية وفكرة تأليه الأباطرة ، واذا تذكرنا ما نزل بالمسيحية فى مختلف الولايات الرومانية من تعذيب واضطهاد ، واذا أدركنا ما ترتب على اعتراف قسطنطين بالمسيحية من انتشار سريع لهذه الديانة الجديدة وازدياد نفوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التى كيف تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، أمكننا فى النهاية أن نتحقق من أهمية هذه الخطوة التى أقدم عليها قسطنطين . ويمكن أن نضيف الى هذا ما سبق أن أشرنا اليه فى الباب السابق من أن قسطنطين أتبع اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الامبراطورية من روما الى القسطنطينية ، وأنه هجر روما الخالدة الى عاصمته الجديدة بالشرق ، مما يشير الى أن ثمة تفسيرا أساسيا أخذ يعترى وجه العالم القديم ، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسطى جديدة لم تعد فيها روما مركز الامبراطورية من جهة ، وأصبحت المسيحية ورجالها بمثابة القوة الفعالة فى المجتمع الأوروبى من جهة أخرى (٣) .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول الحافز الذى دفع قسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان السابق ، وهل جاء صدور هذا المرسوم عن عقيدة صادقة وإيمان

(1) Glover : op. cit. p. 173

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1, pp. 61—63

(3) Katz : op. cit. p. 52

بالمسيحية أم هو مجرد إجراء سياسي اتخذته قنسطنطين لتحقيق مآرب خاصة .
والواقع أنه توجد أدلة كثيرة تثبت إيمان قنسطنطين بالمسيحية ، كما توجد أدلة
أخرى عديدة توضح استمرار اعتقاده في الوثنية (١) . ذلك أن عدد المسيحيين
عندئذ لم يتجاوز عشر مجموع سكان الامبراطورية ، الأمر الذي يؤيد الرأي
الأول بأن قنسطنطين اتخذ قراره عن شعور ديني لا بدافع المصلحة السياسية (٢) .
على أننا إذا تأملنا الموقف قليلا وجدنا أن المسيحية كانت أوسع انتشارا وأشد
تركيزا في الشرق منها في الغرب ، بحيث أن آسيا الصغرى غدت من المراكز
الرئيسية للمسيحية في القرن الرابع (٣) . هذا في الوقت الذي كان قنسطنطين قد
انتصر على خصمه ماكسنتيوس Maxentius في موقعه بجسر ملويان Milvian
Bridge بايطاليا سنة ٣١٣ ، وبذلك دان لسلطانه الجزء الغربي من
الامبراطورية ولم يبق أمامه سوى إخضاع جزئها الشرقي ، حتى تتحقق له
السيادة التامة على الامبراطورية كلها . لذلك لا يستبعد أن يكون قنسطنطين
قد أصدر مرسوم ميلان عادة انتصاره على ماكسنتيوس في الغرب ليفتح أمامه
أبواب الشرق (٤) . وتتواتر في المراجع التاريخية قصة شهيرة حكاهما
أيوزيب Eusebe أسقف قصرية المعاصر نسبها الى قنسطنطين نفسه ، وخلاصتها
أنه حدث أثناء زحف الامبراطور على روما لمحاربة خصمه أن رأى بعد
غروب الشمس هالة من النور مضيئة في السماء على شكل صليب وتحتها
عبارة : سننصر بفضل هذا ! ، فلما نام الامبراطور رأى في منامه مسودة
المسيح ومعه الصليب نفسه وقد أوى ليأمره باتخاذ هذا الصليب شعارا له والزحف
على عدوه فورا . فكانت هذه الظاهرة وما تبعها من نصر حققه قنسطنطين
على خصمه من الدوافع الأساسية لاعترافه بالمسيحية واعتناقه لها (٥) .

وهما يكن من أمر ، فإن مرسوم ميلان سنة ٣١٣ جعل من المسيحية ديانة
مرخصة Religio licita ، كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات

(1) Ostrogorsky : op. cit. pp. 42-43

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1. pp. 56-58

(3) Idem. p. 57

(4) Cam. Med. Hist. vol. 1, pp. 5-6

(5) Vasiliev : op. cit. Tome 6, p. 61

الأخرى داخل الامبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم، أسوة ببقية رعايا الامبراطورية • ومن هذا يبدو أن سياسة قنسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال ، كما أنها تعبر عن تطور فكري أكثر منها عن تحول روحي (١) • ذلك أنه تسامح مع المسيحيين في الوقت الذي لم يضطهد الوثنيين، وعن هذا الطريق حاول أن يمسك العصا من وسطها ليحقق نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية (٢) • والواقع أن عهد الامبراطور قنسطنطين يمثل عدة تيارات دينية متضاربة ، اذ لم يقتصر فيه الوضع على التلاحن بين المسيحيين والوثنيين ، بل انقسمت المسيحية الناشئة على نفسها بين أريوسيين وأثناسيوسيين ، مما جعل كل فريق يعمل للفوز والحصول على أكبر قدر ممكن من الامتيازات على حساب المذهب الآخر • وهنا وجد قنسطنطين فرصته فحاول أن يرضى الجميع دون أن يغضب فئة أو مذهباً (٣) • وهكذا اعترف قنسطنطين بالمسيحية بمذهبيها دون أن يتنكر لديانة الدولة أو يتخلى عن عبادة الامبراطور التي كانت مصدرا أساسيا لقوة الأباطرة ونفوذهم • وبعبارة أخرى فإن قنسطنطين اختار أن يقيم قوته السياسية على ثلاثة دعائم رئيسية هي العبادة الامبراطورية ، والعقيدة الأريوسية ، والعقيدة الأثناسيوسية، كما يتضح ذلك من سياسة الامبراطور وتصرفاته • ذلك أنه احتفظ بعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها ، كما احتفظ كأسلافه من الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم (٤) Pontifex Maximus • أما بلاطه فقد أصبح يغص بالأساقفة والقساوسة من مختلف المذاهب المسيحية ، جنبا الى جنب مع الكهنة والفلاسفة الوثنيين • هذا في الوقت الذي صارت وظائف الدولة الكبيرة قسمة بين الوثنيين والمسيحيين ، كما نقش على نقوده شعارات المسيحية والوثنية (٥) • أما عن حياته الخاصة فإن قنسطنطين لزوجته وولده يدل على أنه لم يتأثر اطلاقا بتعاليم المسيحية وأخلاقيها • وهكذا يمكن

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 43

(2) Lot : op. cit. p. 29

(3) Thompson : op. cit. vol. 1 pp. 35—36

(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 43

(5) Lot : op. cit. p. 26

القول بأن قسطنطين ظل حتى أواخر حياته وثيا مع الوثنيين وأثناسيوسيا مع الأثناسيوسيين وأريوسيا مع الأريوسيين (١) •

وقد شهدت المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة كان لها أثر عظيم في تاريخ الشرق والغرب جميعا • وربما يبدو من الأنسب في كثير من الأحيان الابتعاد عن الخوض في هذه الخلافات والمشاكل الدينية في دراسة تاريخية كالتى تقوم بها ، ولكننا عندما نجد الخلاف المذهبي يتحكم في توجيه التيارات السياسية بل في تغيير مجرى الأحداث التاريخية - كما حدث فعلا في القرنين الرابع والخامس - نرى أنفسنا مضطرين الى الإشارة الى مختلف وجهات النظر الدينية حتى نستطيع في ضوءها أن نتفهم ما ترتب عليها من أحداث سياسية (٢) • وهنا نلاحظ أن الخوض في المسائل اللاهوتية لم يقتصر في القرن الرابع على رجال الدين ، وانما كان أمرا مباحا وموضوعا مفتوحا أمام الجميع • وخير شاهد في ذلك ما كتبه القديس جريجورى أسقف نيسا Nyssa (٣٤٠ - ٤٠٠) عن القسطنطينية ، اذ يصف العمال والعيبد في هذه المدينة بأنهم جميعا من المشتغلين باللاهوت ، فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود أوقفك ليروى لك أوجه الخلاف بين المسيح الابن والاله الأب ، واذا ذهبت لشراء رغيف خبز أخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب أن يكون دون الأب ، اذا طلبت من الحمامى أن يعد لك الحمام أجابك بأن الابن وجد من لا شئ (٣) •

أما المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين وبالتالي العالم الرومانى الى معسكرين وأثارت البغضاء الدينية والسياسية بينهما لمدة قرنين من الزمان ، فكانت مشكلة تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الأب • ذلك أنه حدث خلاف بين اثنين من رجل الكنيسة باسكندرية حول تحديد هذه العلاقة ، فقال أريوس - وهو كاهن سكندري مثقف - بأن المنطق يحتم وجود الأب قبل

(1) Cam. Med. Hist. 1 p. 10

(2) Diehl & Marcais : Le Monde Oriental pp. 21—2.

(3) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 37

الابن ، ولما كان المسيح الابن مخلوق للاله الأب فهو اذا دونه ولا يمكن بأي حال أن يعادل الابن الاله الأب في المستوى والقدرة (١) . وبعبارة أخرى فإن المسيح ، مخلوق لا اله بمعنى هذه الكلمة المطلق ، والا فان المسيحيين يصبحون متهمين بعدم التوحيد وعبادة الهين (٢) . أما اثناسيوس فقال بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساويا للاله الأب تماما في كل شيء . بحكم أنهما من عنصر واحد بعينه ، هذا وان كانا شخصين متميزين . ويبدو أن الأثناسيوسيين أدركوا أن المسيحية تعتمد في دعوتها على مكانة المسيح ، وأن أي اتجاه نحو التقليل من مركزه يؤدي الى اضعاف الدعوة المسيحية . وهكذا كان أنصار أريوس من الموحدين . ومن الواضح أن المذهب الأريوسي كان يتفق ومنطق المتقين لأنه أراد أن بقيم العقائد المسيحية على أساس من المنطق والتعقل ، في حين كان المذهب الأثناسيوسي يستقيم وتفكير شامة الناس من البسطاء الذين يحكمون عواطفهم قبل عقولهم (٣) . وهنا نلمس أثر الفوارق الحضارية بين الشرق والغرب ، اذ لم يلبث أن ساد المذهب الأثناسيوسي في بلاد الغرب اللاتيني في حين أصبحت الغلبة في الشرق الهليني للمذهب الأريوسي . هذا فضلا عما نلاحظه من أن معظم المفكرين والفلاسفة والأدباء كانوا أريوسيين موحدين ، في حين كانت معظم الطبقات الوسطى والدنيا التي انتمى اليها رجال الدين من الأثناسيوسيين .

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين الطرفين ، خشي الامبراطور قنسطنطين أن يؤثر ذلك في وحدة الامبراطورية ، فحاول أن يوفق بين المذهبين ، وأرسل مبعوثا (هوسوس Hosius) الى الاسكندرية لهذا الغرض ، ولكن جهود الامبراطور لم تكلل بالنجاح (٤) . لذلك دعا قنسطنطين الى عقد مجمع ديني في نيقية سنة ٣٢٥ لحسم الخلاف (٥) . وكان هذا المجمع أول مجمع مسكوني

(1) Cam. Med. Hist. Vol. p. 119

(2) Lot : op. cit. pp. 43—44

(3) Pain'er : op. cit. p. 16

(4) Vasiliev : op. cit. Tome I p 68

(5) Bynes : Constantine and the Christian Church. pp. 19—22

عالمى فى تاريخ الكنيسة ، اذ حضره نحو ثلاثمائة من رجال الدين فى الشرق والغرب ، ورأسه الامبراطور قسطنطين نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن معيماً . وقد أدان مجمع نيقية هذا أريوس ، وبالتالي تقرر نفيه الى اليريا واعداد كتاباته وتحريم تداولها واضطهاد أتباعه من الأريوسيين (١) . ومع ذلك فقد ظلت الأريوسية قوية فى الأجزاء الشرقية من الامبراطورية ، وعن هذا الطريق انتقلت الى الأمم الجرمانية بواسطة المبشرين ورجال الدين (٢) .

اولعل بقاء المذهب الأريوسى قويا فى الشرق كان من العوامل التى أدت بالامبراطور قسطنطين الى تغير رأيه ، فاستدعى أريوس من منفاه سنة ٣٢٧ . ونستطيع أن نعلل هذا التغير الذى طرأ على مسلك قسطنطين بما كان يعتزمه الامبراطور من نقل عاصمته الى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى تم فعلاً سنة ٣٣٠ مما استلزم استرضاء أهالى الجزء الشرقى من الامبراطورية (٣) . وتؤكد هذه الخطوة من جانب قسطنطين الرأى القائل بأنه كان على استعداد تم لتغير ميوله المذهبية - بل الدينية - وفق ما تتطلبه مصالحه السياسية . ذلك أنه ظل يؤيد المذهب الأثناسيوسى طالما كانت عاصمته فى الغرب وطالما اعتمد على الغرب فى قوته ، ولكنه عندما شرع فى نقل عاصمته الى الشرق وأحس بالحاجة الى استرضاء سكان القسم الشرقى من الامبراطورية ، لم يجد تضاضة فى تغير عقيدته أو ميوله نحو المذهب الأريوسى (٤) . وهكذا تم عقد مجمع دينى جديد فى صور سنة ٣٣٤ ألغى قرارات مجمع نيقية السابق ، وقرر العفو عن أريوس وأتباعه ، وبذلك دارت الدوائر على اثناسيوس الذى عزل فى العام التالى ونفى الى تريف فى غاليا حيث ظل حتى أطلق سراحه الامبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣) ، الذى كان بحكم وثيقته لا يهتم بأمر الأريوسيين أو الأثناسيوسيين (٥) . على أن أريوس لم يلبث أن توفي فجأة فى القسطنطينية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 122—123

(2) Stephenson. op. cit. p. 83

(3) Bynes : op. cit. pp. 26—30

(4) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 70—71

(5) Lot : op. cit. p. 45

سنة ٣٣٦ مما جعل أتباعه يهيمسون بأنه مات مسموماً ، في حين هلك في سومة . واعتبروا ذلك حكم الله العادل • ولم يلبث أن لحق به الامبراطور قنسطنطين فتوفى هو الآخر سنة ٣٣٧ بعد أن تم تعميده على فراش الموت وفق مبادئ المذهب الأريوسي •

وكان قنسطنطين قد قسم الامبراطورية قبل وفاته بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ قنسطنطين الثاني الغرب وأخذ قنسطنطيوس الشرق في حين كانت اليريا والجزء الأوسط من شمال افريقية من نصيب قنسطانز (١) • وهنا نجد كل حاكم من هؤلاء الحكام الثلاثة يعمل على توطيد نفوذه عن طريق المذهب السائد في بلاده ، فاتجه قنسطنطيوس نحو تشجيع الأريوسية ، في حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية ، مما جعل الخلاف المذهبي يتطور الى انقسام في الكنيسة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني (٢) • وعندما توفى قنسطنطين الثاني أصبحت مهمة الزود عن العقيدة الأثناسيوسية تقع على عاتق البابوية ورجال الدين في الغرب ، فصار عليهم أن يتكاتفوا لاسيما بعد مقتل قنسطانز وتوحيد الامبراطورية الرومانية تحت حكم قنسطنطيوس (٣٥٣ - ٣٦١) (٣) • ذلك أن الامبراطور قنسطنطيوس عرف بولائه للمذهب الأريوسي ولأن دفعه الى العمل على فرض هذا المذهب على أجزاء الامبراطورية الغربية ، مما جعل كفة الأريوسية ترجح في الامبراطورية الرومانية عند وفاته سنة ٣٦١ • على أن هذا الرجحان كان مؤقتاً ، اذ لم يلبث الامبراطور ثيودسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أن أعلن نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسي في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ كما فرض عقوبات شديدة على أتباع المذهب الأريوسي في جميع أنحاء الامبراطورية (٤) •

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 40

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 84

(3) Katz : op. cit. pp. 87—88

(4) Bury : Hist. of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 349

صحوة الوثنية :

أما عن موقف الوثنية المتداعية فى هذه الحقبة فقد رأينا كيف ظل قنسطنطين الأول حتى وفاته سنة ٣٣٧ يتخذ موقفا وسطا بين المسيحية بمذهبيها من جهة والوثنية من جهة أخرى • ولكن حدث أن أبناء هذا الأمبراطور خالفوا أباهم واختاروا عدم الاستقرار فى معجانة الوثنية وأهلها ، بل شنوا عليها موجة عنيفة من الاضطهاد ، فصادروا ما لمعابدها من أراض وممتلكات ، حتى اذا ما حلت سنة ٣٤٠ منع الأباطرة الثلاثة تقديم القرابين لآلهة الوثنية ، ثم أغلقت معابدها بعد ذلك بعدة سنوات (١) •

على أن الوثنية لم تستسلم فى سهولة مطلقة ، اذ أيت الا أن تصحو من جديد ، وذلك عندما تولى حكم الامبراطورية جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣) الذى كان متمسكا بأهداب الحضارة اليونانية الوثنية ، فتخلى عن المسيحية سرا قبل أن يتولى منصب الامبراطورية • ولم يكد يتولى هذا المنصب عقب وفاة الامبراطور قنسطنطيوس الثانى سنة ٣٦١ حتى أعلن ارتداده عن المسيحية ، وأخذ يعمل على تخليص الوثنية من المحنة التى تعرضت لها نتيجة لطغيان المسيحية عليها ، ولذلك أمر بفتح معابد الوثنية التى أغلقت وفقا لمرسوم قنسطنطيوس (٢) • ويبدو لنا من واقع الحقائق التاريخية أن الامبراطور جوليان لم يكن متعصبا ضد المسيحية ، وانما أراد فقط أن يرفع عن الوثنية وأهلها الحيف الذى أنزله بهم أنصار الديانة الجديدة ، أو بعبارة أخرى أراد جوليان أن يحقق نوعا من المساواة والتوازن بين المسيحية والوثنية وفقا للغرض الذى أملى اصدار مرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣) ويمكننا أن نحكم على جوليان حكما أكثر عدالة واتزاناً اذا علمنا أنه امتدح بعض المبادئ الكريمة التى نادى بها المسيحية مثل الاحسان والرحمة والعطف على الفقراء والمرضى ،

(١) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 85

(٢) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 367.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 103

حتى أنه كتب الى أحد الكهنة الوثنيين يخبره في صراحة تامة بأن الوثنية تفتقر الى مثل هذه الخلاص الحميدة (١) .

على أن هذا الشعور لم يمنع الامبراطور جوليان من العمل على رفع شأن الوثنية حتى لا تبدو في مستواها دون المسيحية، فأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به في الكنيسة ، وعنى بالمعابد الوثنية وزيتها حتى لا تبدو أقل جمالا من الكنائس (٢) . وفي الوقت نفسه منع جوليان رجال الكنيسة من السفر مجانا على حساب الحكومة صحبة البريد الامبراطوري ، كما أخذ يستبعد المسيحيين تدريجيا من وظائف الجيش والادارة ليحل الوثنيين محلهم (٣) .

ولكن يبدو أن هذه الصلوة التي مرت بها الوثنية على عهد الامبراطور جوليان لم تكن الا صلوة الموت . اذ لم يلبث المسيحيون أن استردوا في عهد جوفيان - الذي حكم مدة لا تتجاوز سبعة أشهر - مكائهم وامتيازاتهم التي حرهم منها جوليان . ثم جاء الامبراطور جراشيان (٣٧٥ - ٣٨٣) فتخلى عن لقب « الكاهن الأعظم » الذي تمسك به جميع الأباطرة السابقين ، بل ان هذا الامبراطور سرعان ما استأنف سنة ٣٨٢ سياسة مصادرة ممتلكات المعابد الوثنية (٤) . حقيقة أن هذه الاجراءات لا تعنى القضاء على الوثنية قضاء تاما مبرما ، اذ ظلت الوثنية قوية - وبصفة خاصة في الغرب وروما - حيث استمرت تشيد لها المعابد حتى أواخر القرن الرابع . ولكن تشيد المعابد الوثنية في هذه الفترة المتأخرة أصبح لا يتم على نفقة الحكومة كما كان الحال من قبل (٥) . ثم كانت بداية التطرف في استخدام القوة والعنف ضد الوثنية

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 44

(2) Duchesne : op. cit. Tome 2 pp. 326—332

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 90—92

(٤) احتفظ جراشيان لنفسه بحكم الأجزاء الغربية من الامبراطورية - وبصفة خاصة إقليم غاليا - في حين كان الجزء الشرقي من الامبراطورية تحت حكم عمه فالنز . وعندما لقي فالنز حتفه على أيدي القوط الغربيين في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ ، انتقل حكم الجزء الشرقي من الامبراطورية الى جراشيان الذي خشي بأس القوط فتنازل عن حكم الجزء الشرقي من الامبراطورية لثيودوسيوس . وهذا هو السبب في تداخل سنوات حكم جراشيان وفالنز وثيودوسيوس .

(5) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 44—45

وأهلها على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول الذى نجح فى توحيد العالم الرومانى تحت حكمه سنة ٣٩٤ • وقد استمرت الحرب التى بدأها ثيودسيوس الأول ضد الوثنية مدة ثلاثين سنة بعد وفاة هذا الامبراطور ، أقفلت فيها معابد الوثنيين وأعدمت كتبهم ومنعوا من مباشرة طقوسهم الدينية حتى داخل منازلهم ، بل ان الامبراطور أركاديوس (٣٩٥ - ٤٠٨) أصدر مرسوما بتحطيم معابد الوثنية - لا اغلاقها فحسب - واستغلال أحجارها وموادها فى اقامة منشآت عامة (١) • وعندئذ أدركت الوثنية قرب مصيرها المحتوم فلم تجد بدا من الفرار والالتجاء الى مناطق العزلة النائية فى ايطاليا وغاليا • وهكذا ظل الحال حتى القرن السادس عندما أقام القديس بندكت ديريه الشهير سنة ٥٢٩ على أنقاض آخر ما تبقى من معابد أبولو فى مونت كاسينو • وفى السنة السابقة نفسها أغلق جستنيان مدارس الفلاسفة فى أثينا بوصفها ركناً من أركان الوثنية (٢) •

على أن انتصار المسيحية استلزم قيام تنظيم جديد للعلاقة بين الكنيسة من جهة والدولة والمجتمع من جهة أخرى • ذلك أن الامبراطورية الرومانية كان لها دين رسمى وكهنة يتمتعون بمساندة الحكومة وتأييدها • ولكن رجال الدين فى العصر الوثنى لم يحاولوا اطلاقا التدخل فى شئون السلطة الزمنية، بعكس الكنيسة التى أخذت تكتسب شيئاً فشيئاً صفة سلطة جديدة منافسة للسلطة العلمانية ، مما أوجد نفورا بين السلطتين الزمنية والروحية (٣) • وهنا نلاحظ أن تدخل الكنيسة فى شئون السلطة الزمنية أخذ يستفحل بازدياد ضعف الامبراطورية الرومانية واضمحلالها ، حتى انتهى الأمر بأن حلت الكنيسة محل الامبراطورية عندما غربت شمس الأخيرة فى غرب أوروبا • ومما ساعد الكنيسة على تحقيق ذلك أنها حذت حذو الامبراطورية الرومانية فى تنظيماتها حتى أصبح الأساقفة يضطلعون بعبء التنظيم الادارى فى أقاليم الامبراطورية فضلا عن نهوضهم بمهام التنظيم الكنسى (٤) •

(1) Bury : p. cit. Vol. 1 p. 371

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 113—114.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 46

(4) Deanesly : A Hist. of Early Med. Europe, p. 165

والواقع أن الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً للامبراطورية كانت له نتائج بعيدة الأثر بالنسبة للكنيسة ونظمها • ذلك أن التنظيم الكنسى امتاز بالبساطة المطلقة فى العصر المسيحى الأول ، اذ لم يتعد الرابطة الدينية بين مجتمعات مسيحية مستقلة بعضها عن بعض ، لكل مجتمع منها أسقف يساعده فريق من القساوسة والشمامسة (١) • حقيقة ان بعض هؤلاء الأساقفة امتازوا عن رملاتهم بحكم ما لكراسيهم من أهمية قديمة أو ثروة عظيمة أو مساحة واسعة ، ولكن مع ذلك لم توجد هيئة كنيسة تمثل سلطة دينية ذات نفوذ فعال فى الحياة العامة • وقد ظهر على رأس الكنيسة عندئذ خمسة بطارقة فى روما والقسطنطينية وأنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية ، وهؤلاء يمكن تسميتهم بكبار الرؤساء الاداريين فى الامبراطورية الرومانية • وكان يتبع كل واحد من هؤلاء البطارقة مجموعة من رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شئون كرسيه الأسقفى ، وأخيراً يأتى قس الأبرشية فى القرية • وهكذا ظهر سلم كهنوتى متدرج يشبه الى حد كبير سلم الوظائف الادارية فى الامبراطورية الرومانية (٢) •

ثم كان أن أخذت الكنيسة المسيحية تحصل - بصفتها راعية الديانة الرسمية للدولة - على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية • وأهم هذه الامتيازات حق الحصول على الهبات والاعفاء من الضرائب فضلاً عن قيام الأساقفة بالفصل فى المنازعات التى تنشأ بين المسيحيين (٣) • ولم يلبث أن ازداد نفوذ الأساقفة تدريجياً فى أقاليمهم بفضل مكائتهم الدينية من جهة وما جمعوه من صدقات وهبات من جهة أخرى ، لا سيما وأن الصدقات التى جاد بها الخيرون كان يتم توزيعها على الفقراء والمحتاجين عن طريق الأسقف نفسه ، مما أوجد طبقة من سواد الفقراء مستعدة لتنفيذ مشيئة رجال الدين (٤) • وهكذا أخذت

(١) Cam. Med.H ist. Vol. 1, p. 143.

(٢) Idem, Vol. 1 p. 147

(٣) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 65.

(٤) برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ج ٢ ص ٤٣ •

تزداد ثروة الكنيسة ، حتى امتلكت الأراضي والضياع الواسعة التي قام العبيد والأقنان بفلاحتها ، هذا فضلا عن الهبات التي أغدقها الأباطرة بسخاء من جهة ، والتبرعات التي قدمها الأهالي عن طيب خاطر من جهة أخرى (١) .

ولكن يلاحظ أنه إذا كان هذا التطور الذي مرت به الكنيسة في القرن الرابع امتاز بعمقه وسرعته ، حتى أدى الى تحويلها من منظمة بسيطة ديموقراطية الى هيئة وراثية ذات ادارة بيروقراطية مركزه ، الا أن الكنيسة دفعت ثمنها باهظا مقابل ما أحرزته من عظمة ، كلفتها التخلي عن سياسة التسامح من جهة ، وانتشار الفساد - من رشوة وسرقة ومحاباة - في جهازها من جهة أخرى . ذلك أن النعمة الكبيرة التي أصبحت فيها الكنيسة أدت الى اتساع الفجوة بين رجالها وجمهور المسيحيين . وبعبارة أخرى فإن ازدياد ثروة رجال الدين أدى الى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة - وهي الروح التي ميزت الكنيسة في عصرها الأول ، وحلت محلها مسحة من القسوة والتعالي والتباعد - هي النتيجة الطبيعية للغنى المفرط المفاجيء . وهكذا أخذ الأساقفة يتباعدون شيئا فشيئا عن رعاياهم ، وصار الواحد منهم يجلس على عرشه الأسقفى كما كان يفعل الحاكم الرومانى من قبل . ولم يلبث أن تضاعف قصر حاكم الولاية أمام القصر الأسقفى بعد أن تشبه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالمحشم والأتباع والموظفين (٢) .

على أن القرن الرابع لم يشهد قيام التنظيم الكهنوتى للكنيسة وازدياد نفوذها السياسى فحسب ، بل شهد أيضا تطور اللاهوت المسيحى وتقدمه . ذلك أن المسيح وضع للناس أسلوبا جديدا للحياة ، ولكنه لم يقم بأية محاولة لوضع لاهوت علمى منظم . وطالما كان أتباعه ورسله يقومون بتقديم مواعظهم ونشر دعوتهم بين أناس غير مثقفين فإن الحاجة لم تكن ماسة لمثل هذا اللاهوت ، لأنه كان يكفى هؤلاء البسطاء أن يستمعوا الى قصة المسيح وحياته ليتفهموا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 561

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 49

أسلوب المسيحية في الحياة • ولكن انتشار المسيحية بين المثقفين - الذين ألفوا التفكير الكلاسيكي ومرتوا طرق الجدل وأساليب المنطق والفلسفة - أدى الى تطور جديد في الدراسات اللاهوتية (١) • ذلك أن هؤلاء المعلمين أخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويحاولون تحديد هذه العلاقة ، كما استفسروا عن طبيعة الملائكة وعن المقصود بأن الخبز والنبذ تحولوا الى لحم المسيح ودمه • وسرعان ما أصبحت هذه المسائل تحتل جانبا كبيرا من تفكير المسيحيين عندما غدت المسيحية دينا رسميا للدولة ، مما استلزم وضع دراسات لاهوتية يقنع بها المثقفون من معتققي الديانة الجديدة • وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار مفكري المسيحية الذين يطلق عليهم عادة لقب آباء الكنيسة ، أهمهم القديس كلمنت السكندري في القرن الثالث ، وأوريجن (١٨٥ - ٢٥٤) وجيروم (٣٣١ - ٤٢٠ تقريباً) وأمبروز (٣٤٠ - ٣٩٧) وأوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) • وكان هؤلاء الآباء على معرفة بالفلسفة الكلاسيكية - لاسيما آراء الأفلاطونية الحديثة - فأفادوا منها في تبرير آرائهم والتدليل عليها وتقديم العقائد المسيحية في صورة علمية يتقبلها المثقفون • هذا الى أن هؤلاء الآباء عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ومطالب الدولة والكنيسة في عهدها الجديد من جهة أخرى (٢) •

نشأة البابوية :

على أن التيار الذي انساق فيه الكنيسة ، ومحركاتها لنظم الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها كما كان للامبراطورية امبراطور يتزعمها • وهنا نلاحظ فارقا واضحا بين الشرق والغرب ، ففي الشرق أسلمت الكنيسة زمامها للأباطرة الذين ازداد تدخلهم في الشؤون الكنيسة وبخاصة فيما بين القرنين السادس والثامن بحيث أنشؤا يتدخلون لا في سياسة الكنيسة الخارجية فحسب بل في نظمها وسياساتها الداخلية أيضا •

(1) Duchesne : op. cit. Tome III; p. 18

(2) Painter : op. cit. p. 15

(م ٥ - أوروبا)

وهكذا أصبح من العسير وقف تدخل الامبراطور البيزنطى فى شئون الكنيسة الشرقية ، حتى غدا امبراطور القسطنطينية يمثل نوعا من القصرية البابوية *Caesaro Papism* أى الجمع بين السلطتين السياسية والدينية . ومن الواضح أن هذه السياسة وضع أسسها قسطنطين نفسه منذ اعترافه بالمسيحية وإنشائه القسطنطينية . هذا الى أنه استن سنة جديدة اتبعها خلفاؤه من الأباطرة الشرقيين ، هى قيام الامبراطورية بدعوة المجامع الدينية العامة لبحث مختلف المشاكل المتعلقة بالكنيسة والعقيدة المسيحية (١) . أما فى الغرب فان الوضع اختلف عن ذلك كثيرا لأن الامبراطورية الغربية أصبحت بعد تقسيم العالم الرومانى ضعيفة لا تستطيع أن تفرض سيطرتها على الكنيسة والدولة جميعا كما حدث فى الشرق (٢) . وسرعان ما وجدت الكنيسة الغربية ضالتها فى شخص أسقف روما الذى تحول كرسيه الى بابوية لها السيادة العليا على الكنيسة فى مختلف بلدان العالم الغربى .

وليس من العسير علينا أن نكشف العوامل التى هأت لأسقف روما هذه الأهمية والزعامة على غيرها من أسقفيات الغرب . ذلك أنه من المعروف أن أهمية الأسقف تتناسب عادة والأهمية السياسية والاقتصادية للمدينة التى يقوم فيها كرسيه الأسقفى . وإذا كان الشرق الرومانى غنيا بمدنه الهامة التى صارت مراكز لكراسى دينية كبرى مثل الاسكندرية وبيت المقدس وقيصرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فان الغرب لم يوجد به فى هذه المرحلة الأولى من تاريخ المسيحية سوى روما وقرطاجنة . ومهما يبلغ أمر هذه الأخيرة ، فانها كانت لا يمكن أن ترقى الى مكانة روما ذات الماضى العريق والشهرة الواسعة والصيت الذائع (٣) لهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، حتى استغل أساقفا روما هذه الأهمية والمكانة فى تحقيق نوع من السمو أو الزعامة على بقية أسقفيات الغرب . هذا مع ملاحظة أن أساقفة روما لم يتمكنوا من تحقيق هذه السيادة فى سهولة ، اذ تعرضوا لكثير

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 63.

(2) Lot : op. cit. p. 53

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 169—173

خُطَا جَنَّةَ

من ألوان المعارضة والمقاومة من بقية أساقفة الغرب لاسيما أساقفة قرطاجنة (١) •

أما إذا انتقلنا الى التنافس بين روما والقسطنطينية حول الزعامة الدينية على العالم المسيحي ، فان القسطنطينية اعتمدت على أنها مركز الأباطرة ومحصل اقامتهم ، وبالتالي يحق لبطرس أن تكون له الزعامة الدينية على العالم المسيحي ، كما كان لامبراطورها الزعامة السياسية • ولكن هذا الرأي صادف معارضة من القائلين بأن تراث المسيحية انتقل عن طريق الرسل والحواريين وظل محفوظا في الكنائس التي أسسوها ، وبخاصة في أنطاكية (٢) والاسكندرية وروما (٣) • وهنا تبدو القسطنطينية مفتقرة الى مثل هذا التشریف ، لأن أحدا من الرسل لم يشرفها بالذهاب الى موضعها أو الاستشهاد قربها أو تأسيس كنيسة في منطقتها ، لأن القسطنطينية نفسها لم تؤسس الا في القرن الرابع (٤) • أما روما فيكفيها فخرا أنها ارتبطت ارتباطا أبديا بذكرى القديس بطرس الذي اتخذ منه المسيح صخرة بنى عليها كنيسته ، فضلا عن أنه أعطاه مفاتيح ملكوت السموات (٥) • واذا كان بطرس - بحكم هذا التشریف - يعتبر زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، فمن خلفاءه - أساقفة روما - أحق الناس بأن يرثوا زعامة العالم المسيحي (٦) •

على أن تذرع أساقفة روما بهذه الحجج والأسانيد شيء ، ومحاولة فرض

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 51—52

(٢) ترتبط أنطاكية ارتباطا وثيقا بتاريخ المسيحية في أدواره الأولى وكانت أول بلد أطلق فيه اسم المسيحيين على تلاميذ المسيح « ودعى التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولا » (سفر أعمال الرسل ١١ ، ٢٦) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 171

(4) Deanesly : op. cit. 169

(٥) انجيل متى : الاصحاح السادس عشر (١٨ - ١٩) • والمعروف أن القديس بطرس اسمه الأصلي سمعان « استدع سمعان الملقب بطرس » سفر أعمال الرسل اصحاح ١١ (١٣) ، وأن المسيح هو الذي أطلق عليه بطرس . Petrus بمعنى صخرة (وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي) انجيل متى - الاصحاح السادس عشر ١٨ - ١٩ •

(6) Stephenson : op. cit. p. 84

سيطرتهم على العالم المسيحي شىء آخر • والواقع أننا لا نعرف عن أساقفة روما، في القرنين الأول والثاني أكثر من أسمائهم • ولم يكن ذلك إلا بعد عهد قسطنطين عندما أخذت المراجع تشير الى بعض البابوات (١) الذين لعبوا دورا فعلا في توجيه سياسة الكنيسة • ومن هؤلاء البابا داماسوس الأول (Damasus) (٣٦٦ - ٣٨٤) الذي كتب مؤلفا استعرض فيه مكانة كرسي روما الأسقفى وأكد سيادة البابوية وسموها (٢) • كذلك عهد هذا البابا الى جيروم بترجمة الانجيل الى اللاتينية • أما خليفته البابا سيركيوس (Siricius) ٣٨٤ - ٣٩٩، فترجع اليه أولى المراسيم البابوية التي وصلتنا، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما للبت فيها • وبعد ذلك اشتهر البابا ليو الأول أو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١) الذي تم في عهده الاعتراف بسيطرة البابوية على كافة الكنائس المحلية في الغرب • وفي هذه الأثناء كان الشرق البيزنطي مصرا على عناده، فاستمر الأباطرة يدعون المجامع الدينية للنظر في المسائل الدينية المعلقة، كما أخذوا يساندون مبدأ المساواة المطلقة بين روما والقسطنطينية من حيث المركز الديني • وقد حاول زعماء الكنيسة الشرقية في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ تأكيد هذه المساواة في المكانة والامتيازات بين كرسي روما وكرسي القسطنطينية، ولكن مندوب البابا ليو الأول عارض هذا المبدأ واستشهد ببعض قرارات مجمع نيقية على أسبقية كرسي روما (٣) • وهكذا تمسك بابوات روما دائما بفكرة أنهم خلفاء القديس بطرس، حتى اعترف بزعامتهم جميع أسقفيات الغرب في القرن الخامس ولم تعارضه سوى الكنيسة الشرقية • وفي سنة ٤٥٥ أصدر الامبراطور فالنسيان الثالث امبراطور الغرب مرسوما يقفى بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا (٤) • وهنا نشير الى وجود عوامل أخرى ثانوية ساعدت

(١) من الواضح أن لفظ بابا Pope إنما هو تحريف للفظ اللاتيني Papa بمعنى أب ويمكن اطلاق هذا اللفظ على أى فرد من رجال الكنيسة، ولكن العرف جرى في الغرب على أن يختص به أسقف روما وحده من باب التشريف •

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 171—173

(3) Idem : Vol. 1 pp. 510—511

(4) Duchesne : op. cit. pp. 631—632

على تحقيق سيادة البابوية ، منها ازدياد الالتجاء الى أساقفة روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الإقليمية أو صغار الأساقفة ، مما جعل أسقف روما يبدو بمثابة الحكم الأكبر والسد الأعلى (١) . ومن هذه العوامل أيضا عظم ثروة أسقفية روما وتعاقب عدد من ذوى الشخصيات القوية على كرسيها الأسقفى مثل ليو الأول وجريجورى الأول ، هذا فضلا عن أن سقوط الامبرطورية فى الغرب سنة ٤٧٦ ترك البابا وحيدا لا ينافسه سيد سياسى فى الغرب ، فى الوقت الذى كان بعيدا عن سلطان امبراطور القسطنطينية ونفوذه فى الشرق .

وهكذا سارت الأمور حتى تحققت للبابوية سيادتها الفعلية فى صورة عملية عالمية على عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) الذى دانت لنفوذه الكنيسة الغربية بأكملها ، وذلك بوصفه خليفة للقديس بطرس (٢) . أما الشرق فقد ظل على عناده مستقلا بامبراطوريته وكنيسته عن الغرب . وهنا نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائما من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية . ومن أمثلة ذلك الخلاف الذى قام حول تفسير طبيعة المسيح ، اذ أدان مجمع افسوس سنة ٤٣١ رأى القائل بفصل طبيعة المسيح الالهية عن طبيعته البشرية (٣) . ومنذ ذلك الوقت ظهرت جماعة من رجال الكنيسة يتزعمهم أقطاب الكنيسة المصرية ، تمسكوا بمبدأ الطبيعة الواحدة للمسيح ومن ثم أطلق على هذا المذهب « الطبيعة الواحدة Monophysite » . وعلى الرغم من أن مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ أدان مذهب الطبيعة الواحدة وأخذ برأى البابا ليو الأول بأن للمسيح طبيعتين فهو له من طبيعة أبية وبشر من طبيعة أمه - وهو المذهب الملكاتى - الا أن هذه المشكلة استمرت قائمة لتمثل سببا جديدا للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب (٤) .

-
- (1) Thompson : op. cit. pp. Vol. p. 54
 - (2) Deanesly : op. cit. pp. 177—184
 - (3) Duchesne ; op. cit. pp. 459—463
 - (4) Bury ; op. cit. Vol. I pp. 357—358

الباب الثالث

البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب

رأينا كيف أخذت الظواهر تدل منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع على أن أوجه التاريخ القديم بدأ يتعرض لكثير من المسخ والتغيير • ذلك أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يعتبر خطوة خطيرة ، بل انه الحقيقة التاريخية في تاريخ عالم البحر المتوسط في الفترة الواقعة بين ظهور روما وتحقيق زعامتها من جهة وبين ظهور الاسلام وانتشاره من جهة أخرى (١) • ويكفى أن هذا الاعتراف وما تبعه من انتشار المسيحية انتشارا آمنا سريعا يدل على أن دعامة كبرى من الدعائم التي قامت عليها الامبراطورية الرومانية أخذت تترنح لتنهيار أمام عقيدة جديدة ومبادئ جديدة وآراء جديدة ، تستهدف جميعها تنظيم العلاقات بين الله والبشر ، وبين الحكام ورعاياهم ، وبين الناس بعضهم وبعض ، على أسس تختلف كلية عما عرفه العالم القديم • أما نقل عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية فكان لا يقل أثرا في مسخ وجه العالم القديم ، إذ أحس المعاصرون بأن القديم المؤلف أخذ يتداعى ليدخل العالم المحيط بهم في طور جديد تختلف مظاهره عما اعتاده الناس من قبل (٢) • ذلك أن الناس تلفتوا حولهم ليجدوا روما - وهي المدينة الخالدة الجبارة مهد الأباطرة العظام والتي سادت الشرق والغرب حتى أصبحت شعارا للمدينة والحضارة وصاد كل ما عداها رمزا للبربرية والتأخر - هذه المدينة أصبحت فجأة مهددة بالذبول بعد أن هجرها الأباطرة وتركوها تنع من بناها وتأسف على مجدها السالف ، في حين أقام الأباطرة على شاطئ السفور حيث بنوا القسطنطينية ليجعلوا منها روما جديدة ترث روما القديمة في مجدها

(1) Lot : op. cit. p. 39

(2) Katz : op. cit. pp. 50-51.

وعظمتها(١) • ويرتبط بهذه الأحداث ما اتصفت به حكومة الامبراطور قسطنطين من طابع وراثي بحيث أصبحت الامبراطورية في هذا العهد الحديد تعتمد على حق الوراثة فضلا عن تأييد الله ورجال الكنيسة • كذلك شهدت هذه المرحلة بعينها اندثار فكرة أساسية طالما ميزت الحضارة اليونانية - الرومانية ، هي فكرة المواطنة ، اذ لم يعد هناك مجال في العصر الذي أعقب قسطنطين للمواطنين الذين اكتظت بهم المدن الحرة في العالمين اليوناني والروماني ، وحلت محل ذلك فكرة الرعوية بمعنى أن جميع رعايا الامبراطور أصبحوا متساوين في تبعيتهم له(٢) •

هذه الظواهر وغيرها من التيارات والأحداث التي أخذت تبدو على مسرح العالم الروماني في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، تجعلنا نعتقد أن أوروبا كانت تمر عندئذ بمرحلة انتقال كبرى ، تحملها من العصور القديمة الى العصور الوسطى • ولعل هذا التطور هو الذي دفع مؤرخا مثل بيوري الى القول بأن حكم قسطنطين العظيم بالذات يمثل بداية عهد جديد ، بالضبط كما هو الحال بالنسبة لحكم أوغسطين مؤسس الامبراطورية(٣) • والمعروف أن العصور الوسطى استمدت حضارتها وكيانها من ثلاثة أصول ضخمة : أولها التراث الكلاسيكي بوجه عام والروماني بوجه خاص ، وثانيها المسيحية وكنيستها وثالثها الجرمان(٤) • أما هؤلاء الجرمان فكانوا جزءا من العالم البربري الواسع الذي أحاط بالامبراطورية الرومانية من معظم نواحيها ، والذين لم يلبثوا أن أثروا في تغيير مصائر هذه الامبراطورية عندما أخذوا يهاجمونها منذ منتصف القرن الثاني • والواقع أنه كان من الممكن أن تعيش الامبراطورية الرومانية في الغرب عمرا أطول وأن تموت موتا أبطلًا رغم الانحلال الاقتصادي والاجتماعي والسياسي التي تعرضت له ، لولا هجمات البرابرة التي

(1) Charlesworth: op. cit. pp. 180—181

(2) Rostovtzeff : op. cit. Vol. p. 11. p. 333.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1. p. 1

(4) Thompson : op. cit. 1 p. 56

أسرعت بالامبراطورية نحو مصيرها المحتوم (١) •

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن لفظ « بربرية » بالمعنى الذى نستعمله لا يرادف لفظ « همجية » أو لفظ « وحشية » بأى حال ، لأن المقصود بالبربرية مرحلة من التنظيم الاجتماعى القبلى ، الذى لم يرق بعد الى مرحلة الاستقرار المدنى وإقامة الدول ذات الحدود الثابتة • فالمجتمع البربرى يعتمد على أساس رابطة الدم أكثر من اعتماده على رابطة المواطنة بين أفرادها ، ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نتهم الشعوب البربرية التى أحاطت بالدولة الرومانية بأنها عاشت صليبة مفتقرة الى أسس ودعائم حضارية ، لأن هذه العناصر تمتعت فى الواقع بتقاليد حضارية خاصة تزداد أمانا كلما ازداد البحث فى أصول هذه العناصر التى تمتد الى ما قبل التاريخ (٢) •

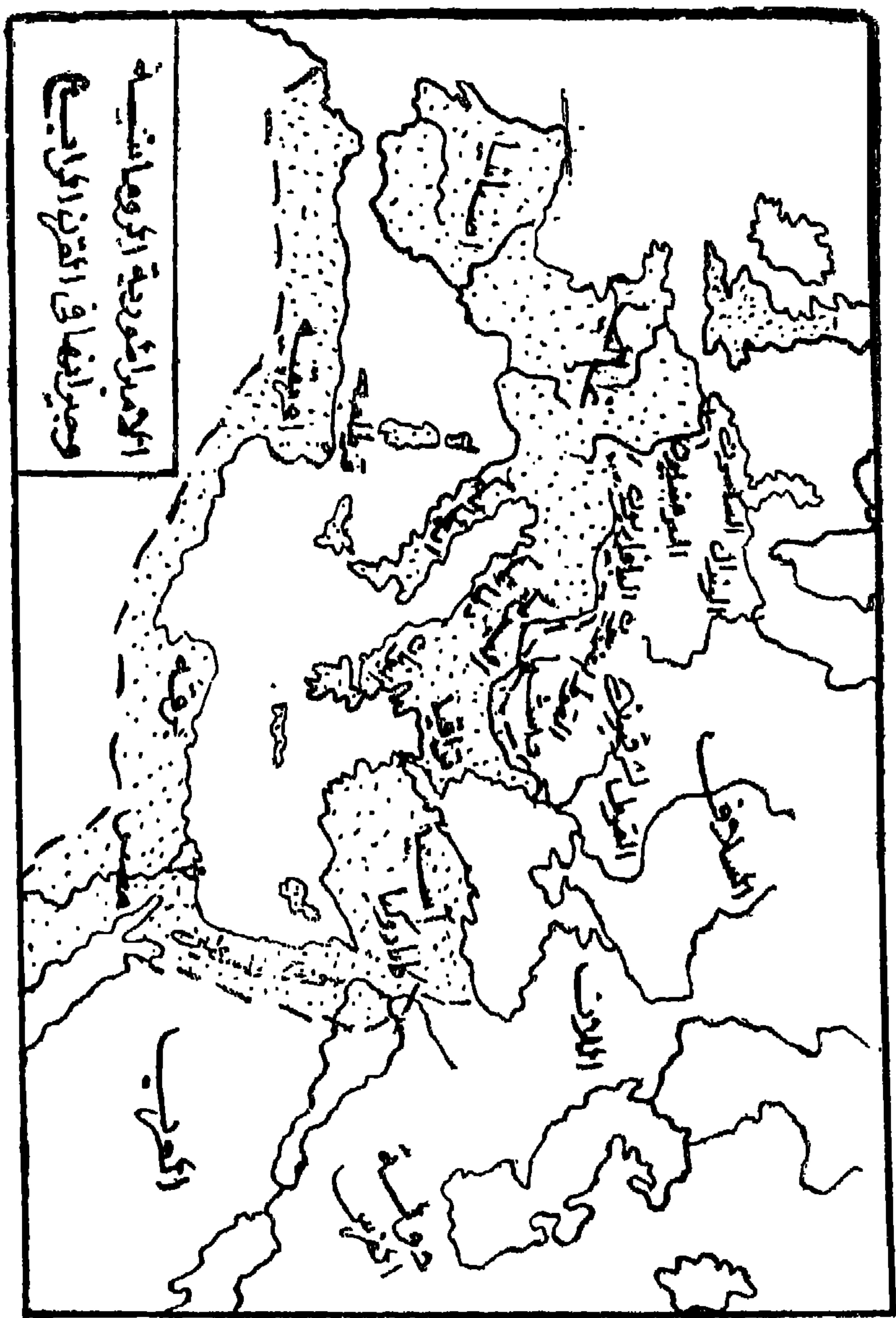
أما هذه الشعوب التى أحاطت بالعالم الرومانى فكانت كثيرة ومتباينة ، ففي الجنوب كان البربر فى غرب افريقية ، وفى الجنوب الشرقى كان العرب ، وفى الشرق وجد الفرس ، وفى الشمال الشرقى - بين جبال اورال وألطانى - ربضت شعوب آسيوية رعوية مثل السكيثيين Scythians والسايرماشييين Sarmatians والهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول والأتراك ، وإلى الغرب من هذه الشعوب - أى داخل الحدود الأوربية - وجد السلاف والجرمان والكلت •

أما مجموعة الشعوب الآسيوية الرعوية ، فكانت فى أول الأمر تبدو بعيدة جدا عن حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ ظلت تعيش فى سهول آسيا معتمدة على قطعان الخيل والماشية ، وتنقل وراءها من مرعى الى آخر تبعاً لظروف الأمطار والمناخ (٣) • على أن قسوة هذه الظروف اضطرت بعض الشعوب

(1) Lot : op. cit. p. 187

(2) Dawson . The Making of Europe, p. 68

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 323 — 330



الآسيوية الى القيام باغارات مدمرة للسلب والنهب • ولم تك أوروبا بمنجاة من هذه الاغارات ، لأن السهول الواقعة شمالى بحر تروين فتحت بابا أمام القبائل الرعوية الآسيوية - وبخاصة قبائل الهون - نفذت منه الى أوروبا ، وبالتالي أثارت جوا من الرعب والفرع بين الشعوب الرابضة على حدود الامبراطورية الرومانية(١) •

وكانت أولى ضحايا هذه العناصر الآسيوية الرعوية - وبخاصة الهون - هم السلاف الذين استقروا فى المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا • ويبدو أن هؤلاء السلاف تعرضوا لكثير من المتاعب فى أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم من الجنوب والشرق وضغط العناصر الجرمانية عليهم من الشمال ، مما عرض كثيرين منهم للاستعباد ، حتى اشتقت كلمة عبد فى كثير من اللغات الأوروبية Slave من اسم السلاف • ومع ذلك فقد عكف السلاف على فلاحه الأرض وأخذوا ينتشرون تدريجيا فى الأجزاء الشرقية من أوروبا حتى حولوها الى كتلة سلافية(٢) •

أما الكلت Celts - وهم الذين عرفهم الرومان باسم الغالين Gauls فكانوا يحتلون فى أول الأمر الغابات الواقعة فى شمال أوروبا حتى نهر الألب شرقا ثم قاموا بعد ذلك بحركة توسعية ضخمة هددوا فيها جمهورية روما الناشئة بالزوال ، اذ تدفقوا عبر جبال الألب فى ايطاليا وعبر نهر الراين فى الأراضى التى عرفت بعد ذلك باسمهم (غاليا) ، كما غزوا الجزر البريطانية ، وبذلك أصبح الكلت فى القرون الخمسة السابقة للميلاد يحكمون بلادا واسعة امتدت من جوف ألمانيا حتى البلقان والمحيط الأطلسى(٣) • وفى الوقت الذى غزا قيصر غاليا كان الجرمان قد طردوا الكلت من الجهات الواقعة شرقى الراين ، ولم يحل دون غزو الجرمان لغاليا عندئذ سوى فتح الرومان

(1) Stephenson : op. cit. p. 59 & Deanesly, op. cit. p.22

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I pp. 349—355

(3) Idem; Vol. I pp. 186—187

لها • ثم كان أن فتح الرومان بريطانيا في القرن الأول الميلادي ، وبذلك لم يبق للكلت مأوى مستقل سوى أيرلند (١) •

الجرمان :

والواقع ان الجرمان أو التيتون كانوا أقرب عناصر البرابرة الى حدود الامبراطورية الرومانية ، اذ انتشروا في القرنين الأول والثاني في أواسط أوروبا وشرقيها عبر نهري الراين والدانوب • أما الموطن الأول للعناصر الجرمانية فكان البلاد المحيطة بالبحر البلطي (٢) • ومن هناك أخذوا يتحركون جنوبا ليحلوا محل الكلت حتى استقروا في المناطق الواقعة بين نهري الألب والراين ، حيث حالت استحكامات الامبراطورية الرومانية دون تقدمهم بعد ذلك (٣) • ويمكن الوقوف على كثير من أحوال الجرمان في هته المرحلة المبكرة من تاريخهم بالرجوع الى كتابات قيصر وتاكيثوس Tacitus ، ومنها يتضح أنهم احتفظوا بكثير من التقاليد والنظم التي كانت تتعارض الى حد كبير مع ما ألفته العقلية الرومانية (٤) • ذلك أن الجرمان توخوا الناحية الفردية في كل شيء ، فالفرد هو محور الحياة ، وعلى أساس قوته الشخصية وسلطوته كانت أهميته ونفوذه • وإذا كان الجرمان قد تمسك بطاعة زعيمه فان هذا الشعور بالطاعة انبثق عن احساس باطنى لا تنفيذ لأمر أو قانون • أما أخلاق الجرمان الأوائل فكانت مزيجاً من الفضائل والنقائص التي عرفت بها الشعوب البدائية (٥) • ذلك أنهم جمعوا بين الشجاعة والقسوة وبين الكرم وعدم مراعاة أصول البحيرة ، هذا فضلاً عما عرفوا به من احترام للعهد وترباط بين أفراد الأسرة الواحدة ورعاية للمرأة ، وهى الصفات التي ظلوا عليها والتي لم يفسدها سوى اختلاطهم

(1) Painter : op. cit. p. 19

(2) Deanesly : op. cit. p. 25

(3) Hubert: Les Germains. pp. 16—17

(4) Painter . op. cit. pp. 20—21. &

ابراهيم طرخان : تاكيثوس والشعوب الجرمانية •

(5) Katz : op. cit. pp. 100—101.

بالرومان وتأثرهم بهم (١) • كذلك أولع الجرمان بالميسر والمقامرة حتى بلغ الأمر بالشخص الذى يفقد ماله أن يقامر على حرите • وكان أهم ما امتدحه تاكيتوس فى الجرمان هو كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس (٢) • والمرجح أن القاعدة السائدة بينهم هى أن يكتفى الزوج بزوجة واحدة ، وإن كان بعض النبلاء قد خرجوا عن هذا المبدأ بعد أن ازدادت ثروتهم • أما ديانة الجرمان فكانت خليطا من الأساطير وعبادة القوى الطبيعية مثل الشمس والقمر والرعد وغيرها ، ولكنهم لم يقيموا معابد أو تماثيل لآلهتهم ، كما أن الكهنة لم يؤلفوا طبقة خاصة ممتازة فى مجتمعهم (٣) •

وكانت الأسرة تمثل وحدة النظام الجرمانى فى أول الأمر ، حيث تمتع الأب بسلطة مطلقة على زوجته وأولاده بلغت حقه فى سلبهم الحياة • ومن مجموعة الأسر التى تربطها قرابة الدم تألفت العشيرة ، ثم تكونت الدولة أخيرا من مجموعة عشائر (٤) • ولم يتمتع بحق ملكية الأرض سوى الأحرار والنبلاء فقط ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحد أفرادها من جرائم • وفى حالة القتل كان لابد لأهل القاتل من الأخذ بثأره إلا اذا دفع القاتل أو أهله فدية مرضية •

وقد انقسم الجرمان من حيث البناء الاجتماعى الى ثلاث طبقات : النبلاء والأحرار والعبيد (٥) • وكان النبلاء يكونون الطبقة المحاربة التى تمتعت بنوع خاص من التثريف ، فلا يشتغل أفرادها بالفلاحة وإنما يقضون وقت السلم فى الأكل والنوم والصيد والتسكع ، فى حين تقع بقية أعباء المجتمع — وأهمها الفلاحة وأعمال المنزل — على غير المحاربين من النساء والأولاد

-
- (1) Lavissee : Hist. de France ; Tome II, Première Partie, .
p. 46
(2) Tacitus : Germania, p. 11
(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 63
(4) Eyre : European Civilisation. Vol. III, p. 13.
(5) Lavissee, op. cit. pp. 48—49

والعبيد • ولم يقيم هؤلاء العبيد بدور هام في الخدمة المنزلية - مثل عبيد الرومان - وإنما اقتصر عملهم على الزراعة حيث وزعت عليهم حصصا من الأرض يدفعون جزءا من غلتها في نهاية الموسم (١) • أما الأحرار - من غير النبلاء - فلم يكونوا أحسن حالا بكثير من العبيد (٢) • وهنا نلاحظ أمرين : أولهما أن الحرية وملكية الأرض كانا أمرين متلازمين سارا جنبا الى جنب في المجتمع الجرمانى ، وثانيهما أن النبالة ارتبطت بشرف المولد والوراثة لا بملكية الأرض • ولم يعرف الجرمان حياة المدن في عصورهم الأولى • وإنما عاشوا في قرى متناثرة وسط الأضغال والغابات ، في حين كانت منازلهم عبارة عن أكواخ مشيدة من الأغصان والطين (٣) • واعتاد الجرمان أن يرتدوا ملابس بسيطة من جلود الحيوانات ويطلقون شعرا رؤوسهم ولحاهم ، وربما ربط الرجال شعرهم على هيئة ضفائر معقودة فوق رؤوسهم • أما طعامهم فكان بسيطا يتألف من اللبن والفاكهة ولحوم الصيد والحبوب (٤) • ولم يعرف الجرمان النبيذ إلا عندما استقروا على الحدود الرومانية ، أما شرابهم الأساسي فكانوا يصنعونه من الحنطة أو الشعير ، أى أنه كان أقرب الى البجعة منه الى النبيذ • وكان لكل قرية جمعية أو مجلس moot يتكون من رجالها الأحرار ، في حين أن القرى لم تكن فى عزلة عن بعضها البعض ، وإنما وجد اتصال دائم بينها عن طريق الأنهار أو الممرات التى تتخلل الغابات (٥) • والمعروف أن الثروة عند الجرمان قومت بالخيول والماشية وغيرها من الحيوانات الأليفة النافعة • حقيقة أن الجرمان عرفوا النقود الرومانية كما عرفوا الأوانى الذهبية والفضية ، ولكن الحيوانات السابقة حلت عندهم محل النقود فى التبادل والمعاملة (٦) •

(1) Tacitus : Germania; p. 15

(2) Stephenson : op. cit. p. 61

(3) Katz : op. p. 99 & Tacitus: Germania ; p. 10

(4) Tacitus ; Germania, p. II

(5) Thompson, op. cit. Vol. I p. 64

(١) ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ •

أما التنظيم السياسى فكان بسيطا ، ووحدة القرية أو المارك Mark ، ومن بعدها تأتي المائة hundred وهى وحدة عسكرية تكبر القرية (١) ، ثم تأتي المقاطعة أو المديرية (Gau) وتتألف من عدة مئات ، ومن مجموع المقاطعات تتألف الدولة القبلية التى أطلق عليها فيما بعد مملكة أوراينخ Reich عندما تقدم النظام الملكى بين الجرمان (٢) . وكانت للدولة الجرمانية جمعىة عمومية تضم جميع أفرادها المحاربين ولا تنعقد الا فى حالة الحرب أو الهجرة . كذلك وجدت جمعيات أو مجالس للمقاطعة وللمائة على مقياس أصغر ، تتألف من النبلاء والأحرار ولكنها تجتمع فى وقت السلم أيضا لبحث المسائل المدنية . وعلى رأس كل أمة من الأمم الجرمانية وجد بعض الرؤساء أو القادة Principes الذين لم يكونوا ملوكا أو نبلاء ، وإنما كانوا زعماء منتخبين اختارهم شعبهم لما تحلوا به من صفات تؤهلهم للزعامة وأهمها الشجاعة . وفى وقت الحرب كان يتولى القيادة قائد معروف الشجاعة والاقدام ، فيتمتع بسلطات استثنائية واسعة تنتهى بانتهاء الحرب (٣) على أنه لما كانت الحروب طويلة وشبه مستمرة ، فإن هذا القائد أصبح يتكرر انتخابه حيناً بعد آخر . ثم تطور الأمر فصار يختار ابنه بعد وفاته ، مما أدى تدريجيا الى قيام نظام ملكى وراثى فى الدول والجماعات الجرمانية (٤) . على أن ملوك الجرمان لم يكونوا فى هذه المرحلة المبكرة أكثر من قادة حربيين ، دون أن يتمتعوا بسلطة مطلقة فى التشريع أو فرض العقوبات ، وهى المسائل التى حددتها التقاليد السائدة بين الجرمان والعرف المتوارث دون أن يمتلك فرد أو زعيم حق تغيير الأوضاع المألوفة (٥) . وإذا كان بعض المؤرخين يميلون

(١) يرجع اصطلاح المائة الى الجرمان الأوائل الذين انتشروا فى شمال أوربا ووسطها . ويرجح أن هذا الاصطلاح كان يعنى عندئذ جماعة من المحاربين عددهم مائة فرد . وكما أن أفراد هذه الوحدة حاربوا سويا فكذلك اختاروا عند الاستقرار أن يجتمعوا سويا ، ومن هنا أطلق هذا الاصطلاح على الوحدة السياسية التى تتوسط القرية والمقاطعة .

(Karsten : Les Anciens Germains, p. 178) :

(2) Moss : op. cit. pp. 40—41.

(3) Tacitus : Germania, n. 9

(4) Thompson : op. cit. Vol. I n. 65

(5) Stephenson : op. cit. p. 62

الى وصف المجتمعات الجرمانية الأولى بأنها كانت ديموقراطية ، فانه لا ينبغي أن يفهم من ذلك أنها اتبعت نظاما ديموقراطيا فى الحكم ، لأننا سبق أن رأينا أن المجتمع الجرمانى قام على أساس التفرقة الاجتماعية بين مختلف طبقاته . وانما المقصود من لصق هذه الصفة بالجرمان هو وجود بعض المبادئ التى تتم عن اتجاهات ديموقراطية فى المجتمع الجرمانى مثل انتخاب الزعماء ، والفصل فى القضايا فى محاكمات عامة (١) .

هذه هى خلاصة أحوال الجرمان الذين استقروا على حدود الامبراطورية الرومانية من جهتى الشمال والغرب . وهنا نلاحظ عدم وجود أى عداة بين الرومان والجرمان فى أول الأمر ، كما أنه لم توجد مطامع للجرمان فى أراضي الامبراطورية ، وانما كل ما أراداه الطرفان هو الحياة الآمنة المستقرة فى بلاده . وعلى هذا ليست من الواقع فى شىء تلك النظرية التى تقول بأن روما ظلت منذ بداية عهدها تعيش فى رعب من الخطر الجرمانى ، وأن الجرمان أخذوا منذ أول أمرهم يمتنون أنفسهم بغزو الامبراطورية الرومانية والقضاء عليها (٢) . وهناك من الدلائل ما يثبت أن السنوات الواقعة بين قيصر وماركوس أورليوس (٥٠ ق م - ١٨٠ م) شهدت بوجه عام جوا من السلام ساد العلاقات بين الرومان والجرمان ، كما أن القبائل الجرمانية المربطة على حدود الامبراطورية عاشت حينئذ فى حالة واضحة من الهدوء والاستقرار . على أن هذا الوضع أخذ يتغير فى أواخر القرن الثانى ، عندما تعرض المجتمع الجرمانى لنوع من الضغط والقلق سبب له شيئا من الحركة (٣) . ذلك أن السلاف وغيرهم من العناصر الشرقية أخذوا يضغطون على الجرمان من جهة الشرق ، فى الوقت الذى ازدادت أعداد الجرمان وضافت أمامهم سبل العيش . وهنا تلفت هؤلاء الجرمان حولهم فلم يجدوا الا أرضا فقيرة مجربة تغطيها الغابات وتكتنفها المستنقعات ،

(1) Painter . op. cit. p. 23

(2) Katz: op. cit. p. 103

(3) Cam. Med. Vol. I p. 188

فضلا عن تأخرهم ووقوعهم تحت رحمة الطبيعة وظروفها القاسية من فيضانات خطيرة الى قحط ومجاعات ، مما جعلهم فى حالة من الشدة ونقص فى الأقوات دفعتهم الى الحركة • وهكذا أخذ الجرمان يتطلعون الى أراضى الامبراطورية الرومانية التى جذبتهم اليها بنظامها المستقر وخيراتها الوفيرة وحضارتها الزاهرة (١) •

وقد بدأ موقف الجرمان السلبي من الامبراطورية الرومانية يتغير منذ عهد الامبراطور ماركوس أورليوس (١٦١ - ١٨٠) ، عندما تحالفت بعض الطوائف الجرمانية المعروفة باسم الماركوماني Marcomanni والقواضى Quadi لمهاجمة جبهة أعلى الدانوب عند بانونيا (٢) • وعلى الرغم من أن الأزمة انتهت بالقضاء على خطر هؤلاء المهاجمين وتدمير قوتهم ، إلا أن تهديد الجرمان لحدود الامبراطورية لم ينقطع بعد ذلك ، اذ لم يلبث أن ظهر خطرهم على الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث على عهد الامبراطور كارا كالا (٢١١ - ٢١٧) عندما تقدم القوط جنوبا من شواطئ البحر البلطى فسحقوا السارماشين وهاجموا اقليم داشيا على الدانوب ، حيث ظلوا خمسين سنة يعيشون فسادا فى البلقان حتى هزمهم الامبراطور كلوديوس الثانى (٢٦٨-٢٧٠) فى نيسوس Naissus سنة ٢٦٩ (٣) •

ويهمنا فى أمر هذا الدور المبكر من أدوار الحرب بين القوط والرومان أن أباطرة الرومان اختاروا أن يسالموا القوط على الرغم من تفوق الرومان ، فتنازلوا لهم عن اقليم داشيا وسحبوا منه الجيوش الرومانية والموظفين على عهد الامبراطور أورليان (٢٧٠ - ٢٧٥) ، وعندئذ استقر القوط وأعرضوا عن أعمال السلب والنهب وبدءوا يتأثرون بالمسيحية وغيرها من التيارات الحضارية، مما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل حدود الامبراطورية الرومانية (٤) •

(1) Katz : op. cit. pp. 101—102

(2) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 29

(3) Thompson. op. cit. Vol. I p. 72

(4) Cary : op. cit. p. 728

أن الخطر الذي هدد الامبراطورية الرومانية في هذا الدور لم يأت من جانب القوط وحدهم ، وإنما قام الألمان والفرنجة والبالفيون والسكسون والتورنجيون والفريزيون بعدة هجمات أخرى متفرقة ، حتى انتهى الدور الأول من حركة الهجرة الجرمانية سنة ٣٠٠ لتبدأ فترة أخرى جديدة من العلاقات السلمية الهادئة بين الرومان والجرمان (١) . على أن توغل الجرمان داخل حدود الامبراطورية لم يوقف في هذا الدور السلمى الجديد ، وإنما استمر بعد أن غير طابعه من الهجمات الحربية العنيفة الى الزحف البطيء والتسلل السلمى الهادئ . وهنا نجد الامبراطورية تفتح صدرها لهؤلاء الوافدين من الجرمان ، فتستخدمهم جنودا في بعض الفرق وتمنحهم مستعمرات وأراضي يقيمون فيها داخل الحدود الرومانية ، بل أن بعض ضباط الجيش الرومانى البارزين في تلك الفترة جرت في عروقهم دماء جرمانية (٢) . حقيقة أن استخدام الجرمان في الجيش الرومانى والسماح لهم بالاقامة السلمية لم يك أمرا جديدا ، إذ ترجع جذور هذه الظاهرة الى أيام الامبراطور أوغسطس نفسه ، ولكنها أخذت تتخذ مظهرا شاملا واسع النطاق في القرنين الثالث والرابع ، عندما بدأت العلاقة بين الرومان من جهة والجرمان المقيمين وسطهم من جهة أخرى تمتد الى التزاوج والتفاعل الاجتماعى ، مما ترك أثرا بعيد المدى في مستقبل الحوادث . وهكذا لا يمكن القول بأن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية كانت في القرن الرابع تفصل بين العالمين الرومانى والبربرى لأن كلا من الطرفين أخذ يتأثر بالآخر ويؤثر فيه (٣) .

ثم كان أن تجددت الهجمات الجرمانية على حدود الدولة الرومانية مرة أخرى منذ سنة ٣٧٥ متخذة طابعا جديدا . فحتى هذا التاريخ كانت تلك الهجمات عبارة عن عمليات حربية متقطعة لا تربطها رابطة ولا توحد بينها خطة جامعة . وكان يكفي أن تتعرض قبيلة لضغط قبيلة أخرى ، أو تصاب

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 207.

(٢) Painter : op, cit. p, 19.

(٣) Eyre : op. cit. p. 15.

منطقة من مناطق الجرمان بقحط أو نقص فى الأقوات ، أو يستكشف أحد زعمائهم الطموحين نقطة ضعف فى الحدود الرومانية ، للقيام بهجوم جزئى محلى على أراضى الامبراطورية . ولكن هجمات البرابرة أخذت تتخذ شكل اغارات عامة ضخمة منذ سنة ٣٧٥ (١) وقد امتدت هذه الحركة الواسعة حتى سنة ٥٦٨ أى نحو قرنين من الزمان استطاع فيها كثير من الجموع الجرمانية اجتياح أقاليم رومانية هامة وتأسيس ممالك جديدة داخل هذه الأقاليم ، مما غير وجه العالم القديم تغييرا تاما وجعل صورة أوروبا العصور الوسطى تبدو أقرب وضوحا (٣) . وهنا يحسن قبل أن نتناول كل عنصر من عناصر الجرمان المختلفة بالبحث ، أن نشير الى أن هذه العناصر تألفت من جماعات تفيض بالحيوية والقوة ، قطعت حضارة العالم القديم المتداعية بما جلبته معها من دماء جديدة ونظم جديدة . وليس من الصواب فى شيء القول بأن الجرمان كانوا معادين للحضارة الرومانية ، وأنهم مسئولون عن تدمير هذه الحضارة ، لأن الحضارة الرومانية كانت تترنح قبل الغزوات الجرمانية ، وأخذت تتدهور فعلا فى طريق الانحلال عندما بدأ الجرمان يتطرقون الى جسم الامبراطورية الرومانية عن طريق الغزو المفاجئ السريع أو عن طريق التسلسل الهادى البطيء (٣) . وربما كان من الأصوب عندما نتحدث عن الأثر المباشر الذى أحدثته غزوات الجرمان فى جسم الامبراطورية الرومانية وكيانها ، أن نذكر دائما أهمية هؤلاء الجرمان فى تاريخ غرب أوروبا وحضارتها .

وثمة ملاحظة أخرى هى أن شدة التباين بين جموع البرابرة الذين غزوا الامبراطورية الرومانية فيما بين القرنين الرابع والسادس تجعل من الضرورى التفرقة بين الجماعات التى أخذت تجتاح البلاد لتسلب كل ما يصادفها دون أن تحاول الإقامة والاستقرار فى تلك البلاد أو تترك أثرا فى تاريخها سوى الخراب والتدمير ، وبين الجماعات المترابطة التى غزت اقليما من أقاليم الامبراطورية لتستقر فيه وتختلط بالأهالى الأصليين اختلاطا جنسيا وحضاريا

(1) Lot : Les Invasions Germaniques, p. 59.

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 79.

(3) Stephenson : op. cit. p. 68.

مما ترك أثرا عميقا في تاريخها • ومن أمثلة النوع الأول اتباع راداجيسوس Radagaisus وهم خليط من البرابرة الذين انتهى الأمر بتحتيهم في إيطاليا سنة ٤٠٥ (١) • وكذلك أتباع اتيلا من الهون وغير الهون الذين قدموا من سهول آسيا الغربية لغزو أراضي الامبراطورية بدون ضابط • أما النوع الثاني فمن أمثلته القوط والفرنجة والبرجنديون والوندال والأنجلوسكسون واللمبارديون (٢) •

القوط الغربيون :

أما القوط فيبدو أنهم عبروا البحر البلطى من سكندناوة قبل حلول القرن الرابع قبل الميلاد حتى وصلوا مصب الفستولا • وقرب منتصف القرن الثاني الميلادى بدأت قبائل القوط رحلة طويلة نحو الجنوب الشرقى حيث استقروا شمالى البحر الأسود • وهناك انقسم القوط الى قسمين شرقيين وغربيين (٣) • فانتشر الشرقيون فوق سهول روسيا الجنوبية فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات (٢٧٥ - ٣٧٥) (٤)

وكان أن ترتب على احتكاك القوط بالعالم الرومانى أن أفادوا من حضارة

(١) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 33.

(٣) Fliche : La Chrétienté Médiévale, pp. 10-14.

(٣) يلاحظ أنه لا توجد علاقة بين الموقع الجغرافى وتقسيم القوط الى شرقيين وغربيين • ويبدو أن هذه التسمية التى أطلقت على شعبتى القوط لا تعدو أن تكون نوعا من الخطأ التاريخى الذى اكتسب صيغة الحقيقة بحكم تواتره فى المراجع التاريخية • ذلك أن المدلول الاصلى للفظ Ostrogoths - وهو اللفظ الذى جرى العرف على ترجمته فى المراجع الى القوط الشرقيين - هو فى الحقيقة القوط السناطعون أو الزاهسون (auster) لا الشرقيون ، كما أن المدلول الاصلى للفظ Visigoths - الذى تعبر عنه المراجع بالقوط الغربيين ، هو القوط الاذكياء Wise • وإذا كانت الظروف شاءت أن يتجه القوط الغربيون غربا وأن يستقر القوط الشرقيون شرقيهم ، فإن هذا كان من محض المصادفات التاريخية •

(Lot : The End of the Ancient World, p. 191).

(3) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44.

الرومان وتأثروا بها تأثرا ظهر بجلاء في اعتناقهم المسيحية عن طريق مبشر منهم اسمه ولفلاس Wulfilas (٣١١ - ٣٦١) تلقى تعليمه بالقسطنطينية . وعندما عين ولفلاس هذا اسقفا على القوط حوالي سنة ٣٤١ قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة القوطية ، وتعتبر هذه الترجمة - التي مازال جزؤ منها باقيا حتى اليوم - أقدم آثار اللغة الجرمانية (١) . على أن المهم في أمر اعتناق القوط للمسيحية هو أنهم تلقوها في مذهبها الأريوسي ، لأن ولفلاس نفسه كان أريوسيا ، الأمر الذي أدى الى انتشار الأريوسية بين القوط ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل الوندال والبرجنديين واللبارديين ، مما كان له أبعاد الأثر في مستقبل الحوادث التاريخية في أوروبا العصور الوسطى (٢) .

ثم حدث في النصف الثاني من القرن الرابع ان اندفع الهون الآسيويون خلال المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين نحو جنوب روسيا ، وبالتالي انقضوا على القوط (٣) . ويبدو أن هجوم الهون جاء على درجة من العنف والشدة جعلت الرومان والجرمان يتآزرون جميعا لصد هذا الخطر المشترك . على أن ضغط الهون أحدث رد فعل عنيف بين الجرمان ، مما أثر بالتالي في أوضاع الامبراطورية الرومانية تأثيرا خطيرا . ذلك أن القوط الغربيين لم يجدوا بدا من الفرار من وجه الهون فطلبوا من الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . واذا كان الامبراطور قد وافق على طلبهم ليتخذ منهم ستارا يحمي الحدود الرومانية من خطر الهون (٤) ، الا أن عبور ما يقرب من مليون ومائة ألف محارب من القوط الغربيين لنهر الدانوب سنة ٣٧٦ - حيث سمحت لهم الحكومة الرومانية بالاقامة في مواشيا وتراقيا - أحدث هزة عنيفة في جسم الامبراطورية . ذلك أن هؤلاء الدخلاء لم يلبثوا أن ثاروا على الامبراطورية ، وأنزلوا الهزيمة

(1) Bradley : The Goths, p. 61.

(2) Moss : op. cit. p. 44.

(3) Lot : Les Invasions Germaniques. pp. 56-57.

(4) Painter . op. cit. p. 24.

بالامبراطور فالنز وذبحوه في أدرنة سنة ٣٧٨ (١) ، مما دفع خليفته الامبراطور ثيودسيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥) الى العمل على اتقاء شر القوط ، فعقد معهم اتفاقية اصبحوا بمقتضاها معاهدين Foederati للامبراطور ، كما سمح للقوط الشرقيين بالاقامة في اقليم بانونيا والقوط الغربيين بالاقامة في شمال تراقيا . وقد تمتع القوط بسلطة مطلقة في هذه الأقاليم التي احتلوها ، فأعفوا من الضرائب مقابل الخدمة العسكرية التي تعهدوا بتقديمها الى الامبراطورية (٢) . وتعتبر هذه الاتفاقية التي عقدها ثيودسيوس مع القوط سنة ٣٨٢ نقطة تحول كبرى في سياسة الامبراطورية الرومانية تجاه الجرمان ، الذين اخذوا منذ ذلك الوقت يتجهون نحو تأسيس ممالك لهم داخل حدود الامبراطورية ، بعد ان اقتصر الأمر من قبل على مجرد السماح لهم بالاقامة المسلية في ظل الادارة والنظم الرومانية . على أن القوط الغربيين ظلوا محتفظين بطابعهم ، فضلا عن نظمهم وقوانينهم ومذهبهم الأريوسي مع التزامهم فقط بتقديم الخدمة العسكرية للامبراطورية وحراسة حدودها . واستمر هذا الوضع سائدا حتى وفاة الامبراطور ثيودسيوس سنة ٣٩٥ وعندئذ تار القوط الغربيون من جديد (٣) .

ذلك أنه حدث عند وفاة ثيودسيوس أن قسمت الامبراطورية بين ولديه ، فكان الشرق من نصيب اركاديوس والغرب من نصيب هنريوس (٤) . وهنا أخذ نفوذ الجرمان السياسي والحربي يزداد قوة داخل الامبراطورية فاعتمد هنريوس في الغرب على قائد وندالي قدير هو ستليكو ومنحه تفويضا تاما من الناحية الحربية ، في حين اعتمد اركاديوس في الشرق على روفينوس

(1) Wallace - Hadrill : The Barbarian West. p. 21,

(2) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State, p. 48.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 90.

(4) Lot & Pfister & Ganshof : Les Destinees de L'Empire-En Occident, p. 24.

Rufinus وهو وزير قوطى عرف بالأنانية والقسوة وعدم الاخلاص (١) ويبدو أن القوط الغربيين كانوا فى حالة استياء منذ اتفاقهم مع الامبراطورية سنة ٣٨٢ لأنهم لم يلبثوا أن تبرموا بما ألقته عليهم هذه الاتفاقية من التزامات وخدمات عسكرية يؤدونها للامبراطورية فى الوقت الذى كانوا يشدون حياة الاستقرار والهدوء . لذلك ثاروا سنة ٣٩٥ تحت زعامة ملكهم أرك ففزوا مقدونيا وتساليا واقتحموا آثينا ونهبوا كورنثه حتى اقتربوا من القسطنطينية (٣) . وكانت حكومة الامبراطورية الشرقية عندئذ فى حالة تبلد وجمود فلم تتحرك لدفع خطر القوط الغربيين ، مما جعل ستليكو قائد الامبراطورية الغربية يقوم بهذه المهمة ، فعبّر البحر الأدرياتي وحصر القوط فى الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة المورة (مقاطعة اليس Elis) وان كان ملكهم أرك قد استطاع الفرار (سنة ٣٩٦) .

وأخيرا رأى اركاديوس امبراطور الدولة الشرقية أن يمنح أرك اقليم اليريا سنة ٣٩٨ ، حيث ظل القوط الغربيون قابعين أربع سنوات ، فى حين عاد ستليكو الى غاليا وجبهة الدانوب لمحاربة الوندال (٣) . وفى سنة ٤٠٢ حاول أرك غزو ايطاليا لأول مرة ، ولكن ستليكو رده على أعقابهم ولم تلبث ايطاليا أن تعرضت مرة أخرى سنة ٤٠٥ لغزو جماعات من الوندال والسويفى والبرجنديين واللان الذين اضطروا الى الاتجاه نحو ايطاليا أمام ضغط الهون ، ولكن ستليكو أنزل بهم الهزيمة وأسر زعيمهم راداجيسوس وأعدمه سنة ٤٠٦ ، وبذلك نجت ايطاليا مرة أخرى من غزو البرابرة (٤) . على أن ستليكو اضطر فى سبيل الدفاع عن ايطاليا فى هذه المرة الأخيرة الى سحب بعض الفرق الحربية التى تقوم بحراسة جبهة الراين ، مما أتاح الفرصة لجماعات من الوندال واللان والسويفى لعبور الحدود الرومانية سنة ٤٠٦ ، ومن ثم قضوا ثلاث سنوات فى غاليا اجتاحتها فيها البلاد ونهبوها ثم اندفعوا منها الى

(1) Cam Med, Hist. Vol 1, p. 260.

(2) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 110.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome, 1, p. 116.

(4) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 28.

(5) Bury : op. cit. Vol. 1, p. 168.

أسبانيا سنة ٤٠٩ (١) • وقد أفرغت هذه الأحداث الامبراطور هنريوس الذي رأى فيها فرصة طيبة للتخلص من قائدة ستليكو. بعد أن ازداد نفوذه ازديادا خطيرا حتى أوشك أن يصبح الحاكم الفعلى فى الدولة - مما اثار حقد الامبراطور - فوجه اليه تهمة الاهمال فى حماية حدود الامبراطورية والتامر ضد سلامتها وسلامة الامبراطور نفسه ، وبالتالي تم اعدامه سنة ٤٠٨ (٣) •

ويبدو أن الامبراطور تطرف فى التخلص من أتباع ستليكو عن طريق القتل ، مما جعل بعضهم يفرون نحو ألك ملك القوط الغربيين حيث زينوا له غزو ايطاليا (٣) • وقد وجد ألك فرصته سانحة بعد مقتل ستليكو - لرجل الوحيد الذى استطاع انزال الهزيمة به - فزحف على رأس رجاله من القوط الغربيين الى روما التى تعرضت لأول مرة منذ عهد هانيبال لحصار جيوش أجنبية معادية • وعندما فشلت المفاوضات بين ألك والامبراطور هنريوس - الذى كان عندئذ آمنا فى عاصمته الجديدة رافنا - اقتحم القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ (٤) ، فنهبوا بيوت نبلاتها وأحرقوها ولكنهم لم يحدثوا مذبحة بين الأهالى ، كما احترموا الكنائس على الرغم من أريوسيتهم • أما ألك فقد توفى قرب نهاية ٤١٠ حيث تذكر الأساطير أنه دفن فى قاع أحد الأنهار بجنوب ايطاليا (٥) •

وأخيرا لم يجد الامبراطور وسيلة لاجراج القوط الغربيين من ايطاليا سوى اعطابهم اقليم اكويتين من اللوار حتى البرانس (٦) • والواقع أنه كان على القوط الغربيين أن يبذلوا جهدا جديدا لاستخلاص هذه الهبة من جموع الوندال واللان والسويفى الذين كانوا قد تطرقوا الى هذه الأقاليم الغالية كما

-
- (1) Cam. Med. Hist, Vol. 1, pp. 266-268.
 - (2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 202-204.
 - (3) Lot . Les Invasions Germaniques, pp. 74-75,
 - (4) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 180.
 - (5) Deanesly : op. cit. pp. 27-28.
 - (6) Bradley : The Goths, pp. 106-107.

سبق • وقد استطاع وإليها ملك القوط الغربيين الجديد أن يطرد السويفي إلى الجزء الشمالي الغربي من أسبانيا وأن يزيج الوندال إلى جنوبى نهر ابرو ، وبذلك تمكن القوط الغربيون من الاستقرار سنة ٤١٨ فى الجزء الجنوبى من غاليا - أى فى إقليم اكويتين وحول تولوز - بعد ان قضوا زهاء أربعين عاما فى التنقل والترحال (١) • وكانت المنطقة التى انتشر فيها القوط الغربيون عندئذ تمتد من تولوز على نهر الجارون إلى اسبانيا ، التى طردوا الوندال منها سنة ٤٢٩ •

وعندما توفى وإليها خلفه ثيودريك الأول (٤١٩ - ٤٥١) الذى عمل على تثبيت أركان مملكة القوط الغربيين وتوسيع رقعتها • وكان أهم ما قام به فى سبيل تحقيق ذلك انتزاعه عدة مدن فى جنوب غاليا من الرومان سنة ٤٣٦ (٢) • وقد حاول الرومان الوقوف فى وجهه ولكنه أنزل بهم الهزيمة سنة ٤٣٩ ، ومن ثم ساد السلام بين الطرفين • أخيرا مات ثيودريك الأول سنة ٤٥١ أثناء حربه مع الهون ، فخلفه فى حكم القوط الغربيين ثيودريك الثانى (٤٥١ - ٤٦٥) الذى حارب السويفى فى شمال غرب أسبانيا وغزا ناربون قرب الحدود الغالية الأسبانية كما مد مملكته حتى نهر اللوار • على أن ثيودريك الثانى لم يلبث أن قتل سنة ٤٦٥ بواسطة أخيه ايورك (٤٦٥ - ٤٨٤) الذى يعتبر أقدر ملوك القوط الغربيين (٣) • ذلك أنه قضى على ما تبقى من النفوذ الرومانى فى أسبانيا ، وأخضع السويفى كما وضع أول مجموعة للقانون الجرمانى عرفها التاريخ (Antiqua) والحق ان مملكة القوط الغربيين - التى ظلت قائمة فى أسبانيا حتى الفتح العربى فى أوائل القرن الثامن - تعتبر أقوى الممالك الجرمانية فى الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦ من جهة ، وقيام مملكة الفرنجة فى شمال غاليا ومملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس من جهة أخرى (٤) •

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 205.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 279.

(3) Bury . op. cit. Vol. 1, p. 341.

(4) Thompson ; op. cit. Vol, 1, p. 94.

الوندال :

أما الوندال فقد ظلوا يقاومون القوط الغربيين في أسبانيا طوال أربع عشرة سنة اضطروا بعدها الى عبور البحر الى شمال افريقية سنة ٤٢٩ تحت زعامة ملكهم جزريك Gaiseric (١) • وصادف عندئذ قيام حرب أهلية في ولاية شمال افريقية ، وقيام امبراطور قاصر هو فالنسيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) على عرش الامبراطورية ، مما سهل على الوندال مهمتهم • وسرعان ما أثبت جزريك - ذلك الرجل القصير الأعرج - أنه على جانب كبير من المقدرة والكفاية (٢) ، اذ استولى على البلاد من طنجة حتى طرابلس ، كما سقطت قرطاجة - أهم مدينة في الغرب بعد روما - في أيدي الوندال سنة ٤٣٩ ، وبذلك ضاعت ولاية شمال افريقية فخرت الامبراطورية الرومانية بضياعها جزءا آخر من أهم اجزائها التي كانت تمونها بالغال (٣) • ولم يستطع أهالي شمال افريقية سوى الامتثال لحكم القدر ، لأن عدد الغزاة من الوندال بلغ نحو من ثمانين ألفا من رجال ونساء وأطفال • وزاد من سوء أحوال الأهالي ان جزريك نهج في حكم مملكته الجديدة نهجا استبداديا عنيفا فصادر الضياع وانتزع الأراضي من أصحابها ، كما تعسف في جمع الأموال والضرائب من الأهالي وعاملهم في قسوة بالغة (٤) • هذا الى أنه أثار حق أهالي البلاد الأصليين بصورة بالغة عندما اتبع سياسة دينية متطرفة ، فصادر - وهو الملك الأريوسي - ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية في شمال افريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك اضطهادا بالغا أثار سخط الرأي العام ، حتى أصبح لفظ الوندالية Vandalism ، في اللغات الأوروبية الحديثة يستخدم مرادفا للهمجية والوحشية (٥) •

-
- (1) Wallace-Hadrill : op. cit. pp. 38-39.
 - (2) Oman : The Dark Ages, p. 7.
 - (3) Lot & Pfistor & Ganshof; op. cit. p. 63.
 - (4) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 95.
 - (5) Oman : The Dark Ages, pp. 7-9.

على أن خطر الوندال لم يقف عند هذا الحد ، إذ لم يلبثوا أن أصبحوا قوة بحرية خطيرة في البحر المتوسط ، فأغاروا على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية ، فضلا عن إيطاليا حتى هاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥ (١) . ومهما يكن من أمر فإن عظمة دولة الوندال في شمال افريقية سرعان ما ولت عقب وفاة جزريك سنة ٤٧٧ ، هذا على الرغم من أنه ترك بعده أسطولا قويا وثروة طائلة وقصرا ذخرا بالمنهوبات . وكان ذلك سنة ٥٣٤ عندما استطاع بلزار يوس قائد جيوش الامبراطور البيزنطي جستنيان أن يسترد ولاية شمال افريقية من الوندال ، بعد أن عمرت دولتهم خمسا وتسعين سنة منذ استيلاء جزريك على قرطاجة سنة ٤٣٩ (٢) .

الهون :

أما الهون الآسيويون فكانوا قد اجتاحتوا اقليم الدانوب الأدنى بعد أن تغفل القوط النربيون داخل جسم الامبراطورية سنة ٣٧٥ (٣) . ثم ظلي الهون مقيمين على شواطئ البحر الأسود حتى سنة ٤٢٥ عندما نفذوا الى تراقيسا وأخذوا يهددون القسطنطينية نفسها . ويبدو أنه اشتد عبث الهون - تحت زعامة أتيليا بالولايات الرومانية الواقعة في حوض الدانوب الأدنى بين سنتي ٤٣٠ و ٤٣٣ ، مما اضطر تيودوسيوس الثاني امبراطور الدولة الشرقية (٤٠٨ - ٤٥٠) الى دفع حزية مالبة سنوية لهم مقابل عدم اعتدائهم على أراضي دولته ، ومن ثم أخذوا يوجهون نشاطهم تجاه الغرب . وكان أن تقدم أتيليا غربا بحذاء الدانوب سنة ٤٤٧ فحرب مواشيا وتراقيا واليريا وبانونيا حتى عبر الراين وهاجم غاليا سنة ٤٥١ (٤) . وقد نهب الهون كثيرا من مدن غاليا مثل

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1. pp. 306-308.

(2) Deanesly : op. cit, p. 77.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 215

(4) Lot & Pfister & Ganshof ; op. cit. p. 66.

تريف وميتز وتروى وشالون وغيرها من المدن المهمة التي فر أهلها من وجه الهون طلبا للنجاة ، بعد ما شاع عنهم من قصص طويل يعبر عن بطشهم وقسوتهم (١) . ولم يكن منتظرا من الامبراطور الغربي عندئذ - وهو فالنشيان الثالث - أن يقوم بعمل ايجابي ضد هذا الخطر الجاثم ، ولكن قائده أيتيوس Aetius برز في هذه الظروف ليحمل عبء الدفاع عن غاليا . وهنا حدثت ظاهرة جديدة بالاهتمام ، وهي أن القوط الغربيين تحالفوا مع الجيوش الرومانية لدفع خطر الهون المشترك ، حتى أنزل الحلفاء الهزيمة بجموع أتिला قرب شالون سنة ٤٥١ (٢) . ولسنا في حاجة الى القول بأن هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة في التاريخ ، اذ أنقذت غرب أوربا من وحشية الهون الذين ارتدوا عبر الراين ليقوموا تحت قيادة أتिला بغزوة مفاجئة لاطاليا في العام التالي (٤٥٢) (٣) . ولم تلبث روما أن وجدت نفسها أمام خطر ساحق جديد ، مما جعل أسقفها الباباليو العظيم يخرج بنفسه لمفاوضة أتिला (٤) وهنا تجمع الأساطير المعاصرة على أن طيف القديس بطرس أفرع أتिला فأسرع بالاياب ، وإن كان الواقع هو أن أتिला أحس باقتراب الجيوش الرومانية بقيادة القائد الروماني الشهير أيتيوس ، مما جعله يسرع باخلاء ايطاليا في يوليو سنة ٤٥٢ . بعد أن أخذ وعدا بتسليم جزية سنوية . ولم يلبث أن توفي أتिला العام التالي (٤٥٣) في بانونيا وعندئذ حاول أبنائه اقتسام امبراطوريته الواسعة (٥) ، ولكن الشعوب الخاضعة للهون انتهزت الفرصة وثاروا وأنزلت بهم الهزيمة في موقعة نديو Nedeo سنة ٤٥٤ . وبذلك انهارت امبراطورية الهون قبل أن تسفى على وفاة أتिला عشرون عاما (٦) .

(1) Bury : op. cit. Vol. 1, pp. 291-293.

(2) Cam. Med Hist. Vol. 1, pp. 280-281.

(3) Bury : op. cit. Vol. 1, 294.

(4) Fliche , La Chretiente Medievale, p. 24.

(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

(6) Lot : The End of the Ancient World. 288.

البرجنديون :

أما البرجنديون فكانوا قد ذاقوا من ضغط الهون أضعاف ما ذاقته بقية قبائل الجرمان في الغرب ، كما أنهم كانوا أول من استفاد من تفكك امبراطورية الهون . وقد ظهر البرجنديون لأول مرة على مسرح الحوادث الأوروبية في النصف الثاني من القرن الثالث عندما تحركت جموعهم عند الجزء الأوسط من حوض الراين سنة ٢٧٧(١) . وفي القرن الرابع استخدمتهم الامبراطورية الرومانية في جيوشها كما كان الحال مع غيرهم من طوائف الجرمان . وعلى الرغم من أن البرجنديين كانوا أكثر قبائل الجرمان مسالمة إلا أنهم اضطروا الى استخدام العنف في شق طريقهم الى غاليا عبر الراين ، وذلك تحت ضغط الهون(٢) ، حتى سمح لهم القائد الروماني أيتيوس بالاقامة أخيرا في المنطقة الواقعة قرب نهر الساوون . وقد استغل البرجنديون فرصة اشتراكهم مع الرومان والقوط الغربيين ضد الهون في موقعة شالون سنة ٤٥١ ، وأخذوا يتوسعون سلميا حتى انتشروا سنة ٤٦٨ في جميع الجهات الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولم يحل دون وصولهم الى شاطئ البحر المتوسط سوى غزو أيورك ملك القوط الغربيين لاقليم بروفانس(٣) .

ستوط الامبراطورية الغربية :

وهكذا يبدو من العرض السابق لغزوات الجرمان أنه لم يكد ينتصف القرن الخامس حتى كانت الامبراطورية الرومانية في الغرب قد مزقت اربا بضياع معظم أجزائها . ذلك أن الجيوش الرومانية انسحبت من بريطانيا سنة ٤٤٢ ، في حين انتزع الوندال ولاية افريقية ، واحتل القوط الغربيون والبرجنديون أسبانيا فضلا عن جنوب غاليا والأجزاء الشرقية منها . هذا في

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 98.

(2) Bury : op. cit. Vol, 1, p. 249

(3) Deanesly : op. cit. p. 30.

الوقت الذى عبر الألمان الراين الأعلى واستقروا فى الألزاس ، كما عبر الفرنجة الراين الأدنى ووصلوا السوم والميز ، وبذلك فقدت الامبراطورية الغربية معظم أعضائها مما آذن بسقوط هذه الامبراطورية وضياع البقية الباقية منها (١) .

والواقع أن عوامل الاضمحلال التى أخذت تنخر ببطء فى عظام الامبراطورية الغربية على عهد الامبراطور هنريوس (٣٩٥ - ٤٢٣) والامبراطور فالنشيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥) ازدادت خطورة بعد ذلك ، لاسيما بعد أن كافأ فالنشيان الثالث قائده أيتيوس بقتله سنة ٤٥٣ ، وهو الرجل الوحيد الذى كان يستطيع صد هجمات الوندال التى تعرضت لها روما بعد ذلك بعامين (٢) . ذلك أن الوندال أصبحوا بعد احتلالهم ولاية افريقية قوة بحرية كبرى هددت جميع بلاد النصف الغربى من حوض البحر المتوسط . ولم يلبث أن ظهر أسطول وندالى عند مصب نهر التير فى صيف سنة ٤٥٥ ، وعندئذ حاول الباباليوس العظيم انقاذ روما من الوندال ، كما سبق أن أنقذها منذ سنوات قليلة من أيدي الهون ، ولكنه فشل فى هذه المرة (٣) وهكذا اقتحم الوندال روما وقضوا فيها أربعة عشر يوما سلبوا خلالها المدينة كنوزها ، فنهبوا ما فى القصر الامبراطورى والمعابد والكنائس والبيوت من نفائس ، فضلا عن عدة آلاف من الأهالى حملوهم معهم عبيدا عند انصرافهم (٤) . ولعلنا نلمس فى هذه الاغارة دليلا واضحا على أن مجده روما السياسى والحربى أدبر وتولى ، وبالتالى أضحي مستقبلها ومصيرها رهينا بمقدرة الكنيسة البابوية . والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتى ٤٥٥ ، ٤٧٦ أى بين مقتل الامبراطور فالنشيان الثالث وسقوط الامبراطورية فى الغرب ، تعتبر من أظلم عصور تاريخ الامبراطورية الغربية ، بعد أن فقدت هذه الامبراطورية معظم أراضيها (٥)

(1) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. pp. 77-94.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I, pp. 418-420.

(3) Lot & Pfister & Ganshof : op. cit. p. 78.

(4) Thompson : op. cit. Vol, I, pp. 100-101

(5) Lot : The End of the Ancient World, pp. 209-215.

- وأصبحت القوة الفعلية فى إيطاليا بأيدي فئة من قادة الفرق الجرمانية
المأجورة ، الذين ازدادوا تطرفا وقسوة لعدم وجود قوة أخرى تقف فى
طريقهم وتحد من بطشهم . أما الأباطرة فقد أصبحوا ألعوبة فى أيدي الجند ،
يولونهم ويعزلونهم وفق إرادتهم ، حتى انتهى الأمر بأن ثار أودواكر -
زعيم بعض جموع الجرمان - ودخل رافنا سنة ٤٧٦ ، حيث كان الامبراطور
عندئذ وهو رومولس أوغسطس *Romulus Augustulus*
فى الثانية عشر من عمره ، فاكتفى أودواكر بفيه الى جنوب إيطاليا مع
تخصيص معاش كاف له (١) .

وعلى هذا الوجه انتهت الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، وأصبحت إيطاليا
من الوجهة القانونية تابعة للامبراطورية الرومانية التى لم يبق غيرها على قيد
الحياة وهى الامبراطورية البيزنطية . وحتى هذه الامبراطورية لم يكن لها
عندئذ نفوذ فعلى ملموس فى إيطاليا ، مما ترك البابوية القوة الوحيدة القائمة
التى انبثج حولها الايطاليون طوال القرون التالية ، ورأوا فيها الزعامة والسند
الكفيلين بحمايتهم .

واذا كان بعض المؤرخين قد اعتادوا أن يبالغوا فى أهمية الأحداث التى جرت
سنة ٤٧٦ ، ويتخذون هذه السنة التى سقطت فيها الامبراطورية الغربية حدا
فاصلا بين عصرين ، فالتا يجب ألا ننساق معهم فى تفكيرهم وتيارهم . ذلك أن
الامبراطور الغربى كان لا يمتلك فعلا شيئا من مظاهر القوة ، فى الوقت الذى
سقطت امبراطوريته ، هذا فضلا عن أن إيطاليا كانت منذ أمد بعيد مسرحا لعبث
كثير من الطوائف الجرمانية التى تطرقت اليها . ومن هذا يبدو أن عزل
الامبراطور الطفل رومولس أوغسطس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ لم يؤد
الى تغير كبير فى الحالة القائمة فعلا (٢) . وهنا ينبغى أن نسجل أيضا أن
أودواكر نفسه لم يقصد بعمله أن يبدأ عهدا جديدا أو يحدث انقلابا من
نوع غير معروف ، وإنما كل ما كان يطمح فيه هو أن يحظى بمحظى به فعلا غيره من

(1) Bury : op. cit. Vol. I, p. 406.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. I, pp. 430-433.

زعماء الجرمان داخل حدود الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من البعثتين اللتين أرسلهما الى زينون امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٤٧٧ ، ٤٧٨ (١) * حقيقة أن العالم الغربي ظل بدون امبراطور منذ سنة ٤٧٦ حتى تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ ، الأمر الذى ظهر أثره واضحا فى تطور الممالك الجرمانية الناشئة من جهة وفى تطور البابوية من جهة أخرى ، ولكن عدم وجود أباطرة فى الغرب طوال هذه القرون الثلاثة لا يعنى باى حال زوال فكرة الامبراطورية ، تلك الفكرة التى ظلت تصور الامبراطورية طوال العصور الوسطى على أنها وحدة لا تتجزأ (٢) * هذا وان كان بعض الكتاب - مثل أومان - يعترفون بالآراء السابقة ، ولكنهم يصرون على أن سنة ٤٧٦ لها أهمية خاصة كخط فاصل بين التاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى (٣) *

ومهما يكن من أمر فالهم هو أن سنة ٤٧٦ لم تكد تنتهى حتى كانت هناك ست ممالك جرمانية قد قامت فى غرب أوربا على أنقاض الامبراطورية الرومانية * وهذه الممالك هى مملكة أودواكر فى ايطاليا ، ومملكة الوندال فى شمال افريقية ، ومملكة القوط الغربيين التى امتدت من اللوار حتى مضيق جبل طارق ، ومملكة البرجنديين فى وادى الرون ووادى السساؤون ، ودولة الفرنجة على الميز والموزل والراين الأدنى ، وأخيرا تأتى صغرى هذه الممالك الجرمانية وهى مملكة السويفى Suevi فى الجهات المعروفة حاليا باسم البرتغال وغاليسيا (٤) *

الفرنجة :

كان أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام دولة الفرنجة ، وهى الدولة الجرمانية الوحيدة التى استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود

-
- (1) Eyre : op. cit. p. 23.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p, 431.
 - (3) Oman : The Dark Ages, p. 3.
 - (4) Idem, p. 5.

الامبراطورية • ذلك أن قبائل الفرنجة المتقلبة التي كونت فيما بينها حلفا مائعا في القرن الثالث ، أخذت تظهر عند بداية القرن الخامس في هيئة كتلة متراسة أهم عناصرها الفرنجة البحريون *Francs Ripuaires* والفرنجة البريون *Francs Saliens* وكان كل من هذين الفرعين قد استقر فعلا في القرن الرابع داخل حدود الامبراطورية الرومانية ، فامتد الفرنجة البحريون بين الراين الأدنى والميز والشلد ، في حين امتد الفرنجة البريون على امتداد الموزل الأدنى (١) •

ويعتبر كلوفس (٤٨٦ - ٥١١) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريين ، اذ استطاع أن ينزل الهزيمة في سواسون سنة ٤٨٦ ، بسياجريوس *Syagrius* ، وهو الذي ظل يمثل آخر بقايا الادارة الرومانية في حوض السين على الرغم من سقوط الامبراطورية في الغرب قبل ذلك بعشر سنوات (٢) • وقد أخذ كلوفس يعمل بسرعة - بعد انتصاره في سواسون - على مد نفوذ الفرنجة على الجهات الشمالية من غاليا • وكان من الطبيعي أن يقابل أهالي البلاد الأصليين هذا التغيير بقليل من الدهشة وكثير من الفتور بعد أن اعتادوا الخضوع لفئة جديدة من غزاة الجرمان الفينة بعد الفينة • وهكذا جاء وقت على غاليا الرومانية أصبحت مقسمة بين القوط الغربيين والبرجنديين والفرنجة (٣) •

على أن حركة الفرنجة اختلفت كثيرا في طابعها عن الحركات التي قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو • ومن هنا يميل بعض المؤرخين الى عدم اعتبار كلوفس فاتحا بكل معنى الكلمة ، والى وصف نضاله ضد سياجريوس بأنه صدام بين زعيمين طموحين أكثر منه بين قوميتين متعاديتين (٤) • ذلك أن بقية الشعوب

(1) Fliche : *La Chretienté Médiévale*, p. 30.

(2) Deanesly : *op. cit.* p. 58, & Gregory of Tours; *The Hist. of the Franks* 11. 27.

(3) Thompson : *op. cit.* Vol, 1, p. 108.

(4) Lot : *The End of the 'Ancient World*, p. 249.

الجرمانية كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية ، وأخذت تجوس خلال الأقاليم الأوربية عدة سنوات ، حتى استقر كل منها أخيرا وسط جزء من المحيط اللاتيني الغربى بعيدا عن موطنها الأول • أما الفرنجة فانهم لم يهاجروا ولم يتركوا موطنهم الأول عند الراين الأدنى ، وإنما أخذوا ينتشرون منه ويضيفون اليه اقليما بعد آخر ، دون أن يتخلوا عن مركزهم الأساسى أو يقطعوا صلتهم به (١) • وقد ترتب على هذه الظاهرة احتفاظ الفرنجة بأصولهم وحضارتهم وحيويتهم الجرمانية ، فى الوقت الذى ذابت بقية الشعوب الجرمانية فى المحيط اللاتيني الذى استقرت وسطه بعد أن قطعت صلتها بمواطنها الأولى • كذلك خالف الفرنجة بقية العناصر الجرمانية فى سياستهم الحكيمه التى امتازت بعدم الافراط فى العنف والاساءة الى أهالى البلاد الأصليين • ولا يوجد لدينا أى سند تاريخى يثبت أن الفرنجة حاكوا البرجنديين أو القوط الغربيين فى اغتصابهم الأراضى والضياع من أصحابها وتقسيمها بين الغزاة ، بل على العكس عمل الفرنجة دائما على احترام شعور أهالى غالبا ولم يؤذوهم فى أملاكهم وأرواحهم (٢) ، هذا فضلا عن احتفاظهم بحسن العلاقات مع الامبراطورية الرومانية فى معظم الحالات (٣) • ولا شك فى أن هذا المسلك من جانب الفرنجة ساعد على التقريب بينهم وبين أهالى البلاد الأصليين ، وهو تقارب توثقت روابطه عندما اعتنق كلوفس الديانة المسيحية سنة ٤٩٦ (٤) • وليس المهم فى هذه الخطوة الهامة هو ما ترتب عليها من انتشار الديانة الجديدة بين أتباع كلوفس وشعبه من الفرنجة ، وإنما المهم هو أن كلوفس اعتنق المسيحية على مذهبها الأثناسيوسى أو الغسرى مخالفا فى ذلك بقية الشعوب الجرمانية التى ظلت ممقوتة فى الغرب بسبب

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 108.

(2) Dill : Roman Society in Gaul, p. 89.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 249.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 285.

(م ٧ - أوربا)

أريوسيتها(١) • والواقع أن رجال الكنيسة الكاثوليكية في جنوب غاليا كانوا يرقبون توسع الفرنجة في الشمال باهتمام بالغ من أول الأمر ، لأنهم رأوا في كلوفس وأتباعه الوثنيين مادة خامة سهلة تشكيلا وفق مبادئ الكنيسة الغربية ، لا سيما أن مسلكهم تجاه أهالي البلاد الأصليين جاء مقرونا بكثير من مظاهر الرحمة والاعتدال بعكس الحال مع البرجنديين أو القوط الأريوسيين • لذلك أخذ رجال الكنيسة في غاليا يترقبون اليوم الذي اعتنق فيه كلوفس المسيحية في صورتها الأثناسيوسية ، لا سيما بعد أن تزوج من كلوتيدا ، وهي أميرة برجندية دانت بالعقيدة الكاثوليكية(٢) • ويقال ان الظروف التي أحاطت بكلوفس أثناء حربه مع الألمان في الألزاس جعلته يتعهد باعتناق المسيحية في حالة انتصاره ، وكان أن أوفى بعهده فتم تعميده سنة ٤٩٦(٣) •

وهنا نستطيع أن نقول أن كلوفس استطاع بهذه الخطوة أن يحدد مصير الفرنجة ومستقبل دولتهم لأن اعتناق الفرنجة لمذهب الكنيسة الغربية جعلهم يكتسبون عطف الكاثوليك وتأييدهم ، ليس فقط في غاليا وإنما في جميع أرجاء غرب أوروبا(٤) ومعنى ذلك قيام نوع من التعاون والارتباط بل التآلف والامتزاج بين الفرنجة والرومان ، وهو أمر كان لا يمكن تحقيقه بين الرومان الأثناسيوسيين من جهة والبرجنديين أو القوط الأريوسيين من جهة أخرى(٥) • ويكفى أن الملكية الفرنجية كانت الوحيدة بين الملكيات الجرمانية التي اكتسبت عطف رجال الكنيسة وتأييدهم في غرب أوروبا ، حتى أصبح كلوفس قنسطنطينا آخر(٦) في حين ظهر ملوك الفرنجة في ثوب حماة المسيحية ورجالها في الغرب مما مهد لايجاد نسوع من التحالف بين البابوية وملوك

(1) Dill : Roman Society in Gaul, pp. 86-89.

(2) Deanesly : op. cit. p. 59.

(3) Gregory of Tours : The Hist of the Franks, p. 2-30.

(4) Fliche : La Chretiente Medievale, p. 33.

(5) Lavissee : Hist de France. Tome, 11, Premiere. Partie, p. 99.

(6) Lot : The End of the Ancient World p. 317-318.

الفرنجة ، وهو التحالف الذى كان له اثر بعيد فى مستقبل أوروبا العصور الوسطى .

وهكذا ظهر عامل جديد ساعد الفرنجة على التوسع عقب سنة ٤٩٦ ، بعد أن أخذ الأهالى من الرومان الكاثوليك فى بقية أنحاء غاليا يتمنون الدخول تحت حكم كلوفس - الملك الجرمانى الذى يتفق معهم فى المذهب (١) . على أنه يلاحظ أن توسع الفرنجة فى هذه المرحلة لم يقتصر على الجهات الغربية والجنوبية وإنما امتد أيضا فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى . وقد حدث سنة ٤٩٦ أن أخذ الألمانى يباشرون ضغطهم من أعلى الراين على الفرنجة البريين الذين انتشروا الى الجنوب منهم ، فاستجد هؤلاء الأخيرون بكلوفس الذى أسرع لتجدة أقاربه فشن هجومين على الألمانى أحدهما سنة ٤٩٦ والثانى ٥٠١ ، حتى انتهى الأمر بانزال هزيمة ساحقة بالألمانى الذين اضطروا الى الدخول تحت حماية ملك القوط الشرقيين لحماية انفسهم من الفرنجة (٣) وتعتبر هذه الحرب بين الفرنجة والألمانى على جانب كبير من الأهمية حيث أنها أدت الى توسع الفرنجة فى الاتجاهين الشرقى والشمالى الشرقى ، كما أنه ترتب على نجاح الفرنجة فى صد الألمانى عدم قطع الصلة بين الفرنجة من جهة ووطنهم الجرمانى الأول فيما وراء الراين من جهة اخرى ، فضلا عن نجاح الفرنجة فى وقف التيار التوسعى لبقية العناصر الجرمانية مثل البافاريين والثورنيجيين والسكسون (٣) .

على أن اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثولى لم يلبث أن أثار روح البغضاء والكراهية بينهم وبين غيرهم من طوائف الجرمان الأريوسيين فى غاليا ، مثل البرجنديين والقوط الغربيين . أما البرجنديون فقد استطاع كلوفس

(1) Deanesly : op. cit. p. 60.

(2) Lot : The End of the Ancient World, p. 317.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1. p. 109.

أن يجبرهم سنة ٥٠٠ على دفع الجزية رمزا للتبعية (١) . وأما القوط الغربيون فإن كلوفس شن الحرب عليهم سنة ٥٠٧ وقتل ملكهم ألرك الثاني بعد أن هزمه في فوجليه Vougle كما استولى على تولوز سنة ٥٠٨ . ولم ينقذ القوط الغربيين من أيدي الفرنجة عندئذ سوى تدخل ثيودريك ملك القوط الشرقيين الذي أسرع لنجدة أقربائه (٢) . وأخيرا حل الموقف بين الفرنجة والقوط سنة ٥١٠ بعد أن تم الاتفاق على أن يحتفظ كلوفس بجزء من مملكة القوط الغربيين يمتد حتى نهر الجارون - بما فيه مدينة تولوز - في حين احتفظ ثيودريك باقليمى بروفانس وناربونيس (سبتمانيا) (٣) .

وعندما توفي كلوفس سنة ٥١١ كانت دولة الفرنجة تمتد على جانبي الراين ، وتشمل جميع غاليا ما عدا أرموريكا (بريتاني) وجاسكونى وبروفانس . على أن هناك حقيقة هامة أثرت في تاريخ الفرنجة ومستقبل دولتهم تأثيرا عميقا ، هي أنهم ظلوا يعتبرون الملك ارثا يقسم بين سائر أبناء الملك أسوة بسائر أنواع الارث ، ووفقا لهذا المبدأ قسم كلوفس مملكته الواسعة ذات السكان المتباينين في الأصل والجنس بين أبنائه الأربعة (٤) . ومع ذلك فإن توسع الفرنجة لم يتوقف نتيجة لهذا التقسيم أو نتيجة لما قام بين كلوفس من نزاع وخلاف . ففي سنة ٥٣٠ استولى الفرنجة على ثورنجيا ، كما استولى على اقليم ناربونيس (سبتمانيا) سنة ٥٣١ وأوفرن سنة ٥٣٢ ، وبرجنديا سنة ٥٣٤ ، وبافاريا سنة ٥٥٤ - ٥٥٥ ، وجاسكونى سنة ٥٦٧ . وساعد على هذه الفتوحات وازدياد نفوذ الفرنجة ، أن لوثر الأول (كلوتير) استطاع توحيد مملكة الفرنجة سنة ٥٥٨ بعد وفاة اخوته الثلاثة ، أى أنه حكم جميع مملكة كلوفس فضلا عن برجنديا وثورنجيا وبروفانس وبافاريا (٥) .

(1) Dill : Roman Society in Gaul. p. 91.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1. p. 484.

(3) Lot : The End of the Ancient World pp. 318-319.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. Vol, 1. p. 484,

(5) Deanesly : op. cit. p. 67.

[illegible]

الامبراطورية الرومانية
والملك الفينيقي
(حوالي سنة ٣٥٠ م)

على أن مملكة الفرنجة لم تلبث أن انقسمت مرة أخرى بين أبناء لوثر الأول عند وفاته سنة ٥٦١ (١) . وقد ظهرت الخلافات التاريخية والجنسية واضحة هذه المرة بين الأقسام التي انقسمت إليها مملكة الفرنجة وهي أوستراسيا ونستريا ، في حين كان الطابع اللاتيني هو الغالب على برجنديا واكوتين . ومهما يكن من أمر فإن العصر الأول لتاريخ الفرنجة - وهو عصر البطولة الذي امتاز بالتوسع والغزو - انتهى سنة ٥٦١ (٢) ، ليبدأ عصر آخر سنعود إليه بعد قليل .

القوط الشرقيون :

رأينا ما كان من أمر سقوط الامبراطورية العربية في ايطاليا سنة ٤٧٦ ، وهو الأمر الذي جعل لأباطرة الدولة الشرقية نوع من السيادة الاسمية على ايطاليا بحكم ما لأباطرة هذه الدولة من حق في وراثة أباطرة الغرب . ولكن حدث سنة ٤٨٩ - أي بعد موقعة سواسون بثلاث سنوات - أن انتهى ما كان لأباطرة الدولة الشرقية من سلطة اسمية في ايطاليا وذلك عندما غزاها القوط الشرقيون تحت زعامة ثيودريك (٣) .

وكان القوط الشرقيون قد تعرضوا سنة ٣٧٥ لخطر الهون ولكنهم لم يستطيعوا الفرار عبر الدانوب كما فعل اقرباؤهم القوط الغربيون ، ومن ثم ظلموا تحت سيطرة الهون ما يقرب من سبع وسبعين سنة ، أي حتى سنة ٤٥٢ عندما توفي أتيلا وتفككت امبراطوريته وأخذت الشعوب الخاضعة للهون تتحرروا من سيطرتهم (٤) . على أن القوط الشرقيين وجدوا أنفسهم غداة تحررهم من سيطرة الهون في حال لا يحسدون عليها نظرا لما لحق أقاليم

(1) Lavissee : Hist. de France, Tome 11, Premiere Partie, p. 132.

(3) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 114.

(3) Oman : The Dark Ages. p. 16.

(4) Cam. Med. Hist. Vol, 1, p. 365.

الدانوب فى ذلك الوقت من دمار وخراب شامل حتى أصبحت الإقامة فيها أمرا متعذرا . لذلك اتجه القوط الشرقيون جنوبا داخل حدود الامبراطورية حيث أخذوا يسبون لها مضايقات شتى (١) . وعلى الرغم من أن قسوات الامبراطورية الشرقية أسرت ثيودريك - ابن ملك القسوط الشرقيين - وأرسلته رهينة الى القسطنطينية ، الا أن المناصب والألقاب البراقة التى خلعها عليه البيزنطيون ، ومظاهر العظمة التى حفلت بها القسطنطينية ، لم تنس ثيودريك أهله وعشيرته الذين كانوا يقاسون آلام الفاقة والحرمان فى بيئتهم الفقيرة ، ففر اليهم سنة ٤٧٤ وأخذ يتجول بهم عدة سنوات فى أقاليم البلقان (٢) . وأخيرا رأى الامبراطور زينون أن خير وسيلة ينقذ بها أقاليم الدولة الشرقية من عبث القوط الشرقيين هى أن يلهمهم بايطاليا ، فألقاها لهم لقمة سائغة سنة ٤٨٨ . وكان أن نفذ القوط الشرقيون الى ايطاليا سنة ٤٨٩ فأنزلوا عدة هزائم بأودواكر عند ايسونزو Isonzo وفيرونا ، حتى اعتصم أودواكر برافنا فحاصره القوط الشرقيون حتى استسلم سنة ٤٩٣ . ولم يلبث أن دخل ثيودريك رافنا ليقتل أودواكر ويصبح سيد ايطاليا (٣) ، والواقع أن ثيودريك كان من الوجهة القانونية نائبا عن امبراطور الدولة الشرقية فى ايطاليا ، حتى أنه سك اسم الامبراطور البيزنطى على العملة (٤) ، ولكنه أصبح من الناحية العملية ملكا مستقلا على مملكة القوط الشرقيين التى شملت ايطاليا وصقلية وغيرها من الأقاليم المجاورة مثل بانونيا ودالماتيا واليريا وبروفانس ، فى حين ظلت كورسيكا وسبردينيا فى أيدي الوندال .

وقد اتخذت غزوة القوط الشرقيين لايطاليا شكل هجرة عامة ، اذ اصطحبوا

(1) Thompson : op. cit. Vol, 1, p. 115.

(2) Deanesly : op. cit. p. 35.

(3) Eyre : op. cit. p. 25.

(4) Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

معهم نساءهم وماشيئهم (١) • أما زعيمهم ثيودريك فكان أعظم شخصيه سياسيه فى عصره ، بل انه يكاد يكون الشخص الوحيد المعاصر الذى اجتمعت فيه مظاهر العصور القديمه والوسطى • ذلك أنه دخل الامبراطورية صديقا لا عدوا ، كما أراد أن يعتبره المعاصرون حاكما رومانيا لا زعيما بربريا • ويكفى أن ايطاليا تمتعت فى عهده بحكومة قوية حازمة سارت وفق الأساليب والنظم الرومانية (٢) • من ذلك أن ثيودريك العظيم لم يدخل سوى تعديلات قليلة نسبيا فى النظم القائمة بايطاليا ، وذلك فى خلال حكمه الطويل الذى امتد من سنة ٤٨٩ حتى سنة ٥٢٦ ، فاتخذ قصيره فى رافنا مركزا لحكومة بيروقراطية تشبه فى طابعها النظام الامبراطورى القديم ، كما احتفظ بالسناو والوظائف العمومية والنظام الادارى والمدارس ، فضلا عن أنه أبقى ملكية الأرض الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى • واذا كان القوط الشرقيون قد احتفظوا لأنفسهم من الناحية الشكلية بقوانينهم الخاصة ، الا أن هذه القوانين اصطبغت من الناحية العملية بالطابع الرومانى حتى أنها لم تلبث أن فقدت طابعها الأصلى بعد عدة أجيال (٤) • اما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فان ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الايطاليين الكفاة لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء وطبقة السناو الذين كانوا يديرون شئون الامبراطورية الرومانية فى سابق مجدها • ومن أمثلة الرجال الذين استعان بهم ثيودريك كاسيدورس Cassiodorus وانوديوس Ennodius وسناريوس Senarius وأجابيتوس Agapitus وبيوثيوس Boethius وغيرهم (٥) • كذلك خالف ثيودريك بقية الجرمان فى أنه حافظ على المبدأ الرومانى القديم الخصاص بالفصل بين الوظائف المدنية والحربية ، الأمر الذى زاد من الحقد المتبادل

(1) Eyre : op. cit, p. 25.

(2) Idem : pp. 25-27.

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 241.

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 22-24.

(5) Eyre : op. cit, p. 6.

بين الموظفين المدنيين الرومانيين وقادة القوط العسكريين •

وعلى الرغم مما عرف عن ثيودريك العظيم من تسامح ورغبة صادقة في التوفيق بين أهالي إيطاليا الاتناسيوسيين والقوط الاريوسيين ، إلا أن الخلاف المذهبي ظل يحول دون حسن التفاهم بين الطرفين • حقيقة أن ثيودريك عنى بالمحافظة على آثار الحضارة الرومانية ، فضلا عن عنايته بجمع القوانين الرومانية معتمدا على مجموعة ثيوديسيوس ، مما جعل من ثيودريك العظيم أحد بناء الحضارة في أوائل العصور الوسطى (١) • ولكن على الرغم من كل ذلك فإن هذا البناء الكبير الذي أجهد ثيودريك نفسه في إقامته كان لا يمكن أن يدوم أو يستمر طويلا • فالقوط الشرقيون الذين لم يتجاوز عددهم مائتين وخمسين ألفا أقاموا وسط مجتمع كبير من أهالي إيطاليا الأصليين الذين زاد عددهم عندئذ على تسعة ملايين • هذا فضلا عن أن القوط الشرقيين قطعوا صلتهم بصميم الوطن الجرمانى فيما وراء الدانوب والراين - بعكس الحال مع الفرنجة - مما ترتب عليه انقطاع الشريان الرئيسى الذى يحيى فيهم روحهم ويذكرهم بأصولهم ومبادئهم الجرمانية (٢) لذلك نجد أنه على الرغم من نفوذ ثيودريك الواسع وعظمة بلاطه فى فيرونا أو رافنا ، وتسامحه الدينى والسياسى ، ورعايته للآداب والفنون ، وحرصه على إقامة كثير من الجسور والطرق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة ، إلا أن البناء الذى أقامه لم يكن قوى الأساس وبالتالي لم يقدر له البقاء طويلا (٣) • ذلك أن ذكرى روما القديمة ، وموقف الامبراطورية البيزنطية التى استعادت سطوتها على عهد جستنيان ، والخلافات المذهبية بين القوط الشرقيين وأهالي إيطاليا الأصليين ، كل هذه العوامل تجمعت فى النهاية لتقضى على أمسل ثيودريك فى إقامة ملكية قوطية ثابتة الأركان فى إيطاليا • وقد اتضحت هذه

(1) Idem : op. 27.

(2) Thompson : op. cit. Vol, p. 118.

(3) Lot & Pfister, Ganshof : op. cit. pp. 113-116.

الحقيقة المؤلمة لثيودريك في أواخر أيامه لا سيما عندما قام جستين الأول -
امبراطور الدولة البيزنطية (٥١٨ - ٥٢٧) بحركة اضطهاد واسعة صد
الأريوسيين أدت الى تعذيبهم ومصادرة كنائسهم ، الأمر الذي جعل ثيودريك
يرسل بعثة برئاسة البابا حنا الأول سنة ٥٢٥ الى الامبراطور البيزنطي للعدول
عن سياسته (١) . ويبدو أن فشل هذه البعثة في تحقيق أغراضها جعل
ثيودريك يتشكك في جميع من حوله ، حتى قام بحركة اضطهاد مماثلة صد
الكنيسة الكاثوليكية في ايطاليا . ولم ينبج من هذه الموجة الجارفة الفيلسوف
بيوثيوس الذي أعدم بلا ذنب سنة ٥٢٥ ثم لحق به في السجن البابا حنا الأول
في العام التالي . وأخيرا لم يلبث ثيودريك نفسه أن مات في العام نفسه
(٥٢٦) بعد أن سلم جميع الكنائس الكاثوليكية في ايطاليا للأريوسيين (٢) .

ولم تكد تمضي سنوات قليلة على وفاة ثيودريك حتى أرسل جستين -
امبراطور الدولة الشرقية - جيشا الى ايطاليا سنة ٥٣٦ لاستردادها من القوط
واعادتها الى أحضان الامبراطورية . وعلى الرغم من مقاومة القوط الباسلة
الا أن قوتهم انهارت بعد سنوات قليلة (٥٥٢) وبذلك اختفى القوط الشرقيون
كأمة قائمة بذاتها من صفحة التاريخ (٣) .

الانجلز وبريطانيا :

صورت لنا الحوادث السابقة الخاصة بتسلسل الغزوات الجرمانية كيف
تفككت الامبراطورية الغربية في القرن الخامس بعد أن استولى الجرمان على
غاليا وأسبانيا وأفريقية وأقاموا فيها ممالك جرمانية مستقلة . أما بريطانيا التي
أشرنا الى أن الفرق الرومانية انسحبت منها في أوائل القرن الخامس (٤)

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 454.

(2) Deanesly : op. cit pp. 43-44.

(3) Cam. Med Hist, Vol, 2. p. 18.

(4) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 72-73.

فلم تلبث الأحداث التي تلاحقت عليها في المائة والخمسين سنة التالية أن جعلتها تتوارى تماما من فوق مسرح التاريخ ، حتى اذا ما ظهرت على المسرح مرة أخرى كانت قد اتخذت صبغة جديدة وأصبحت انجلترا لا بريطانيا •

ذلك أن عناصر مختلفة من التيتون المقيمين على شواطئ بحر الشمال وفي شبه جزيرة جيتلاند - مثل الأنجلز والسكسون والجات - أخذت تواصل اغاراتها على بريطانيا منذ القرن الرابع (١) • وقد جددت هذه العناصر اغاراتها بعد انسحاب الجيوش الرومانية سنة ٤٤٢ ، ولكنهم أغاروا في هذه المرة على بريطانيا مصطحبين معهم نساءهم وأولادهم بقصد الإقامة ، حتى تم لهم - عند نهاية القرن السادس - اجتياح معظم البلاد المعروفة حديثا باسم انجلترا ، ماعدا اقليم كورنويل في الجنوب الغربي (٢) • ولكن اذا كان أمر الجرمان في صلب القادة قد انتهى باستقرارهم نهائيا وسط الشعب الروماني المنلوب على أمره ، والتأثر بأوضاع هذا الشعب من النواحي اللغوية والدينية والحضارية ، الا أن الموقف اختلف في بريطانيا حيث طرد الغزاة أمامهم أهالي البلاد الأصليين من الكلت ، مما جعل المسيحية تختفي مؤقتا من البلاد •

ولم يكن لهؤلاء الغزاة وحدة سياسية تربط البلاد تحت سيطرتهم ، وانما أقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع Heptarchy (٣) ، وهي مملكة كنت التي تألفت من الجات ، وممالك اسكس Essex وسنسسكس Sussex ، ووسكس Wessex التي كان أهلها من السكسون ، ثم ممالك انجلترا الشرقية ومرسيا Mercia ونورثمبرلاند ، وكان أهلها من الأنجلز • وقد استمرت الحروب والمنازعات بين هذه الممالك السبع حتى استطاع اثلبرت ملك كنت (٥٦٠ - ٦١٦) أن يفرض سيادته عليها جميعا • وكان هذا الملك قد تزوج برتا Bertha - وهي أميرة فرنجية مسيحية -

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 1, pp. 378-381.

(2) Hadgkin : The Hist of England. p. 108.

(3) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 95.

فى الوقت الذى وصل انجلترا القديس أوغسطين الصغير مبعوثا من البابا جريجورى العظيم • وكان وصول أوغسطين الى كنت سنة ٥٩٧ واعتناق ملكها أثلبرت المسيحية بشيرا بازدياد عدد البعثات التبشيرية من جهة وسرعة انتشار المسيحية فى انجلترا من جهة أخرى ، الأمر الذى أدى الى خروج أهالى بريطانيا عن عزلتهم وارتباطهم من جديد بمؤثرات الحضارة الغربية (١) • وهنا نلاحظ أن دخول بريطانيا دائرة الكنيسة الغربية عوض جزءا من الحضارة التى أصابت هذه الكنيسة فيما بعد باستيلاء المسلمين على أسبانيا • هذا الى أن البابوية احتفظت بالسيطرة العليا على الكنيسة فى انجلترا ، فظل الانجلوسكسون لا يعرفون شيئا عن الكنيسة الشرقية أو عن الامبراطورية وصاروا أينما ولوا وجوههم لا يجدون أمامهم سوى روما والبابوية (٢) •

والواقع ان القديس أوغسطين - الذى اصبح أول أساقفة كاتربورى (٥٩٧ - ٦٠٥) لم يصادف صعوبة فى نشر المسيحية فى كنت ، ولكن مبعوثيه صادفوا عنادا شديدا فى بقية أنحاء الجزيرة • وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحية أخذت تتقدم تقدما حثيثا فى تلك البلاد حتى غدت الكنيسة أكبر قوة حضارية تعمل على نشر المدنية والوحدة القومية بين ربوعها • حقيقة أن الكنيسة فى انجلترا صادفت عدة صعاب اعترضت سبيل تنظيمها وربطها بالبابوية ، ولكنها استطاعت أن تتخطى هذه الصعاب فى القرن السابع مما أتاح لانجلترا نصيبا عن تراث الحضارة الكلاسيكية • ومن أبرز أساقفة كاتربورى فى هذا القرن ثيودور الطرسوسى Theodore of Tarsus (٦٦٩ - ٦٩٠) الذى نظم الأسقفيات فى انجلترا وراى منها ، كما جعل من يورك كرسيًا لرئيس أساقفة ، وعقد اولى المجمع الدينية التى عرفتها الكنيسة الانجليزية (٣) • وهكذا ليست هناك مبالغة فيما يصر عليه بعض الكتاب من اعتبار ثيودور هذا مؤسس الأمة الانجليزية التى كانت حتى ذلك الوقت

(1) Idem. p. 96.

(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 303-304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 3. p. 540.

مفتة الى قبائل صغيرة ، كما اعتبروه واضح دعائم الحياة العلمية فى انجلترا
وهى الحياة التى بلغت ذروتها على عصر Bede (٦٧٥ - ٧٣٥) (١) .

أما فى الجانب السياسى فقد ظلت انجلترا تعاني الكثير بسبب الانقسامات
وعدم الوحدة حتى استطاع اجبرت Egbert ملك وسكس (٨٠٢ -
٨٣٩) ان يغزو الجزء الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة سنة ٨١٥ ، وأن
يهزم مرسيا سنة ٨١٩ وبذلك اصبح سيد انجلترا وصارت وسكس أكبر قوة
سياسية عندما بدأت تشتد اغارات الفيكنج فى القرن التاسع (٢) .

وبعد ، فعله من الواضح الآن أن الغزوات التى قام بها البرابرة - من
جرمان وغير جرمان - تركت أثرا واضحا فى المجتمع الرومانى . ذلك أن
هذه الغزوات أدت الى تحطيم الامبراطورية الرومانية فى الغرب وضياع معظم
أقاليمها غنية فى أيدى الغزاة . حقيقة ان جستنيان امبراطور الدولة البيزنطية
(٥٢٧ - ٥٦٥) بذل جهدا كبيرا فى استرداد هذه الأقاليم التى فقدتها
الامبراطورية الرومانية فى شمال أفريقية وإيطاليا وإسبانيا ، ولكن نجاحه كان
مؤقتا سريع الزوال (٣) . أما فى الناحية الاقتصادية ، فقد رأينا أن
الامبراطورية الرومانية كانت تشكو أعراض التدهور الاقتصادى قبل أن تقوم
جموع الجرمان بغزو أراضيها ، ولكن هذه الغزوات جاءت لتزيد الطين بلة
لأن التدمير الشامل الذى نتج عنها وما صاحبها من حروب بين الغزاة بعضهم
وبعض ، أو بينهم وبين الجيوش الرومانية أدت الى توقف التجارة والزراعة
والصناعة بل الى تدهور مستوى المعيشة بوجه عام . ولا شك فى أن الأثر
النفسى الذى تركته غزوات البرابرة وسقوط الامبراطورية الغربية فى نفوس
المعاصرين كان عظيما حتى اعتبر البعض هذه الأحداث نذيرا بنهاية العالم (٤) .

-
- (١) Hodgkin : The Hist. of England, pp. 195-209.
(٢) Idem : pp. 263-265.
(٣) Eyre : op. cit. pp. 31-32.
(٤) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 36.

وإذا كانت هناك ثمة ناحية من نواحي الحياة فى الامبراطورية قدر لها البقاء والاستمرار فى ظل التطورات الجديدة ، فانها كانت الكنيسة الكاثوليكية التى احترمها الجرمان ولم يمسوها بسوء حتى ازدادت فى ذلك العصر قوة ونفوذا • والواقع أن الأخطار التى أملت بالعالم الرومانى من جهة ، وسقوط الامبراطورية الغربية من جهة أخرى ، جعلت الكنيسة الغربية تبدو فى صورة القوة الوحيدة التى يمكنها انقاذ ما يمكن انقاذه من تراث الماضى ، كما أصبح القساوسة بمثابة الزعماء الطبيعيين الذين اتف حولهم الناس وسط الأزمة الحادة التى أحاطت بهم (١) •

(١) Painter : op. cit, p, 28.

الباب الرابع

الاسلام

على الرغم من أن الاسلام يعتبر ظاهرة شرقية من الناحيتين الدينية والحضارية الا أن أثره في أوروبا العصور الوسطى كان خطيرا بحيث لا يمكن تتبع تاريخ أوروبا في تلك العصور دون الإشارة الى هذا الأثر . حقيقة أن الدولة الاسلامية في أقصى اتساعها لم تضم سوى أجزاء محدودة من أوروبا مثل أسبانيا وصقلية ، فضلا عن بعض جزائر أخرى معروفة في البحر المتوسط ، ولكن يجب أن نذكر أن هذه الدولة ضمت جميع البلاد المطلة على الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط أي بلاد الشام ومصر وشمال افريقية ، في الوقت الذي كانت حضارة أوروبا لا تزال ترتبط الى حد كبير بذلك البحر . وبعبارة أخرى فإن حركة التوسع الاسلامية ترتب عليها تحطيم الوحدة الحضارية للبحر المتوسط مما جعل مؤرخا مثل بيرين يختار هذه الحركة بداية حقيقية للعصور الوسطى وحدا فاصلا بينها وبين العصور القديمة . هذا فضلا عن أن الدولة الاسلامية غدت بحكم موقعها الجغرافي بمثابة الحلقة التي ربطت القارات الثلاث أوروبا وآسيا وأفريقية ، وبالتالي انتقل عن طريقهما التراث الحضاري للشرق الى أوروبا العصور الوسطى (١) .

وتختلف الغزوات التي تعرضت لها أوروبا من جانب العرب منذ القرن السابع في طابعها العام وهدفها ونتائجها عن تلك التي تعرضت لها أوروبا قبل ذلك من جانب الجرمان . فهذه الغزوات الأخيرة قامت بها شعوب قديمة قدم الامبراطورية الرومانية نفسها ، وربطتها بالامبراطورية صلات تحالف

(1) Deanesly : op. cit. pp. 185-187.

أولاء أو حرب وعداء قبل أن تقوم بحركتها الشاملة التي أدت إلى غزو أراضي الإمبراطورية والاستقرار داخل حدودها • أما العرب الذين غزوا الإمبراطورية في القرن السابع ، فلم تربطهم بها صلات سابقة على شيء من الأهمية ، وكل ما هنالك هو أن الإمبراطورية الرومانية اكتفت باتخاذ بعض إجراءات لحماية أطراف الشام من خطر القبائل الرحل الضاربة في الصحاري المجاورة ، هذا فضلا عن إقامة دوائ الغساسنة على حدود الشام لحمايتها من الهجمات المعادية من جانب الفرس أو غيرهم • وفيما عدا ذلك كان آخر ما يتوقعه الرومان هو أن تخرج جيوش من جوف البلاد العربية لتهدد العالم الروماني ، بل ابتلاع أجزاء واسعة من ذلك العالم (١) •

وقد سبق أن رأينا كيف كان الفرس والروم في شغل شغال بالنزاع والحروب المستمرة فيما بينهم عن الاهتمام بما كان يجري في شبه الجزيرة العربية من مولد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧٠ هجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢ ، ثم ما تبع ذلك من انتهاء حالة الفوضى والتفكك السياسي والنزاع القبلي التي عاش عليها عرب الشمال قرونا طويلة • وبعبارة أخرى فإن انتصار رسالة خاتم النبيين أدت إلى جعل العرب أمة واحدة يخضعون لحكومة واحدة ويدينون بدين واحد شعاره لا إله إلا الله محمد رسول الله • على أن الرسالة المحمدية لم يقصد بها العرب وحدهم ، لأن الله أرسل محمدا شاهدا ومبشرا ونذيرا ، ليهدى الناس كافة إلى دين الحق ، ومن ثم غدت مهمة الرسول بعد أن تم نشر الإسلام في بلاد العرب أن يدعو الأمم المجاورة لاعتناق ديانته وإيمان برسالته • ويبدو أن بعض الرسل الذين أوفدهم النبي إلى ملوك الدول المجاورة وحكامها صادفوا اعراضا بل امتهانا ، مما جعل النبي يعد العدة للغزو والجهاد ، وإن كانت موجة الفتوح العربية لم تشتد وتوسع إلا بعد وفاة النبي نفسه سنة ٦٣٢ •

وليس العجيب في أمر الغزوات هو أن العرب تجاسروا على مهاجمة

(1) Pirenne : Mohammed and Charlemagne. p. 147.

الفرس والروم ، وهما أكبر امبراطوريتين عرفهما العالم عند مستهل القرن السابع ، وانما العجيب هو أن العرب غزوا فارس في الوقت نفسه الذي غزوا دولة الروم ، وأحرزوا انتصاراتهم الضخمة على الدولتين في وقت واحد . ذلك أن الاحتكاك بين المسلمين والروم بدأ فعلا في بادية الشام سنة ٦٣٩ ، أى في العام التالي مباشرة لانتهاء الحرب بين الروم والفرس (١) . وكانت دولة الروم - أو الدولة البيزنطية - تعاني حينئذ الأمرين من جراء ما تطلبته حروبها ضد فارس من جهة وضد البرابرة المهاجمين لأراضيها في البلقان من جهة أخرى ، زيادة على النزعة الانفصالية التي أخذت تقوى عند أقباطا مصر والأراميين في سوريا والأرمن عند أطراف آسيا الصغرى ، مما هدد كيان الدولة ووحدتها تهديدا خطيرا (٢) . ومهما يكن من أمر فإن موجة الفتوح العربية لم تتخذ شكلها الكاسح الا عقب وفاة الرسول ، أى منذ خلافة أبي بكر الذي بادر بإيفاد جيشين لغزو الروم والفرس سنة ٦٣٣ . وهكذا أخذت الجيوش العربية - بقيادة أبي عبيدة الجراح - تعمل في الشام ضد الروم ، في حين كان القسم الثاني من هذه الجيوش - بقيادة خالد بن الوليد - يعمل في العراق ضد الفرس (٣) . وقد حاول هرقل - امبراطور الروم - إرسال قوة بقيادة أخيه تيودور لانتفاذ الموقف في فلسطين ، ولكن القائد العربي - خالد بن الوليد - أتى مسرعا من العراق لنجدة اخوانه بالشام ، وبذلك أمكن انزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في موقعة أجنادين سنة ٦٣٤ (٤) . وعندما توفي الخليفة أبو بكر في هذه السنة السابقة ، خلفه عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) الذي اتسمت الفتوح الاسلامية في عصره ، فاستولى المسلمون على دمشق سنة ٦٣٥ ثم على حمص بعد قليل ، وعندئذ تار هرقل وحشد ثمانين ألفا من رجاله لقتال العرب ، ولكن خالد أنزل هزيمة جديدة ساحقة بالجيوش البيزنطية عند اليرموك سنة ٦٣٦ . وقد خيل لهرقل في هذه المرحلة أن يتولى قيادة الجيش البيزنطي بنفسه ضد المسلمين ، ولكنه سرعان

(1) Oman : The Dark Ages, p. 216.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 2, p. 231.

(3) Idem pp. 338-339.

(4) Idem, p. 341.

ما استكشف أنه لم يعد يقوى على مثل هذا الجهد بعد أن جاوز الخمسين من عمره وأخذ المرض يدب في جسده . وإذا كان هرقل قد أمضى سنتي ٦٣٥ ، ٦٣٦ في جبهة الشام ، إلا أنه سرعان ما أيقن صعوبة مقاومة العرب فترك بيت المقدس تقع في أيديهم (٦٣٧ - ٦٣٨) (١) . ويروي القلقشندي أن هرقل عندما أيس من أمر الشام خرج الى الرها ، حيث وقف على مرتفع والتفت الى الشام وقال « السلام عليك يا سوريا ، سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود اليك رومي بعدها الا خائفا » . ثم عاد الى القسطنطينية (٢) .

ولم تكن انتصارات العرب على الفرس أقل سرعة وأثرا من انتصاراتهم على الروم . ففي سنة ٦٣٧ كان العرب قد فتحوا العراق ، وفي سنة ٦٤١ أحرز العرب انتصارا عظيما على الفرس عند نهاوند مما فتح أمامهم الطريق الى قلب بلاد فارس (٣) . ولم تجد مقاومة الفرس العنيفة في وجه العرب الذين تم لهم القضاء على يزدجرد الثالث . آخر موك بني ساسان سنة ٦٥٢ وبذلك اختفت الملكية الفارسية من الوجود وتم للعرب فتح فارس (٤) .

وفي هذه الأثناء استمرت القوات العربية التي اجتاحت بلاد النهرين تهاجم الأطراف الشرقية للدولة الرومانية من جهة الجنوب ، فضلا عن مهاجمتها من شمال الشام . وقد بذل الامبراطور هرقل محاولة يائسة لانقاذ شمال الشام والعراق من أيدي المسلمين ، فأرسل بعض جيوشه لهذا الغرض ، ولكنها منيت بالهزيمة ، واضطرت الى الانسحاب ، وبذلك سقطت المدن والمناطق المهمة الموجودة في شمال العراق والشام مثل ماردين والرها وميافارقين (٦٣٨ - ٦٣٩) . وباستيلاء العرب على قيصيرية سنة ٦٤٠ فقدت الدولة البيزنطية آخر معاقلها جنوبى طرسوس وبذلك جاء دور مصر وشمال افريقية (٥) . ذلك أن العرب فتحوا مصر سنة ٦٤١ أى قبل أن يشهوا من فتح فارس . ويعتبر فتح مصر بالذات مثالا واضحا على عظم الخسارة التي منيت بها المسيحية ، كما يتخذ دليلا قويا على مدى ضعف الامبراطورية

(١) Diehl & Marcais : op. cit. pp. 190-192.

(٢) القلقشندي : صبيح الأعشى ، ج ٥ ص ٣٩٧ .

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 2. p. 347.

(٤) Orton : op. cit. pp. 80-81.

(٥) Oman : The Dark Ages. p. 220.

البيزنطية وانحلالها السياسى (١) . وبعد أن فتح العرب برقة سنة ٦٤٣ توقفت موجة الفتوح العربية قليلا بسبب ما قام فى جوف الدول الاسلامية الناشئة من فتنة انتهت بقيام الخلافة الأموية فى دمشق سنة ٦٦٠ ، ومن ثم استأنف العرب فتوحهم بنفس القوة والنشاط . وكان أن أخذ العرب فى فتح ولاية أفريقية سنة ٦٦٤ ، حيث أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتخلف قرطاجة حاضرة للبلاد (٢) . وكانت حروب المسلمين فى شمال أفريقية طويلة وشاقة ، لأنهم لم يصطدموا هناك بقوة الجيوش البيزنطية فحسب ، بل كن عليهم أيضا أن يتغلبوا على مقاومة البربر المعروفين بقوة المراس . ومهما يكن من أمر فإن قرطاجة سقطت أخيرا فى يد حسان بن النعمان سنة ٦٩٧ ، وإن كان نفوذ الخلافة الاسلامية لم يستقر تماما فى شمال أفريقية قبل سنة ٧٠٨ بفضل جهود موسى بن نصير .

وهكذا تحول شمال أفريقية بأكمله من الحضارة اللاتينية الى الحضارة العربية ومن الديانة المسيحية الى الديانة الاسلامية ، حتى البربر الذين طالما أظهرُوا عنادا يسترعى الانتباه ضد الغزاة السابقين ، سرعان ما اندمجوا فى تيار الحضارة الجديدة وأصبحوا مسلمين متحمسين . وبذلك مرت سبعمائة السنة التى سيطرت فيها أوروبا على شمال أفريقية دون أن تترك أثرا فى تلك البلاد سوى الأساطير والأطلال ، فالمسيحية اندثرت ، والحياة الرومانية ذبلت ، والمدن تركها الرومان ليعودوا أدراجهم الى أوروبا (٣) .

على أن المسلمين لم يقنعوا بفتح شمال أفريقية حتى المحيط الأطلسى وإنما تمكنوا من الاستيلاء على سردينيا ٧١١ ، كما عبر طارق بن زياد المضيق المعروف

(1) Eyre : op. Cit. p. 63.

(2) Orton : op. cit. p. 81.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1. p. 287.

باسمه واستطاع فتح أسبانيا فيما بين سنتي ٧١١ ، ٧١٣ (١) . وبفتح أسبانيا بدت خسارة الكنيسة المسيحية واضحة جلية ، إذ فقدت بلادا ارتبطت بها أصول المسيحية الأولى مثل بلاد الشام ومصر ، فضلا عن بلاد أخرى بمثابة أجزاء أساسية من الوطن المسيحي مثل شمال أفريقية وأسبانيا . وفي جميع هذه البلاد أقبلت نسبة كبيرة من الأهالي على اعتناق الاسلام « عن اختيار واردة حرة » (٢) . وهنا نجد أنفسنا أمام ظاهرة جديدة باهتمام المشتغل بالتاريخ . فالعرب الذين غزوا العالم الروماني في القرن السابع وأوائل الثامن كانوا أقل عددا بكثير من الجرمان الذين تدفقوا على قلب ذلك العالم من قبل . ومع ذلك فإن الحضارة الرومانية والكنيسة المسيحية تغلبت في النهاية على هؤلاء الجرمان واستوعبتهم ، في حين كانت القلعة في الجهات التي انتزعتها العرب واستقروا فيها - مثل الشام ومصر وشمال أفريقية والأندلس - لحضارة العرب وديانتهم . ونحن لا نجد لهذه الظاهرة الهامة البارزة سوى تفسير تاريخي واحد ، هو أن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الروماني ، في حين ظهر العرب مزودين بعقيدة جديدة وديانة مساوية أدت الى تماسكهم وحالت دون ذوبانهم في المجتمع الجديد (٣) .

والواقع أن أسباب حركة الفتوح العربية ، والسرعة الفائقة التي تمت بها هذه الحركة ، والنجاح السريع الذي أحرزته ، كانت من الموضوعات التي احتلت جزءا كبيرا من تفكير المؤرخين المحدثين . ذلك أنه لم تكن نمض على وفاة الرسول سبعون سنة حتى كان الاسلام قد امتد من المحيط الهندي حتى المحيط الأطلسي . حقيقة أن ضعف الفرس والروم كان من العوامل المساعدة التي سهلت مهمة الفتوح العربية ، ولكن لابد من وجود قوى نافعة أدت بالعرب الى الصبر على الجهاد طوعا لا كرها ، حتى استطاعوا أن يحدثوا هذه الثورة الضخمة في تاريخ العالم . وهنا حاول بعض الباحثين تفسير هذه القوة على أسس اقتصادية بحتة ، فالأستاذ بيكر Becker يريد أن يثبت أن حركة الفتح العربي في القرن السابع لم تكن مقاعضة - كما تبدو - وإنما هي

(1) Thompson : op. cit. vol. 1. pp. 163-164.

(٢) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٥١ .

(3) Pierenne : Mohammed and Charlemagne. p. 150.

حلقة أخيرة من سلسلة طسويلة بدأت قبل ذلك بعدة قرون وأدت الى خروج كثير من الهجرات السامية من قلب شبه الجزيرة العربية ، نتيجة لتقلب الأحوال الاقتصادية فيها وما أصاب البلاد نتيجة لذلك من ضعف وتدهور يدل على انهيار سد مأرب في القرن السادس (١) . وبعبارة أخرى فان تعرض شبه الجزيرة العربية لأزمات اقتصادية هو الذى دفع شعوبها السامية الى الهجرة ، ولا فرق فى ذلك بين الهجرات السابقة التى قام بها الأراميون والكنعانيون ، أو الهجرات اللاحقة التى قام العرب بها قبل ظهور الاسلام (٢) . ويميل برناردلويس الى مشاركة بيكر هذا الرأى ، فيقول ان بلاد العرب شهدت فى قديم الزمان خصبا عظيما أعقبه جفاف مستمر ، مما أدى الى زحف الصحراء على حساب الأراضى الخضراء ، حتى أخذ سكان هذه البلاد يخرجون منها على هيئة هجرات بعد أن ضاقت سبل العيش فى وجوههم (٣) . أما توماس أرنولد فيعبر عن هذه الفكرة تعبيراً أكثر جرأة وأوضح صراحة حين يقول : ان حركة التوسع العربى كانت هجرة جماعة نشيطة دفعها الجوع والحرمان الى أن تهجر صحاريها المجربة وتحتاج بلاداً أكثر خصبا كانت ملكاً لجبران أسعد منهم خطأ .

ومن الواضح أن هذا الرأى يحوى كثيراً من المبالغة والبعد عن الحقيقة ، لأنه يغفل أثر العامل الدينى والرغبة الصادقة فى الجهاد والاستشهاد ، وهى الروح التى تثبت الوقائع التاريخية أنها سيطرت على جيوش العرب فى الدور الأول من أدوار حركة التوسع . حقيقة ان مؤرخاً محدثاً مثل توماس أرنولد يقول « ان الحماسة الدينية وبواعث العقيدة لم تكن قد تسربت الا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية » (٤) ، ولكن هل نصدق توماس أرنولد فى القرن العشرين أو نصدق حاكماً رومانيا معاصراً فى القرن السابع وقد أرسل

(١) القرآن الكريم سورة سبأ (١٥ - ١٧) :

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 331 (C.H. Becker)

(٣) برنارد لوييس : العرب فى التاريخ ص ٢٨ ، ٥٧ .

(٤) أرنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٤٧ .

(م ١٠ - أوروبا فى العصور الوسطى)

اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ، فرد عليه الحاكم المسيحي قائلا « انهم أقل منا عددا ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا . ذلك أنهم لا يطمعون فى شىء من لذات الدنيا ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا فى الوقت الذى يرغبون فى الاستشهاد لأنه أفضل طريق يوصلهم الى الجنة ، فى حين تتعلق نجن بأهداب الحياة ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور ! » (١) • أما بيرين Pirenne فيؤكد أن الحماسة الدينية وحدها هى التى أدت الى نجاح العرب فى حركتهم التوسعية ، ويقول ان الفارق كبير بين الجرمان أو المغول الذين غادروا بلادهم ومعهم نساؤهم وأطفالهم وعبيدهم ومواشيهم بغية السلب والنهب والحصول على أرض جديدة تدر عليهم من خيراتها ما يكفل لهم عيشا رغيدا ، وبين العرب الذين خرجوا فى أوائل القرن السابع ينادون بأنه لا اله الا الله محمد رسول الله ، دون أن يصطحبوا معهم سوى سيوفهم وخيولهم • حقيقة ان حركة الفتح الاسلامى أعقبتها حركة أخرى للهجرة والاستقرار فى الولايات العربية الجديدة التى تم فتحها ، ولكن هذه الحركة الأخيرة لم تبدأ الا بعد أن انتهت الأولى بنحو قرنين من الزمان تغيرت فيهما أوضاع البلاد المفتوحة وأصبحت جزءا من الوطن العربى الكبير (٢) •

أما عن نشاط المسلمين البحرى فى البحر المتوسط فيلاحظ أن وصول العرب الى شواطئ هذا البحر واستيلائهم على موانئ الشام ومصر ، جعلهم يهتمون بأمر الأسطول لدفع خطر الروم الذين حاولوا استرداد الاسكندرية سنة ٦٤٢ - ٦٤٣ ثم سنة ٦٥٢ كما استمروا يهددون الغرب بحريا فى فتوحهم الجديدة (٣) • والواقع أن العرب لم يجهلوا البحر فى جاهليتهم ، فقد عرف أهل الجنوب بناء السفن ، وباشروا نوعا من التجارة البحرية النشطة قبل الاسلام ، ولكن عرب الشمال ظلوا بعدين عن ممارسة ركوب البحر حتى

(1) Eyre : op. cit. pp. 63—64

(2) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 47

(3) Thompson : op. cit. Vol. I p. 160

كانت الفتوح الاسلامية ، وحينئذ أخذوا يكيّفون أنفسهم فى وضعهم الجديد كقوة من قوى البحر المتوسط . ولم يلبث أن أصبح العرب قوة بحرية خطيرة فتزوا قبرس سنة ٦٤٨ ، وأغاروا على الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى عدة مرات ، حتى أنزلوا أخيرا هزيمة كبرى بالأسطول البيزنطى فى موقعة ذات انصوارى سنة ٦٥٥ (Phoenix) ، وهى الموقعة التى تعتبر أعظم معركة بحرية شهدتها البحر المتوسط منذ موقعة إكتيوم سنة ٣١ ق م (١) . وإذا كانت الظروف التى تعرضت لها الدولة الاسلامية عند منتصف القرن السابع قد حالت دون قيام العرب بحصار القسطنطينية عقب هذه الموقعة ، فإن الأمويين لم يلبثوا أن استأنفوا سياسة مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا على نطاق واسع حتى وصلت اغاراتهم الى بحر ايجه سنة ٦٦٥ . ويبدو أن المسلمين كانوا قد أحرزوا خبرة كافية بفنون البحر جعلتهم يعبرون الى تراقيا (٦٦٨ - ٦٦٩) ويهاجمون القسطنطينية نفسها . كذلك أفاد العرب من استيلائهم على قبرس ورودس وغيرهما من المواقع البحرية الحصينة فى بحر ايجه ، فقاموا بعدة محاولات للاستيلاء على القسطنطينية استمرت خمس سنوات (٦٧٣ - ٦٧٨) (٢) . ولم ينقذ عاصمة الامبراطورية البيزنطية من السقوط فى أيدي المسلمين عندئذ سوى اختراع النار الاغريقية الذى توصل اليه مهندس سورى الأصل يدعى كالينيقيوس Callinicus . أما هذا الاختراع فعباره عن عدة مركبات تشتعل عندما تصيب الهدف ، مما أنزل بالسفن الاسلامية خسائر جسيمة (٣) .

وهكذا لم يكف المسلمون عن مهاجمة الدولة البيزنطية برا وبحرا ، حتى كانت أوائل القرن الثامن ، وعندئذ اعتقد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) أن الوقت قد حان للقيام بحملة كبرى تستولى على القسطنطينية وتطبع بالامبراطورية البيزنطية . واختار الخليفة أخاه مسلمة ليكون على

(1) Oman : The Dark Ages, p. 239

(2) Dichl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 44

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1, p. 283.

رأس هذه الحملة التي شقت طريقها عبر آسيا الصغرى حتى بلغت البسفور وعبرته الى الشاطئ الأوربي سنة ٧١٧ (١) • وبينما أطبق المسلمون على القسطنطينية من ناحية البر ، اذا بالأسطول الاسلامي يهاجمها من ناحية البحر ، حتى كادت المدينة تقع فى أيدي المسلمين لولا النار الاغريقية التي لعبت دورها فى تشتيت سفنهم ، فى الوقت الذى أغرى الامبراطور ليو الأيسورى (٧١٧-٧٤١) البلغار بمهاجمة المسلمين من الخلف (٢) • وعندما سمع الخليفة عمر بن عبد العزيز بحرج موقف المسلمين أمرهم بالانسحاب سنة ٧١٨ بعد أن ظلوا على حصار القسطنطينية أكثر من عام (٣) • وهكذا تم تجنب الامبراطورية البيزنطية ، بل أوروبا بأجمعها تغييرا خطيرا كان من الثابت أن يترك أثرا بعيدا فى التاريخ لو أن العرب نجحوا فى تحقيق هدفهم بالاستيلاء على القسطنطينية ، مفتاح أوروبا من جهة الشرق •

وبعد أن فشل المسلمون فى الاستيلاء على القسطنطينية فى أوائل القرن الثامن تشجع البيزنطيون وأخذوا يدفعون ضغط المسلمين تدريجيا عن آسيا الصغرى ، حتى غامر الامبراطور قسطنطين الخامس بشن هجوم على الشام سنة ٧٤٥ منتهزا فرصة الضعف الذى أمتست فيه الخلافة الأموية فى أواخر عمرها • وفى العام التالى أحرز البيزنطيون نصرا بحريا على المسلمين واستردوا منهم جزيرة قبرس (٤) • ولم تلبث سنة ٧٥٠ أن شهدت سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية فى بغداد • وهنا نلاحظ أن اتخاذ الأمويين بلاد الشام مركزا لهم جعلهم قريبين من آسيا الصغرى والأراضى البيزنطية بحيث كان الضغط الاسلامي على الدولة البيزنطية شديدا وملموسا فى العصر الأموي • ولكن اتجاه العباسيين نحو العراق وبغداد جعل مركزهم أكثر بعدا عن الدولة البيزنطية وأراضيتها ، ومن ثم قل الضغط الاسلامي على حدود هذه

(1) Idem : pp. 313—314

(2) Ostrogorsky, op. cit. p. 139

(3) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, p. 54,

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 4 pp. 121—122

«الدولة بصورة واضحة في العصر العباسي (١) * ولكن ليس معنى ذلك أن العباسيين لم يهددوا الدولة البيزنطية ، إذ كثيرا ما أوغلت الجيوش العباسية داخل آسيا الصغرى ، حتى وصلت سنة ٧٨٢ الى البسفور ، مما اضطر الامبراطورة ايرين الى شراء مسالة المسلمين بالمال (٢) * هذا في الوقت الذي استمرت اغارات العرب البحرية على شاطئ الدولة البيزنطية وتغورها ، حتى استولى المسلمون سنة ٦٠٤ على سالونيك ونهبوها وأسروا بضعة آلاف من أهلها *

ويلاحظ أن صعود الدولة البيزنطية ونجاحها في صد المسلمين ، في الوقت الذي نجح الفرنجة في صد مسلمي الأندلس عن غاليا وغرب أوربا ، كان له أثر كبير في مستقبل تاريخ القارة الأوروبية * ذلك أن الدولة البيزنطية ظلت حتى الفتوح الاسلامية تمثل المركز الأساسي للحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، ولكن هذه الصفة أخذت تزول عنها عقب حركة التوسع الاسلامي لتقوم الدولة البيزنطية بوظيفة الحد الشرقي للحضارة الأوروبية لا مركزها الأساسي * وهكذا أخذ التاريخ البيزنطي منذ اتساع الفتوح الاسلامية يفقد أهميته العامة ، بعد أن صارت الدولة البيزنطية لا تعدو أن تكون درعا يحمي أوربا من خطر آسيا ، في حين انتقل مركز الثقل للحضارة الأوروبية الى الغرب (٣) *

على أن أثر العرب والاسلام في تاريخ العصور الوسطى لا يقف عند التغيرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العالم المعروف ، وإنما يبدو هذا الأثر أشد ما يكون وضوحا في الميدان الحضاري * وهنا نجد الحضارة العربية الاسلامية تقوم على دعامتين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية (٤) * ومازالت السرعة التي انتشرت بها اللغة العربية والديانة

(1) Painter : op. cit. p. 44

(2) Vasiliev : op. cit. Tome 1 p. 317

(3) Eyre : op. cit. p. 64

(4) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 48

الاسلامية تعتبر لغزا يثير حيرة المفكرين • فاللغة العربية ليست باللغة السهلة. القليلة التعقيد حتى يقال ان سهولتها أدت الى سرعة انتشارها من المحيط الأطلسي حتى الخليج العربي ، ومع ذلك فقد نجحت اللغة العربية في أن تبسط سيادتها على جميع البلاد التي فتحها العرب وحكموها زمنا طويلا . باستثناء فارس • لذلك لم يستطع الباحثون تفسير ظاهرة انتشار اللغة العربية الا في ضوء انتشار العقيدة الاسلامية نفسها وما تطلبت هذه العقيدة من معرفة بقواعد اللغة العربية لأداء فروض الدين • ويقول بيكر أن أوروبا العصور الوسطى نظرت الى انتشار الاسلام من وجهة النظر الكنسية الدينية • وكان الكنيسة قد أفزعها وآلمها ضياع بلاد مثل الشام ومصر وشمال العراق ترتبط جميعا بأصول المسيحية ونشأتها ، فراحت تفسر انتشار الاسلام في هذه البلاد على أنه لم يتم الا بحد السف (١) • ولكن بيكر يؤكد أن هذه النظرة - التي ما زال بعض المتعلمين في أوروبا حتى اليوم يعتقدون في صحتها - بعيدة عن الواقع ، لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالي البلاد المفتوحة ، وانما فرضوا سيطرتهم السياسية لا غير • فسيطرة العرب السياسية هي التي انتشرت بقوة السلاح ، أما الديانة الاسلامية نفسها فقد وجدت سبيلها الى قلوب نسبة كبيرة من أهالي البلاد المفتوحة ، بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود سواء ، وهو تسامح لم يحفظوا به في ظل حكامهم السابقين (٢) •

وقد أجمع الباحثون أن الحضارة الاسلامية كانت أعظم حضارة شهدتها العالم في العصور الوسطى • فالعرب لم يكونوا مثل غيرهم من العناصر البربرية من جرمان ، وغير جرمان الذين انسابوا داخل الامبراطورية الرومانية ، والذين لا تقترن أسماؤهم في التاريخ غالبا الا بالهدم والتخريب (٣) • وفي الوقت الذي نسمع بما أحدثته اغارات الهون والوندال والقوط من تخريب

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 330

(2) Ibid.

(3) Pirenne : A Hist. of Europe, p. 46

شامل لكثير من أقاليم أوروبا وأفريقية ، اذا بالبلاد التي فتحها العرب واستمروا فيها تنحول الى مراكز حضارية كبرى يقصدها طلاب العلم والمعرفة من مختلف أنحاء العالم المعروف للتزود والاستنارة . وحسبنا أن نوازن بين أحوال بعض البلاد الأوربية مثل أسبانيا وصقلية ، قبل فتح العرب لها وأحوالها بعد استقرارهم بها ، اذ تبدلت أوضاعها من جهل وتأخر وانحلال وخراب الى نشاط فكري وتقدم اقتصادي وعمران شامل وازدياد مطرد في السكان والأموال (١) .

حقيقة ان العرب عندما خرجوا من شبه الجزيرة العربية في القرن السابع ليقوموا بحركتهم التوسعية الكبرى لم يكن لديهم تراث حضاري شامل بمعنى الكلمة . ولكن العرب كان لديهم ما هو أهم من ذلك وهو القدرة على استيعاب حضارات الآخرين وتشرب أصولها . وبفضل هذا استطاع العرب أن يتشربوا بسرعة ما وجدوه من دراسات وثقافات في غرب آسيا وشمال افريقية ، وهي الدراسات اليونانية التي ترجمها الأراميون والكنعانيون الى لغاتهم السامية حتى جاء العرب لينقلوها الى العربية (٢) . وهكذا أثبتت الأبحاث الأخيرة فساد النظرية القائلة بأن العرب قضوا على الحضارة القديمة في منطقة الشرق الأدنى وأقاموا بدلا منها حضارة جديدة ، لأن التطور التاريخي ثابت ومستمر . وبعبارة أخرى فان الاسلام ورث الحضارة الشرقية الهلنستية وتعهده هذه الحضارة بالحفظ اولعناية والتغذية المستمرة . ولكن حدث عندما نقل الخلفاء العباسيون عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد أن أخذ الأثر الهلنستي يضعف - الى حد ما - في الحضارة الاسلامية ليزداد فيها أثر الحضارات الشرقية كالفارسية والهندية والصينية . وكان ذلك في الوقت نفسه الذي أخذ غرب أوروبا يزداد - هو الآخر - تباعدا عن الحضارة الهلنستية بعد قيام الممالك الجرمانية ، مما أدى الى التباعد واتساع الفجوة بين الحضارتين الاسلامية والغربية (٣) . وهكذا غدت الحضارة الاسلامية

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 432—435

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 330

(3) Ibid.

مجمع العلوم اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والصينية ، فى حين غدت
اللغة العربية الواسطة الأساسية للترجمة والربط بين هذه العلوم مما جعل
الطابع العربى يبدو مميزا لهذه النهضة الحضارية الشاملة (١) .
وكان أن أفاقت أوروبا من وحشة العصور المظلمة فى أواخر القرن الحادى
عشر لتجد نفسها أمام حضارة اسلامية شامخة البناء ، فأخذت أوروبا تقبل على
هذه الحضارة الزاهرة ، وأسرع الأوروبيون الى مراكز الحضارة الاسلامية
يرتشفون من معيها الفياض ويرتوون من منهلها العذب . وازداد تدفق طلاب
العلم الأوروبيين بوجه خاص على الأندلس وصقلية حيث أخذوا يترجمون الى
اللاتينية كل ما استطاعوا ترجمته فى الفلسفة والعلوم والرياضيات وغيرها
من ألوان النشاط الفكرى (٢) . حقيقة أن بعض هذه المعلومات التى ترجمها
الغربيون عن العربية كانت يونانية الأصل أخذها العرب عن التراث اليونانى
القديم ، ولكن الفضل يرجع اليهم فى المحافظة عليها وتصحيحها وشرحها ،
حتى اذا ما اندثر التراث اليونانى - أو كاد يضيع - فى الفترة المظلمة الى
أعقب سقوط الامبراطورية فى الغرب ، لم يبق التراث اليونانى الفكرى
قائما فى كثير من الحالات الا فى التراجم العربية (٣) . وحسبنا ما أحدثه
شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو من ثورة ضخمة فى أوروبا العصور الوسطى (٤)،
وما سببته معارف العرب فى الحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات من
انقلاب شامل فى تطور التفكير الرياضى الأوروبى ، وما ترتب على انتقال
معلومات العرب فى انفلك والجغرافيا الى الأوروبيين من تطور شامل ، وما
اعترف به الأوروبيون أنفسهم من تقدم العرب فى الطبيعة والكيمياء والطب ،
حتى استمرت الجامعات الأوروبية منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن
عشر تعتمد على كتير من مؤلفات المسلمين فى هذه العلوم (٥) . هذا كله

(1) Deanesly : op. cit. p. 270 & Pirenne : A. Hist. of Europe, p. 48

(2) Haskins : The Renaissance of the Twelfth Century. p. 287.

(3) Eyre : op. cit. pp. 273—279

(4) Carr. Med. Hist. Vol. 4 p. 296.

(5) Eyre : op. cit. pp. 793—294

فضلا عن تفوق المسلمين فى الفنون الكبرى والصغرى ، مما جعل الأوروبيين يقبلون فى شغف على محاكاة النماذج العربية ويتأثرون بها بدرجة لا تزال واضحة فيما خلفته العصور الوسطى من مخلفات وآثار متنوعة (١) . وهكذا أصبح نفوذ العرب وتأثيرهم الحضارى على غرب أوروبا منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر يفوق نفوذ الامبراطورية البيزنطية فى أثره وقوته (٢) .

ولا حاجة بنا الى القول بأن روح التسامح السامية التى عرف بها العرب والتى لا يوجد لها أى نظير فى الشرق أو فى الغرب فى العصور الوسطى ، كان لها أكبر الأثر فى تفهمهم للحضارات الأخرى السابقة تفهما واضحا صحيحا وفى تفهم الأوروبيين لحضارتهم تفهما مفيدا واقعيا (٣) . ذلك أن العرب لم يفرقوا فى نشاطهم الحضارى بين المسلمين وغير المسلمين ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بالتعلم عليهم والاستفادة منهم ، فأقبل الأوروبيون فى الأندلس وصقلية والشام وغيرها على دراسة معارف المسلمين وترجمتها مما ساعد على نهضة أوروبا فى العصور الوسطى (٤) .

(1) Lehaby : The Lagacy of the Middle Ages, p. 61.

(2) Orton : op. cit. p. 91

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 4 p. 287

(4) Thompson : op. Vol. 1 pp. 92—93

الباب الخامس

إيطاليا بين ثلاث قوى

اللمبارديون - البابوية - الحلة البيزنطية

لم تكد تمض سنوات قليلة على استسلام آخر القوات القوطية فى شمال إيطاليا للقائد البيزنطى نارسيس ، أو على وفاة الامبراطور جستينيان العظيم سنة ٥٦٥ بعد أن اطمأن أن سيطرة قواته على شبه الجزيرة الإيطالية ، حتى تعرضت إيطاليا لغزو اللمبارديين الذين تركوا أثر واضحا فى كيانها السياسى ونظمها الاجتماعية وقوانينها العامة والخاصة (١) .

أما هؤلاء اللمبارديون فكانوا آخر الشعوب الجرمانية التى اقتحمت الامبراطورية الرومانية واستقرت داخل أراضيها . وقد أقاموا فى القرن الأول عند وادى نهر الأودر والجزء الأدنى من نهر الالب ، حتى تحركوا جنوبا بعد قليل . ثم كان أن ظهوروا فى بانونيا فى أوائل القرن السادس حيث دخلوا فى صراع رهيب مع جيرانهم من الشعوب الجرمانية مثل الجيداي ، وخرجوا منهصرين من هذا الصراع سنة ٥٦٧ بفضل تحالفهم مع عنصر الآفار الذين خلفوا الهون فى الأجزاء الشرقية والوسطى من أوربا (٢) . على أنه يبدو أن اللمبارديين لم يشكلوا فى هذه المرحلة خطرا على الامبراطورية ، بل عمالوا كجند مرتزقة فى جيوش جستينيان حتى أن الجزء الأكبر من الجيش البيزنطى الذى عمل تحت قيادة نارسيس فى إيطاليا لطرده القوط الشرقيين كان مؤلفا من اللمبارديين (٣) . ولم تلبث الظروف أن جعلت من اللمبارديين قوة خطيرة تهدد الامبراطورية ، وذلك عندما اتحدت قبائلهم

(1) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

(2) Wallace -- Hadrill : The Barbarian West, p. 45

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 289

تحت زعامة ملك واحد • وكان ذلك في الوقت الذي اضطروا تحت ضغط الآفار الى الجلاء عن بانونيا • وهنا تلفت اللبارديون حولهم فلم يجدوا بلداً أصلح لهم وأقرب اليهم من ايطاليا •

وهكذا أخذت جموع اللبارديين تندفق على ايطاليا في ربيع سنة ٥٦٨ تحت زعامة ملكهم ألبوين Alboin في وقت كانت الامبراطورية البيزنطية - تحت حكم جستين الثاني - في حالة لا تسمح لها بارسال جيوش لصد هذا الخطر الداهم ، لذلك تركز الدفاع عن ايطاليا ضد الخطر اللباردي في المدن المحصنة ذات الأسوار المنيعة • ولكن حتى هذه المدن لم تستطع الصمود ، فلم يكد يمض عام حتى انتشر اللبارديون فوق سهول نهر البو ، واستولوا على فيرونا وميلان دون أن يصادفوا مقاومة جديدة من الأهالي او من الحامية البيزنطية • ثم استطاع اللبارديون اخضاع باقيا بعد حصار دام ثلاث سنوات فاتخذوها عاصمة مملكتهم الجديدة التي أخذت منذ ذلك الوقت في الاتساع السريع (١) • ذلك أن مقتل ألبوين أثناء حركة توسع اللبارديين لم يؤثر في موقفهم وقوتهم ، اذ استطاع أشراف اللبارديين وزعماء قبائلهم التفوق على القوات البيزنطية الضعيفة ، بل انزال الهزيمة بها ، حتى استولوا على تسكانيا والأجزاء الوسطى من ايطاليا حتى بنفتوم ، فضلا عن السهول الشمالية التي لصق بها اسم اللبارديين حتى اليوم (٢) •

ولم تكن هذه أول مرة تعرض فيها ايطاليا لمحنة الغزو الجرمانى كما سبق أن رأينا ، ولكن الفارق هو أن الشعوب الجرمانية التي غزت ايطاليا من قبل لم تنتزع كل الأراضي من أصحابها الرومان ، وانما اكتفت باغتصاب مساحة تتراوح بين ثلث الأراضي ونصفها ، وتركت الباقي لأصحاب البلاد الأصليين (٣) • أما اللبارديون ، فقد وضعوا أيديهم على جميع الأراضي المفتوحة وأنزلوا الملاك الأصليين الى مرتبة التبعية ، كما أذاقوا الفلاحين كثيراً من الضغط والجور • وعلى الرغم من أنه لا يوجد ما يدل على استمرار هذا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 196

(2) Oman : The Dark Ages. p. 187

(3) Thompson. op. cit. vol. 1 p. 170

الضغط ، الا أنه من الثابت أن اللبارديين كانوا أعنف العناصر الجرمانية التي غزت إيطاليا وأشدّها قسوة (١) . هذا الى أن اللبارديين امتازوا عن غيرهم من الشعوب الجرمانية بشدة تعصبهم لنظمهم وتقاليدهم الجرمانية وتمسكهم بها . وربما كان من أسباب هذه الظاهرة أنهم دخلوا إيطاليا فاتحين لا حلفاء معاهدين (foederati) للإمبراطورية وأنه لم توجد روابط قوية تربطهم بالحضارة الرومانية مثلما كان الحال مع القوط من قبل . هذا زيادة على اعتناقهم للمذهب الأريوسي من جهة وقلة عددهم بالنسبة لأهالي البلاد من جهة أخرى ، مما جعلهم شديدي التعصب لأصلهم الجرمانى ونظمهم الجرمانية . ومن أمثلة هذا التعصب الواضحة أن الملكية اللباردية ظلت انتخابية فى حين أصبحت وراثية فى جميع ما عداها من الممالك الجرمانية (٢) .

وقد وجد موريس امبراطور الدولة البيزنطية (٥٨٢ - ٦٠٢) أن مقاومة الغزو اللباردى لاييطاليا غير مجدية ، فلجأ الى وسيلة أكثر نفعا من الناحية العملية وهى إعادة تنظيم الادارة الامبراطورية فى ايطاليا ، على أساس اقامة نظام الدوقيات فى روما وبيروجيا ونابلى وكالبريا ولنجوريا ، بحيث تخضع كلها للنائب الامبراطورى فى رافنا . وكان النائب الامبراطورى يجمع فى يده السلطتين الحربية والمدنية وكذلك كان الدوقات كل فى دوقيته ، حتى يتمكن الجميع من مواجهة تهديد اللبارديين (٣) . على أن أهم ما يلاحظ على الأملاك البيزنطية فى ايطاليا عندئذ هو تآثرها وعدم ارتباطها ، مما جعل أباطرة القسطنطينية يشعرون بعجزهم عن مواجهة الموقف ويطلبون مساعدة الفرنجة ضد اللبارديين (٤) . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ أوثارى Authari ملك اللبارديين (٥٨٤ - ٥٩٠) يعمل على توحيد قواهم تحت سباته ، حتى اذا ما تم له ذلك بدأ

(1) Orton : op. cit. p. 103

(2) Wallace — Hadrill : op. cit. p. 45

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 178

(4) Oman : The Dark Ages, pp. 190—191

يوجه كل جهوده نحو حرب الفرنجة وصد خطرهم (١) • وثمة تطور آخر هام حدث في عهد أوثارى هو زواجه من ابنة دوق باقاريا ، وهى أميرة كاثوليكية ، الأمر الذى نشأ عنه اعتناق زوجها للمذهب الكاثوليكي الذى أخذ ينتشر بين اللبارديين فى القرن السابع (٢) •

وبعد أوثارى جاء أجيلولف Agilulf فى حكم اللبارديين (٥٩٠ - ٦١٦) وقد شاء حسن حظ هذا الملك الجديد أن الفرنجة شغلوا بالنازعات الداخلية فيما بينهم عن اللبارديين ، مما مكن الملك اللباردى من انتزاع أجزاء جديدة من أملاك الدولة البيزنطية فى إيطاليا ، حتى توسط البابا جريجورى العظيم فى عقد اتفاقية بين اللبارديين والامبراطورية البيزنطية سنة ٥٦٨ (٣) • على أن نقض النائب الامبراطورى فى ايطاليا لهذه الاتفاقية جعل اللبارديين ينزلون خسارة جسيمة بالامبراطورية ، اذ انتزعوا بادوا سنة ٦٠٢ ثم مانتوا - آخر المعاقل البيزنطية فى حوض البو - فى السنة نفسها • وهنا لجأ الامبراطور فوقاس - ازاء الأخطار الجسيمة التى تهدد دولته عندئذ ، وبخاصة من جانب الفرس - الى شراء مسالمة اللبارديين مقابل تعهده بدفع جزية سنوية ضخمة لهم • وقد تعرض اللبارديون فى عهد ملكهم أجيلولف لبعض المتاعب والثورات الداخلية ، فضلاً عن التهديدات الخارجية التى واجهت دولتهم من جانب الآفار والسلاف على الحدود الشمالية الشرقية • ولكن على الرغم من كل ذلك فان هذا العصر يمثل دور النضج بالنسبة للبارديين وحضارتهم فى ايطاليا ، اذ أخذوا بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد واعتناقهم المسيحية الغربية يهتمون ببناء الكنائس وينصرفون نحو كثير من المشروعات السلمية (٤) •

على أن أشهر ملوك اللبارديين وأهمهم فى التاريخ كان روثارى Rothari (٦٣٦ - ٦٥٢) الذى شهد عصره اتمام غزو شمال ايطاليا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 190—200

(2) Oman : op. cit. p. 193

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 201

(4) Oman : The Dark Ages, p. 195



وانتزاع المنطقتين اللتين كانتا لا تزالان تحت سيطرة البيزنطيين ، وهما منطقة ليجوريا الممتدة من نيس الى لونا - بما فيها مدينة جنوا العظيمة - ، والمنطقة المحيطة بمدينة أودرزو Oderzo على شاطئ البندقية . ولم يحصل روثارى على هذه الجهات الا بعد جهاد عنيف وقتال شاق ضد البيزنطيين ، انتهى بانتصاره عليهم بعد أن حملهم خسارة فادحة (١) . ولا ترجع أهمية روثارى في التاريخ الى انتصاراته السابقة فحسب ، بل يرجع جانب كبير من شهرته الى أنه شكل القانون اللباردى ونظمه ، فأصدر سنة ٦٤٣ مجموعة القوانين العرفية الخاصة بالشعب اللباردى والتي لم يسبق تدوينها أبدا من قبل . حقيقة ان القوانين والتشريعات التي أصدرها روثارى (Edictum Rotharis) لا تعدو أن تكون مجموعة بدائية تصور أحوال شعب جرمانى يعيش على الفطرة وسط الأحرار والغابات ، أكثر من تصويرها لشعب أصبح يحيا فى قلب ايطاليا . ولكنها على الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الشطر الأكبر منها يتناول المسائل المتعلقة بالفدية والتزامات الاتباع نحو ساداتهم وتنظيم حقوق الوراثة ، دون أن تحوى شيئا عن حياة الحضر والكنيسة ، فان أهمية هذه المجموعة عظيمة من حيث دلالتها التاريخية وقيمتها فى تصوير أوضاع الشعب الجرمانية ، فضلا عن كونها أول قانون مدون للباردين (٢) .

وبعد أن فرغ البيزنطيون من حروب هرقل ضد الفرس ثم العرب ، حاولوا فى عهد الامبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨) أن يقفوا موقفا فويا تجاه اللباردين فى ايطاليا ، ليستغلوا حالة التفكك والانقسام والفوضى التي أمسى فيها اللبارديون عقب وفاة ملكهم روثارى سنة ٦٥٢ فى احياء النفوذ الامبراطورى واسترداد ما فقدته الامبراطورية فى شبه الجزيرة الايطالية (٣) . ولذلك هجم البيزنطيون على بنفثوم (٦٥٠ - ٦٦٣) ولكن اللباردين اتحدوا واختاروا جريمولد دوق بنفثوم ملكا عليهم (٦٦٢ - ٦٧١) وبذلك تمكنوا من مقاومة البيزنطيين (٤) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 203

(2) Lot : The End of the Ancient World, pp. 289-290

(3) Vasiliev : op. cit. Tome 1 pp. 9 ---293

(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 239.

وهكذا نجح الغزو اللمباردى فى القضاء على الوحدة الإيطالية التى أجهده
الامبراطور جستنيان نفسه فى أحيائها ، فظلت إيطاليا حتى القرن التاسع عشر
مجرد اصطلاح جغرافى دون أن تقوم لها وحدة سياسية تنظم أمورها .
والواقع أن إيطاليا غدت فى القرن السابع مقسمة بين ثلاث قوى : اللمبارديون
والدولة البيزنطية والبابوية . وان نظرة عابرة يلقيها الباحث على خريطة
إيطاليا عندئذ لتوضح له ما كانت عليه من انقسام وبعثرة سياسية حتى صار
من الصعب فى كثير من الحالات أن تتصل الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا
بعضها ببعض الا عن طريق البحر (١) .

ازدياد نفوذ البابوية :

أما الأهمية القصوى لعصر استقرار اللمبارديين فى إيطاليا فترجع قبل كل
شئ الى ما شهدته ذلك العصر من ازدياد نفوذ البابوية وسعطاتها السياسى ،
حتى غدت تمثل احدى القوى الحاكمة فى إيطاليا الى جانب اللمبارديين .
والدولة البيزنطية . وخير ما يوضح ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الفترة هو
تضاعف ممتلكات الكنيسة فى إيطاليا ، وهى الأملاك التى لم تضمن للبابوية
موردا ماليا ضخما فحسب بل حققت لها نوعا من النفوذ المعنوى والمادى فى
البلاد (٢) . ذلك أن أساقفة إيطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية
التي سادت إيطاليا فى ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضى ويتخذون
لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين ، فيعينون موظفى البلديات فى المدن ويشرفون
على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب ، وغير ذلك من الأعمال التى هى فى
الواقع من صميم اختصاص الحكام العلمانيين (٣) . وقد ساعد رجال الكنيسة
على تحقيق أغراضهم ومطامعهم فى الاستيلاء على الأراضى ، أن
سافر ملاك الأراضى فى إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت
حمايتها ، فلم يجدوا وسيل الفوضى الناجمة عن النزاع بين اللمبارديين

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 172- 173

(2) Moss : op. cit. p. 132

(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 229

والبيزنطيين سوى الكنيسة ، فسلموها أراضيهم مختارين وأصبحوا شسبه مستأجرين مقابل حصولهم على نوع من الحماية والأمان (١) . أما البابا فكان لا يختلف - من الوجهة النظرية - عن غيره من الرعايا البيزنطيين ، وذلك من حيث تبعيته للنائب الامبراطورى . ولكن نفوذ هذا النائب الامبراطورى أخذ يخبو ويتضاءل تدريجيا حتى أصبح غير ملموس ، ولا سيما أن نواب الامبراطور البيزنطى لم يحاولوا أن يتخذوا روما مركزا للدفاع ضد الخطر اللمباردى ، وانما آثروا الإقامة فى رافنا وبذلك تركوا روما وليس فيها الا سيد واحد هو البابا (٢) . وهنا نلاحظ أنه اذا كان البابا قد أصبح أعظم ملاك الأراضي فى ايطاليا فان الممتلكات البابوية لم تقتصر على المنطقة المحيطة بروما ، وانما انتشرت فى مختلف أنحاء شبه الجزيرة الايطالية ، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت الى صقلية فضلا عن ممتلكات البابا خارج ايطاليا ، بحيث أنه يمكن القول بأن الموارد الاقتصادية الواسعة التى نعمت بها البابوية كنت السر فى القوة الزمنية التى تمتعت بها (٣) . وقد تعرضت البابوية فى عهد البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) لخطر اللمبارديين الذين استولوا على الأملاك البابوية فى شمال ايطاليا ، كما أدى توسعهم فى أواسط ايطاليا الى تهديد الأراضي البابوية فى تلك الجهات . وربما كان الخطر اللمباردى هو الذى جعل البابوية تحافظ على علاقتها الودية مع الدولة البيزنطية فى ذلك الدور حتى تشر على نصير آخر يحميها من أخطار الدولة البيزنطية واللمبارديين جميعا (٤) .

والواقع أن البابوية اتخذت صبغتها العالمية القوية التى ميزتها طـوال العصور الوسطى فى عهد البابا جريجورى الأول أو العظيم . وقد ولد هذا الرجل فى روما سنة ٥٤٠ فى أسرة عريقة من النبلاء ، ولكنه أظهر منذ حداثة نزعته دينية قوية فاستغل الثروة الطائلة التى ورثها عن أهله فى تأسيس ستة أديرة فى صقلية ودير سابع فى روما . ولم يلبث أن استقال من المنصب

(١) Moss : op. cit. p. 132

(٢) Oman : The Dark Ages. pp. 198—199

(٣) Lot : The End of the Ancient World. p. 305

(٤) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 174

الكبير الذى عينه فيه الامبراطور جستين الثانى ، ووزع ما تبقى لديه من مال على الفقراء والمحتاجين مفضلا الانقطاع للحياة الديرية (١) . وعندما أجمع رجال الدين على اختياره لمنصب البابوية سنة ٥٩٠ - على الرغم من تمنعه الشديد - أخذت تظهر شخصية هذا البابا الجديد على حقيقتها ، لتعبر عن كثير من الصفات التى امتاز بها أهالى العصور الوسطى ، مثل ولعه باللاهوت واعتقاده فى المعجزات وبغضه للتراث الكلاسيكى وحماسه للديرية (٢) . والى جانب كل ذلك اتصف جريجورى العظيم بالتواضع الجم ، حتى اتخذ لنفسه وهو بابا لقب « خادم خدام الله Servus Servorum Dei » زيادة على بساطته المتناهية . ولكنه فى مباشرته وظيفته البابوية اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطته العليا كما يتضح من رسائله العديدة الى معاصريه من الأساقفة والملوك لينهاهم فيها عن المفاصد ويأمرهم بالخير والاستقامة (٣) . وتبدو عظمة جريجورى الأول أشد ما تكون وضوحا فى النواحي السياسية والادارية والتبشيرية ، فحكومته فى روما كانت أقرب الى الحكومة الدنيوية منها الى الحكومة الدينية . ذلك أنه أخذ ينظم وسائل الدفاع ضد اللمبارديين كاعداد الجند وتحصين الأسوار وشحن القلاع ، بل توجيه الهجمات . وفى حالات أخرى كان هو الذى يفاوض اللمبارديين باسم الشعب الرومانى حتى عقد معهم هدنة سنة ٥٩٢ ، كما عقد صلحا نهائيا مع ملكهم أجبولف سنة ٥٩٨ أنهى به الحروب المتواصلة التى استمرت ثلاثين سنة منذ الغزو الميمباردى لاطاليا (٤) . وتشهد رسائل جريجورى الأول - التى دونت عند نهاية القرن السادس - على مدى دقة هذا البابا وكفايته الادارية . ذلك أن هذه الرسائل تمدنا بمعلومات بالغة الأهمية عن كيفية ادارة جريجورى لأُملاك البابوية الواسعة ، وعن جهوده فى تنمية مواردها والاشراف اشرافا دقيقا على ايراداتها ومصروفاتها (٥) . وقد أراد جريجورى الأول أن يستغل ايراد

(1) Dudden : Gregory the Great; vol. 1 p. 106

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 236—237.

(3) Oman: the Dark Ages, p. 201

(4) Dudden : op. cit. vol. 1, p. 246

(5) Moss : op. cit. p. 132

البابوية الضخم في مختلف الأغراض التي تعود على أبناء العالم المسيحي بالخير ، مثل فدية أسرى المسيحيين ، وتخفيف آلام المجاعات وانشاء المستشفيات للعناية بالمرضى والجرحى ، وتدعيم الكنائس أو اصلاحها بعد أن تعرض كثير منها لبعث اللبراريين (١) . وهنا نلاحظ أن أفق جريجورى العظيم لم يقف عند الحدود الإيطالية ، لأن هذا البابا حرص على أن يشعر جميع أبناء العالم المسيحي بأهميته بوصفه أبا روحيا للجميع ، فإذا سمع بحدوث أزمة اقتصادية في القسطنطينية أسرع بإرسال السفن اليها من صقلية محملة بالقمح ، وإذا علم بحاجة قبط مصر الى الأخشاب أرسل لهم حاجتهم من سردينيا . . . وهكذا (٢) .

وعلى الرغم من ان اختيار جريجورى العظيم لمنصب البابوية تطلب موافقة الامبراطور البيزنطى وقبول البابا الجديد لجميع قرارات المجامع الدينية السابقة ، الا أن جريجورى أظهر دائما تمسكا بسيادة كرسى روما على بقية الكراسى الأسقفية فى الشرق والغرب (٣) ، حتى أنه حاول -دون جدوى- فرض سيادة البابوية - فى الناحية القضائية - على الأساقفة الشرقيين بما فيهم بطريرق القسطنطينية . ويبدو أن ضعف النائب الامبراطورى فى ايطاليا ، وافتقاره فى معظم الحالات الى المال والرجال ، ساعد على ازدياد نفوذ البابوية المدنى فى بقية انحاء ايطاليا ، فضلا عما فعله جريجورى من مد نفوذ البابوية الفعلى الى أفريقية وغاليا وأسبانيا وانجلترا (٤) . ذلك أنه عمل على نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، وبذلك أدخل أسبانيا فى حظيرة الكنيسة الغربية ، كما أرسل بعثة القديس أوغسطين الصغير الى انجلترا ، الأمر الذى أدى الى انتشار المسيحية فيها من جهة وإلى سيطرة البابا على كنيستها من جهة أخرى . أما فى ايطاليا فقد استطاع جريجورى العظيم أن يدعم

(1) Deanesly: op. cit. p. 180 & Moss : op. cit. p. 132

(2) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 178

(3) Cam. Med. Hist. vol. 1 p. 246

(4) Dudden : op. cit. vol. 2 pp. 201—237

الكنيسة الكاثوليكية بين اللبارديين عن طريق تأثيره على زوجة ملكهم أجيلولف (١) • وفى غاليا كانت رغبات جريجورى العظيم تقابل بالترحاب والقبول من ملوك الفرنجة ، حتى أصبح لهذا البابا كلمة مسموعة فى جميع أنحاء غاليا • حقيقة أن جريجورى لم يتردد فى طلب معونة الامبراطورية البيزنطية لاختضاع أساقفة اليريا أو تأديب هراطقه الدوناتيين فى شمال افريقية (٢) ولكنه بلغ بهذا البابا أنه فى الوقت الذى كان أحوج ما يكون الى مساعدة الامبراطورية البيزنطية ، لم يتراجع عن تهديد الامبراطور موريس عندما لجأ الأخير الى تقييد نفوذ الأديرة وتحريم دخولها على الرهبان القادرين على الخدمة العسكرية ، وهكذا استطاع جريجورى - بفضل تمسكه بحقوق البابوية وهيبتها - أن يضرب مثلاً عالياً احتذاه خلفاؤه من البابوات (٣) ويكفى أنه ترك لخلفائه - عندما توفى سنة ٦٠٤ - بناء بابويا شامخاً ونفوذاً روحياً واسعاً وسلطة زمنية قوية ، كما حقق للمنصب البابوى قسماً من السمو لم يسبق أن حظت به البابوية من قبل (٤) •

على أن هذه المكانة السامية التى أضحت فيها البابوية منذ عهد جريجورى الأول ، سرعان ما أدت الى نوع من التنافس بينها وبين الامبراطورية نتيجة لاعتزاز كل من الطرفين بسمو مركزه ، وهو تنافس أدى الى الصدام أكثر من مرة فى العصور الوسطى • وقد بدأ الاحتكاك أول مرة بين الامبراطور قسطنطين الثانى (قسطنطينوس) ٦٤١ - ٦٦٨ ، والبابا مارتن الأول (٦٤٩ - ٦٥٥) وكان هذا البابا قد عقد مجتمعا فى روما سنة ٦٤٩ أعلن بطلان الرسوم الذى أصدره الامبراطور بخصوص تحريم أى نقاش حول المونوفيزيتية ، فى الوقت الذى كانت البابوية تطمح فى تحريم المونوفيزيتية نفسها واضطهاد أتباعها • ولم يستطع الامبراطور أن يغفر للبابا هذه اللطمة فأمر نائبه فى ايطاليا بانتهاز الفرصة للقبض على البابا ، فتم ذلك وأُرسل البابا الى القسطنطينية

(1) Cman : The Dark Ages, p. 202

(2) Moss: op. cit. p. 133

(3) Pudden : op. cit. vol. 2 pp. 238—239

(4) Oman : The Dark Ages. p. 203

حيث حوكم ونفى الى القرم ليموت ٦٥٥ (١) * ويبدو أن حرص الامبراطور قسطنطين على تحقيق سيطرته شجعه على الانتقال الى ايطاليا سنة ٦٦٣ حيث اشتبك مع اللبارديين في بعض مواقع في الجنوب ، ثم قصد روما بعد ذلك حيث قدم له البابا فيتاليان Vitalian (٦٥٧ - ٦٧٢) فروض الولاء والتبعية (٢) * على أن هذه الزيارات أضرت في الواقع بالامبراطور وسمعته أكثر مما أفادته ، نظرا لأنه لم يتورع عن نهب كثير من التحف والآثار الثمينة التي وجدها في روما ، هذا في الوقت الذي لم يغفر الايطاليون للامبراطور قسطنطين ما فعله بالبابا مارتن الذي اعتبروه شهيدا * ويبدو أن قسطنطين أحس عندئذ بخطورة ازدياد نفوذ البابوية ، بدليل انه حاول أن يقلم أظفارها ، فمنح رئيس أساقفة رافنا حق الاستقلال عن البابوية وعدم الخضوع لسلطانها الروحي * وقد استمر هذا الانشقاق بين روما وأسقفية رافنا زهاء عشرين سنة ، حتى انتهى الأمر بعودة الأخيرة الى حظيرة البابوية *

ومن الواضح أنه لو كان هناك رجل قوى على رأس الكنيسة الغربية لاستطاع أن يقف من الامبراطور قسطنطين موقفا صلبا عنيدا ، ولتطور الأمر عندئذ الى نزاع خطير بين البابوية والامبراطورية * ولكن البابا فيتاليان كان ضعيفا ، فخشى أن يتعرض للمصير الذي تعرض له مارتن من قبل وآثر الاستسلام والخضوع ، الأمر الذي أجّل وقوع الصدام بين روما والقسطنطينية ، ولكن الى حين (٤) * ذلك أن قسطنطين الثالث (٦٦٨ - ٦٨٥) حرص على علاقته الودية مع البابوية ، ولكن هذه العلاقات الطيبة لم تستمر في عهد خليفته جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥) الذي عاد فمحرض نائبه في ايطاليا على القبض على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) وارساله الى القسطنطينية * ولكن النائب الامبراطوري تعرض - عند محاولة تنفيذ هذا الأمر - لمعارضة الحامية البيزنطية نفسها ، فضلا عن أهل روما ، حتى انتهى الأمر بانتصار البابا في الوقت الذي أدت سياسة الامبراطور جستنيان الثاني

(١) Diehl & Marçais : op. cit. p. 231

(٢) Idem : p. 239

(٣) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 394

(٤) Oman : The Dark Ages, pp. 277—278

الى عزله (١) . وقد ساعدت الفوضى التي تعرضت لها الامبراطورية البيزنطية في الاثنتين والعشرين سنة التالية (٦٩٥ - ٧١٧) على ضعف نفوذها في ايطاليا ، وهو الأمر الذي أعطى البابوية فرصة للظهور والتمتع بسلطات زمنية واسعة ، حتى أن البابا حنا السادس (٧٠١ - ٧٠٥) باشر جمع الضرائب في روما كما عقد المعاهدات مع دوق بنفتو اللباردى .

ثم كان أن سامت العلاقات الى حد كبير بين روما والقسطنطينية على عهد البابا جريجورى الثانى (٧١٥ - ٧٣١) عندما أخذ الامبراطور ليو الأيسورى يباشر سياسته اللاأيقونية . ويبدو أن جريجورى الثانى استغل هذه الأزمة من جهة ، كما استغل نفوذ الامبراطورية في ايطاليا - ما عدا الجنوب - من جهة أخرى ، ليتحرر من سلطة الامبراطورية تحررا تاما ، ويجعل سلطة البابا الزمنية في أواسط ايطاليا حقيقة ملموسة . لذلك استحوذ جريجورى الثانى على السلطات الامبراطورية مثل جمع الضرائب في ايطاليا سنة ٧٣٥ ، كما أصدر قرار الحرمان ضد النائب الامبراطورى مما يعتبر خروجا على الامبراطور (٢) . وفى الوقت الذى اشتد الخلاف والقتال بين اتباع الامبراطور واتباع البابا في ايطاليا ، أعاد اللبارديون توحيد جبهتهم تحت زعامة ليتوبراند (٧١٢ - ٧٤٣) الذى يعتبر هو الآخر من أعظم ملوك اللبارديين . وقد عرف عن ليتوبراند تحمسه للكنيسة حتى أنه أسس عددا كبيرا من الأديرة ، فى الوقت الذى اختار ألا يتخذ سياسة معادية للامبراطورية . وكل ما هنالك هو أنه صمم على بسط سيادة الملكية اللباردية على جميع أنحاء ايطاليا ، مما أوقعه فى صراع مع غيره من زعماء اللبارديين فضلا عن الامبراطورية والبابوية جميعا (٣) . وهكذا أخذ اللبارديون يهاجمون الممتلكات الامبراطورية ويستولون على المدن التابعة للامبراطور البيزنطى واحدة بعد أخرى مثل بولونيا وأوزيمو Osimo وريمينى Rimini ويبدو أن ليتوبراند لم يشأ أن يلتحم بالبابوية عندئذ ، فنزل عند رغبة البابا

(1) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 408—409

(2) Deanesly : op. Cit. p. 411

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 290

رسلمه قلعة سوترى Sutri التى انتزعها اللمارديون من البيزنطيين
قرب روما (١) •

وفى ذلك الوقت استمر جريجورى الثانى يرد على الامبراطور ليو
الثالث فى لهجة عنيفة ، مقبحا رأيه فى تحريم عبادة الأيقونات ، مهددا اياه
بالاحتفاء باللمبارديين اذا جرؤ الامبراطور على ارسال جيش ضد روما
(سنة ٧٢٩) (٢) • ومن الواضح أن الاحتفاء باللمبارديين كان اخر ما
يمكن أن تلجأ اليه البابوية ، لأن وقوع روما فى قبضة ملك قوى مثل لتوبراند
معناه القضاء التام على ما تطمح فى تحقيقه البابوية من سلطة زمنية • ثم انه
ليس من المعقول أن تعمل البابوية على تخلص نفسها من سيطرة الامبراطور
البيزنطى لتلقى بنفسها تحت رحمة الملك اللماردى • وهكذا يبدو أن
جريجورى الثانى - عندما هدد الامبراطور البيزنطى بالاحتفاء باللمبارديين
- لم يكن جادا فى تهديده ، بدليل أنه قام عندئذ ببذر بذور الفرقة بين
لتوبراند فى الشمال ودوقى بنفتو وسبوليتو فى الجنوب (٣) وسرعان
ما أدركت البابوية أنها نجحت فى القضاء على النفوذ البيزنطى فى أواسط
ايطاليا ، ولكنها أصبحت وحيدة وجها لوجه أمام خصم آخر أقرب وأشد
خطرا وهم اللمارديون •

وقد حدث ذلك فى الوقت أن توفى البابا جريجورى الثانى وخلفه البابا
جريجورى الثالث (٧٣١ - ٧٤١) ، الذى كان هو الآخر من كبار المتحمسين
للأيقونية ، مما أوقعه فى عداوة مريرة مع الامبراطور البيزنطى • وكان أن
رد الامبراطور ليو الأيسورى على موقف البابا الجديد باصدار مرسوم لتحديد
اختصاص البابوية القضائى وفصل أسقفيات اليريا وجنوب ايطاليا عن البابوية
وسلطانها (٤) • وفى العام التالى (سنة ٧٣٢) أعد الامبراطور ليو الثالث

(1) Thompson : op. cit. vol. 1 p. 181.

(2) Oman : The Dark Ages, pp. 282—283

(3) Cam. Med. Hist. vol. 2 pp. 691—695

(4) Diehl & Marcais : op. cit. p. 267

أسطولاً وحملة لاسترداد أملاك الامبراطورية من اللمبارديين ، والقبض على جريجورى الثالث • ولكن الطبيعة أبت الا أن تعاكس الامبراطور ، فهبت زوبعة فى البحر الأدرياتي حطمت الأسطول الامبراطورى وقضت على المشرع البيزنطى • وتعتبر هذه آخر محاولة جديّة بذلتها الامبراطورية البيزنطية لاسترداد نفوذها المفقود فى ايطاليا ، اذ اضطر الأباطرة الشرقيون بعد ذلك الى ترك البابوات وشأنهم فى حين لم يعد للنائب الامبراطورى نفوذ يذكر (١) •

التحالف بين البابوية والفرنجة :

أما عن الموقف فى ايطاليا فقد عمل الملك ليتوبراند على نشر السلام فى أنحاء البلاد طوال ثمانية الأعوام التى أعقبت اتفاقيته مع البابوية سنة ٧٣٠ • وتدل الشواهد التاريخية على أن ليتوبراند كان رجلاً تقياً ، احترام البابوية وناصر المسيحيين ضد أعدائهم • من ذلك أنه عندما غزا المسلمون اقليم بروفانس (٧٣٦ - ٧٣٧) طلب شارل مارتل مساعدة ليتوبراند ضد مسلمى الأندلس ، فأسهم اللمبارديون فى طردهم من غاليا (٢) • على أن جو السلام الذى ساد ايطاليا حتى سنة ٧٣٨ ، لم تلبث أن أفسدته ثورة دوق سبوليتو ضد ليتوبراند (٣) • والمهم من أمر هذه الثورة هو أن فشلها أدى الى فرار الأمير الناصر الى روما محتمياً بالبابوية مما أثار ليتوبراند وجعله يزحف الى روما ويحاصرها • وفى هذه الأزمة لم يستطع جريجورى الثالث أن يعتمد على مساعدة امبراطور القسطنطينية ، فلم يجد البابا أمامه سوى شارل مارتل رئيس بلاط الفرنجة وصاحب النفوذ الفعلى فى الدولة ، فأرسل اليه طالباً المساعدة ضد اللمبارديين (٧٣٩) (٤) • على أن الظروف تجمعت عندئذ لتجعل مساعدة شارل مارتل للبابا أمراً متعذراً ، اذ كان الأول مازال مشغولاً بأمر المسلمين الذين لم تنقطع اغاراتهم على غاليا ، فضلاً عن أن شارل مارتل

-
- (1) Oman : The Dark Ages, pp. 284—285 e
 - (2) Cam. Med. Hist. vol. 2 p. 129
 - (3) Oman : The Dark Ages, p. 285
 - (4) Orton : Outlines of Med. Hist. p. 132

كان لا يزال يذكر فضل ملك اللبارديين في مساعدته منذ عدة سنوات ضد المسلمين • وهكذا لم يصادف طلب البابا جريجورى الثالث قبولا من شارل مارتل ، ولا سيما أن رجال الدين الفرنجة كانوا معادين لشارل مارتل بسبب استيلائه على أراضي الكنيسة • وإذا كان ليتوبراند قد استغل هذه الظروف فى الاستيلاء على دوقية سبوليتو ثم مهاجمة المناطق المجاورة لروما (١) ، إلا أن الأوضاع أخذت تتغير عندما توفى البابا جريجورى الثالث وشارل مارتل جميعا سنة ٧٤١ ، فى الوقت الذى عاد النائب الامبراطورى الى رافنا ليجدد جهوده ضد اللبارديين • وهنا أدرك ليتوبراند أن مصالحه تتطلب الاتفاق مع البابا الجديد زكريا (٧٥١ - ٧٥٢) ، فتعهد له بالمحافظة على السلام لمدة عشرين سنة ، ورد كافة المدن والممتلكات التى انتزعها اللبارديون من البابوية • ومع ذلك فإن هذه الحلول لم تنجح فى اطفاء ثورة الغضب والكراهية التى أثارها أعمال اللبارديين فى نفوس البابوات • لذلك من الخطأ الظن بأن البابوية هدأت بالا بعد أن استرضى ليتوبراند البابا زكريا سنة ٧٤٢ ، فكل ما هنالك هو أنها أخذت تتربص الدوائر باللبارديين وتترقب الوقت المناسب للايقاع بهم (٢) •

ثم كان أن مات ليتوبراند سنة ٧٤٣ قبل أن يتمكن من مهاجمة النائب الامبراطورى ، فتعاقب فى حكم اللبارديين الملك هلدبراند (٧٤٣ - ٧٤٤) • ثم راتشيس Ratchis (٧٤٤ - ٧٤٩) ثم استولف (٧٤٩ - ٧٥٦) • وقد أظهر استولف هذا تمسكا شديدا بسياسة ليتوبراند الخاصة بتوحيد ايطاليا ، مما جعل اللبارديين يعودون من جديد الى تهديد الممتلكات البيزنطية والبابوية جميعا • وكان أن وصلت مملكة اللبارديين فى عهد استولف هذا الى أقصى درجات الاتساع بعد أن نجح فى الاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١ (٣) ، دون أن يلقى مقاومة تذكر ، أو حتى معارضة من الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) الذى كان مشغولا فى بلاده

(١) Thompson : op. cit. Vol: 1 pp. 182—183

(٢) Oman : The Dark Ages p: 287

(٣) Ostrogorsky : op. cit. p. 151

بالحركة اللاأيقونية من جهة وبمحااربة البلغار والفرس والمسلمين من جهة أخرى (١) . وبعد ذلك اتجه أستولف نحو إخضاع الممتلكات البابوية ، بل البابوية نفسها ، فطلب من البابا ستفن الثاني (الثالث) (٧٥٢ - ٧٥٧) أن تعترف روما بالتبعية للملك اللمباردين فضلا عن قيام البابوية بدفع جزية سنوية . وقد حاول البابا أن يخيف أستولف بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو أن يهدد بطلب معونة الامبراطور البيزنطى ، ولكن هذه التهديدات وأشباهها لم تنجح فى تحويل الملك اللمباردى عن قصده . وفى هذا الموقف الحرج وجد البابا ستفن نفسه مضطرا الى العمل بسرعة للخروج من ذلك المأزق . وشاءت الظروف أن يكون ذلك فى الوقت الذى أعلن بيين القصير - ابن شارل مارتل - نفسه ملكا سنة ٧٥٢ بعد عزل آخر ملوك البيت الميروفنجى . وكان أن تم الاتصال سرا فى أوائل سنة ٧٥٣ بين البابا ستفن الثاني من جهة وبيين القصير من جهة أخرى ، وترتب على ذلك فرار البابا فى أكتوبر ٧٥٣ الى غاليا حيث تم الاتفاق بينه وبين بيين . وفى يوليو ٧٥٤ أعاد البابا تزويج بيين بيده وأضفى عليه لقب البطريقية من باب التشريف (٢) .

أما أستولف فقد أفزعه نبأ التحالف بين البابوية والملكية الفرنجية ، وحاول إصلاح الأمور ولكن بعد فوات الأوان ، اذ لم تلبث أن عزت جيوش الفرنجة شمال ايطاليا فى ربيع سنة ٧٥٤ . وهنا لم يستطع أستولف المقاومة فحلت به هزيمة جعلته يفر مدحورا الى بافيا ، حتى حضر بيين القصير بنفسه وحاصر أستولف فى معقله . وقد عرض أستولف الصلح فى هذه المرحلة على أساس أن يقدم فروض التبعية الشخصية للملك الفرنجة وأن يرد للبابا حقوقه المسلوبة . وبعد توقيع هذه الاتفاقية عاد البابا ظافرا الى روما كما رجع بيين الى بلاده . ولكن لم يكد أستولف يعلم بعودة بيين حتى أخذ يماطل فى تنفيذ اتفاقية الصلح ، فامتنع عن رد المدن التى سبق أن انزعها من

(1) Lot : The End of the Ancient World. p. 302

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 584—585

البابوية ٧٥٣ ، بل عاد الى محاصرة روما في شتاء ٧٥٥ - ٧٥٦ ، مما تطلب عودة بيبين القصير الى ايطاليا للمرة الثانية لينزل هزيمة أخرى بالمبارديين (١) وفي هذه المرة كانت الشروط التي عرضت على أستولف أشد قسوة ، اذ ألزمه بيبين بتقديم ثلث دخله الملكي بمثابة جزية سنوية فضلا عن مدينة رافنا وعدد آخر من المدن التي أخلاها المبارديون ، في حين توفي أستولف سنة ٧٥٦ . ومن ثم أخذت دولة المبارديين في الذبول والانحلال ولم تعد تشكل خطرا على البابوية أو تسبب ازعاجا لدولة الفرنجة (٢) .

أما البابوية فقد غدت أملاكها أقوى وحدة مترابطة في ايطاليا ، اذ امتدت من البحر الأدرياتي ورافنا شرقا حتى روما غربا عبر الأبنين ، في حين فشلت المملكة اللمباردية في محاولتها توحيد ايطاليا . وهكذا اكتسبت البابوية سلطانا زهنا الى جانب سلطانها الروحي ، حتى ظلت عقبة كأداء في سبيل الوحدة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . ومع أن حوادث سنة ٧٥٦ لم تؤد الى اتخاذ خطوة نهائية فاصلة لتحرير البسابوية من روابطها الرسمية بالامبراطورية البيزنطية ، الا أنه من الواضح أن البابوية تحررت فعلا - وبطريقة عملية - من تبعيتها للقسطنطينية .

(1) Idem, pp. 589- 590

(2) Thompson : op. cit. Vol. I p. 186

الباب السادس

ظهور الديرية

شهد العصر الذى أخذ فيه نفوذ المسيحية يزداد تدريجيا فى الامبراطورية الرومانية ، نشأة حركة دينية كانت فى أول أمرها مستقلة عن الكنيسة ولكنها لم تلبث أن أصبحت جزءا أساسيا من النظام الكنسى • والواقع أنه يمكن القول بأن بذور حياة الزهد والرهبانية وجدت فى أصول المسيحية الأولى ، فالعهد الجديد لم يخل من اشارات عن تحريض الناس على الانصراف للعبادة متى استطاعوا ذلك (١) ، هذا فضلا عما جاء فى أقوال القديس بولس من حث على حياة العزوبة (٢) التى تعتبر ركنا مهما من أركان حياة الزهد والرهبانية (٣) • وإذا كنا نسمع عن أمثلة لبعض المخلصين الذين آثروا الانقطاع للحياة الدينية فى أوائل عهد المسيحية (٤) ، الا أن هذا اللون من ألوان الحياة الدينية لم يصبح شيئا مألوفا فى الشرق المسيحى قبل القرن الرابع ، فى حين لم ينتشر فى الغرب قبل القرن الخامس ولم يصبح شائعا قبل القرن السادس • ويفهم من هذا أن الحياة الديرية شرقية الأصل ، بل انها أقوى أثر تركه الشرق فى المسيحية (٥) •

والواقع أن الزهد والعزلة - وهما من الدعائم الأولى للحياة الديرية - مهدا فى أول الأمر لنوع من حياة الرهبانية الانفرادية التى تحولت فيما بعد الى حياة ديرية اجتماعية • وهنا نستطيع تفسير الرغبة فى العزلة والتقشف

(١) « ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السموات ، من استطاع أن يقبل فليقبل » • (انجيل متى - الاصحاح التاسع عشر ١٢) •
(٢) « وأما من جهة الأمور التى كتبتم لى عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (العهد الجديد - رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس - الاصحاح السابع - ١) •

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 521

(4) Bury : Hist of the Later Roman Empire, Vol. 1 p. 383

(5) Thompson : Vol. 1 p. 219

بأنها كانت ثورة نفسية ضد ما ساد المجتمع الرومانى فى القرن الرابع من فساد . فالفرق الكبير بين تعاليم العهد الجديد وبساطة الكنيسة من جهة ، وبين فساد المجتمع الخارجى من جهة أخرى ، دفع كثيرا من المخلصين الى الفرار نحو الأماكن النائية ينشدون راحة الفكر والضمير (١) . هذا فضلا عن أن الاضطهاد الوحشى الذى لقيه المسيحيون ، والذى بلغ أشده فى أواخر عهد دقلديانوس جعل الكثيرين يفكرون فى الفرار بعقيدتهم الى الأماكن البعيدة . وهكذا أصبح نبذ الممتلكات والأهل والموطن نوعا من أنواع الرياضة النفسية التى تستهدف خدمة الدين ، فالفقر والحرمان يؤديان الى طهارة النفس ، والعزلة فى جو تكتنفه المصاعب من شأنها أن تمحو الذنوب وتزيل الآثام .

والمعروف أن حياة الرهبانية ظهرت لأول مرة فى المسيحية فى مصر ، حيث ساعدت طبيعة البلاد وجوها على نشأة هذه الحياة وتطورها (٢) . ويعتبر القديس بولس الطيبى (حوالى ٢٥١ - ٣٥٦) والقديس أنطون - المعاصر له - أول مثلين نعرفهما عن الرهبانية فى المسيحية . ويبدو أننا لا نستطيع الكلام بالتفصيل عن حياة القديس بولس نظرا لأن المتأخرين أضفوا عليه هالة واسعة من النور يصعب فى ضوءها المصطنع تمييز الحقيقة من الخيال ، حتى قيل أنه قضى سبعة وتسعين عاما وحيدا منفردا فى أحد كهوف طيبة بمصر العليا . أما القديس أنطون فقد نظم كثيرا من مستعمرات الرهبان فى مصر العليا ، خصص فيها لكل راهب خلية يتعبد فيها منفردا ولا يشترك رهبان المستعمرة الا فى إنتاج ما يلزمهم من طعام وملبس ، فالحياة الدينية المثلى فى نظر القديس أنطون قامت على أساس الانفرادية (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف

(1) Ibid.

(2) Workman : The Evolution of the Monastic Ideal
p. 86.

(3) Painter. op. cit. p. 17

البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية • فليس من الدين فى شىء أن يتعد الفرد عن اخوانه من بنى الانسان ليعيش وحيدا وسط الهوام ، يقضى أيامه فى جوع وحرمان ، أو يأكل ما تيسر له من طعام فاسد دون أن يرتدى شيئا سوى أسمال بالية ، ويحرم نفسه حتى من نظافة الجسد (١) • لذلك كان لابد للعقلاء من الراغبين فى الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر يتفق وطبيعة البشر • ومن هنا نشأ النظام الديرى الذى يجمع بين الرغبة فى الانقطاع للعبادة من جهة وبين طبيعة البشر الاجتماعية من جهة أخرى • وكانت أولى الأديرة التى عرفتها المسيحية هى تلك التى شيدها القديس باخوم قرب دندرة وأخميم بصعيد مصر (٢) • أما القديس باخوم هذا فيبدو أنه كان من أهالى الوجه البحرى ، ولد فى أسرة ثرية من أبوين وثنيين ، ثم اشتغل جنديا فى جيش قسطنطين ، حتى اهتدى الى المسيحية فانسحب الى الصحراء لياشر حياة الرهبانية الانفرادية متبعا مذهب « العزلة عبادة » • ولم يلبث أن ضاق باخوم ذرعا بهذه الحياة التى لا تتفق وطبيعة البشر بحكم أن الانسان اجتماعى بالطبع ، ولذلك شيد أول دير عرفته المسيحية قرب دندرة حوالى ٣١٥ - ٣٢٠ (٣) • وهنا يلاحظ ان باخوم تأثر عند اقامة ديريه الجديد بما شاهده فى الجيش الرومانى من نظم ، فجاء الدير فى تصميمه وخلواته أشبه شىء بما هو معروف عن المخيمات الرومانية ، كما أن القديس باخوم استن لديره بعض التنظيمات شبه العسكرية المعروفة فى الجيش الرومانى ، ففرض على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومى ، زيادة على مباشرة الطقوس الدينية • وسرعان ما تكتشفت للمعاصرين مزايا هذا النوع الجديد من حياة التعب ، فأقبلوا على الديرية اقبالا شديدا ، حتى أن المؤرخ المعاصر بلاديوس Palladius الذى زار مصر حوالى سنة ٣٩٠ قدر أتباع القديس باخوم بثلاثة آلاف راهب ، فضلا عن سبعة آلاف كانت تضمهم بعض المؤسسات الديرية الأخرى (٤) • على أنه يلاحظ أيضا

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 219—220

(2) Bury : op. cit. p. Vol. 1 p. 338

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 524

يُخصوص هذه الأديرة الباخومية ، أنها كانت منفصلة بعضها عن بعض ، ولكل منها إدارته المستقلة (٢) ، كما أن الحياة الاجتماعية فيها كانت محدودة . بل إن الطابع الغالب على الحياة داخل هذه الأديرة كان يميل إلى العزلة والانفرادية لأن كل راهب عاش شبه مستقل في خليته أو قليته مع الزامه بالاجتماع مع اخوانه للقيام بالصلوات المشتركة (٣) .

ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت حياة الرهبانية والديرية خارج حدود مصر في الجزء الشرقي من العالم الروماني ، أي في بلاد الشام وقبرس وما بين النهرين وآسيا الصغرى (٤) . ففي بلاد الشام نسمع عن القديس سيمون العمودي (ت ٤٥٩) الذي اتخذ مقامه فوق عمود لمدة ثلاثين عاما ، مكتفيا بأن يدلى سلة صغيرة بواسطة حبل ليحصل فيها على ما يحتاج إليه من لوازم أساسية (٥) . أما في آسيا الصغرى فقد أسست أخت للقديس باسل ديرا للراهبات سنة ٣٥٨ في إقليم بونطس (Pontus) أما القديس باسل نفسه (٣٢٩ - ٣٧٩) فقد درس الأنظمة الأنطونية والباخومية ولم تعجبه ، فأسس مؤسسة ديرية في قيصرية الجديدة (Neocaesarea) بآسيا الصغرى أيضا حوالي سنة ٣٦٠ . وسرعان ما أصبحت التنظيمات التي وضعها القديس باسل لمؤسساته الديرية بمثابة دستور للاديرة الباسلية التي انتشرت في الشام وفلسطين وبلاد اليونان حتى صارت هذه الأديرة تتزعم الحياة الديرية في الامبراطورية البيزنطية بقية العصور الوسطى (٦) .

والواقع أن نظام القديس باسل هذا جاء مزيجاً من المثالية والواقع العملي ، إذ قضى على ما كان هناك من أثر للعزلة والحياة الانفرادية داخل الدير ، وجعل

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 220.

(2) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 37

(3) Painter : op. cit. pp. 17—18

(4) Workman : op. cit. pp. 111—113

(5) Stephenson : op. cit. p. 87

(6) Workman : op. cit. pp. 113—115

الرهبان يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة العامة والطعام والعمل والعبادة ، كما نبذ فكرة اقامة الأديرة فى الصحراوات والمناطق المتطرفة وفضل اقامتها على مقربة من المدن ان لم يكن فى المدن نفسها (١) . كذلك حرم القديس باسل تعذيب النفس وإهمال الجسد وحث على العناية بالنظافة والعمل ، فبدلا من أن يترك الرهبان أجسادهم تذبل وتبلى بدعوة التقشف والزهد ، جعلهم القديس باسل يوجهون نشاطهم نحو أعمال نافعة ليس الغرض منها سد حاجة الدير ومطالبه فحسب بل مساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل المنطقة التى يقع فيها الدير (٢) . وهكذا لم تهمل الأديرة الباسلية العمل النافع المفيد داخل الدير ، مثل الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب والبناء ، مع تحريم الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، بحيث لا يمتلك الراهب الا ثوبه ونعليه . وكان يراعى فى ثياب الراهب البساطة والرخص والنظافة ، أما طعامه فكان كافيا مغذيا دون اسراف . ومن هذا كله يمكن القول بأن القديس باسل هو المؤسس الحقيقى للحياة الديرية فى المسيحية (٣) .

ولكن على الرغم من أن الديرية احتلت مكانة ملحوظة فى الحياتين الدينية والاقتصادية منذ القرن الرابع ، الا أنها لم تخل من مساوئ وعيوب . ذلك أن الديرية قامت فى أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب التدين ، فكل راهب يفكر فى انقاذ نفسه وتجنبها الضلال دون أن يفكر فى غيره بالقدر الذى يفكر به فى نفسه ، بل ربما أوقعته عزلته عن المجتمع البشرى الكبير فى كثير من الأخطاء (٤) . واذا كان الراهب يقوم بشئ من أعمال البر والاحسان فانه لا يقوم بها رحمة بأخيه الانسان وانما رحمة بنفسه ووسيلة يتقرب بها الى الله . وهر يعمل داخل الدير لا لأن العمل نشاط نافع لنفسه وللمجتمع أو وسيلة لمساعدة غيره ، وانما يتخذ من العمل منفذا لتصريف طاقة الحماسة المكبوتة فى نفسه . فالراهب يهجر العالم ويلوذ بديره لأنه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1 pp. 527—528

(2) Thompson : Vol. 1 p. 221

(3) Painter : op. cit. p. 18

(4) Taylor : The Mediaeval Mind. Vol. 1 pp. 373—374

فى حقيقة الأمر أجبن من أن يواجه مصاعب الحياة ويعمل على تعديل ما بها من انحراف ، وتقويم ما فيها من آثام وشرور (١) . وهكذا يبدو أنه على الرغم من اتجاه بعض كبار رجال الكنيسة - مثل حنا فم الذهب - الى اعلاء شأن الحركة الديرية ، الا أن ذلك لا يخفى الحقيقة الهامة ، وهى أن هذه الحركة أصبحت عاملا من عوامل التفكك والانحلال التى أخذت تنخر فى جسم المجتمع . ويبدو أن هذه الحقيقة اتضحت للمعاصرين منذ وقت مبكر يرجع الى النصف الثانى من القرن الرابع عندما شكّا مجمع جانجرا Gangra سنة ٣٦٢ من أن نشاط الحركة الديرية أدى فعلا الى تمزيق كيان الأسرة وشل كثير من مرافق الحياة العامة (٢) . هذا فى الوقت الذى انتاب الفزع الحكومة الرومانية لكثرة الأفراد الذين هجروا متاجرهم وحقولهم لينخرطوا فى سلك الديرية ، فاستتت قانونا يقضى بتحريم دخول الأديرة على اللاتقيين للخدمة العسكرية . وربما كان من العوامل التى دفعت الدولة الى اتخاذ مثل هذا القرار هو أن الديرين أخذوا يشتبكوا أحيانا مع الكنيسة والدولة ويعثون أتباعهم المسلحين بالعصى الغليظة لفرض آرائهم على المجامع الدينية (٣) . هذا فضلا عن أن الرهبان فاقوا غيرهم من الطوائف المسيحية فى شدة تعصبهم ، الأمر الذى جعلهم يحرضون جموع الناس على التطرف فى العنف ضد الوثنيين والهرطقة . وقد اتضح تعصب الرهبان الشديد ضد كل ما له علاقة بتقاليد الوثنية وحضارتها فى أن مولد الحركة الديرية جاء مصحوبا من الناحية الزمنية بآخر حلقات الصراع بين المسيحية والوثنية المتداعية (٤) . وهنا يجب أن نتذكر أن التراث الكلاسيكى فى النواحي الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية يرتبط ارتباطا شديدا بالوثنية وتقاليدها ، مما جعل الديرين يعملون على هدم هذا التراث والقضاء عليه دون أن يفرقوا بين عقائد الوثنية وحضارتها . وحسبنا أن كثيرا من الأعمال

(١) Thompson : op. cit. Vol. 1 pp. 221—222

(٢) Workman : op. cit. p. 56

(٣) Moss : op. cit. p. 37

(٤) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 221—222

الهدامة البشعة التي اقترفت ضد التراث الوثني قام بها الدير يون ، مثل
تخطيط المعابد الوثنية وما بها من مخلفات فنية ، وحرقت المكتبات وخاصة
مكتبة الاسكندرية الثانية ، واضطهاد رجال الفكر والفلاسفة والأبرياء بل
تجريض الغوغاء على سفك دمائهم ، كما حدث للفلسوفة هيباشيا
Hypatia (١) •

ومهما يكن من أمر فإن انتشار الحياة الديرية أدى الى وجود فئتين من
رجال الدين ، الأولى تشمل رجال الدين النظاميين Regula أى رجال
الأديرة من الرهبان الخاضعين لنظم ديرية محدودة ، وهؤلاء اختلفوا في
وضعهم القانوني والتاريخي والاجتماعي عن الفئة الثانية من رجال الدين
« الدنيويين » أو « العلمانيين » (Saecula) ، أى رجال الكنيسة من أساقفة
وشمامسة وقساوسة الذين سموا بذلك لأنهم على العكس من الديرين
كانوا أكثر تدخلا في الحياة الدنيوية وأكثر امتزاجا بعمامة الناس (٢) •
ويقدر ما كان الفارق واضحا بين هاتين الفئتين ويقدر ما كان التنافس شديدا
بينهما حول النفوذ والثروة ، بقدر ما تأثرت احدهما بالأخرى وأثرت
فيها • من ذلك أن الهبات والعطايا - من أرض وعقار ورقيق وغيرها -
أخذت تنهال على مقدمى الأديرة في القرن السابع مثلما انهالت على الأساقفة
في القرن السادس • ومن جهة أخرى أصرت الكنيسة في بعض العصور
على تطبيق مبدأ عدم زواج رجالها أسوة بما كان عليه الدير يون (٣) • حقيقة
أن فكرة عدم زواج رجال الدين بوجه عام أكثر قدما من الديرية نفسها ،
ولكن هذه الفكرة لم تقو وتشتد وتصبح مجالا للبحث والنقاش في المجامع
الدينية الا بعد انتشار الحياة الديرية •

الديرية في غرب أوروبا :

وصلت الحياة الديرية الى غاليا وايطاليا وشمال افريقية قبل قيام الدولة

(1) Ibid:

(2) Stephenson : op. cit. p. 92.

(3) Eyre : op. cit. p. 215

الميروفنجية(١) ، وكان النظام الديرى الذى انتشر فى الغرب الأوروبى قبل نهاية القرن الرابع شديداً الشبه بالنظام الباخومى الذى عرفته مصر(٢) . ذلك أن كثيراً من الحجاج الغربيين الوافدين من روما وغاليا وأسبانيا زاروا الأديرة الباخومية فى مصر ونقلوا معهم فكرتها الى الغرب(٣) ، هذا الى أن جيروم ترجم سنة ٤٠٤ نظام باخوم الديرى الى اللاتينية ، وبذلك وضع أمام الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينية التى عرفتها مصر(٤) .

على أن تاريخ الديرية فى غرب أوروبا يرتبط بأربعة أسماء لامعة هم القديس كاسيان (حوالى ٣٦٠ - ٤٣٥) والقديس مارتن التورى (حوالى ٣١٦ - ٣٩٧) والقديس قيصر الآرلى (ت ٥٤٢) والقديس بندكت (حوالى ٤٨٠ - ٥٤٣) . ويعتبر أول هؤلاء - وهو القديس كاسيان - المؤسس الحقيقى للديرية الغربية على الرغم من وجود بعض رهبان فى الغرب - وبخاصة فى غاليا - قبل عصر كاسيان . وقد امتاز نظام كاسيان بروح الابتكار لأنه لم تسبق له رؤية الأديرة الباخومية ، ومن ثم جاء نظامه وليد خبرته(٥) . أما القديس مارتن فقد فاق كاسيان فى اتساع نفوذه لأن الأول نجح فى اكتساب تأييد الرأى العام الشعبى وعطفه فى حين فشل الثانى فى ذلك . وكان مارتن قد انتخب بالاجماع أسقفاً لتور سنة ٣٧٢ ، وعلى مقربة منها أسس دير الشهير (مارموتيه Marmoutier) (٦) . ومع ذلك فإن القديس مارتن لم يترك أثراً واضحاً فى تنظيم الحياة الديرية ، إذ قضى معظم حياته فى محاربة الوثنية فى غاليا ، ولا سيما المناطق الريفية ، مما جعل الوثنية وأنصارها يفرون الى الغابات والمستنقعات حيث استمروا عدة سنوات . أما القديس قيصر الآرلى فاختلف عن زميله السابقين فى أنه

-
- (1) Deanesly : op. cit. p. 70
 - (2) Stephenson : op. cit. p. 88
 - (3) Moss : op. cit. pp. 36—37
 - (4) Workman : op. cit. p. 117
 - (5) Idem : p. 231
 - (6) Deanesly : op. cit. p. 71

عاش في الوقت الذي كان الفرنجة قد غزوا غاليا فعلا ، ولذلك نجد اسمه مقحما في كثير من الأحداث السياسية والدينية المعاصرة . وقد وضع نظاما للراهبان والراهبات يتضح فيه تأثيره بآراء كل من كاسيان والقديس أوغسطين . كذلك وضعت شقيقة قبصر ، وهي القديسة قيصرية Caesaria نظاما لدير الراهبات في آرل Arles بمعاونة أخيها ، وينص هذا النظام على أن تشغل الراهبات وقتهن بالغزل والطهي فضلا عن نسخ الكتب (٣) . وهكذا أخذت الأديرة تنتشر في غاليا في عهد خلفاء كلوفس ، ولا سيما أن الملوك والأفراد أسسوا عددا كبيرا منها (٣) .

أما إيطاليا فيلاحظ أن الحركة الديرية لم تتقدم فيها حتى القرن السادس لعدم ظهور أحد أعلام الديرية ومؤسسيها في تلك البلاد ، كما كان الحال بالنسبة لباخوم في مصر وباسل في آسيا الصغرى وكاسيان في غاليا (٣) . وهكذا يمكن القول بأنه حتى بداية القرن السادس كانت غاليا هي البلد الوحيد في غرب أوروبا الذي كانت به مجتمعات ديرية منظمة ، وذلك على الرغم من وجود رهبان متفرقين أو جماعات غير منظمة من عشاق حياة الزهد في كثير من بلاد الغرب . ولكن الوضع أخذ يتغير في القرن السادس نتيجة لجهود ثلاثة رجال نفخوا في الحركة الديرية بايطاليا روحا جديدة وأعطوها طابعا غربيا ، وهؤلاء الرجال هم بندكت وكاسيدور وجريجوري (٤) . أما القديس بندكت فهو صاحب الفضل في تأسيس النظام الديرى الذي عرف باسمه والذي جعل الديرية الايطالية تحتل مكان الصدارة في الغرب بعد أن حل النظام البندكتى محل كثير من الأنظمة الديرية السائدة ، كما تمتع - لأول مرة في تاريخ المنظمات الديرية - بتأييد البابوية وعطفها . ولا يمكن أن نصف هذا النظام البندكتى - الذي أحرز النصر النهائى في

(1) Idem. p. 74

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 147

(3) Dudden : Gregory the Great : Vol. 2, p. 160

(4) Idem p. 161

غرب أوروبا - بأنه باخومي أو باسلي ، لأن له طابعه الخاص الذي لا يوصف إلا بأنه بندكتي (١) .

وقد ولد القديس بندكت هذا حوالي سنة ٤٨٠ في أسرة ايطالية معروفة بالتراء والأرستقراطية ، فأرسل الى روما ليتلقى تعليمه ، ولكنه ضاق ذرعا بما لمسه من مظاهر الفساد الخلقي وآثر الفرار الى مكان جبلي منعزل ، حيث عاش في كهف بعيد معتمدا على ما يمدّه به المقسربون من مأكّل ولوازم ضرورية (٢) . ولم تلبث أن ذاعت شهرة هذا الرجل التقى ، فقصده الناس طلبا للبركة حتى تجمع حوله عدد من المريدين ، وعندئذ فكر بندكت - حوالي سنة ٥٢٠ - في الانتقال الى مكان بعيد عن روما وأرسل بعض أتباعه للبحث من موضع أكثر ملاءمة . وكان أن عاد هؤلاء ليخبروا كبيرهم بأنهم عثروا على مكان مناسب في منتصف الطريق بين روما ونابلي عند مونت كاسينو ، حيث يوجد معبد قديم للاله أبولو ما زال يتردد عليه بعض الفلاحين من المناطق المجاورة (٣) . وهكذا اختار بندكت ذلك الموضع لاقامة دير الأول مستخدما في ذلك أحجار المعبد الوثني القديم . ثم أخذ رهبان الدير الجديد يعملون في تطهير المنطقة المجاورة من الغابات والمستنقعات واستصلاح أراضيها للزراعة ، حتى استطاع دير مونت كاسينو أن يمد أهالي المناطق القريبة بالغللات والمحصولات المختلفة خلال أوقات الشدة (٤) .

على أن المهم في دير مونت كاسينو هو أنه أصبح مركزا وأبا روحيا لشبكة واسعة من الأديرة التي تأسست في غرب أوروبا وفق النظام الأساسي الذي وضعه القديس بندكت لهذه المنظمة (٥) . ذلك أن بندكت كان على علم تام بمساويء المديرية الشرقية وعيوبها ، كما أنه أحاط بنظام الأديرة الباسلية بعد أن

(1) Stephenson : op. cit. p. 88.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 536

(3) Workman : op. cit. p. 142

(4) Thompson : op. cit. Vol. 1. pp. 226—227

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 551

ترجمت مبادئ هذا النظم من اليونانية الى اللاتينية ، مما دفع القديس بندكت الى تلافى هذه العيوب فى نظامه الجديد الذى أصبح من أعظم التنظيمات الدينية فى العصور الوسطى ، كما صار أساسا لجميع التنظيمات الديرية التالية (١) . وكان النظام البندكتى يقوم على ثلاثة أركان أساسية هى انكار الذات والطاعة والعمل . وهكذا ساد الأديرة البندكتية جو من التعب والهدوء والنظام والعمل اليدوى ، بحيث لم يترك هذا كله مجالا للأناية والكبرياء واللغو والخمول (٢) . وكان ينبغى على من يزيد الانضمام الى الدير البندكتى أن يقضى أولا فترة تحت الاختبار حتى تثبت صلاحيته وإخلاصه ، وبعد ذلك يقسم يمين الولاء لنظام الدير ، وعلى أن يظل عزبا فقيرا مطيعا ، وعندئذ يتخلى عن ارادته ليخضع خضوعا تاما لمقدم الدير - وهو رئيسه المنتخب - فلا يمكنه أن يخرج خارج أسوار الدير الا بتصريح من ذلك المقدم (٣) . ومن هذا يتضح أن مقدم الدير البندكتى كان يتحمل مسئولية جسيمة لأنه هو المسئول أمام الله لا عن تصرفاته فحسب ، بل عن تصرفات بقية أعضاء الدير . لذلك خول القديس بندكت مقدم الدير سلطة عليا فى كل شئ ، فرأيه هو النهائى فى جميع المسائل ، ولا يجوز الالتجاء الى أية جهة أخرى لنقض قراره ، هذا وان كان على هذا المقدم أن يستشير بقية رهبان الدير قبل أن يبت فى أمر هام (٤) .

أما عن الحياة داخل الدير البندكتى فامتازت بالمساواة التامة بين أعضائه ، فالحر والعبد والشريف والوضيع كلهم سواء دون أن يكون هناك فضل لعضو على آخر الا بالعمل الطيب . وكانت روح الاعتدال تسيطر على حياة الرهبان ، فيأكلون طعاما كافيا ، وينامون ما يقرب من ثمان ساعات ليلا ، كل منهم فى فراشه الخاص ، مع عدم حرمانهم من قدر معلوم من النبذ . وإذا كانت العبادة هى الركن الأول من أركان الحياة الديرية ، اذ يجتمع الرهبان

(1) Idem : Vol. 5. p. 658

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 227

(3) Painter : op. cit. pp. 74—75

(4) Workman : op. cit. p. 146

للاشتراك فى الصلاة والترتيل ثمان مرات يوما (١) ، الا أن القديس بندكت فرض أن يكون العمل هو الركن الثانى من أركان هذه الحياة ، فقال بأن العمل عادة *Laborare est orare* وخصص لرهبان الدير ما يقرب من سبع ساعات يوميا يقضونها فى فلاحة الأرض • أما كبار السن من أعضاء الدير الذين لا يحتملون مشقة العمل فى الحقل ، فكانوا يكلفون أعمالا تتفق ومقدرتهم ، كبعض الصناعات الخفيفة أو طهى الطعام واعداده ، أو نسخ الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا فى مدرسة الدير (٢) •

أما الرجل الثانى الذى ترك أثرا واضحا فى تطور الديرية فى ايطاليا ، بل فى الغرب الأوروبى فهو كاسيدور الذى اعتزل خدمة الملكية القوطية فى ايطاليا بعد حياة سياسية حافلة بالعمل الكثير ، وأثر الانقطاع لحياة الرهبانية ، وذلك قبل وفاة القديس بندكت بأربع سنوات أو خمس • وقد أسس كاسيدور ديرين فى كالبريا موطن آباءه وأجداده (٣) • وهنا نلاحظ أنه آمن بأن الحياة الديرية لا تستلزم كراهية الطبيعة وجمالها أو ضرورة حرمان الفرد من الضروريات التى تحقق له السعادة والراحة ، مما جعله يعمل على ادخال قسط من البهجة والجاذبية على الحياة الديرية • على أن أهم ما عنى به كاسيدور هو أن يجعل من الدير مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضا « لأن عقولنا تتدرب على فهم الانجيل والكتابات الدينية وعن طريق دراسة الأدب الدنيوى » • لذلك تحمل كاسيدور كثيرا فى سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحوى مجموعة نادرة من المخطوطات التى تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، فرجال اللاهوت يجدون فيها نسخا مصححة مقارنة من الانجيل زيادة على كتابات آباء الكنيسة الشرقيين والغربيين • أما طلاب الدراسات غير الدينية فقد جمع لهم كاسيدور مجموعة من انتاج رجال الأدب والبلاغة - شعرا ونثرا -

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

(2) Stephenson : op. cit. pp. 91—92

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 538

فوق ما جمع من كتب التاريخ والجغرافيا والموسيقى والعلوم • وهكذا يرجع الفضل الى كاسيدور في زيادة القيمة العلمية للأديرة ، وهي الناحية التي ظهر أثرها فيما بعد عندما أصبحت الأديرة تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية في غرب أوروبا (١) •

وأخيرا يأتي جريجورى الأول ، وهو الديرى الذى أصبح بابا ليقوم بدور المنظم للحياة الديرية في غرب أوروبا • فالفارق بينه وبين بندكت وكاسيدور هو أنه لم يسهم مثلهما بنواح مبتكرة في نظم الحياة الديرية ومثلها ، ولكن جهوده ظهرت في تقوية هذه الحياة ونشر النظام الذى أتى به القسديس بندكت فضلا عن تحديد العلاقة بين الديرين من جهة والأساقفة ورجال الدين العلمانيين من جهة أخرى • وهكذا نتج عن جهود جريجورى الأول التقريب بين الحياة الديرية من جانب والكنيسة والبابوية من جانب آخر ، وهو أمر لا نجد له شبيها في الشرق البيزنطى حيث ظل التباعد واضحا بين هيئة الكنيسة من رجال الكهنوت المتزوجين وبين الديرين العزاب (٢) •

والواقع ان البابا جريجورى العظيم استغل الديرية كأداة فعالة تساعد في تنفيذ سياسته ونشر المسيحية • ولا عجب في ذلك ، فقد كان هذا البابا راهبا بندكتيا شديد التحمس للديرية ، حتى أنه استغل ثروته الموروثة الطائلة في تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة في صقلية وواحد في روما (٣) • كذلك اختار جريجورى العظيم معظم أعضاء البعثات التبشيرية التي أرسلها الى مختلف الجهات من الرهبان البندكتيين (٤) • ومن هذه الارسلات بعثة القديس أوغسطين الصغير - مقدم الدير الذى أنشأه جريجورى في روما - وقد أوفده البابا الى انجلترا سنة ٥٩٦ على رأس بعثة من تسعة وثلاثين راهبا ليعيدوها الى حظيرة المسيحية بعد أن ظلت خارجها ما يقرب من قرنين نتيجة لغزوات الجوت والانجلز والسكسون ، وهي الغزوات التي أدت الى تحطيم

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2 pp. 169—173.

(2) Workman : op. cit. p. 152

(3) Dudden : op. cit. Vol. 1 p. 207

(4) Workman : op. cit. p. 169—172

الحضارة الرومانية وذبول المسيحية في بريطانيا • وفي سنة ٦٠١ طلب أوغسطين من البابا امداده بعدد آخر من الرهبان لمساعدته في جهسه التبشيرية ، فأمده البابا بمجموعة أخرى من المبشرين البندكتيين (١) وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحا كبيرا في تحقيق أهدافها ، فأسس ديرا في كانتربوري ، وهو المكان الذي شيدت عليه الكتدرائية الشهيرة ، فيما بعد ، واتخذ الرهبان هذا الدير مركزا لنشاطهم التبشيري الذي قام على أساس تحويل المعابد الوثنية القديمة الى كنائس بدلا من هدمها (٢) • ولم يلبث أثلبرت - ملك كنت - أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه ، كما أنعم الملك على رجال الكنيسة الجديدة بكثير من المنح والأراضي (٣) •

الديرية الأيرلندية :

على أن الارساليات البندكتية التي قصدت انجلترا وغاليا الفرنجية ، صادفت في طريقها نوعا من الأديرة الكلتية التي انتشرت من أيرلند الى انجلترا وغاليا وألمانيا • وكانت أيرلند هي البلد الوحيد من البلاد المعروفة للقديما في غرب أوروبا الذي لم يفتحه الرومان ، مما ترك القراصنة الأيرلنديين - من عنصر الكلت - أحرارا في مواصلة اغاراتهم العنيفة على بريطانيا ، وبخاصة في أوائل القرن الخامس ، أي في أواخر حكم الرومان لبريطانيا •

وفي إحدى هذه الغارات - حوالي سنة ٤٠٠ - أسر الأيرلنديون شابا أسمه سوكات Succat ، قدر له أن يصبح فيما بعد القديس باتريك (ت ٤٦١) مؤسس الكنيسة الأبرلندية (٤) • ذلك أن سوكات قضى ست سنوات أسيرا في أيرلند ، فر بعدها الى غاليا حيث قضى بعض الوقت في التعلم ، حتى فكر بعد ذلك في العودة الى أيرلند ليقوم بنشر المسيحية بين

(1) Dudden : op. cit. Vol. 2, p. 123

(2) Workman : pp. 172—174

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 117—119

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

ربوعها • وعلى الرغم من أن المسيحية كانت معروفة في أيرلند قبل ذلك الوقت ، بدليل أن البابا كالستين الأول أرسل سنة ٤٣١ مبعوثا اسمه بلاديوس الى أيرلند ليكون أول أسقف لها(١) ، إلا أن القديس باتريك يعتبر صاحب الفضل الحقيقي في تحويل أيرلند الى المسيحية الغربية ، كما أن الفضل يرجع اليه في تأسيس أسقفية أزماغ في الشمال الشرقي من أيرلند سنة ٤٤٥(٢) •

ويبدو أن تطرف أيرلند وعزلتها ساعدت على احتفاظ الكنيسة الأيرلندية ببعض الأوضاع الكنسية القديمة ، بعد أن درست هذه الأوضاع واختفت من صلب القارة • وكان من المستحيل أن تقبل الكنيسة الرومانية هذه الأوضاع ، لذلك بدأ الخلاف بين الأيرلنديين والبابوية منذ عهد البابا جريجورى العظيم ، ولم ينته هذا الخلاف حتى سنة ٧٣٣ عندما قبل الأيرلنديون مسaire الأوضاع المعمول بها في الكنيسة الرومانية •

وقد اتجه الأيرلنديون في القرن السادس نحو ارسال بعثات تبشيرية من الرهبان الى سكتلند وبريطانيا وغاليا ، مدفوعين في ذلك بحبهم للتجسوال والسياحة من جهة وبحماسهم الدينية من جهة أخرى • وكان رائد هذه الحركة القديس كولبا St. Columba الذى اتجه سنة ٥٦٣ على رأس اثني عشر من أتباعه لتأسيس دير في مدينة أيونا Iona غربى البلاد المعروفة الآن باسم سكتلند(٣) • ومن هذا الدير اتجه المبشرون لتحويل البكتيين Picts - وهم العناصر القديمة التى سكنت سكتلند الحالية - الى المسيحية(٤) • ولم يلبث المبشرون الأيرلنديون أن مدوا نشاطهم الى انجلترا نفسها ، حيث التقوا بالبعثات التبشيرية التى أرسلتها روما • وهكذا تم

(1) Idem : Vol. 2 pp. 503—505

(2) Deanesly : op. cit. p. 468

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1 p. 533

(4) Workman : op. cit. pp. 199—200

القضاء فى القرن السابع على وثنية الأنجلوسكسون بعد أن تعرضت بلادهم لغزو المبشرين الأيرلنديين من الشمال والمبشرين الرومان من الجنوب (١) • وفى ذلك الوقت نفسه ، قام المبشرون الأيرلنديون بغزو القارة • وأول

هؤلاء المبشرين وأعظمهم كان القديس كولمبانوس Columbanus (٥٤٣ - ٦١٥) ، الذى نزح مع أربعين من أعوانه - حوالى سنة ٥٨٥ - الى بريطانيا ومنها الى غاليا ، حيث أسس ديرا شهيرا عند أناجريت. Anagrates فى برجنديا سنة ٥٩١ • ولم يلبث هذا الدير أن اجتذب كثيرا من الراغبين فى الحياة الديرية ، مما شجع القديس كولمبانوس على تأسيس دير جديد جنوبى الأول بثمانية أميال عند لوكسويل Luxeuil (٢) • ويلاحظ أن القديس كولمبانوس أهمل عند تأسيسه هذه الأديرة احدى القواعد المعمول بها فى القارة ، وهى أنه يتعين على مقدم الدير أن يحصل أولا على موافقة الأسقف الذى يقع الدير داخل دائرة أسقفية ، مما أدى الى اصطدام بين الطرفين • ولم يلبث دير لوكسويل أن نما هو الآخر بسرعة ، مما شجع على إقامة أديرة أخرى لكل منها مقدم ، أهمها دير فونتين Fontaines (٣) • أما القديس كولمبانوس فقد ظل يعمل عشرين عاما فى دير لوكسويل حتى استفزت سياسته الصارمة الخاصة بنقد البلاط والكنيسة عداة الطرفين ، مما جعله ينزح الى سويسرا حيث أخذ يواصل جهوده فترة قصيرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كونستانس (٤) • ولم يلبث أن اضطر القديس كولمبانوس الى مغادرة سويسرا مع أعوانه ، فذهب الى جبال الألب الى ايطاليا حيث أحسن ملك اللباردين استقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو Bobbio شمالى جنوا • وفى هذا الدير - الذى أصبح من أعظم أديرة أوربا فى العصور الوسطى وأوفرها ثروة فى المخطوطات - قضى القديس كولمبانوس السنوات الثلاث الأخيرة من حياته حتى توفى سنة ٦١٥ (٥) • على أن نظام الأديرة الذى وضعه القديس

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 232

(2) Cam. : Med. Hist. Vol. 1, pp. 533—534

(3) Workman : op. cit. p. 207

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 148

(5) Workman : op. cit. p. 208

كولمانوس ، لم يقدر له البقاء طويلا ، لأنه لم يقرر وسيلة للربط بين هذه الأديرة بعضها وبعض ، كما أنه اصطدم في سرعة بالنظام البندكتي . ولما كانت الأديرة البندكتية ذات صبغة عملية أوضح ، فضلا عن تمتعها بعطف البابوية ورعايتها ، فإن نظام القديس كولمانوس لم يستطع الثبات طويلا أمامها (١) .

ولم يقتصر نفوذ الأديرة الأيرلندية على هذه الجهات السابقة ، وإنما امتد أيضا إلى جهات أخرى في وسط أوروبا لم تكن المسيحية قد وصلت إليها بعد . ففي جنوب ألمانيا قامت عدة أديرة أيرلندية أشهرها ورزبرج ورجنسبرج وسانت جال St. Gall وغيرها من الأديرة التي ظلت تحتفظ بذكرى أصلها الكلتى الأيرلندى على الرغم من تأثيرها فيما بعد بالنظام البندكتي . ذلك أنه لم يكد منتصف القرن الثامن إلا كانت جميع الأديرة الأيرلندية قد أصبحت من الوجهة العملية خاضعة لإشراف البابوية ، كما انتهى استقلال الكنيسة الأيرلندية . على أن الأديرة الأيرلندية - بوجه خاص - تركت أثرا عميقا في الحياة الدينية وغير الدينية في غرب أوروبا . ويكفى أنها أصبحت مراكز رئيسية للثقافة الكلاسيكية ، كما أن كثيرا منها - مثل بوبو وسانت جال وغيرها من الأديرة الأيرلندية بأيرلند نفسها وإنجلترا - امتازت بغنى مكتباتها بالمخطوطات الكلاسيكية النادرة (٢) . هذا إلى أن حمية البعثات الأيرلندية وحماستها أشعلت حركة التبشير في أوروبا العصور الوسطى . وكان الأيرلنديون هم أول من تمسك بالمبدأ الخاص باستقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة ، وهو المبدأ الذي لم يعترف به غرب أوروبا إلا في القرن الحادى عشر .

المبشرون الانجليز في غاليا وألمانيا :

ازداد عدد البعثات التبشيرية الانجليزية في الخارج زيادة كبيرة منذ أواخر القرن السابع . ففي سنة ٦٧٧ جنحت سفينة ولفرد أسقف يورك

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, pp. 232—233

(2) Eyre : op. cit. pp. 266—267

الأنجلوسكسونى على شاطئى فريزيا وهو فى طريقه الى روما فبقى الشتاء فى هذه البلاد • وفى سنة ٦٩١ عبر وليبرورد Willibrord - وهو أحد رجال الدين الانجليز - البحر الى فريزيا حيث ساعده بيبين هرستال على تأسيس أسقفية أوترخت ، ومن ثم استمر يعمل على نشر المسيحية فى تلك الجهات ما يقرب من خمسين سنة (١) • على أن أعظم رجال الكنيسة ورهبان المسيحية فى القرن الثامن كان بدون شك القديس بونيفيس الذى تلقى تعليمه فى اكستر ثم عبر البحر سنة ٧١٥ الى فريزيا • وعندما وجد الحرب متأججة بين الفريزيين وشارل مارتل ، عاد الى انجلترا ومنها الى روما سنة ٧١٨ حيث زودته البابوية بالنفوذ والسلطة اللازمين للقيام بجهوده التبشيرية فى ألمانيا (٢) • وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات فى هس حتى عينه البابا رئيسا لأساقفة مينز ، الكرسي الأسقفى الرئيسى فى ألمانيا (٣) • وهناك فاقت جهوده ما قام به الرهبان الأيرلنديون من ادخال الحضارة اللاتينية وتنظيمها • واليه كذلك يرجع الفضل فى تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة فى الأراضى الألمانية مثل أسقفيات ورزبرج وماربورج وأرفرت ، وأديرة فولدا وهرسفلد وأورثرف وامونبرخ • هذا الى أن القديس بونيفيس تبعته بعض النساء الانجليزيات الى ألمانيا مثل والبورجا Walburga وليوبا Lioba وثكلا Thekla وهؤلاء أسهمن فى تأسيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء فى ألمانيا (٤) كذلك كان للقديس بونيفيس دور أساسى فى دعوة مجيى لفتناس Liftinas (سنة ٧٤٣) وسواسون (سنة ٧٤٤) وفى القرارات التى أصدرها هذان المجمعان (٥) • أما جهوده السياسية فكانت لا تقل أهميته عن جهوده الدينية ، اذ يرجع اليه الفضل فى التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل ، كما أنه تولى المفاوضات بين بيبين القصير والبابوية ، وهى المفاوضات التى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 541 & Vol. 2 p. 535

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 236

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

(5) Workman : op. cit. p. 176

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 540

انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء بيين عرش دولة الفرنجة ،
وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والدولة الكارولنجية (١) .

ويبدو أن هذه الأعمال والمشاكل العديدة صرفت بونيفيس فيما بين سنتي
٧١٨ ، ٧٥٢ عن الهدف الذي كرس نفسه له في شبابه ، وهو تحويل
الفريزيين الى المسيحية ، وقد أدرك بعد سنة ٧٥٢ أنه أتم أعماله السياسية
والادارية ، فعزم على العودة الى فريزيا - التي كانت لا تزال على وثنيها -
لمباشرة نشاطه التبشيري . ولكن الفريزيين الوثنيين أحاطوا به هذه المرة
وقتلوه سنة ٧٥٥ ، وبذلك انتهت صفحة علم من أعلام المسيحية الغربية في
العصور الوسطى (٢) .

وبعد ، فانه يتضح لنا مما سبق كيف قام الدير يون بدور فعال في نشر
المسيحية وحفظ الحضارة في عصر مضطرب امتاز بالفتن والحروب . أما
في الميدان الاقتصادي فان نشاطهم أدى الى اصلاح كثير من الأراضي والنهوض
بالزراعة ، زيادة على جهودهم العملية في النسيج والصباغة ودبغ الجلود
وصناعتها الأمر الذي تبعه نبوغهم في زخرفة المخطوطات وتزيينها . على أنه
يتضح لنا بالموازنة بين الديرية في الشرق والغرب أن القديس بندكت هو
صاحب الفضل في جعل الديرية أداة روحية بحتة بعيدة كل البعد عن الميدان
الحضاري والمجتمع الانساني . أما في الغرب فان الأديرة البندكتية أصبحت
مراكز الحضارة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب وفي مدارسها يتعلم الصغار
والكبار (٣) . هذا الى أن عظمة الديرية البندكتية لا تتمثل في الموازنة بينها
وبين الديرية الشرقية ، بقدر ما تتمثل في الأثر الذي تركه النظام البندكتي
في حياة العصور الوسطى وتفكيرها .

(1) Deanesly : op. cit. pp. 289—290

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 237

(3) Workman : op. cit. pp. 152—254

قضى الوقت الذى كان العالم الرومانى يحقر من شأن العمل اليدوى ،
ويعتبر هذا النوع من الأعمال وقفا على العبيد ، اذا بالنظام البندكتى يضع
العمل اليومى فى منزلة العبادة ، ويجعله جزءا أساسيا من حياة الديرين ،
وبذلك أصبحت الديرية عاملا ايجابيا منتجا فى المجتمع ولم تعد - كما اتهمها
البعض قديما - مأوى للمتعتلين وملاذا للكسالى الهاربين من أعباء الحياة
وتبعاتها(١) .

(١) Idem : pp. 153—158

الباب السابع

شارلمان وأمبراطورية الفرنجة

رؤساء البلاط :

لم يمض على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاما حتى كفت عن التوسع والنمو فجأة ، ودخلت دورا من الفوضى والحروب الأهلية استمر قرابة قسرن ونصف ١٠ وسرعان ما ظهر في هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجي من سلالة كلوفس (١) ، في الوقت الذي انقسمت دولة الفرنجة الى ثلاث ممالك صغرى هي أوستراسيا في وادي الميز والراين الأدنى ، ونستريا في الجزء الغربي بما فيه (نورمانديا) واكوتين ، وأخيرا برجنديا في المنطقة بين الرون وجبال الألب (٢) . ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة في هذه الأقسام الثلاثة تغلب نفوذ النبلاء ورجال الدين ، فوافق الملوك على أن يتنازلوا عن تعيين الأساقفة ليقوم رجال الأسقفية بانتخابهم ، كما وافقوا على عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم الدولة ، مما جعل الكنيسة الفرنجية شبه مستقلة عن التاج . أما النبلاء العلمانيون فقد حصلوا على ضمان بملكية ما تحت أيديهم من أراض ، كما حصل بين التاج وبين فرض أية ضرائب اضافية (٣) .

ثم كان أن اختار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاط في القصر الملكي ، وذلك ضمانا لامتيازاتهم ومصالحهم . وكانت هذه الوظيفة في أول أمرها متواضعة يقوم صاحبها بالاشراف على خدام القصر وموظفيه ،

(1) Oman : The Dark Ages, p. 158

(2) Davis : Charlemagne, p. 25

(3) Lot : The End of the Ancient World, p. 332

ولكنها أخذت تسمو تدريجيا حتى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول في الدولة ، الذي يشرف على جمع إيرادات الأراضي الملكية فضلا عن توزيع الهبات والوظائف (١) . وقد تعاقب في هذا المنصب منذ سنة ٦١٤ سلسلة من النبلاء بطريق الوراثة ، حتى أصبحت السلطة الفعلية في أيديهم . وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين بعد وفاة الملك داجوبرت سنة ٦٣٩ مرتبطا بالملوك ، وإنما برؤساء البلاط في الأقسام الثلاثة التي انقسمت اليها الدولة الميروفنجية (٢) . وكان النصر في النزاع بين هذه الأقسام الثلاثة لأوستراسيا التي برز رئيس بلاطها بينين الثاني أو بينين هرستال في أواخر القرن السابع ، ثم خلفه في منصبه ابنه غير الشرعي شارل مارتل سنة ٧١٤ (٣) وقد استطاع شارل مارتل أن يدعم نفوذه حتى غدت السلطة الفعلية في يده سنة ٧١٩ ، وعندئذ وجد دولة الفرنجة في حالة يرثى لها بسبب التنافس الطويل بين رؤساء البلاط في نستريا وأوستراسيا من جهة ، والأخطار الخارجية التي أحاطت بدولة الفرنجة عندئذ من جهة أخرى . وهنا أسرع شارل مارتل في القيام بسلسلة من الحروب لتأمين دولة الفرنجة من ناحية الشرق ، فقام بخمس حملات ضد السكسون بين سنتي ٧١٨ ، ٧٣٨ وبحملتين ضد الفريزيين (سنة ٧١٩ ، ٨٣٨) وحملة ضد الألمانى (سنة ٧٣٠) وحملتين ضد البافاريين (سنة ٧٢٥ ، ٧٢٨) (٤) على أن الخطر الأكبر الذي هدد دولة الفرنجة في ذلك العصر جاء من ناحية الجنوب ، أى من جانب المسلمين الذين زحفوا من الأندلس حتى استولوا على ناربون سنة ٧٢٠ ثم أوغلوا في برجنديا . وقد وجد شارل مارتل نفسه أمام خطر جسيم يستلزم تعبئة كل قواه ، فحشد قوى أتباعه من النبلاء وغير النبلاء ، واستعان بالمباردين في إيطاليا كما استولى على بعض أراضي الكنيسة ، هذا كله في الوقت الذي كان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقي قد استولوا على بوردو سنة ٧٣٢ وأخذوا بعد ذلك يزحفون شمالا . وأخيرا

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 136.

(٢) Lot: The End of the Ancient World, p. 337.

(٣) Idem: op. 341 — 342.

(٤) Deanesly: op. cit. p. 285.

دارت الموقعة بين الطرفين بين بواتيه وتور ، واستمرت سبعة أيام قتل فيها عبد الرحمن وارتد أتباعه من المسلمين سنة ٧٣٢ (١) .

أما شارل فقد أضفى عليه هذا النصر قوة ومكانة أكسبته لقب مارتل Martel أى المطرقة ، بعد أن بدا فى نظر العالم الغربى بطل المسيحية الأول الذى حمى غرب أوروبا من الغزو الاسلامى (٢) . وقد اعتاد المؤرخون أن يبالغوا فى قيمة هذا النصر الذى أحرزه شارل مارتل على المسلمين سنة ٧٣٢ ، على أساس أنه حمى غرب أوروبا بأجمعه من غزو المسلمين وسيطرتهم ، ولكن نظرة دقيقة الى الحوادث المعاصرة تثبت لنا أن الواقع يخالف ذلك . فالمسلمون لم يلبثوا أن عادوا فى العام التالى الى تهديد آزل وأفينون وغيرهما من المدن وبخاصة فى اقليم بروفانس (٣) . ثم انه لم يكن هنالك ثمة خطر واضح يهدد غرب أوروبا بأجمعه من جانب المسلمين الذين بوصولهم الى الأندلس كانوا قد قاربوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية الكبرى . لذلك كان من الصعب ، بل من المتعذر على المسلمين أن يقوموا بجهد حربي ضخم جديد لاختضاع غرب أوروبا لنفوذهم ، بعد أن طالت خطوط مواصلاتهم وبعادوا كثيرا عن المركز الأول لحركتهم التوسعية . هذا الى أن الدولة الاسلامية كانت قرب منتصف القرن الثامن قد أخذت تتعرض فعلا لنتائج الانقسامات المذهبية والسياسية مما يحول دون تكاتف المسلمين فى المشرق والمغرب للقيام بجهد عظيم مشترك لغزو أوروبا . ولذلك لا نبالغ اذا قلنا أن غزوة عبد الرحمن فى جنوب غاليا لا تعدو أن تكون حملة محلية محدودة الهدف والنتائج . وربما كانت حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية قبل ذلك بخمس عشرة سنة أشد خطرا على مصير أوروبا ومستقبلها ، نظرا لقرب القسطنطينية من مركز الخلافة الاسلامية فى دمشق من جهة ولعظم الجهود والامكانيات التى سخرت فى هذه الحملة من جهة أخرى .

على أن استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة فضلا عن رفضه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 129.

(2) Stephenson, op. cit. p. 171.

(3) Fichenau: The Carolingian Empire, pp. 12—13.



مساعدة البابوية ضد اللبارديين ، آثار وحشية بينه وبين الكنيسة (١) . ومهما يكن من أمر فإن هذه الوحشية لم تستمر طويلا إذ توفي شارل مارتل سنة ٧٤١ وخلفه ابنه بيين القصير فى رئاسة البلاد (٧٤١ - ٧٦٨) . وقد عمل بيين هذا على اصلاح ذات البين مع الكنيسة ، فعقدت أربعة مجامع دينية تحت اشراف القديس بونيفيس ، وفى هذه المجامع تقرر فرض النظام البندكتى على الأديرة الفرنجية ، وتعين أسقف لكل مدينة ورئيس أساقفة لكل مجموعة من الأساقفة ، على أن يمتد سلطان البابوية على الجميع (٢) .

وسرعان ما أيقن المعاصرون أن الوضع السياسى القائم فى دولة الفرنجة غير صحيح فى ظل حكم رئيس بلاط هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وملك شرعى مستضعف لا حول له ولا قوة . لذلك اجتمع المجلس العام لشعب الفرنجة سنة ٧٥١ وقرر عزل شلدريك الثالث (شلدبرت) آخر ملوك أستراسيا ، واحلال بيين القصير محله فى العرش . وهنا أراد بيين القصير أن يصنع هذه الخطوة صبغة شرعية فأرسل بعثة الى البابا زكريا فى روما لاستشارته وأخذ رأيه . ولسنا فى حاجة الى القول بأن البابوية كانت لا تزال تطمح عندئذ فى مساعدة دولة الفرنجة ، بوصفها القوة الوحيدة التى يمكنها مساندة البابوية ضد اللبارديين . لذلك جاء رد البابا زكريا واضحا ، وهو أنه من الأفضل أن يكون الملك لمن بيده السلطة الفعلية فى البلاد . وهكذا تشجع بيين القصير فأعلن عزل شلدريك الثالث ونفاه الى أحد الأديرة . ليقضى فيه بقية حياته ، فى حين اعتلى هو عرش الفرنجة (٧٥٢ - ٧٦٨) ، وبذلك انتهت الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس وبدأت الأسرة الكارولنجية من سلالة رؤساء بلاط أوستراسيا (٣) .

ولم تلبث ظروف الموقف بين البابوية واللبارديين أن أدت الى سفر البابا ستفن الثانى سنة ٧٥٣ الى غاليا لطلب المساعدة من بيين القصير . وكان أن

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1 p. 207.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 539-540.

(3) Oman: The Dark Ages, pp. 325-326.

نعهد ببيان بمساعدة البابا وأقسم على أن يحقق للبابا كل ما يريد ، ويعطيه رافنا ، فضلا عن بقية المدن التي يستردها من اللمبارديين أو البيزنطيين . وفي مقابل ذلك توج البابا بيمين يده كما توج زوجته وولديه شـبارل وكارلومان ، وأنزل اللعنة في على كل من يحاول اغتصاب عرش الفرنجة من بيت بيين القصير (١) وبذلك دخلت دولة الفرنجة دورا كبيرا من تاريخها لتصبح أعظم قوة سياسية في غرب أوروبا ، بفضل تحالفها مع البابوية ، وهو التحالف الذي كان له أبعد الأثر بالنسبة لمستقبل غرب أوروبا في العصور الوسطى (٢) .

حضارة الدولة الميروفنجية :

أخذت نظم الفرنجة تتعدل عقب استقرارهم في غاليا نتيجة لاتصالهم المستمر بالمواطنين الرومان ، وما نجم عن هذا الاتصال من تأثير الفرنجة بالأوضاع الرومانية . ويلاحظ أن الفرنجة احترموا ملكية الأرض في غاليا ولم يقتصبوها من أصحابها ، كما أنهم لم يحاكوا غيرهم من الجرمان في استخدام العنف مع أهالي البلاد الأصليين (٣) . ولكن كبرياء الفرنجة أثبت عليهم الاعتراف بالمساواة التامة المطلقة بينهم وبين أهالي غاليا الأصليين من الرومان ، فجعلوا الدية التي تدفع تعويضا عن مقتل رجل من الفرنجة تفوق تلك التي تدفع عن مقتل أحد الرومان ، كما أعفوا أنفسهم من الضرائب الرومانية المباشرة ، وجعلوا هذا النوع من الضرائب وقفا على أهالي غاليا من الرومان وحدهم (٤) وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شقاق عنصري بين الفرنجة والرومان في غاليا اذ تزواج الطرفان بعضهما من بعض في حرية وسهولة ، وأصبحت جميع المناصب الكنسية والحكومية مفتوحة أمام الجميع دون تمييز أو تفرقة (٥) . وساعد على هذا التقارب بين الفرنجة والرومان

(1) Moss: op. cit. p. 200.

(2) Eyre: op. cit. p. 89 & Moss: op. cit. p. 200.

(3) Dill: Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, p. 114.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 212.

(5) Lot: The End of the Ancient World, p. 358.

اعتناق الفرنجة للمذهب الكاثوليكي واستخدامهم اللغة اللاتينية ، مما أدى الى التداخل الحضارى وتأثر كل طرف بالآخر • وهكذا أخذ الملوك الميرفنجيون يحاكون مظاهر البلاط الرومانى الامبراطورى ، فأضفوا على موظفى البلاط ألقابا رومانية وأصدروا مراسيمهم وفق النمط الرومانى •

أما فيما يختص بنظم الحكم عند الفرنجة فى العصر الميروفنجى ، فنلاحظ أن الملكية ظلت وراثية فى سلالة كلافس ، فلم يعرف الفرنجة المبدأ الانتخابى • وكانت السلطة الملكية تعتبر ارثا يقسم بين الأبناء الذكور بالتساوى مع استبعاد الاناث (١) • وقد تمتع ملوك الفرنجة بسلطة مطلقة فى النواحي الادارية والمالية والقضائية والحربية ، وكانت أية مخالفة أو عصيان للملك يعاقب صاحبها بالاعدام (٢) •

وقد اعتبر الفرنجة - شأنهم شأن غيرهم من الجرمان - معظم الجرائم نوعا من المخالفات الشخصية الخاصة لا العامة ، فيترك لعائلة المجنى عليه مهمة مطابقة الجانى والاقتصاص منه • وفى بعض الحالات كانت الأسرة صاحبة الحق تكتفى بأخذ تعويض من المذنب أو أهله ، وفى حالات أخرى كانت تقتص لنفسها بطريقة عنيفة تدل على الخشونة والوحشية • على أن قسوة قانون الفرنجة وتطرفه سرعان ما خفت حدتها نتيجة لجهود رجال الكنيسة وانتشار تعاليم الديانة المسيحية ومبادئها (٣) •

أما عن الناحية المالية والاقتصادية فيلاحظ أن ملوك الفرنجة لم يحاولوا تغيير النظم المالية السائدة فى غالبا ، فتركوا جميع الضرائب القائمة كما هى ، سواء فى ذلك ضريبة الأرض أو الضريبة الشخصية أو ضرائب الأسواق أو الضرائب غير المباشرة (٤) • وكان الدخل الملكى يتألف من ايراد الضياع الملكية فضلا عن الهبات والهدايا والخدمات الخاصة والمحلية التى كان

(1) Dill: Roman Society in the Merovingian Age, p. 113

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 133—134.

(3) Thomson: op. cit. Vol. 1 p. 213.

(4) Lot: The End of the Ancient World, p. 351.

على الرعايا أن يقدموها • ثم أخذت تختفى تدريجيا الضرائب الرومانية المباشرة التي كانت معروفة أيام الرومان مثل ضريبة الرأس وضريبة الأرض، وأصبح الكونتات وحكام الأقاليم يدفعون للملك ثلثي الضرائب والأموان التي يجمعونها من الأهالي على أن يحتفظوا لأنفسهم بالثلث (١) • أما الهدايا السنوية التي يقدمها النبلاء للملك كل ربيع فقد أصبحت اجبارية ، ولم تغف منها جهة من الجهات ذات الإيراد ، حتى الأديرة والمؤسسات الدينية • وكانت هذه الهدايا تشمل الذهب والفضة والأحجار الثمينة والخيول وما شابهها • ومن هذا يبدو أن جميع الإيرادات السابقة كانت تقدم للملك بصفته الشخصية ليصرف منها على بلاطه دون أن يكون للمنشآت العامة فيها نصيب (٢) • أما هذه المنشآت فكانت تقوم بها الإدارة المحلية ، كما أن المجندين الأحرار كانوا يدخلون الخدمة العسكرية مزودين بأسلحتهم على نفقتهم الخاصة (٣) •

وقد نشطت التجارة في عهد الدولة الميروفنجية حيث وجدت طبقة نشيطة من التجار استخدمت طرق التجارة الرومانية القديمة • ويبدو أن نسبة التجار اليهود واليونانيين كانت كبيرة ، لا سيما في المدن والموانئ ذات الأهمية التجارية مثل مرسيليا وآرل وناربون (٤) • وكانت لغاليا علاقات تجارية مهمة مع موانئ الشرق في البحر المتوسط حتى سنة ٦٠٠ ، أي حتى زمن جريجوري التوري أول مؤرخي الفرنجة • ولكن هذه العلاقات أخذت تذبل تدريجيا نتيجة لنمو قوة المسلمين البحرية في القرن السابع ، مما جعل تجارة الفرنجة تصبح شبه محلية • أما الطابع الغالب على دولة الفرنجة فكان الطابع الزراعي نتيجة لاضمحلال المدن وهجراتها وتلاشي الحياة المدنية من جهة ، ولازدياد عدد الضياع الزراعية الكبيرة التي تكفى نفسها بنفسها

(1) Dill : Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, 126—127.

(2) Thompson: Vol. 1. pp. 215—216.

(3) Lot: The End of the Ancient World, p. 353.

(4) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 355.

وما صحب ذلك من تناقص عدد الأحرار وصغار الملاك وازدياد عدد الأتقان
من جهة أخرى (١) •

الدولة الكارولنجية :

٤

وبتتويج بين القصور رئيس البلاط ملكا على دولة الفرنجة سنة ٧٥٢
تكون الأسرة الميروفنجية من سلالة كلوفس قد انتهت وحلت محلها الأسرة
الكارولنجية في حكم دولة الفرنجة • وقد استمر بين القصور في الحكم
حتى وفاته سنة ٨٦٨ وعندئذ قسمت مملكته - وفقا لتقاليد الفرنجة - بين
ولديه ، فخص شارل أوستراسيا وجزء من أكويتين ، واختص كارلومان
بنستريا وبقة أكويتين (٢) • ولا يهمننا كثيرا أمر النزاع الذي نشب بين
الأخوين والذي هدد بالقضاء على وحدة مملكة الفرنجة ، ما دام النزاع قد
انتهى بوفاة كارلومان سنة ٧٧١ ، مما أتاح لأخيه شارل فرصة توحيد جميع
مملكة الفرنجة تحت سيادته ، من مصب الراين حتى مصب الرون ومن
نهر المين حتى خليج بسكاي (٣) • على أن الذي يهمننا هو أن جربرجا
Gerbrega - أرملة كارلومان - استأمت لاغفال حقوق ولديها
القاصرين في ملك أبيهما ، ففرت الى بلاط دسدريوس ملك اللمباردين
في بافيا • وكان شارل قد سبق أن تزوج من ابنة دسدريوس ولكنه عاد
فطلقها بالسرعة التي تزوجها بها ، الأمر الذي زاد الموقف توترا بين شارل
ودسدريوس • ولم يكن منتظرا من الملك اللمباردي أن يتأخر في مساعدة أرملة
كارلومان (٤) ، فطلب من البابا تتويج ابني كارلومان ، ولما رفض البابا ذلك
لجأ دسدريوس الى مهاجمة الأملاك والأراضي البابوية ، مما دفع البابا مستغنا
الثالث (الرابع) (٧٦٨ - ٧٧٢) الى الاستنجد بشارل ملك الفرنجة (٥) •
وقد حاول شارل مفاوضة دسدريوس في أول الأمر فأرسل اليه يطلب

(1) Idem: p. 350.

(2) Oman: The Dark Ages, p. 336.

(3) Kleinclausz: Charlemagne: pp. 12—13.

(4) Moss: op. cit. p. 218.

(5) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. p. 421.

[illegible]

۱۸۳۳

الاقطار

تبرکات

५३

١٢

جہیز

7.

3.4.1

آفرین

五

۱۰۰

۶۰۰

3

۵۰

أولاد

५

۱۰۰

3.

تذکرہ

اکبر

५८

10

الامبارج دين

صَحِيحًا

15

برجوفانس

2

المشيعيان

تسليم جميع المدن التي استولى عليها من البابوية بدون وجه حق ، ولكن دسديوس غضب لتدخل شارل بينه وبين البابوية وأصر على موقفه في عدم إعطاء البابوية مدنها • وعندما غزا شارل ايطاليا سنة ٧٧٣ حاول دسديوس أن يسد منافذ الألب في وجهه ، ولكنه غلب على أمره وفر الى بافيا حيث لحقت به قوات شارل وحاصرته (١) • وفي هذه الأثناء أخذ ابن دسديوس يجمع قوات اللمباردين قرب فيرونا ، مما جعل شارل يترك جزءا من قواته في حصار بافيا ، ويسرع بالجزء الباقي لمطاردة هذا الابن الذي فر الى القسطنطينية تاركا شارل يستولى على فيرونا وبرجامو وغيرهما من المدن المهمة (٢) • وعندما طال حصار بافيا قرر شارل أن يقضى عيد الفصح (سنة ٧٧٤) في روما حيث جدد للبابا هديان (أدريان) الأول (٧٧٢ - ٧٩٥) هبة بين القصير للبابوية من قبل • ثم كان أن سقطت بافيا أخيرا بعد حصار عشرة أشهر ، فحمل دسديوس الى دير كوربي في نستريا حيث قضى بقية حياته بعد أن قسمت ثروته بين جنود الفرنجة ، في حين اتخذ شارل لنفسه لقب « ملك اللمباردين » • ويلاحظ أن شارل لم يشأ في أول الأمر أن يدمج اللمباردين ضمن مملكته ، وآثر أن يتركهم يعيشون في ظل نظمهم الخاصة • ولكن عندما ثار اللمبارديون ضده من جديد ، ودبروا مؤامرة لاستدعاء ابن دسديوس الهارب في القسطنطينية وإعلانه ملكا ، عاد اليهم ونجح في إخضاعهم سنة ٧٧٦ ، وعندئذ أرغم اللمبارديون على اتباع قوانين الفرنجة ونظمهم •

على أن حروب شارل العظيم ضد اللمباردين لم تكن سوى الحلقة الأولى في سلسلة طويلة من الحروب قام بها شارل ضد السكسون ومسلمي أسبانيا والعناصر السلافية الرابضة على نهري الألب والدراف (٤) • وقد حققت

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 220.

(2) Cman: The Dark Ages. p. 347.

(3) Pirenne: Mohammed and Charlemagne, p. 228.

(4) Eginhard: The Life of Charlemagne pp. 15—26

The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne; p. 105.

هذه الحروب الواسعة التي قام بها شارل قسطا كبيرا من النجاح ، وأدت الى حماية غربي أوروبا من العناصر الوثنية المجاورة فضلا عن نشر المسيحية بين هذه العناصر . ففي سنة ٧٧٨ قام شارل العظيم بأولى حملاته الكبيرة ضد المسلمين في أسبانيا فاجتمعت جيوشه أمام سرقسطة واعترف له حكام برشلونة وجيرونا بالولاء . على أن جيوش شارل عجزت عن الاستيلاء على سرقسطة فعادت أدراجها دوز أن يحقق نتائج ظاهرة (١) . وفي أثناء عودة شارل هاجمت عناصر الباسك (البسقاوية) في شمال أسبانيا مؤخرة جيشه ، فقتل رولان وأصبح هذا الحادث محورا لأنشودة مشهورة ظهرت بعد ذلك بعدة قرون وصورت شارل العظيم في صورة الصليبي الأول (٢) . وبعد أن قام شارل بعدة هجمات ضد السكسون ، أخضع البافاريين سنة ٧٨٨ وعزل ملكهم وجعل بلاده دوقية تسير وفق نظم الادارة الفرنجية (٣) . وفي ذلك الحين كان الآفار قد قدموا المساعدة للملك البافاريين ، الأمر الذي أثار شارل ضدهم ، فغزوا أراضيهم في حوض الطونة الأوسط ست مرات بين سنتي ٧٨٨ ، ٨٠٥ حتى حطم قوتهم نهائيا وأخضعهم تماما . وعندئذ اختار شارل أحدهم ليتولى حكمهم ، على أن يدفع جزية سنوية للفرنجة (٤) . كذلك قام شارل العظيم بحروب متفرقة أخضع فيها عناصر السلاف الشماليين بين نهري الالب والأودر سنة ٧٨٩ ، والسلاف الجنوبيين في بوهيميا سنة ٨٠٥ .

على أن أعنف حروب شارل وأطولها كانت ضد السكسون ، الذين سبق أن قاتلهم شارل مارتل وبيبين القصير . وقد قام شارل العظيم بشمان عشرة حملة ضدهم ، كان غرضه الأول منها حماية حدود بلاده من خطرهم ، ثم لم يلبث أن أصبح هذا الغرض تحويلهم الى المسيحية واخضاعهم بالقوة (٥) . وكان مصدر المتاعب الكبرى التي واجهت شارل في حروبه ضد السكسون

(1) Lavissee: Hist. de France, Tome 2, Première Partie pp. 293—294.

(2) Davis: op. cit. pp. 110—114.

(3) Deanesly: op. cit. pp. 368—369.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 362.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 609—611.

نابعا من صعوبة بلادهم ذات الغابات والأحراش ، وعدم وجود مدن أو معاقل محصنة للسكسون يمكنه أن يحاصرها ويقضي على قوة أعدائه بالاستيلاء عليها ، فضلا عن عدم وجود طرق ومساالك يمكن أن تسلكها الجيوش الغازية . وهكذا ساعدت هذه الظروف السكسون فأظهروا عنادا شديدا وتمسكا قويا بعقائدهم وتقاليدهم ونظمهم ، بحيث أنه كان يخضعهم في كل مرة ويأخذ منهم عددا ضخما من الأسرى والرهائن زيادة على غرامة مالية فادحة ، وعندئذ يتظاهرون بالخضوع ويعتقون المسيحية بالجملة ، ولكنهم لا يلبثوا أن يرتدوا الى أسلوبهم وعقائدهم بعد أن ينصرف عنهم شارل (١) . وعندما تجددت ثورة السكسون سنة ٧٨٢ أعدم شارل العظيم منهم أربعة آلاف وخمسمائة أسير جملة واحدة في مذبحة فردن Verden (٢) . وهكذا ظل شارل يكافح السكسون ويحاول كسر شوكتهم والقضاء على عصبيتهم حتى خربت بلادهم فهذأت العلاقات بينه وبينهم قليلا ، وان استمرت ثورات السكسون حتى سنة ٨٠٤ (٣) . وفي هذه الأثناء أسس شارل ثمان أسقفيات في سكسونيا وأرسل كثيرا من البعثات التبشيرية اليها ، حتى آمن السكسون أخيرا بالمسيحية ، وعندئذ حرص شارل على تعليم بعضهم ليصبحوا قساوسة في بلادهم (٤) .

على أن حروب شارل الطويلة ضد السكسون بوجه خاص ، لم تصرفه عن العمل على تأمين شواطئ أوروبا الجنوبية وجزرها من خطر قراصنة المسلمين ، بعد أن اشتدت اغاراتهم عليها . لذلك بدأ شارل العظيم بتأمين حدوده الجنوبية من ناحيتهم ، فأنشأ وحدة إدارية على الحدود الأسبانية سميت ماركية أسبانيا (March of Spain) سنة ٧٩٥ حول مدن جيرونا وجاردونا وأورجل وأوزونه ثم ضم إليها برشلونة سنة ٧٩٧ ، هي أعظم مدن إقليم قطلونيا بعد أن سلمها له حاكمها الخائن نكاية في سيده خليفة

(1) Halphen: Etudes Critiques sur L'Hist. de Charlemagne, p. 146.

(2) Kleinclausz: Charlemagne, p. 134.

(3) Deanesly: op. cit. 358—365.

(4) Kleinclausz: op. cit. pp. 138-139.

قرطبة (١) • أما في الجانب البحري فقد استولى الفرنجة على كورسيكا وسردينيا ، كما استولوا على جزر البليار سنة ٧٩٩ لحرمان مسلمي الأندلس من اتخاذها قواعد للاغارة على شواطئ إيطاليا وغاليا الجنوبية (٢) • على أن الصراع البحري لم يلبث أن اشتد في الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط عندما ظهرت قوة الأغالبة البحرية ، الأمر الذي أزعج الباباليو الثالث وشارل العظيم فضلا عن الدولة البيزنطية • وهنا لم يتأخر شارل في ارسال النجدة الى البابا للدفاع عن شواطئ إيطاليا وصقلية ، وان كانت هذه الجهود لم تفلح في وقف ذلك الخطر الذي تعرضت له شواطئ أوروبا الجنوبية بشكل واضح في أوائل القرن التاسع (٣) •

وهكذا قضى شارل العظيم معظم حكمه في حروب مستمرة ، حتى قدر عدد حملاته بأربع وخمسين حملة مكنته من فرض سيطرته على ما كان للامبراطورية الرومانية القديمة من أملاك في الغرب ، اذا استثنينا ولاية أفريقية وبريطانيا وجنوب إيطاليا ومعظم أسبانيا ، هذا فضلا عما نتج عن هذه الحروب من نشر المسيحية في بلاد وبين شعوب لم يسبق أن وصل إليها الرومان من قبل (٤) •

نتائج شارل العظيم امبراطورا :

يتضح مما سبق أنه لم يكد ينته القرن الثامن الا كان شارل العظيم قد قام بأعمال لم يستطع القيام بها أحد غيره من المعاصرين • ذلك أنه لم ينجح في تكوين دولة ضخمة في غرب أوروبا فحسب ، بل نجح أيضا في حماية البابوية ونشر المسيحية ، واحياء كثير من مظاهر الحضارة الرومانية في الغرب (٥) • وقد أثارت هذه الأعمال في عقول المعاصرين ذكرى روما

(1) Oman: The Dark Ages, p. 365.

(2) Eginhard: Life of Charlemagne, p. 31.

(3) Deanesly: op. cit, pp. 375—376.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I p. 259.

(5) Kleinclausz: op. cit. p. 287.

ومجدها القديم ، فأخذوا يتغنون بهذه الذكرى ويشعرون بالرغبة فى احياء هذا المجد . على أن المعاصرين لم يقصدوا احياء مجد الامبراطورية الرومانية فى حضارتها وقوتها فقط ، بل أيضا فى شخص الامبراطور بعد أن ظل الغرب يشعر بفراغ سياسى كبير منذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس . حقيقة كانت هناك امبراطورية رومانية وامبراطور قائم فى القسطنطينية ، ولكن أهالى غرب أوروبا بوجه عام وايطاليا بوجه خاص نظروا الى هذا الامبراطور البيزنطى نظرة ملؤها الاستياء والكراهية بسبب موقف الأباطرة البيزنطيين من عبادة الأيقونات من جهة وسياستهم المعادية للبابوية من جهة أخرى ، حتى أصبح هؤلاء الأباطرة - فى نظر الايطاليين - مجرد جبالة أموال مبغوضين (١) .

كان هذا هو شعور المعاصرين اذا نحو الماضى والحاضر فى الوقت الذى قضى شارل العظيم على قوة اللمبارديين السياسية ، وحمى البابوية من خطرهم ، وحارب السكسون وغيرهم من العناصر الوثنية لينشر المسيحية بينهم ، كما حارب المسلمين فى أسبانيا والبحر المتوسط لدفع خطرهم ، هذا كله مع شدة رعايته للعلوم وجهوده فى انعاش الحضارة فى الغرب . ولا شك فى أن هذه الأعمال أوضحت للمعاصرين أن شارل العظيم كان أكبر قوة فى عصره تحمى البابوية والكنيسة بل الحضارة الغربية ، وأنه جدير بلقب الامبراطور بعد أن قام بأعمال لا تقل عن تلك التى قام بها أعظم الأباطرة الرومان .

ومن الواضح أنه كان فى استطاعة شارل أن يضيف على شخصه هذا اللقب أو أن يوحى الى الكنيسة الفرنجية بفعل ذلك ، ولكنه كان يطمع فيما هو أكثر ، أى فى أن تخلع عليه البابوية نفسها لقب الامبراطورية حتى يكون أوقع أثرا فى العالم المسيحى أجمع (٢) . وكان أن أتاحت الفرصة لتحقيق هذا الحلم الجميل سنة ٧٩٩ عندما تأمر خصوم البابا ليو الثالث ضده ووضعوا

(1) Moss : op. cit. p. 219.

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 232.

خطة ترمى الى سمل عينيه وقطع لسانه لابعاده عن منصبه (١) * ولم يلبث أن سمع شارل بأمر هذه الأحداث التي جرت في روما وبأن البابا لم ينج من المؤامرة الا بصعوبة ، فأرسل الى البابا الهارب يستدعيه اليه واستقبله في ترحاب خفف عنه ما يعانيه من آلام (٢) * وبعد ذلك قام شارل بإرسال البابا مخفورا الى روما حيث لحق به بعد قليل * وفي روما عقد مجمع برأ ليو الثالث من جميع التهم التي ألصقها به خصومه ، وبذلك عاد البابا الى مباشرة مهام منصبه في حين أمر شارل بمعاينة المتآمرين (٣) * وهنا أخذ البابا يفكر في وسيلة يرد بها الجميل للملك الفرنجي الذي أنقذ البابوية وأثبت في كل مناسبة أنه أخلص حليف لها وأقوى دعامة للكنيسة الغربية * حقيقة أن منح لقب الامبراطور لملك من ملوك البرابرة أمر ليست له سابقة ، وربما بدا غريبا في نظر المعاصرين ، ولكن حياة شارل العظيم أثبتت أنه لم يكن كغيره من ملوك البرابرة * واذا قورن بمعاصرتة الامبراطورة ايرين - وهي المرأة الشريرة التي أخذت تمبث بمصير الامبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت - فانه لا يوجد أي وجه للمقارنة أو الموازنة (٤) * وهكذا يبدو أن شبح هذه المرأة العابثة التي تحكممت في مصائر الامبراطورية البيزنطية (٧٩٧ - ٨٠٢) كان من العوامل التي شجعت البابوية والغرب على قطع آخر الخيوط التي ربطتهم بالامبراطورية الشرقية (٥) *

وكان أن نفذ البابا فكرته في الاحتفال الكبير الذي أقيم بكنيسة القديس بطرس تمجيذا لعيد رأس السنة (٨٠٠) * فعندما انتهت الصلاة ، تقدم البابا ليو الثالث بخطى وثيدة ممسكا تاجا ذهبيا في يده ووضعها على رأس شارل - الذي كان لا يزال راکعا أمام المذبح وقال - « اللهم امنح الحياة والنصر لشارل

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 619.

(2) Deanesly, op. cit. p. 381.

(3) The Monk of St. Gall : The Life of Charlemagne.. p. 92.

(4) Lot, Pfister, Ganshof : op. cit. p. 457.

(5) Oman : The Dark Ages, p. 372.

العظيم الذى توج بفضل الله امبراطورا عظيما على الرومان » (١) * ولم يلبث أن علا صياح الحاضرين من محاربى الفرنجة ورجال الدين الايطاليين ، وأخذ الجميع يحيون شارلمان بالطريقة التى كانت متبعة مع الأباطرة الرومان (٢) * .

ولا شك فى أن هذا الحدث لم يكن خطيرا بالنسبة لشارلمان فحسب ، بل أيضا بالنسبة للبابوية والغرب الأوروبى فضلا عن الشرق البيزنطى (٣) * . أما عن شارلمان فيقال أنه فوجئ بهذا الاجراء الذى اتخذه البابا ليو الثالث ، ولم يكن يعلم به أو يتوقعه وان كان يرجوه ويحلم به * وقد ذكر اينهارت - المؤرخ المعاصر الذائع الصيت الذى ترجم لشارلمان - أن سيده لو عرف بما أعده البابا فى يوم رأس السنة لما دخل كنيسة القديس بطرس فى ذلك اليوم (٤) * . ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحيى الامبراطورية الرومانية فى الغرب بعد أن ظل العالم الغربى بلا امبراطور منذ أواخر القرن الخامس ، وأن يكون مؤسس الامبراطورية الرومانية المقدسة التى لعبت دورا عظيما فى أحداث العصور الوسطى * . وأما البابوية فقد قطعت - بتتويج شارلمان امبراطورا - الرباط الواهى الذى كان يربطها بالامبراطورية البيزنطية ، وفى الوقت نفسه قوت الرباط الذى كان يربطها بمملكة الفرنجة وأكسبت هذا الرباط طابعا دينيا مقدسا * . هذا فضلا عن أن الطريقة التى تم بها تتويج شارلمان جعلت التاج الامبراطورى يبدو فى صورة منحة من البابا ، وهى العقيدة التى أصبح لها شأن كبير فى النزاع بين الامبراطورية والبابوية فيما بعد (٥) * .

أما بالنسبة للامبراطورية البيزنطية فإن اعلان شارلمان امبراطورا فى الغرب جاء صدمة عنيفة لها (٦) * . فمنذ سقوط الامبراطورية الغربية فى القرن الخامس ، والعالم الرومانى لا يعرف الا امبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطى الذى

(1) Bryce ; The Holy Roman Empire, p. 49.

(2) Kleinclausz : op. cit. p. 304.

(3) Vasiliev : op. cit. Tome I p. 351.

(4) Eginhard : The Life of Charlemagne ; p. 44.

(5) Moss : op. cit. pp. 222—223.

(6) Eyre : op. cit. p. 173.

تمتع بسيادة - ولو اسمية - على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان • ولكن قيام شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ أوجد منافسا خطيرا للامبراطور البيزنطى • وحرّم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية و لعالم الغربى • هذا الى أن تتويج شارلمان لم يجعل منه « الامبراطور » الأساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية - من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى - لا تحتل رأسين ، مثلها مثل البابوية ، وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزها (١) • ولعل هذه الصدمة التى أصابت الامبراطورية الشرقية ، هى التى جعلتها لا تعترف بامبراطورية شارلمان الا عندما أفاقت ، بعد مرور اثنتى عشرة سنة على تتويجه (فى يناير سنة ٨١٢) (٢) •

اصلاحات شارلمان :

على أن أهمية شارلمان فى التاريخ لا تبدو فى حروبه الطويلة أو تتويجه امبراطورا لأول مرة بين ملوك الجرمان فحسب ، بل تبدو هذه الأهمية أيضا فى اصلاحاته الواسعة التى تناولت مختلف المرافق والاتجاهات حتى أدت الى ما يعرف فى التاريخ باسم النهضة الكارولنجية •

ففى ميدان الثقافة أظهر شارلمان اهتماما كبيرا بالدراسات العلمية ، فشجع الأدباء والعلماء الذين وفدوا على بلاطه من مختلف أنحاء أوروبا ، ولاسيما أيرلند وانجلترا وإيطاليا (٣) • واشتهر من هؤلاء العلماء مجموعة ضخمة من أعلام النهضة الكارولنجية مثل بطرس البيزى وبولينوس وبولس الشماس وغيرهم • وعلى رأس هؤلاء جميعا يأتى ألكوين ، وهو رجل انجليزى الأصل احتضنه شارلمان ، فتعهد النهضة الفكرية فى الامبراطورية الكارولنجية فى أواخر القرن

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 620-621.

(2) Pirenne : Mohammed and Charlemagne, p. 233.

(3) Foligno : Latin Thought, p. 68 & Taylor : Med. Mind Vol. 1 n. 214.

الثامن ، وبذل جهودا جبارة فى خدمة العلم والتعليم (١) . من ذلك أنه قام على تصحيح المخطوطات القديمة واهتم باصلاح نظم المدارس الدينية ونشر التعليم ورفع مستوى رجال الدين الثقافى . كذلك تولى الكوين رئاسة مدرسة القصر التى كان شارلمان نفسه أحد تلاميذها (٢) . وهكذا أضحت بلاط شارلمان مركزا ثقافيا علميا كبيرا ذاخرا بالمعلمين - مثل الكوين - والمؤرخين مثل اينهارت الذى وضع ترجمة معروفة لشارلمان ، والشعراء مثل ثيودلف (٣) . لذلك لا عجب اذا انتشر التعليم وارتفع مستواه بفضل جهود شارلمان ومساعديه ، فضلا عن العناية بالمكتبات ونسخ الكتب وتصحيحها ورعاية اللغة اللاتينية وأسلوبها ، مما أدى الى نهضة علمية شاملة تناولت كثيرا من ضروب العلم والمعرفة (٤) .

أما اصلاحات شارلمان فى ميادين التشريع والقضاء والادارة ، فكانت هى الأخرى على جانب كبير من الأهمية . من ذلك أن شارلمان استحدث كثيرا من التشريعات لاقرار النظام الادارى وتنظيم العدالة والمحاكم عن طريق تقبسية العنصر الشعبى فى دور القضاء . كذلك أمر شارلمان سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعى القومى لمختلف العناصر التى تألفت منها امبراطوريته (٥) . وقد قسم شارلمان امبراطوريته الواسعة الى أقسام ادارية يشرف على كل منها كونت يعتبر نائبا عن شارلمان نفسه فى منطقته ، ويتمتع تبعا لذلك باختصاصات وسلطات واسعة سواء فى النواحي المالية أو القضائية أو الادارية . فالكونت مسئول عن تسليم ما يجمعه من أموال الضرائب والمخالفات ، كذلك عن اعلان المراسيم والأوامر الملكية على الناس ، فضلا عن الاشراف على الأعمال العامة وجمع المجندين اللازمين للسلطة المركزية . وكان للكونت أن يختار مساعدين ونوابا

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 574.

(2) Syre, op. cit. p. 268.

(3) Kleinclausz : op. cit. pp. 197—202.

(٤) يمكن الوقوف على مظاهر النهضة الكارولنجية فى شىء من التفصيل بالرجوع الى كتاب « النهضة الأوروبية » للمؤلف .

(5) Egnihard : The Life of Charlemagne, p. 45.

(م ١٤ - أوربا فى العصور الوسطى)

يساعدونه في مهام منصبه بشرط موافقة شارلمان على هؤلاء المساعدين • وفي نهاية العام يذهب الكونتات من مختلف أنحاء الامبراطورية الى القصر الملكي في العاصمة (اكس لاشابل) حيث يقضون بضعة أسابيع في تسليم ما في عهدهم من أموال فضلا عن حضور المجلس العام لدولة الفرنجة (١) • أما هذا المجلس L'assemblée générale فكان بمثابة مجلس استشاري يتعقد وفق ارادة شارلمان ويتألف من مندوبين عن مختلف أنحاء الامبراطورية وشعوبها - لا الفرنجة فحسب - فضلا عن الأساقفة ورؤساء الأديرة والكونتات (٢) • ولما كان لا بد لحكام الأقسام الادارية الواقعة على الحدود من سلطات استثنائية لمواجهة الأخطار الخارجية الطارئة ، فان هذه الأقسام - التي أطلق عليها ماركيات - عين على كل منها حاكم يسمى ماركيز ويتمتع في وحدته بسلطة تفوق سلطة الكونت في كونتية (٣) • على أن أهم اصلاح اداري أدخله شارلمان كان زيادة نفوذ المبعوثين الملكيين Missi • وكان هؤلاء المبعوثين يوفدون من القصر ليحملوا تعليمات الملك وأوامره الى حكام الأقاليم ويفتشون على هؤلاء الحكام لضمان حسن سير الادارة (٤) • واعتاد شارلمان أن يرسل الى كل جهة اثنين من هؤلاء المبعوثين أحدهما من رجال الادارة والثاني من رجال الدين ليضمن انتظام الجهازين الاداري والكنسي في الدولة (٥) • كذلك حرص شارلمان على عدم تثبيت هؤلاء المبعوثين في دوائرهم وانما ينقلهم بين حين وآخر قبل أن يوطدوا علاقات مصلحية أو شخصية مع أهالي الأقاليم (٦) •

ولم يغفل شارلمان الناحية الاقتصادية في امبراطوريته فاهتم بالزراعة ونهض بها حتى أصبحت ضياعه بمثابة مزارع نموذجية تفيض بالخيرات ، كما شجع كبار الملاك في الامبراطورية على العناية بزراعة أراضيهم ومعاونة الحكومة

(1) Deanesly : op. cit. p. 403.

(2) Kleinclausz : op. cit. pp. 82—88.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 680.

(4) Lavisso : op. cit. Tome 2, Première partie, p. 319.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 2 pp. 682—683.

(6) Davis ; op. cit. pp. 155—157.

فى تقوية جسور الأنهار(١) • أما الصناعة فكانت مراكزها الأساسية فى الأديرة •
التي اشتهرت بانتاج خير المصنوعات المعدنية والجلدية والخشبية وغيرها •
على أن الصناعة لم تقتصر فى العصر الكارولنجى على الأديرة وإنما انتشرت
فى الضياع والقرى حيث بدأت تظهر بذور النقابات لتنظيم مصالح أفراد الحرفة
الواحدة وحمايتهم من المنافسة الخارجية(٢) • كذلك بدت جهود شارلمان
واضحة فى ميدان التجارة حيث اهتم بتنظيم التجارة الداخلية والخارجية
وتشجيعها • من ذلك أنه نظم الموازين والمقاييس والمكايل والعملية المتداولة ،
هذا فضلا عن عنايته بالطرق التجارية والمحافظة عليها وتأمينها ومنع المستغلين
من فرض رسوم باهظة على سالكيها أو عابري الجسور • وقد أقيمت الفنادق
والوكالات على امتداد الطرق الرئيسية لايواء التجار ودوابهم وحفظ
بضائعهم(٣) • على أن التجار فى ذلك العصر فضلوا دائما استخدام الطرق
النهرية والبحرية لسهولة وقلة تكاليفها ، فكانت التجارة الداخلية فى
الامبراطورية تعتمد على أنهار الراين والدانوب والسين والرون وفروعها ،
فى حين اعتمدت التجارة الخارجية على البحر المتوسط وبحر الشمال • وساعد
هذا النشاط التجارى الواسع على ظهور أهمية بعض المدن بحكم موقعها مثل
مينز التي كانت مركزا رئيسيا للتجارة بين ألمانيا وغاليا ، ومثل نيم Nimes
وماجلون وآرل وناربون التي كانت جميعها مراكز أساسية لتجارة الشرق(٤) •

شارلمان والكثيسة :

يبدو لنا من دراسة تاريخ الامبراطورية الكارولنجية أن الطابع الدينى كان
غالبا عليها • فالعامل الأساسى فى نجاح دولة الفرنجة دون غيرها من الدول
الجرمانية التي قامت فى غرب أوربا فى العصور الوسطى كان العامل الدينى ،

(1) Boissonnade; Life and Work in Med. Europe, p. 71.

(2) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie, p. 336.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 657.

(4) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie, pp. 338—340.

وهو العامل نفسه الذى أدى الى نجاح شارلمان فى اقامة امبراطوريته ، وفى المزج بين شعوب هذه الامبراطورية على أساس أنهم خاضعون جميعا لحاكم يتمتع برضاء الكنيسة ، بل يسيطر عليها وعلى رجالها .

ذلك أننا رأينا كيف كانت البابوية متلهفة دائما على محالفة الملوك الكارولنجهين لحمايتهم من نفوذ الامبراطورية البيزنطية من جهة ومن خطر اللمبارديين من جهة أخرى . واذا كان ملوك البيت الكارولنجهي لم يتقاعسوا عن مساندة البابوية ، فإن الأخيرة ردت اليهم الجميل بتتويج بيين القصير ملكا سنة ٧٥٣ ثم بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وهكذا قامت الامبراطورية الكارولنجية على أساس دينى سياسى ، فأخذ شارلمان يستغل مكانته بوصفه حامى البابوية فى فرض سيطرته على الكنيسة داخل امبراطوريته ، فهو الذى يعين الأساقفة ويدعو الى عقد المجامع الدينية بل يتولى رئاسة هذه المجامع ليبحث المشاكل المتعلقة بالعقيدة (١) ، كما أنه يشرع القوانين اللازمة للكنيسة ويحدد حقوق رجال الدين من كنسيين وديرين وواجباتهم (٢) . وبذلك أصبح شارلمان رأس الكنيسة والدولة جميعا ، ورئيسا للأساقفة والكونتات دون تمييز لأنه لم يفرق بين الكنيسة والدولة (٣) . حتى الموسيقى الدينية ، والمواظب التى يلقيها رجال الكنيسة فى مختلف المناسبات والأعياد لم تسلم من تدخل شارلمان وتعديله (٤) . وهكذا وجدت الكنيسة نفسها خاضعة خضوعا تاما لحكومة شارلمان كما صار رجالها بمثابة أتباع مخلصين له ، يخضعون لأوامره ونواهيهم خضوعا تاما (٥) . وقد حدث عندما حاولت البابوية أن تتحرر من قبضة شارلمان القوية أن أرسل شارلمان رسالة الى البابا ليو الثالث سنة ٧٩٦ ، يفهمه أن:

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 2 p. 616.

(2) Kleinclausz: op. cit. p. 225.

(3) Lavisse: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 316.

(4) The Monk of St. Gall; The Life of Charlemagne, p. 72.

(5) Fichtenna: The Carolingian Empire, pp. 132—133.

اختصاص البابوية لا ينبغي أن يتعدى الجانب الدينى بأى حال « وأن واجبك
أيها الأب المقدس هو أن تساعدنا برفع يديك الى السماء والدعاء لنا مثلما فعل
موسى (١) » .

وهكذا ظلت الأمور على وفاق بين الكنيسة والدولة طالما كان شارلمان يجمع
فى قبضته القوية بين زمام السلطتين الدينية والزمنية ، ولكن الموقف أخذ يتغير
بعد شارلمان ، عندما عجز خلفاؤه عن فرض سيطرتهم على الكنيسة ورجالها
مما آذن باصطدام السلطتين كما سنرى فيما بعد (٢) .

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية :

أشرنا فيما سبق الى تمسك الفرنجة بنظرتهم القديمة الى الملك على أنه ارث
يقسم بين أبناء الملك . وطبيعى أن يؤدي استمرار تطبيق هذا المبدأ الى تقسيم
الدولة ثم الى زوالها نتيجة لتقسيمها بين الأبناء ثم تقسيم كل قسم بين أبناء
الأبناء وهكذا . ومن الغريب أن شارلمان - وهو السياسى البعيد النظر -
لم يحاول الخروج على هذه القاعدة أو تعديلها ، فقسم امبراطوريته الواسعة
فى حياته بين أبنائه الثلاثة (٣) . على أن وفاة اثنين من هؤلاء الأبناء وبقاء
واحد - هو لويس التقى - أخر الى حد ما تقسيم الامبراطورية (٤) . وقد احتفل
شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ بتتويج ابنه لويس التقى الذى خلفه فى حكم
الامبراطورية ، والذى لم يلبث أن أعيد تتويجه بواسطة البابا ستفن الرابع
(الخامس) سنة ٨١٦ (٥) .

والواقع أن لويس التقى لم يكن بالشخص الذى يستطيع حكم امبراطورية

(1) Oliver Thatcher : A Source Book p. 107. &

سفر الخروج - اصحاح ١٧ - ١١

(2) Davis: op. cit. pp. 276—277.

(3) Deanesly, op. cit. p. 392.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 2, p. 624.

(5) Oman: The Dark Ages, p. 387.

شارلمان • ذلك أنه لم يمتلك من صفات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية أو الكفاية الإدارية ، أو حتى قوة الشخصية ما يضمن له سيطرة كافية على الجيش والادارة والكنيسة • هذا في الوقت الذي تزايد الخطر الخارجى بعد وفاة شارلمان سواء من ناحية السلاف والآفار على حدود الامبراطورية الشرقية ، أو من ناحية المسلمين على الحدود الجنوبية ، أو من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربية (١) • وزاد الطين بلة تمسك لويس التقى - وخلفائه من بعده - بسياسة تقسيم الملك بين الأبناء ، حتى أن لويس وضع مشروعا سنة ٨١٧ لتقسيم امبراطوريته الواسعة بين أبنائه الثلاثة لوثر وبيين ولويس ، ليضمن عدم قيام خلاف بينهم بعد وفاته (٢) • على أن لويس التقى تزوج بعد ذلك وأنجب ابنا جديدا اسمه شارل ، ومن ثم أراد إعادة توزيع المملكة توزيعا جديدا يضمن لهذا الابن الرابع حقوقه أسوة باخوته • ويبدو أن هذا التصرف لم يرض الاخوة الثلاثة الأوائل فقامت حرب أهلية عنيفة بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة ، وبينهم وبين أبيهم من جهة أخرى (٣) • وكان أن نوفى بيين ، ثم لحق به أبوه سنة ٨٤٠ فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين حتى تم الاتفاق فيما بينهم في اتفاقية فردون الشهيرة سنة ٨٤٣ على تقسيم الامبراطورية تقسيما يرضيهم جميعا (٤) • ذلك أن شارل الأصغر أخذ نستريا واكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية ، وأخذ لويس الألماني الجزء الواقع شرقى الراين من أوستراسيا فضلا عن بافاريا وسوابيا وسكسونيا ، في حين أخذ لوثر الجزء الأوسط بين المملكتين السابقتين ، أى فريزلاند (الأراضي المنخفضة) والجزء الباقى من أوستراسيا غربى الراين زيادة على برجنديا وبروفانس وإيطاليا • على أن أهمية اتفاقية فردون لا تقتصر على أنها وضعت نهاية لامبراطورية الفرنجة الموحدة فحسب ، بل لأنها توضح أيضا بداية مولد بعض الدول

(1) The Monk of St. Gall: The Life of Charlemagne, p. 130.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3 pp. 10—11.

(3) Lavissee : op. cit. Tome. 2 Première Partie, pp. 362—363.

(4) Oman; The Dark Ages; p. 409.

العظمى الحديثة (١) • ذلك أن التقسيم السابق قام - الى حد ما - على أساس لغوى ، فكان شارل الأصلح يحكم الجزء الغربى الذى تسوده اللغة الرومانية - المحرفة عن اللاتينية - ومن ثم سنستخدم من الآن لفظ فرنسا للإشارة الى هذا الجزء الغربى من الامبراطورية الفرنجية • وحكم لويس الألمانى الجزء الشرقى الذى تسوده اللغة الألمانية ، ومن ثم سنشير الى هذا الجزء بألمانيا • أما لوثر فكان يحكم منطقة انتقال بين اللغتين الألمانية والفرنسية ، وقد سميت بلاده لوثرنجيا - أى مملكة لوثر - ثم حرف الاسم الى اللورين ، وهى المنطقة التى ما زالت حتى اليوم تمثل حلقة الانتقال بين الفرنسية والألمانية (٢) •

ولم يلبث لوثر - صاحب المملكة الوسطى - أن توفى سنة ٨٥٥ ، وبذلك قسمت مملكته الى ثلاثة أقسام صغيرة بين أبنائه (٣) • وهكذا أخذت تتكاثر الأجزاء التى انقسمت اليها الامبراطورية الكارولنجية ، كما كثرت الحروب بين أبناء البيت الكارولنجى ، بحيث أنه لم يوجد من الأبناء الشرعيين لهذا البيت سنة ٨٨٤ سوى شارل البسيط فى فرنسا وشارل السمين فى ألمانيا • وعلى الرغم من أن الأخير استطاع أن يوحد بين ألمانيا وإيطاليا وفرنسا توحيداً اسمياً لمدة ثلاث سنوات ، إلا أنه عزل سنة ٨٨٧ ثم توفى فى العام التالى (٤) • أما فى فرنسا فان شارل البسيط كان طفلاً فى الثامنة من عمره ، مما سهل انتقال السلطة الفعلية الى أيدي أودو كونت باريس ، الذى استطاع أن ينتزع الملك ويؤسس أسرة جديدة هى أسرة كايه سنة ٨٨٨ (٥) •

وعلى هذا الوجه انهضت الامبراطورية الكارولنجية ، وان ظلت ذكرى شارلمان - مؤسس هذه الامبراطورية - باقية فى التاريخ لتخلد اسمه الى جانب

-
- (1) Eyre: op. cit. p. 99.
 - (2) Orton: op. cit. pp. 149—150.
 - (3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 34.
 - (4) Deanesly, op. cit. p. 560.
 - (5) Idem, p. 561.

قيصر والاسكندر وغيرهما من الشخصيات العظيمة التي استطاعت أن تكيف التاريخ الأوربي • وإذا كان المعاصرون في القرن التاسع قد رفضوا أن يشبهوا شارلمان بالاسكندر ورومولوس وهانيبال وغيرهم من أعلام العصر الوثني ، فإن البابوات وصفوه بأنه قنسطنطين الجديد ، كما رسمت صورته في قصر انجلهايم الى جوار قنسطنطين وثيودسيوس (١) •

(1) Kleinclausz, op. cit. pp. 355 — 556 & Fichtenau, op. cit. p. 83.

الباب الثامن

الفيكينج

نقصد بالفيكينج العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك ، والتي اتخذت اغاراتها على أوربا شكلا خطيرا في القرن التاسع • وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها - وأطلق عليها المعاصرون - اسم الفيكينج Vikings - بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوربا (١) •

وإذا كان الفيكينج يرجعون فى الناحية الجنسية الى الأصل التيتونى أو الجرمانى ، الا أننا نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التى أغارت على أوربا فى أواخر العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى • ذلك أن الفيكينج ظلوا برابرة خالصين محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعى والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون فى هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السابقة التى اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الامبراطورية بعدة قرون • ولم تحاول الامبراطورية الرومانية أو امبراطورية الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوروبى الجنوبى مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفيكينج هم الذين استكشفوا أوربا وليست أوربا هى التى كشفت عن الفيكينج (٢) •

ولم يختلف الفيكينج عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية فى نظمهم وعاداتهم وأسلوب حياتهم ، اللهم الا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات

(1) Mawer: The Vikings, p. 1.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 306.

والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهى لا تعدو فى معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض الصعبة . وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا فى بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة فى المحيط الأطلسى حتى أصبحوا أعظم الشعوب البحرية التى عرفتها أوروبا بالعصور الوسطى (١) . لذلك اتخذت اغارات الفيكنج شكلا بحريا أقرب الى القرصنة منه الى الزحف البرى الذى اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية قبل ذلك بأربعة قرون أو خمسة . كذلك عرف عن الفيكنج مهارتهم فى القتال وقوة تسليحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحرية طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

أما الأسباب التى دفعت الفيكنج الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس نفسية واقتصادية واجتماعية وسياسية . فمن الناحية النفسية أثبت التاريخ دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع فى البلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة فى الاغارة عليها لنهب ثروتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها . وهذا الشعور كان أحد العوامل التى حركت الجرمان نحو أراضى الامبراطورية الرومانية من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الكامنة خلف حركة الفيكنج فى القرن التاسع (٢) . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفيكنج كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا (٣) . لذلك اهرس الفيكنج عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالى مضايقتهم اقتصاديا ومن الناحية الاجتماعية

(1) Stephenson, op. cit. p. 201.

(2) Eyre: op. cit. p. 106.

(3) Le Pfister, Claubof op. cit. p. 465.

يقال ان أعداد الفيكنج تزايدت فى القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ سكندناوة ودانمرك ، مما دفعهم الى الهجرة الى أرض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة بغية الحصول على ما يمسك رمقهم ويسد حاجتهم (١) . هذا وان كانت لا توجد فى الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفيكنج فى القرن التاسع (٢) . وأخيرا يأتى العامل السياسى ممثلا فى نشأة الملكية بين الفيكنج وبخاصة فى النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع فى يدى هارولد الأشقر (Harold Fairhair) ، الأمر الذى جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى أوطان جديدة عن الخضوع فى ظل نظام لم يألفوه . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك شهدتا أيضا تطورات سياسية داخلية أدت بكثير من جموع الفيكنج الى الهجرة (٣) . وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية فى شمال غرب أوروبا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة فى سبيل توسع الفيكنج جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدي شارل مارتل سنة ٧٣٤ ثم شارلمان سنة ٧٨٥ ، أن زالت هذه العقبة من طريق الفيكنج وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم (٤) .

وإذا كنا فى حديثنا عن الفيكنج نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانين فاننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعنى وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وانما كل ما يقصد به هو الإشارة الى جماعات الفيكنج التى سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندناوة أو شبه جزيرة الدانمرك ،

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.
 - (2) Eyre: op. cit. p. 106.
 - (3) Mawer, op. cit. pp. 7—8.
 - (4) Eyre: op. cit. p. 106.

وبعبارة أخرى فإن العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك (١) .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافى فى توزيع غزوات الفيكنج ، فالسويديون الذين يواجهون شرق أوروبا عبروا البلطيق وملكوا الطرق الطبيعية التى هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرق أوروبا والبحر الأسود . أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انجلترا وأيرلند والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر الشمالية فى المحيط الأطلسى . هذا فى حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطئ الامبراطورية الكارولنجية فى ألمانيا وفرنسا ، فضلا عن انجلترا وأيرلند والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التى مرت بها علاقة الفيكنج بغرب أوروبا الى ثلاثة أدوار ، الأول دور الهجوم والثانى دور الاستقرار والثالث دور الدفاع . أما دور الهجوم فقد بدأ فى أواخر القرن الثامن - أى منذ سنة ٧٨٩ - عندما أخذ الفيكنج يهددون شواطئ انجلترا واسكتلندا وأيرلند . وفى ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفيكنج ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص بعد وفاة لويس التقي (٢) . وقد اتخذ نشاط الفيكنج فى ذلك الدور شكل

(1) Stephenson, op. cit. p. 200.

وقد جاء فى موسوعة تاريخ كامبردج أن المقصود بالفيكنج « جموع الشماليين والدانيين والسويديين » ومن هذا التعريف نفهم أن الشماليين هم النرويجيون وحدهم ، فى حين أن لفظ الفيكنج أكثر شمولاً لأنه يعنى جميع سكان سكندناوة والدانمرك فى القرن التاسع . والواقع ان معظم حوليات العصور الوسطى لم تحاول التفرقة بين الدانيين - سكان دانمرك - والنرويجيين ، وعبرت عنهم جميعا باسم الشماليين Nordmanni ، على أننا نجد هذه التفرقة واضحة بين الفئتين فى كتابات الأيرلنديين المعاصرة . أما الكتاب الذى دونوا حولية أنجلو سكسون فقد حرصوا على استخدام لفظ الشماليين Noromenn للدلالة على النرويجيين فقط ، وكذلك فعل ألفرد فى ترجمته لكتاب المؤرخ أوروذيوس .

(أنظر Mawer, op. cit. pp. 9—10.)

(2) Oman: The Dark Ages, p. 415.

غزوات صيفية فيخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو يعودون اليها في الخريف وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والأسلاب • على أن حركة توسع الفيكنج لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع ، عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعه الواقعة قرب شواطئ البلاد التي يغرون عليها أو عند مصبات أنهارها • وبعد أن كانوا في الدور الأول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور الثاني يغرون على بلاد غرب أوروبا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار في البلاد التي يغزونها • وهكذا أقيام الفيكنج مستعمرة قصيرة العمر في أيرلند سنة ٨٤٣ كما قضوا الشتاء لأول مرة في انجلترا سنة ٨٥١ (١) ، وكذلك أخذوا يستقرون حوالى ذلك الوقت في الجزء الغربى من فرنسا الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا (٢) • ولكنهم أخذوا يوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وكلما هجر الأهالى الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفيكنج • وأخيرا يأتى الدور الثالث فى أواخر القرن التاسع ، وهو الدور الذى امتاز بمقاومة أهالى البلاد وحكامها للفيكنج فى حين التزم هؤلاء الأخيرون جانب الدفاع • وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أودو حاكم باريس مما أدى الى فشل حصار الفيكنج لباريس (٨٨٥ - ٨٨٧) ، وقبل ذلك بقليل كان ألفرد ملك وسكس بانجلترا قد أنزل بالدانين هزيمة كبرى فى أدنجتون سنة ٨٧٨ (٣) • وفى سنة ٨٩١ استطاع أرنولف - أحد ملوك البيت الكارلونجى فى المملكة الوسطى - أن ينزل هزيمة بالفيكنج فى موقعة ديل Dyle فى برابانت Brabant (٤) •

(١) Hodgkin: The Hist. of England, p. 267.

(٢) Evre, op. cit. p. 107.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 315.

(٤) Evre: op. cit. pp. 109-110.

اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية :

بدأت اغارات الفيكنج على الامبراطورية الكارولنجية في حياة شارلمان الذي أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانين . ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاريين من وجه شارلمان تحت حماية الدانين (١) ، هذا في الوقت الذي أخذت بعض سفنهم تغير على اقليم أكتوين (٢) . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفيكنج على شواطئ الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهموا احدى القرى أو المراكز الساحلية . ويبدو أن هذه الاغارات أفرغت شارلمان فاعد أسطولا قويا في موانئ نستريا لحماية شواطئ امبراطوريته من هجمات الفيكنج ، ومع ذلك فقد استمر جودفريد ملك الدانين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان في جنوب البحر البلطى وشواطئ فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم سنتى ٨٠٤ ، ٨٠٩ كوسيلة لدفع شرهم (٣) . ثم حدث في عهد لويس التقى - خليفة شارلمان - أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التى قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وأنزلوا قوات ضخمة على شاطئ فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا أوترخت مركز رئيس أساقفة فريزيا ، ودورشتد Duurstede أكبر موانئ الاقليم . وفي العام التالى أغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ الى مهاجمة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا الى نموجن Nimuegen ولكنهم لم يلبثوا أن لاذوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس التقى على رأس جيوشه (٤) . ويبدو أن لويس التقى حاول شراء مسالة الدانين بالهدايا والمال ، كما منحهم المنطقة المحيطة بدورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحولوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب الفيكنج ، وان كانت هذه الاحراءات وأشباهاها لم تؤد في

(1) Lot, Pfister, Ganshof: op. cit. pp. 465—466.

(2) Mawer: op. cit. p. 17.

(3) Davis: op. cit. pp. 296—297.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 400.

الواقع الا الى زيادة مطامعهم في اراضي الامبراطورية (١) .

ويلاحظ أن أنهار فرنسا الغربية مثل السين واللوار والجارون كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفيكنج السيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا في نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدراثيتها ، ودخلوا في الجارون حتى تولوز ، في حين أوصلهم السوم الى اميان ، والسين الى باريس . وقد ساعد الفيكنج على التوغل في الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التي أمست فيها هذه الامبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب أهلية بين الأمراء والحكام (٢) . ومهما يكن من أمر فإن اغارات الفيكنج أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس التقي سنة ٨٤٠ ، اذ أوغلوا في نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان . وربما شجع الفيكنج في سياستهم الهجومية عندئذ ما لجأ اليه لوثر بالذات من تحريض لهم على مهاجمة اراضي منافسيه ، وذلك أثناء النزاع الذي قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس التقي (٣) . وهكذا أوغل الفيكنج في اللوار قيل عقد اتفاقية فردون مباشرة وأحرقوا ميناء نانت (٤) . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفيكنج حدة وغنفا عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ ، حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للأخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية . وكان لويس الألماني أوفر اخوته حظا لأن قائل السكسون القائمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمي هذه الدولة من خطر الفيكنج . ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألماني حرق مدينة هامبرج سنة ٨٤٥ ففر أسقفها الى برمن (٥) ، كما أن قوة كبيرة من الفيكنج أوغلت في نهر الالب سنة ٨٥١ وهزمت أمراء السكسون ، ثم عادت ظافرة الى الدانمرك بعد أن نهبت جزءا كبيرا من سكسونيا .

-
- (1) Mawer: op. cit. pp. 18—19.
 - (2) Thompson: op. cit. vol I p. 312.
 - (3) Cam. Med. Hist. vol. 3 p. 315.
 - (4) Oman: The Dark Ages, p. 418.
 - (5) Mawer: op. cit. p. 20.

أما الأخ الثانى لوثر فكانت خسارته فادحة ، اذ أخذ الفيكنج يغيرون على شواطئ فيريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشرن عند مصب الراين لزعيم الدانين المسمى روريك Rorik ليسترضيه ويتفادى شره . ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما أصبحت شواطئ فيريزيا (الأراضي المنخفضة) قلاعاً للفيكنج ، استغلوها فى التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر فى قصره بمدينة آخن (اكس لا شابل) لا يأمن على نفسه من خطرهم .

وأما الأخ الثالث - وهو شارل الأصغر - فكان أسوأ الثلاثة حظاً ، لأن مملكته امتازت بشاطئ طويل مكشوف ، وعدد كبير من الأنهار التى ساعدت الفيكنج على التوغل داخل البلاد . وقد استغل الفيكنج فرصة انشغال شارل فى حرب أهلية مع ابن أخيه بين أمير أكوئين ، وجددوا هجماتهم على الأجزاء الشمالية من مملكته . وكان أن تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة فى نستريا ، بعد أن استولوا على دير نوار موتيه ، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الأجزاء الجنوبية من فرنسا (١) . ولم يلبث أن ساعد النزاع بين بين وعمه شارل على ازدياد نفوذ الفيكنج ، اذ استعان بهم الأول وساعدهم على التوغل فى حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز . وفى ذلك الوقت كان الفيكنج قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد ، فأغاروا على مدنة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا فى وجههم فحصن نفسه فى مرتفعات مونتمارتر Montemartre ، وفى دير سانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها الفيكنج وينهبوها .

ولم تقف اغارات الفيكنج على فرنسا عند هذا الحد ، بل انهم أغاروا على بورددو - كبرى مدن الجنوب - ونهبوها سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماماً بعد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 316.

(2) Mawer: op. cit. pp. 20—21.

(م ١٥ - أوروبا فى المصور الوسطى)

قليل فظلت بأيديهم عدة سنوات • ومن الواضح أن استيلاء الفيكنج على مثل هذه المدن الضخمة كان يعود عليهم بأرباح طائلة وغنائم وفيرة ، أغرتهم على مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد أكبر حتى وصلت مملكة شارل الأصلع الى درجة يرمى لها من الخراب والانحلال • وقد حدث عندما تجددت هجمات الفيكنج على حوض السين سنة ٨٥٢ ، أن أتى لوثر على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل. الأصلع ، ولكن الأخير لم يلبث أن عقد صلحا مع زعيم الدانين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، وأجاز له الاستقرار في منطقة قرب مصب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى بلاده (١) • ولم تلبث أن تجددت الحروب الأهلية بين لويس الألماني وأخيه شارل الأصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة طيبة للدانين الذين أوغلوا في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بأنجرز وبلوا ، وبذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ - ٨٥٤) (٢) •

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفيكنج أنهم لجئوا الى شراء مسالتهم بالمال • من ذلك ما فعله شارل الأصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند أحد زعماء الفيكنج تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الأخير باخلاء نستريرا من الغزاة • ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفيكنج فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والأديرة والنبل والتجار بل فقراء الفلاحين (٣) • وهكذا جاءت هذه الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الأثقال التي كان يتحملها أهالى دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم (٤)

(1) Lavissee: op. cit. Tome 2, Première Partie; p. 379.

(2) Oman: The Dark Ages p. 422.

(3) Mawer: op. cit. p. 45.

(4) Thompson: op. cit. vol. I p. 313.

والواقع أن الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ ، ٨٨٧ تعتبر أحلك عصور التاريخ الغربي . ففي سنة ٨٥٥ توفي لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب أهلية جديدة بين أبنائه وأخوته حول اقسام مملكته . وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفيكنج ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الأصغر الى اصدار مرسوم بيشتر Pistres سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات في مجارى الأنهار لتعوق تقدم سفن الفيكنج من جهة أخرى .

على أن وفاة لويس الألماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الأصغر سنة ٨٧٧ زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، بل من ضعفها وعجزها عن مقاومة أخطار الفيكنج (١) . ففي سنة ٨٧٩ دخلت جموعهم نهر الشلند وأقاموا معسكراتهم عند غنت ليجتاحوا وادي السوم بأكمله بما فيه من مدن وأديرة مهمة مثل كوربي وسانت روكوير وغيرهما . كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز لنفس المصير ، اذ هيات أنهار الراين والميز والشلند وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفيكنج حتى وصلوا آخن وهددوا كولونيا . حقيقة ان لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن يحرز نصرا على الفيكنج في موقعة سوكورت Saucourt سنة ٨٨١ ، حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، ولكن هذا النصر لم يكن كافيا للقضاء على خطرهم (٢) .

وفي سنة ٨٨٢ لجأ شارل السمين الى مصالحة جودفريد أحد زعماء الفيكنج ف عقد معه معاهدة السلو Elslou التي وافق فيها شارل على منح الفيكنج مبلغا ضخما من العملة الفضية ، فضلا عن اقليم فريزيا ليكون دوقية لجودفريد الذي تزوج جزلا ابنة الملك شارل . وفي مقابل كل ذلك ينسحب جودفريد من مملكة شارل السمين ويتعهد باعتناق المسيحية وبأن يظل تابعا للملك شارل

ولكن هؤلاء الفيكنج الذين غادروا ألمانيا وفقا لمعاهدة السلو اتجهوا نحو

(1) Lavissee: op. cit. Tome. 2, Première Partie, pp: 389—390.

(2) Carr. Med. Hist. Vol. 3 p. 321.

نستريا ، وهو أمر لم يهتم له شارل السمين فى قليل أو كثير ما داموا سيجلون عن مملكته . لذلك كان شتاء سنة ٨٨٢ - ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة من ريمس حتى أميان جموع ضخمة من الفيكنج . وهنا لم يحاول الملك كارلومان (٨٧٩ - ٨٨٤) أن يخذل حذو سلفة لويس الثالث ، وانما فضل ان يقتفى سياسة شارل السمين فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة لكي يتركوا بلاده وينقلوا ميدان نشاطهم الى أوستراسيا وانجلترا وأيرلند . وقد اتاحت لشارل السمين - بعد موت كارلومان ملك فرنسا - فرصة توحيد معظم أجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظيما بين شخصيتي شارل السمين وشارل العظيم (١) . ولذلك امتازت السنوات الثلاث التى وحد فيها شارل السمين الامبراطورية (٨٨٤ - ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التى كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية .

وسرعان ما أثبتت الحوادث أن الاتفاقات التى عقدها ملوك الغرب مع الفيكنج لا قيمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا يملكون القوة التى يجبرون بها أعداءهم على احترام كلمتهم . لذلك لم يلبث أن عاد الفيكنج ، الى تهديد ألمانيا وفرنسا ، حتى اشتدت اغاراتهم بصفة خاصة فى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع ، فدمروا فلاندرز ، كما تعرض وادى البحارون. الجنوبى الغربى من فرنسا لغارات أخرى خطيرة . ذلك أن الفيكنج استولوا على بوردو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان أساطيلهم دارت حول شبه جزيرة أيبيريا وأغارت على الموانئ المسيحية والاسلامية فى اسبانيا ، كما هددت الجزء الغربى من حوض البحر المتوسط وتسلمت فى الرون حتى نهبت نيم وأفينون (٢) . واذا كانت بعض المدن المسورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفيكنج ، فان الأديرة والكنايس لم يكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به أولئك المغيرون الوثنيون . لذلك شدد الفيكنج هجماتهم على الأديرة

(1) Lavissee: op. cit. Tome 2, première partie, p. 393.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 316.

والكنائس بعد أن خبروها فوجدوها مخبأ الثروات والكنوز ، الأمر الذى نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية فى ذلك العصر . ولما كانت الأديرة حينذاك هى المراكز الأساسية للنشاط التعليمى والحضارى فى أوروبا العصور الوسطى فإن الخسارة التى لحقت الحضارة الأوروبية بتدمير الأديرة وفرار أهلها أو قتلهم كانت أعظم من أن تقدر (١) .

على أن حوض السين ظل الهدف الأساسى لهجوم الفيكنج فى أواخر القرن التاسع . وقد تعرضت باريس فى أواخر سنة ٨٨٥ لهجوم كبير قام به أربعون ألفا منهم جاءوا فى سبعمائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدرين على شئون الغزو (٢) . وكان أن استطاعت باريس الصمود عدة أشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت أدو حاكمها ، حتى وصل أخيرا (سبتمبر ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة أخرى ويعقد صلحا مئينا مع الفيكنج تعد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس ، كما سمح لهم بالاقامة فى برجنديا (٣) . على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع الى ظهور شخصية كونت أدو على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا الى ظهور أهمية باريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أودو ملكا على فرنسا فى فبراير سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين فى العام السابق (٤) . ولم يلبث أن أحرز أودو انتصارا جديدا على الفيكنج بعد تتويجه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم (٥) . ولكن الفيكنج لم يتركوه يهنأ بالاستقرار ، اذ عادوا بعد قليل الى محاصرة باريس للمرة الرابعة . وعلى الرغم من أن المدينة استطاعت الصمود مرة أخرى ومقاومة الحصار لعدة أشهر ، الا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أودو الكونت ، اذ اقتفى هو

(1) Haskins; The Normans in European History, p. 35.

(2) Mawer: op. cit. p. 49.

(3) Lavissee: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 394.

(4) Idem: p. 399.

(5) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 62.

الآخر سنة شارل السمين واشترى مسالة الفيكنج بالمال ، وعندئذ انسحبوا الى
بريتاني . ولم يلبث أن عاد الفيكنج - كما هي عاداتهم - الى تهديد أواسط
فرنسا ، وعندئذ أنزل أودو بهم هزيمة ساحقة عند موتينسيه Montpensier
وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ .

وهكذا أخذ نبلاء فرنسا يشعرون بتناقض خطر الفيكنج ، الأمر الذي
دفعهم الى التآمر ضد ملكهم أودو ، فنظروا اليه على أنه أحدهم وأرسلوا
يستدعون شارل البسيط - وريث البيت الكارولنجي - من انجلترا ، ومن ثم
بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أودو وشارل
البسيط ، ولم تنته الا سنة ٨٩٨ بوفاة أودو (١) . وقد استمر شارل البسيط
يحكم الجزء الغربى من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ ،
وأظهر فى هذه المدة همة كبيرة فى محاربة الفيكنج على الرغم من صغر
سنه . ولم تكن اغارات الفيكنج قد انقطعت حينئذ ، بل على العكس انتهزوا
فرصة الحروب الأهلية بين أودو وشارل البسيط وعادوا الى نستريا ليجتاحوها
من جديد . وهنا نلاحظ أن اغارات الفيكنج امتازت - فى هذه المرحلة -
بمقاومة الأهالى لها من جهة ، وبقلة الغنائم التى أصبح الفيكنج يحصلون عليها
من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والأديرة أنفسهم بأسوار منيعة .

وعندما فشل الفيكنج فى تثبيت أقدامهم فى برجنديا نتيجة لمقاومة البرجنديين
أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذى نسب اليهم فيما بعد - نورمنديا .
وتشير الوثائق المعاصرة الى أن رولو Rollo الذى أصبح فيما بعد دوق
نورمنديا أخذ يهاجم بايو فيما بين عامى ٨٩٠ ، ٨٩٢ . ويبدو أن الفيكنج
اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ، ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد
شاطئ هذا الجزء الغربى من فرنسا بين السوم وبريتاني . وعلى الرغم من
أنهم فشلوا فى الاستيلاء على شارتر سنة ٩١٢ (٢) ، الا أن شارل البسيط

(1) Idem: pp. 65—68.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1. p. 318.

اختار أن يسلك معهم نفس الأسلوب الذي اتبعه ألفرد ملك وسكسن قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ فعرض على زعيمهم رولو اقليما واسعا يستقر فيه مع أتباعه (١) . وكان أن تمت المقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفيكنج الاقليم الساحلى الممتد من السوم حتى بريتانى ، وهى المنطقة التى نسبت الى الشماليين (أو النورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورمنديا (٢) .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالأمر الواقع ، لأن هذه المنطقة صار معظمها بأيدي الفيكنج فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ ، والذين لم تنقطع اغارتهم عنها الا حوالى سنة ٩٦٦ أى بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن (٣) . ومهما يكن الأمر فان الفيكنج أصبحوا يحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورمنديا حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا . ومن الواضح أن الدافع الأساسى الذى شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقاء نورمنديا للفيكنج لقمة سائغة هو رغبته فى ايجاد خصم قوى يقف فى وجه كونت بازييس . وزاد من أهمية الأمر أن رولو دوق نورمنديا سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، كما أثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التى أجراها شارل البسيط ، اذ تزحمت معظم جماعات الفيكنج المتناثرة فى فرنسا ليعيشوا تحت حكم رولو فى نورمنديا ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد (٤) . والمعروف عن الفيكنج أنهم كانوا - أينما حلوا - يظهرون مرونة سريعة فى تقبل حضارة وعادات وأوضاع أهالى البلاد الأصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمان على غزو الفيكنج لاقليم نورمنديا حتى تأقلم النورمان وأصبحوا فرنسيين فى لغتهم ونظمهم وثقافتهم ، وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسة

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 322.

(2) Mawer; op. cit. p. 52.

(3) Haskins: The Normans in European Hist. p. 27.

(4) Fliche; L'Europe Occidentale, pp. 72—77.

والعنف التي اتصف بها أسلافهم الأوائل ، مما جعلهم يقومون بدور هام في حكومات فرنسا وانجلترا وإيطاليا وصقلية ، وهي الجهات التي غزاها النورمان فيما بعد (١) .

اغارات الفايكنج على انجلترا :

كانت انجلترا من أولى بلاد غرب أوروبا التي تعرضت لآغارات الفايكنج ، إذ شهدت هذه البلاد غارة قامت بها بعض سفنهم التي رست قرب دورشستر Dorchester سنة ٧٨٧ على عهد الملك بيوهترريك Beorhtric ملك وسكس (٧٨٦ - ٨٠٢) كما نهبت أسقفية لندسفرين Lindisfrane قرب الشاطئ الشمالي الشرقي لانجلترا سنة ٧٩٣ (٢) . وبعد أن أغار الفايكنج على دير القديس بولس في جارو Jarrow على الساحل الشرقي سنة ٧٩٤ لم نسمع عن آغارات أخرى قاموا بها على انجلترا حتى سنة ٨٣٥ . ويبدو أنهم في الفترة الواقعة بين سنتي ٧٩٤ ، ٨٣٥ وجهوا الجزء الأكبر من نشاطهم نحو أيرلند كما سيلى بعد قليل .

وقد أطلق أهل انجلترا من السكسون اسم « الدانيين » Danes على جماعات الفايكنج التي أخذت تهاجم بلادهم منذ أواخر القرن الثامن (٣) ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون نفس الجرعة التي سبق أن سقوها لأهالي بريطانيا - من البراطنة والرومان - في القرنين الخامس والسادس . ومهما يكن من أمر فإنه على الرغم من قسوة آغارات الفايكنج على انجلترا ، وما لقيته البلاد على أيديهم من تخريب وفوضى ، إلا أنه من الثابت أن الفائدة التي حصلت عليها انجلترا من وراء هذه الآغارات فاقت الخسارة التي لحقت

(١) Lavissee: op. cit. Tome, 2, Première Partie, p. 402.

(٢) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 257—258.

(٣) هذا على الرغم من أن آغارات الفايكنج في هذا الدور الأول على انجلترا قام بها فعلا النرويجيون أو الشماليون من سكان النرويج لا الدانيون من سكان الدانمرك ، وهم الذين لم تبدأ هجماتهم بصفة جدية على انجلترا وأيرلندة إلا قرب منتصف القرن التاسع . انظر .

Mawer; op. cit. p. 14.

بها ، ويكفى أنها أدت الى تكتل انجلترا الأنجلوسكسونية فى هيئة مملكة واحدة (١) .

أما اشارات الفيكنج على انجلترا منذ سنة ٨٣٥ فقد بدأت فى الجنوب والغرب ثم لم تلبث أن أخذت تمتد شرقا (٢) . ويبدو أن وسكس تلقت الجزء الأكبر من ضربات الفيكنج فى هذا الدور ، إذ أغاروا على سوثامبتون Southampton سنة ٨٤٠ وبورتلاند فى نفس الوقت ، وشارموث Sharmouth سنة ٨٤٣ ، ومصب نهر باريت Parict سنة ٨٤٨ ، ثم ومبورى Wembury سنة ٨٥٤ . وليس معنى ذلك أن بقية أجزاء البلاد نجت من خطر الفيكنج ، فقد اجتاحوا لندسى Lindsey وانجليا الشرقية وكنت سنة ٨٤١ . وفى سنة ٨٤٤ لقي ردوولف Redwulf ملك نورثمبريا مصرعه على أيديهم (٣) .

ولم تلبث أن دخلت نهر التيزر سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانين الذى استولوا على كانتربورى ولندن ، ثم عبروا التيزر حيث أنزل بهم اثلوولف Ethelwulf ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند أوكلى Ockley وذبح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من أثره أن الدانين قضوا الشتاء الأول مرة سنة ٨٥١ فى انجلترا عند ثانت Thanet ، وبذلك أخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة الى دور الاستقرار (٤) .

ثم كان أن لجأ شارل الأصلى الى تخليص أراضي نهر السين من جموع الدانين عن طريق شراء جلائهم بالمال سنة ٨٦٦ ، وعندئذ لجأت هذه الجموع الى انجلترا حيث أغارت فى العام التالى (٨٦٧) على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حـسـول نورثمبريا (٥) . على أن انتهاء أمر هذا النزاع لم يؤد الى اضعاف الدانين

(1) Hodgkin: The History of England, p. 262.

(2) Mawer: op. cit. p. 14.

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 266—267.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 312.

(5) Mawer: op. cit. p. 24.

أو طردهم ، بل ان مرسيا Mercia دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ (١) .
كما عبروا مرسيا الى انجليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث أنزلوا هزيمة بملكها
ادموند وقتلوه ، ومن ثم اعتبر هذا الملك قديسا وشهيدا في نظر العصور
التالية (٣) .

والواقع أنه لم ينقذ بقية انجلترا من خطر الدانين وتوسعهم سوى جهود
الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ - ٨٩٩) ، حتى أن سنة ارتقائه العرش
صارت ذات أهمية بالغة في تاريخ انجلترا (٣) . ذلك أن ألفرد العظيم
أبلى بلاءا حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانين حتى أنه اشتبك معهم في
تسعة مواقع حربية أثناء السنة الأولى من حكمه ، الأمر الذي جعل الدانين
يقنعون بعقد الهدنة ويولون أبصارهم شطر مرسيا . على أن الصراع سرعان
ما تجدد بين ألفرد والدانين سنة ٨٧٥ ، وعندئذ واجه ألفرد كثيرا من
الصعاب في هذا الدور ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها جميعا وأنزل بالدانين
هزيمة ساحقة عند ادنجتون Eddington سنة ٨٧٨ . وكان أن طلب
الدانيون الصلح ، فتم عقد صلح ودمور Wedmore سنة ٨٧٨
على أساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد
به ملكهم من اعتناق المسيحية (٤) . ولكن ملك الدانين في انجلترا لم يلبث
أن خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الأمر الذي جعل ألفرد يحاربهم مرة
أخرى حتى انتهى الأمر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ حددت بمقتضاه الحدود
الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب التيمز حتى شستر ، بمعنى أن
لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد ، في حين التزم
الدانون الأراضي الواقعة شمالي هذا الخط وهي التي سميت مسموح الدانين
(Danelaw) (٥) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 318.

(2) Mawer: op. cit. p. 25.

(3) Hodgkin: The Hist. of England; p. 278.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 319.

(5) Hodgkin: The Hist. of England, p. 287.

وقد تمتعت انجلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاها ألفرد في إعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، في حين وجه الفيكنج جهودهم الى القارة . وفي ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقي الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفيكنج ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالتهم بالمال ، فاختاروا أرنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ . ولم يلبث أرنولف هذا أن أحرز نصرا على الفيكنج قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الأمر الذي جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة أخرى الى انجلترا (١) . وهكذا تعرضت انجلترا في خريف سنة ٨٩٢ لهجوم أسطولين من أساطيل الدانين أحدهما أرسى عند ليمن Limen (في الجنوب الشرقي جنوبي دوفر) في حين أرسى الأسطول الثاني عند ملتون Milton في الجزء الشمالي من كنت . وسرعان ما أبدى الدانيون نشاطا كبيرا في مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم في قوة وعزيمة وأجبرهم على الانسحاب . وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات أخرى خارجية قام بها الدانيون على انجلترا بقية عهد ألفرد ، وان ظل الدانيون المقيمون في أنجليا الشرقية ونور تمبريا يقومون بكثير من أعمال القرصنة ، الأمر الذي دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بقاء أسطول قوى استغله في دفع خطر الدانين وانزال عدة ضربات بهم (٢) . وعندما توفي ألفرد سنة ٨٩٩ أخذ خلفاؤه يغزون أراضي الدانين تدريجيا حتى انتهى الأمر سنة ٩٥٤ بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي أصبح يستحق لقب ملك انجلترا في التاريخ . على أن ملوك انجلترا في الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة أخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفيكنج . وفي هذه المرة لم يأت الدانيون الى انجلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جاءوا في صورة أمة مترابطة ، حتى أصبح كانوت Canute بن ملك الدانمرك والنرويج ملكا على انجلترا (١٠١٦ - ١٠٣٥) . ولم يستطع أصحاب الحق الشرعي في عرش انجلترا من البيت السكسوني استرداد عرشهم الا سنة

(1) Idem: pp. 306—307.

(2) Cam. Med. Hist. Vol, 3 p. 325.

١٠٤٢ ، عندما تولى ادوارد الثالث (١٠٤٢ - ١٠٦٦) الذى عرف بنزعة الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » فى التاريخ • وقد فضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا فى بلاط قريبه دوق نورمنديا مما جعله يتأثر الى حد كبير بالآراء والاتجاهات النورمندية (١) • ومهما يكن من أمر فان وليم دوق نورمنديا ادعى أنه صاحب الحق الشرعى فى بلاط انجلترا عند وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ ، بحكم القرابة بين الطرفين من جهة ، وبسبب أن ادوارد نفسه وعد وليم بأن يرثه فى حكم انجلترا من جهة أخرى • وهنا نلاحظ أن البابوية ساندت وليم النورمندى فى أطماعه بسبب غضب البابا من السكسون ، الذين طردوا رئيس أساقفة كانتربورى النورمندى على الرغم من أنه كان يحمل تفويضا من البابوية (٢) •

وهكذا استطاع وليم النورمندى أن ينزل قواته على الشاطئ الجنوبى الشرقى لانجلترا ، متغلبا على الصعوبات التى اعترضته ، فأوقع الهزيمة بهارولد ملك انجلترا السكسونى الجديد - فى موقعة هاستنجس ١٠٦٦ (٣) وبذلك نجح وليم فى فتح انجلترا مما أكسبه لقب الفاتح فى التاريخ ، كما استطاع توحيد نورمنديا وانجلترا تحت حكمه •

غزوات الفيكنج لأيرلندا :

أما أيرلندا فقد قاست أكثر من غيرها فى المرحلة الأولى من مراحل اغارات الفيكنج ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، فى الوقت الذى كانت مدن الجزيرة وأديرتها مكشوفة دون أسوار حجرية تحميها وتدفع عنها شر المغيرين • وهكذا أخذ النرويجيون يواصلون اغاراتهم على أيرلندا فى أواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار فى الجزيرة فى أوائل القرن التاسع (٤) •

(1) Ibid.

(2) Idem, Vol. 5 p. 497.

(3) Hodgkin: The Hist. of England, pp. 488—491.

(4) Oman: The Dark Ages, p. 417.

واذا كانت أيرلند قد تعرضت لاغارات الفيكنج فى الوقت نفسه الذى واجهت انجلترا - هى الأخرى - غزواتهم ، إلا أن مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر • ذلك أن الفيكنج داروا حول الشاطئ الغربى لاسكتلند وغزوا جزيرة سكاي Skye قرب الشاطئ سنة ٧٩٥ ، كما هاجموا جزيرة مان Man - بين أيرلند وانجلترا - سنة ٧٩٨ • أما جزيرة أيونا قرب شاطئ سكتلند الغربى فقد نهبوا سنة ٨٠٣ ثم سنة ٨٠٦ (١) وفى سنة ٨٠٧ ظهر الفيكنج قرب شواطئ أيرلند الشمالية الغربية عند سليجو Sligo ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا روسكومون Roscommon فى أواسط البلاد • وفى سنة ٨١١ هاجموا منستر Munster فى جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث Howth - بجوار دبلن - وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١ (٢) •

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع أن أساطيل الفيكنج أحاطت بأيرلند إحاطة تامة فى الربع الأول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفيكنج قد أوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم • وعندئذ لم يعد الفيكنج يكتفون بالغارات الفردية ، وإنما أخذوا يهاجمون الجزيرة بأساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانئها العديدة مراكز ينفذون منها إلى الداخل (٣) •

ويبدو أن المقاومة العنيفة التى أبدتها القبائل الأيرلندية حالت دون استيلاء الفيكنج على الجزيرة كلها ، فقموا بإقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها • وقد حصن الفيكنج هذه المراكز وأقاموا فيها القلاع ، ومن هذا الطريق ظهرت أهمية دبلن وليميرك Limerick وكورك ووتر فورد Waterford ووكتسفورد (٤) • أما المناطق الداخلية فقد اكتفى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 311.

(2) Mawer; op. cit. p. 12.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317

(4) Mawer; op. cit. p. 13.

الفينكنج بنهبها ولا سيما الأديرة التي تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرين من رهبانها يؤثرون الفرار الى أديرة فرنسا وفلاندرز وألمانيا .

ومن زعماء الفينكنج فى هذا العصر تورجس Turges الذى ظهر اسمه لأول مرة عند هجومهم على أرماغ سنة ٧٣٢ . وقد بلغت قوة تورجس هذا ذروتها سنة ٨٤١ عندما نفى مقدم دير أرماغ وأصبحت له السيطرة التامة على الجزء الشمالى من أيرلند ، حتى وقع فى قبضة الأيرلنديين بعد ذلك بثلاث سنوات . ومهما يكن من أمر فان تورجس هذا لم يكن الا واحدا من عدد كبير من زعماء الفينكنج الذين غزوا أيرلند فى هذه الحقبة والذين تردد أسماؤهم بكثرة فى الحوليات المعاصرة (١) .

وهنا نكرر القول بأن الاغارات الأولى التى تعرضت لها انجلترا وأيرلند جميعا من جانب الفينكنج فى هذا الدور الأول - أى حتى قرب منتصف القرن التاسع - قامت بها عناصر من الشماليين أى النرويجيين ، لا من الدانين (٢) . وتحدد الحوليات المعاصرة أول اغارة للدانين على أيرلند بسنة ٨٤٩ ، ومنذ ذلك الوقت أخذت اغاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا فى صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة . من ذلك أن الدانين اشتبكوا مع النرويجيين فى معركة كبيرة وقتلوا منهم كثيرين ، كما نهبوا قواعد النرويجيين فى دبلن ودوندالك Dundalk سنة ٨٥١ . وهكذا اشتد النزاع فى أيرلند بين الدانين والنرويجيين الشماليين فى الوقت الذى تدخل الأيرلنديون ليحموا أنفسهم من خطر الفريقين ، مما أوقع الجزيرة فى حالة شاملة من الفوضى . وزاد من حدة هذه الفوضى وصول أولاف Olaf - ابن ملك النرويج - الى أيرلند سنة ٨٥٣ لخضع الدانين فى الجزيرة (٣) .

وقد أصبحت دبلن تحت حكم أولاف مركزا قويا لحكم النرويجيين

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

(2) Mawer: op. cit. p. 14.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317.

المشاليين في أيرلند ، كما أخذ الرزاق يسوء العلاقات بين النرويجيين والدانيين في الجزيرة • أما الأيرلنديون أنفسهم فقد لاقوا كثيرا من المتاعب ولكنهم مع ذلك لم يستسلموا ، وظهر بينهم زعماء تولوا قيادتهم ضد أعدائهم • ولم يقتصر نشاط أولاف في هذه الفترة على أيرلند ، وإنما امتد خارجها فذهب الى سكتلند سنة ٨٦٦ ، كما أسهم بنفسه في حصار دمبرتون Dumbarton على شاطئ سكتلندا الغربي سنة ٨٧٠ • وعندما عاد أولاف الى النرويج حوالي سنة ٨٧٣ بدأ الدانيون يتجهزون الفرصة للقضاء على سيطرة النرويجيين في أيرلند ، مما فتح باب النزاع والحرب بين الطرفين من جديد (١) • على أننا نستطيع القول بأن الغلبة في أيرلند ظلت بوجه عام للنرويجيين المشاليين ، وأن الدانيين لم ينجحوا في بسط سيطرتهم على الجزيرة (٢) •

ثم كان أن ساد السلام في أيرلند لفترة امتدت نحو أربعين سنة بدأت سنة ٨٧٧ • ويبدو أن الفيكنج شغلوا في هذه الفترة بميادين أخرى استأثرت بالجزء الأكبر من نشاطهم ، وبخاصة انجلترا وامبراطورية الفرنجة • ولم تلبث أن سقطت دبلن نفسها في أيدي الأيرلنديين سنة ٩٠٢ • على أن النرويجيين سرعان ما استعادوها سنة ٩١٦ ، وعثا حاول الأيرلنديون استعادة مركزهم حتى حلت بهم الهزيمة سنة ٩١٩ ، وهكذا أضحت أيرلند طوال الخمسين سنة التالية فريسة سهلة لاغارات المشاليين والدانيين على السواء • وإذا كان المشاليون اتخذوا دبلن مركزا أساسيا لهم ، فإن الدانيين اتخذوا كورك Cork في جنوب الجزيرة قاعدة لهم وأغاروا منها على الجهات المجاورة حتى اجتاحتها إقليم منستر بأجمعه (٣) •

وفي تلك الأثناء استمر الأيرلنديون يقاومون أعدائهم في عزيمة لا تعرف الملل حتى أغاروا على دبلن ودمروها أكثر من مرة • وفي سنة ٩٨٠ نزلت أولى الضربات الكبرى بالمشاليين عندما حلت بهم الهزيمة في تارا Tara واضطروا الى إطلاق سراح جميع ما لديهم من رهائن ، فضلا عن دفع

(1) Mawer: op. cit. p. 58.

(2) Idem, p. 11.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 317—334.

غرامة حربية باهظة • ثم كانت المعركة التالية بين الأيرلنديين وأعدائهم عند كلونتارف Clontarf سنة ١٠١٤ وانتهت هي الأخرى بهزيمة الشماليين هزيمة ساحقة ومقتل زعمائهم • ومع أن الفيكنج ظلوا بعد ذلك محتفظين بمدنهم الكبيرة في أيرلند إلا أنهم أخذوا يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندي على مر السنوات (١) •

الفيكنج في الجزر الشمالية :

على أن توسع الفيكنج في الاتجاه الغربى لم يقتصر على انجلترا وأيرلند وشواطئ سكتلند وامبراطورية الفرنجة ، وإنما شمل أيضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد مثل مان وأوركنى وشتلندوفاروى Faroes (٢) • هذا فضلا عن أن النرويجيين اتجهوا - بحكم موقعهم الجغرافى - اتجاها شماليا غربيا ، أى نحو أيسلاند وجرينلاند • ويرجح أن النرويجيين عرفوا من أقاتهم في أيرلند بوجود جزيرة أخرى كبيرة تقع بعيدا في شمال المحيط الأطلسى ، لأنه من الثابت أن الرهبان الأيرلنديين سبق أن وصلوا أيسلاند وإن لم يستقروا فيها • هناك رواية وردت في إحدى السجلات تشير إلى أن سفينة نرويجية قذفتها العواصف بعيدا عن طريقها حتى رست على شواطئ أيسلاند سنة ٨٦١ (٣) • ومهما يكن من أمر فإن استقرار الفيكنج في أيسلاند لم يبدأ إلا حوالى سنة ٨٧٠ عندما هاجر إليها كثير من النبلاء النرويجيين ومعهم أتباعهم ليعيشوا فيها أحرارا بعيدين عن سيطرة هارولد الأشقر صاحب السلطة العليا في النرويج عندئذ (٤) •

ولم يلبث أن اتجه الشماليون غربا من أيسلاند حتى وصلوا جرينلاند والشواطئ الشمالية الغربية لأمريكا حوالى سنة ١٠٠٠ • وهكذا أصبحت جرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا إليها من النرويج وأيسلاند ، فعمروها وشيدوا بها الكنائس حتى أسست أسقفية جاردار Gardar سنة ١١٣٦ (٥) •

(١) Mawer: op. cit. p. 46.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 3 p. 325.

(٣) Thompson: Vol. 1, p. 332.

(٤) Mawer: op. cit. p. 142.

(٥) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 324.

توسع السويديين شرقا :

إذا كان هناك جدل طويل في التاريخ حول نصيب كل من النرويجيين والدانين في حركة الفيكينج ، فإننا لا نصادف خلافا في الرأي عند دراسة حركة توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا • حقيقة انه يفهم من بعض المصادر المعاصرة أن السويديين ترددوا - هم الآخرون - على انجلترا وغيرها من بلاد الغرب ، ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولا تعبر بأي حال عن النشاط الاجتماعي للسويديين • وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على أساس التغلغل السلمى الذى اعتمد على النشاط التجارى ، لا على أساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهى الصفات التى امتازت بها غزوات النرويجيين والدانين في الغرب (١) •

والواقع أن البحر البلطى كان ميدانا أساسيا لنشاط عناصر الفيكينج ، وان كان السويديون والدانيون هم الذين قاموا بالجزء الأكبر من النشاط في هذا الميدان ، بعكس النرويجيين الذين اتجهوا غربا بحكم توجيههم الجغرافى •

وإذا كان نشاط الدانين في حوض البحر البلطى قد اقتصر على شواطئ بومرانيا Pomerania - غربى دانزج - فإن نشاط السويديين اتجه الى الجزء الشرقى من حوض ذلك البحر حتى وصلوا الى كورلاند Kurland على خليج رييجا ، ومنها الى أوغلوا شرقا على امتداد نهر دونا Duna داخل البلاد (٢) • ومهما يكن من أمر ، فإن الميدان الرئيسى لتوسع السويديين ونشاطهم لم يكن في حوض البحر البلطى وشمال أوروبا بقدر ما كان في سهولها الجنوبية الشرقية • وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » Rus ، وهو لفظ فنى بمعنى « النوبة أو البحارة » ، أطلقه الفينيون والسلاف على هذه العناصر الشمالية التى تغلغت في بلادهم •

(1) Mawer: op. cit. n. 9.

(2) Idem, pp. 72—73.

(١ - ١٦ أوروبا في العصور الوسطى)

وكان الآفار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية في شرق أوروبا لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين في القوقاز أو التجار المسيحيين في القسطنطينية . ولكن قوة الآفار كانت قد انهارت في القرن التاسع ، الأمر الذى مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السسويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا أقدامهم في حوض نهر الدنيبر حتى وصلوا الى البحر الأسود . وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطى والأسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم في هذا الجزء الشرقى من أوروبا (١) . ذلك أن الروس أسسوا عدة مدن ، تتحكم كل مدينة منها في المنطقة القريبة التى تحيط بها والتى تسكنها قبائل مختلفة من السلاف ، ولكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت هذه المدن في حماية أنفسها وحماية تجارتها ، فلبت إلى تأليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم أيضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية (٢) . وكان أن حدث حوالى سنة ٨٨٢ أن استولى أحد الزعماء الروس - ويدعى روريك Rurik - على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية كييف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفكيكج في شرق أوروبا ، كما كانت نورمنديا مركزا لهم في غربها . على أنه اذا كانت دوقية نورمنديا قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها في فرنسا (٣) ، فان دوقية كييف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب الضاربة في سهول شرق أوروبا . ويقال أنه بلغ من سرعة اتساع كييف أن أصبح بها في في الربع الأول من القرن الحادى عشر - أى على عهد فلاديمير الأول أو العظيم (ت ١٠١٥) - ثمان أسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والألمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد (٤) . وما زالت لدينا بعض معاهدات تجارية

(1) Stephonson: op. cit. Ps, 201, 211.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I. p. 325.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3. n. 327.

(4) Thompson; op. cit, Vol. I. p. 325,

ترجع الى النصف الأول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصوغات وغيرها من لوازم الترف • وربما كان أوضح ما فى هذه المعاهدات أن الموقعين عليها من الروس يحملون أسماء سويدية (١) •

على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل تجارية سلمية على طول الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو الحرب والقتال ، مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها • من ذلك أنه حدث سنة ٨٦٥ أن أبجروا فى الدنيير حتى البحر الأسود واجتازوه الى بحر مرمرة حيث تعرضت سفنهم لعاصفة حطمت معظمها • ثم حدث سنة ٩٠٧ أن أغار أحد زعماء الروس واسمه أولج Oleg على أطراف القسطنطينية ومعه أتباعه تحملهم ألف سفينة ، ولم ينسحب الا بعد أن دفعت له الامبراطورية مبلغا كبيرا من المال (٢) •

ولم تمض على ذلك مدة طويلة حتى هجم زعيم روسى آخر اسمه ايجور Igor على عاصمة الدولة البيزنطية سنة ٩٤١ ثم ٩٤٤ ، مما دفع الامبراطورية الى السعى للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على أسس سلمية (٣) • وكان أن تم التفاهم فعلا حوالى منتصف القرن العاشر ، ومن ثم أخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين فى البحرية الامبراطورية ، حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم (٤) • وهكذا أدرك الروس مرة أخرى أن التجارة أربح لهم من الحرب (٥) ، فأخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق ، على أن تعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل

(1) Mawer: op. cit. p. 75.

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 229.

(3) Vasiliv: op. cit. Tome I. p. 426.

(4) Diehl & Marcais: op. cit. pp. 470—471.

(5) Cam, Med. Hist. Vol. 3, p. 327.

والمجوهرات • أما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التي عثروا عليها في السويد وفي روسيا والتي يرجع معظم تواريخها الى الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٠ ، ١٠٠٠ (١) • ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادي عشر ، الا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام (٢) •

نشاط الفيكنج في حوض البحر المتوسط :

لم يقتصر نشاط الفيكنج على دائرة البلاد السابق ذكرها ، انما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة ، ففي سنة ٨٤٤ أغار الفيكنج على شواطئ أسبانيا الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس وأشبيلية بوجه خاص لعشهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية (٣) • وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التي أظهرها الأهالي في صد أولئك الغزاة - الذين أسماهم المسلمون باسم المجوس (٤) • - الا أنه يبدو أن أغارتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثاني الى ارسال سفارة الى ملك الفيكنج (٥) •

ثم حدث سنة ٨٥٩ أن أبحر الفيكنج من حوض السين وعبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقراها ، كما أغاروا على شواطئ الأندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار • وبعد أن أمضوا فصل الشتاء في إحدى الجزر الواقعة عند منصب نهر الرون ، حيث أغاروا على مدن اقليم

(1) Mawer: op. cit. p. 79.

(2) Idem: p. 80.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 316.

(٤) ويبدو أن اطلاق مسلمي الأندلس اسم المجوس على الفيكنج جاء نتيجة للحرائق التي كانوا يشعلونها في البلاد التي يسمولون عليها ، أو لما اعتاده الفيكنج من اشعال النار ليلا للاستتناس والتدفئة ، الأمر الذي جعل المسلمين يسمون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أو المجوس •

(5) Mawer; op. cit. pp. 19—20.

بروفانس ، أبحروا في الربيع التالي الى ايطاليا حيث استولوا على بزاوولونا Luna ويبدو أن الهدف الأساسي من ذهاب الفينكنج الى ايطاليا كان الاستيلاء على روما ، ولكننا لا ندري السبب في عدم تقديمهم جنوبا لتحقيق هذا الهدف وان كانت بعض الأساطير المعاصرة تعلق ذلك بأن الأمر اختلط عليهم فظنوا أن لونا هي روما . ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الفينكنج عادوا سنة ٨٦٢ من حيث أتوا فعبروا مضيق جبل طارق الى بريتاني .

وهكذا استطاع الفينكنج في النصف الثاني من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفينكنج الغربيون الى شواطئ ايطاليا من الجهة المقابلة (١) .

حضارة الفينكنج :

لم يكن الفينكنج برابرة بكل معاني الكلمة ، لأنهم أظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية (٢) ، اذ ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية الأولى من جهة ، في حين فاقوا كثيرا من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعي من جهة أخرى (٣) . على أن العُشُونة والبدائية التي عرف بها الفينكنج في أول الأمر لم تلبث أن أخذت تتعدل نتيجة لانتشار المسيحية تدريجيا بينهم ، وما ترتب على ذلك من تهذيب طباعهم .

ويرجح أن أول معرفة الفينكنج بالمسيحية جاءت عن طريق علاقاتهم التجارية مع الفريزيين ، حتى أخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندناوة والدانمرك منذ أوائل القرن الثامن . ومن هذه البعثات بعثة القديس وليبرورد Willibrord وبعثة ابو Ebbo رئيس أساقفة ريمس سنة ٨٢٣ (٤) . وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقى على نشر المسيحية بين

(1) Idem: pp. 46—47.

(2) Haskins: The Normans in European History, p. 36.

(3) Mawer: op. cit. p. 83.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 314.

الفكنج بالطرق السلمية ، فأغرى هارولد ملك الفكنج على اعتناق المسيحية حتى تم تعميده مع عدد كبير من أتباعه سنة ٨٢٦ • وعند عودة هارولد بعد ذلك الى بلاده صحبه القديس انسكر St. Ansker أحد رهبان دير كوربي المعروفين بحماسةهم الدينية ، قضى انسكر عامين في نشر المسيحية في الدانمرك ، ثم أبحر الى السويد حيث استقبل استقبالاً طيباً ونجح في تحويل عدد كبير من السويديين الى المسيحية ، حتى عاد الى بلاده سنة ٨٣١ ، فعين رئيساً لأسقفية هامبورج التي أصبحت قاعدة لنشر المسيحية في البلاد الشماليه (١) • وهكذا أخذت المسيحية تنتشر تدريجياً على حساب الوثنية ، ليس بين الدانين فحسب ، بل بين النرويجيين والسويديين كذلك ، وليس في بلادهم الأصلية فحسب في المواطن الجديدة التي هاجروا اليها واستقروا فيها سواء في غرب أوروبا أو شرقها • وليس هناك من شك في أن انتشار المسيحية بين هذه الشعوب ترك أثراً واضحاً في مستقبل أوروبا وتاريخها ، إذ يمكن الوقوف على أهمية هذا الأثر لو تصورنا أن السويديين الروس الذين استقروا في شرق أوروبا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين في الدولة البيزنطية (٢) •

وقد امتازت حضارة الفكنج في الجانب المادي بالثروة والفخامة ، فجمعوا الحلى وأدوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الأشياء التي فاقت بها مقابرهم • وليس هناك من شك في أن مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجاري من جهة أخرى (٣) • ومن الواضح أن الفكنج تركوا أثراً حضارياً واضحاً في كل بلد استقروا فيه وبخاصة أيرلند وإنجلترا وملحقاتهما الطبيعية (٤) • وإذا كانت العناصر الأولية لحضارة الفكنج قد أخذت تتلاشى تدريجياً من البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فإن هذه العناصر قدر لها البقاء في أقصى

(١) Mawer: op. cit. p. 86.

(٢) Dawson: The Making of Europe. p. 244.

(٣) Haskins: The Normans in European History, p. 36.

(٤) Mawer: op. cit. p. 86.

الغرب - أى فى ايسلاند وجرينلاند - حيث ازدهرت حضارة الفيكنج وأصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن أى تطور حضارى آخر فى القارة الأوربية (١) . حقيقة ان حضارة الفيكنج فى تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة أيرلند الكتلية نتيجة لهجرة كثير من الكلت الأيرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة . وقد بلغ التقدم الحضارى فى جرينلاند - بعد استقرار الشماليين فيها - أن أديرتها فى القرن الثانى عشر كانت تستخدم أنابيب المياه الدافئة فى تدفئة داخل الأديرة ، فى حين استمدت هذه الأنابيب مياهها من ينوع دافئ طبيعى . هذا فضلا عن النشاط التجارى الواسع الذى قام به أهالى جرينلاند وأيسلاند فى الميدان الاقتصادى ، اذ أخذوا يصدرون الأسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة (٢) .

أما فى ميدان الأدب فان المجموعة الضخمة من أساطير الساجا Saga وأشعار الادا تعتبر خير ما يدل على التقدم الأدبى وبخاصة فى ايسلاند . أما الساجات فهى أساطير ثرية تمتاز بطابعها الواقعى واتزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية . وأما الادات Eddas فهى مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ولكنها تمتاز أيضا ب بروز الجانب الخلقى والنظرة الواقعية الى الحياة . واذا كانت هذه الأشعار تنطوى على شيء من المخشونة والبربرية ، الا أنها تعبر تعبيرا ساميا عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الأسمى الذى يسعى اليه البطل . وهكذا يرجع الفضل الى الفيكنج عندما انتجت جزر أوربا الشمالية المقفرة حضارة طيبة وأدبا رفيعا من أعظم ما أنتجته أوربا العصور الوسطى (٣) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 339.

(2) Thompson: op. cit. Vol. I p. 324.

(3) Dawson: op. cit. p. 252.

الباب التاسع

أسرة كاييه فى فرنسا

من الواضح أن الغزوات التى تعرضت لها أوربا فى القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وما جرى من منازعات بين الأمراء والحكام ، تمخضت كلها فى النهاية عن حال شديدة من الفوضى عمت بلاد غرب أوربا • وقد دفعت هذه الفوضى صفار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتنود عنهم ، فلم يجدوا أثرا لقوة الملك أو لنفوذ السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت أو الأمير المحلى لحمايتهم • وهكذا أخذ عامة الناس وصفار الملاك يرتبطون بمن هم أقوى منهم من الأمراء وكبار الملاك فى ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة ، كوسيلة وحيدة لحماية أرواحهم من الأخطار والقتال التى هددت المجتمع الغربى (١) • وبعبارة أخرى فإن هؤلاء الضعفاء أو المستضعفون قبلوا أن يعيشوا فى حال من الهوان والمغارم مقابل قيام كبار الأمراء الاقطاعيين بحمايتهم والنود عنهم ، فى حين لم تعد سلطة الملوك الفعلية دائرة أملاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن أى أمير آخر من الأمراء الاقطاعيين •

وسوف نتكلم - فيما بعد - بشئ من التفصيل عن النظام الاقطاعى وخصائصه (٢) ولكن يكفى أن نشير الآن الى أن هذا الوضع من التنظيم السياسى والاجتماعى هو الذى ظلت عليه فرنسا فى القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر • ففرنسا ذاتها هى الدولة التى بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى أصبح من الضرورى الاستعانة بنظام جديد بضمن للناس أرواحهم • وهكذا لم يكد ينتهى القرن العاشر ، الا كان النظام الاقطاعى

(١) Painter: op. cit. pp. 105—106.

(٢) أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب الخاص بنظم أوربا وحضاراتها فى العصور الوسطى •

قد وُلد أقدامه فيها وتناقضت سلطة الدولة المركزية تناقضا واضحاً (١) .
ومن الثابت أن فرنسا - وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية -
اختلفت عن ألمانيا - الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية - لأن الأولى كانت
في سالف الزمن جزءاً من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان .
وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى أقسام إدارية - أو كونتيات - تتبع
حدود الأسقفيات ، ويحكم كلا منها كونت نائماً عن الملك الميروفنجي أو
الكارولنجي . وهكذا ظل الوضع حتى تعطلت السلطة الملكية في فرنسا
وعندئذ لم تهق قوة تدخل محلها سوى قوة التحكام المحليين من الكونتات وكبار
الملاك (٢) .

ولا شك في أن الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا
في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام أسرة كابيه في الحكم .
ذلك أنه حدث عندما عزل شارل السمين سنة ٨٨٧ أن اختير أودو كونت
باريس ملكاً في العام التالي ، بعد ما أبداه من شجاعة في الدفاع عن باريس
أثناء حصار الفيكنج لها (٣) . على أنه يبدو أن ذكرى شارلمان وعظمته ظلت
تدفع المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بهذا البيت (٤) ،
الأمر الذي أثار نزاعاً طويلاً - استمر قرناً من الزمان - بين البيت الكارولنجي
والبيت الباديسي حول الاستئثار بحكم فرنسا . وهنا نشير الى عدم صحة ما
يردده كثير من المؤرخين من أن الكارولنجيين الأواخر امتازوا بالضعف وعدم
الكفاية ، الأمر الذي أدى الى ضياع الملك من أيديهم . فالواقع أنهم كانوا على
قدر كاف من المقدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم لاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان
ينقصهم المال اللازم . ذلك أن منبع قوة شارلمان وثروته الشخصية كان بلاد
حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من امبراطوريته سوى
القبائل ، وهو الذي أصبح من نصيب سلالاته ملوك فرنسا . وهذا هو السبب

(1) Orton: op. cit. p. 174.

(2) Painter: op. cit. p. 152.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 62—63.

(4) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 60.

فى أن ملوك الجزء الغربى من الامبراطورية - فرنسا - ظلوا دائما فى فقر وحاجة الى المال حتى زوال البيت الكارولنجى (١) .

وقد حدث اثناء حوادث التنسافس والنزاع بين البيت الكارولنجى والبيت الباريسى ان اختير احد أبناء البيت الكارولنجى ملكا - وهو شارل البسيط (٨٩٣ - ٩٢٣) . ولم يعجب ذلك روبرت أخو أودو وورينه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح بفضل مساعدة لوثرنجيا لالاخير . هذا الى أن شارل البسيط اكسب حليفا قويا عندما منح رولو وانباعه من الفيكنج اقليم نورمانديا . ومع ذلك ، فان السنوات الأخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمناعب الجسام التى سببها له روبرت كونت باريس (٢) . وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ ، ولكنه قتل فى العام التالى تاركا ابنه الصغير هيو العظيم ليحل محله (٣) . أما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع (٩٣٦ - ٩٥٤) ، الذى كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج من أخت أوتو العظيم ليضمن مساعدة ألمانيا . ولكن لويس الرابع سرعان ما استكشف أنه أضعف من أن يقف أمام هيو العظيم (٤) ، فاضطر الى مسالته مكتفيا بالاقامة فى مدينة لا يون Laon . وهكذا نجح هيو العظيم - ومن بعده هيو الملقب كايه فى السيطرة على معظم أنحاء فرنسا قبل أن تحل سنة ٩٨٦ ، وهى السنة التى توفى فيها لوثر بن لويس الرابع . ولم تلبث أن جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) ابن لوثر - دون أن يترك ابنا يخلفه - بمثابة فصل الختام بالنسبة للبيت الكارولنجى ، فتم تتويج هيو كايه ملكا على فرنسا (٩٨٧ - ٩٩٦) فى نفس العام الذى شهد وفاة لويس الخامس ، وبذلك بدأ تاريخ أسرة كايه فى حكم فرنسا .

ومن الواضح أن قيام أسرة كايه فى حكم فرنسا سنة ٩٨٧ لا يعنى أكثر من قيام أسرة حاكمة محل أسرة أخرى ، اذا لم يلبث آل كايه أن ورثوا حقوق

(1) Painter; op. cit. p. 153.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 66.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 74-75.

(4) Orton: op. cit. p. 180.

الكارولنجيين وامنيزاتهم من جهة ، كما أصبحوا السادة الأعلى لجميع
الاقطاعيين في المملكة من جهة الأخرى (١) . ولكي ندرك مركزه هو كايه
يجب أن ننظر اليه من ثلاث زوايا مختلفة : اولها انه توج ملكا على دولة
الفرنجة الغربية (فرنسا) ليرث الملوك الكارولنجيين ويحل محلهم ، وثانيهما
انه جاء ممثلا لكبار الاقطاعيين ، واخيرا انه هو نفسه لا يعدو أن يكون
أميرا اقطاعيا في اقطاعه أو في دوقيته (٢) . واذا كان من أسباب سقوط الملكية
الكارولنجية هو أنها لم تستطع أن تمثل التطور الاقطاعي وتسايره في وقت
أصبح لا يوجد محل لسلطة لا تعتمد على دعائم وأسس اقطاعية ، فانه يمكن
القول بأن أسرة كايه الجديدة أنقذت نظام الملكية في فرنسا بتزويدها بروح
وقواعد اقطاعية مكنتها من مسيطرة العصر والظروف (٣) .

وفد يبدو من أول نظرة أن انتصار آل كايه في الوصول الى حكم فرنسا
يعتبر انتصارا للأمراء الاقطاعيين على الملكية الكارولنجية ، ولكن اذا دققنا
النظر وجدنا أن آل كايه كانوا أنفسهم في مركز لا يحسدون عليه من جراء
منافسة كبار الأمراء الاقطاعيين وخطرهم (٤) . ذلك أن فرنسا كانت عند قيام
أسرة كايه في الحكم سنة ٩٨٧ عبارة عن حشد ضخم من الاقطاعيات المتباينة
التي ارتبط كل منها بأسرة معينة في ظل قوانين ونظم خاصة ، حتى أن سنة
وخمسين من كبار الأمراء الاقطاعيين كانوا يسكون النقود الخاصة بهم ،
فضلا عن وجود عشر لهجات رئيسية كبرى في فرنسا . ولا أقل من استعراض
أهم الامارات أو الأقسام التي انقسمت اليها فرنسا عندئذ ، حتى يمكننا متابعة
تاريخها منذ القرن العاشر .

ففي الشمال كانت دوقية برجندبا التي حكمها فرع من أسرة كايه الحاكمة (٥)
في حين تحولت فلاندرز - بين نهر الشاد وبحر الشمال - الى اماره قوية ،

-
- (1) Lavisce: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, p. 147.
 - (2) Painter: op. cit. p. 155.
 - (3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.
 - (4) Thompson: op. cit. Vol. I, p. 341.
 - (5) Tout: The Empire and the Papacy p. 88.

بفضل سياسة أمرائها في ضم الضياع المجاورة على الحدود الفرنسية من جهة ، وبفضل نشاطها التجارى وما ترتب عليه من ازدياد الثروة واتساع المدن وكثرة السكان من جهة أخرى . أما في الغرب فإن بريتانى لم يعد لها شأن كبير بسبب إهمالها وتأخرها وجذبها وكثرة الحروب فيها ، فضلا عن اغارات النورمان عليها (١) . وعلى حدود بريتانى - على بحر المانش - قامت إمارة نورمانديا التي أصبح صاحبها - بمقتضى معاهدة سانت كلير سنة ٩١١ - فصلا للتاج الفرنسى . وسرعان ما عدا أهلها من النورمان جزءا من الوطن الفرنسى بعد أن تأقلموا بظروف البيئة الجديدة واعتنقوا الديانة المسيحية (٢) .

أما جنوب فرنسا فكانت تفصله عن شمالها اختلافات كبيرة ، لأن الأجزاء الجنوبية امتازت بلمنتها الخاصة البروفنسالية فضلا عن عاداتها وتقاليدها التي ظلت ترتبط بالتراث الرومانى أكثر من ارتباطها بالتراث الجسرمانى . وإذا كان بارونات الشمال قد اعتادوا التردد على البلاط الملكى وتقديم ما عليهم من واجبات وفروض إقطاعية للملك ، فإن أمراء الجنوب لم تربطهم صلة بال كباية سوى اتخاذ السنة التى تولى فيها الملك الحكم علامة فاصلة فى تاريخ حوادثهم . وأهم هذه الإمارات الجنوبية كانت دوقية أكويتين وعلى رأسها أمراء بواتيه منذ القرن العاشر . وقد امتدت هذه الدوقية من اللوار حتى الجارون ومن خليج بسكاى حتى الرون ، الأمر الذى جعل من المتعذر على فرد واحد أن يحكمها (٣) . أما الإقليم الواقع بين الجارون والبرانس فكان به الجاسكونيون Gascons يحكمهم أمير منهم حتى انضموا إلى كوتين فى أواخر القرن الحادى عشر . وأخيرا وجدت إمارتان على البحر المتوسط ، الأولى إمارة تولوز محل سبتمانيا القديمة ، والثانية إمارة برشلونة محل المارك الأسبانى الذى أقامه شارلمان على الحدود (٤) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol, 3, p. 128.

(2) Lavissee: op. cit. Tome 2, Deuxième Partie, pp. 41—44.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 128—130.

(4) Stephenson: op. cit. pp. 231—232.

آل كاييه الأوائل :

وعلى الرغم من كثرة مادون عن الملوك الأربعة الأوائل من أسرة كاييه ،
الا أن معلوماتنا الحقيقية عنهم لا تعدو أن تكون سطحية • والظاهرة العامة
التي تميز عصر هؤلاء الملوك الأربعة (٩٨٧ - ١١٠٨) هو أن الظسروف
أظهرتهم في مظهر الضعف أمام كبراء الأمراء الاقطاعيين • وان كان الواقع
هو أن فرنسا دخلت في ذلك العصر دورا جديدا من تاريخها ، بمعنى أنه
إذا كان الكارولنجيون الأواخر يمثلون عصر اضمحلال وتدهور ، فان آل
كاييه الأوائل يمثلون عصر تقدم وبناء (١) •

وقد أكسب هيو كاييه - أول هؤلاء الملوك (٩٨٧ - ٩٩٦) الأسرة
الحاكمة لقبها الذي عرفت به في التاريخ ، وان كان كل ما فعله هو أنه توج
ابنه في حياته ، وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها خلفاؤه في القرنين التاليين ،
الأمر الذي جعل العرش ينتقل في سهولة الى ابنه روبرت الثاني (٩٩٦ -
١٠٣١) ، ثم حفيده هنري الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠) ثم ابن حفيده فيليب
الأول (١٠٦٠ - ١١٠٨) ، دون أن يكون لأحد هؤلاء الملوك نشاط خاص
يستدعى انتباهنا •

ويبدو أن الظروف كانت لا يمكن أن تساعد أحد هؤلاء الملوك الذين تولوا
حكم فرنسا في القرن الحادي عشر في فرض سيطرته الفعلية على أنحاء مملكته
الاسمية الواسعة • لذلك وجه هؤلاء الملوك الأوائل كل جهودهم نحو انقاذ
ما تبقى لهم من نفوذ موروث في اماراتهم الاقطاعية حول باريس ، وهي المنطقة
المعروفة باسم جزيرة فرنسا ile de France حيث وجد بعض صغار
الأمراء الاقطاعيين الذين لم يعترفوا بالسلطة الملكية وأخذوا يشيدون القلاع
والحصون - وبخاصة في عهد فيليب الأول - تحديا له (٢) •

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 73.

(2) Lavissee; op. cit, Tome 2, Deuxième Partie, p. 176.

وإذا كان عهد فيليب الأول بالذات قد امتاز بأنه العهد الذى وصلت فيه سلطة الملكية الى الحضيض ، الا أن هذا العهد يمثل أيضا نقطة تحول فى تاريخ الأسرة الجديدة الحاكمة نظرا لاتساع أملاك آل كابيه تدريجيا (١) . ذلك أن فيليب الأول استغل حاجة أمير بوج Bourges للمال للمشاركة فى الحملة الصليبية الأولى واشترى منه اقطاعه ، كما استولى على بعض أراضى كونت انجو عن طريق المساومة السياسية . ومن ناحية أخرى أسهم فيليب الأول فى تقوية أسرته بطريقة سلبية عن طريق مقاومة البابا جريجورى السابع عندما أراد منع التقليد العلمانى وحظرمان الملك من اختيار الأساقفة وتقليدهم (٢) .

والواقع أن ملوك فرنسا فى تلك الحقبة كانوا لا يستطيعون التخلّى عن سيطرتهم على رجال الدين لأنهم اعتمدوا الى حد كبير على المساعدات التى قدمها لهم كبار الأساقفة ومقدمى الأديرة . وفى داخل جزيرة فرنسا - أو على مقربة منها - وجدت أسقفيات وأديرة كبيرة تمتعت بثروة طائلة ودانت بالولاء للملكية . وقد قدم رؤساء هذه الأسقفيات ومقدمى الأديرة مبالغ طائلة للملوك استغلوها فى تنظيم قواهم وتدعيمها . ولكن على الرغم من هذه المساعدات فإن آل كابيه الأوائل لم يصبحوا أندادا لكبار الأمراء الاقطاعيين مثل كونت فلاندرز أو دوق برجنديا (٣) . حقيقة ان اسهام كثير من فرسان فرنسا وأمرائها الاقطاعيين فى النشاط الصليبي كان من العوامل التى ساعدت آل كابيه الأوائل، اذ أدى ذلك الى اتجاه هؤلاء الأمراء الى هذه الجروب الدينية فى الشرق بدلا من النزاع مع الملكية أو مع بعضهم البعض (٤) ، ولكن ذلك لس معنى أن الفوضى الاقطاعية التى عمت البلاد قل خطرها . وربما كان العزاء الوحيد فى هذه الفوضى أنها ناشئة عن صراع بين الاقطاعيين بعضهم وبعض ، أو

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, n. 110.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 161.

(3) Stephenson: Med. Hist, pp. 244—245.

(4) Orton: op. cit. p. 185.

بعبارة أخرى بين الفرنسيين بعضهم وبعض ، لا عن هجمات أجنبية قام بها مغبيرون من الخارج كما كان الحال فى غزوات الفيكنج من قبل (١) .

لويس السادس :

ولكن اذا كان فيليب الأول قد ظهر عجزه عن مقاومة البارونات الاقطاعيين فان خليفته لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) كان مثلاً طيباً للحاكم القوى (٢) والواقع أن بيت كاييه كان قد انحدر الى درجة سيئة من الضعف والانحلال عندما اعتلى لويس السادس العرش . وقد رأى لويس السادس أنه يتعين عليه اخضاع أتباعه وأفصاله من الأمراء الاقطاعيين داخل جزيرة فرنسا ذاتها قبل أن يحاول تأكيد سلطان الملكية ونشر هذا السلطان فى بقية أنحاء فرنسا (٣) . وهكذا لم تكد تحل سنة ١١٢٠ الا كان الملك يستطيع أن يتقل فى أنحاء أراضيه الاقطاعية دون حاجة الى حراسة أو جبهوش ، كما أن أفصاله أخذوا يدفعون الأموال المستحقة عليهم بانتظام . ولم يلبث أن أدى استقرار الأوضاع داخل جزيرة فرنسا الى نشاط الحياة الاقتصادية ، بعد أن أمن التجار على أنفسهم وأموالهم ، مما عاد على الجميع بالخير والرفاهية (٤) .

ولكن اذا كان لويس السادس قد استطاع تقوية نفوذه داخل أراضيه الاقطاعية ، الا أنه ظل عاجزاً أمام كبار الأمراء الاقطاعيين فى بقية أنحاء فرنسا . ذلك أن هؤلاء الأمراء الأقوياء استمروا يتصرفون كما يحلو لهم دون أن يقيموا وزناً للملك أو يعترفوا له الا بتبعية اسمية ، فلم يدفعوا له ما يستحق عليهم من ضرائب اقطاعية أو يقدموا له ما يجب عليهم من ضرائب عسكرية وغير عسكرية يفرضها العرف الاقطاعي (٥) . وهنا شئت الظروف أن تمد

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 77.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 2, pp. 594—597.
 - (3) Idem, p. 596.
 - (4) Stephenson: Med. Hist. p. 398.
 - (5) Tout: The Empire and Papacy, p. 278.

ملك فرنسا بقوة تساعده في فرض سيطرته على بقية الأمراء الاقطاعيين في بلاده . ذلك أن وليم العاشر دوق اكويتين أوصى وهو على فراش الموت (سنة ١١٣٧) بأن تتزوج ابنته وورثته اليانور من ابن لويس السادس ، الأمر هياً لملك فرنسا فرصة ضم دوقية قوية غنية زادت من سطوته ونفوذه . هذا في الوقت الذي استغل لويس السادس فرصة النزاع بين أبناء وليم الفاتح ليؤكد تبعية هنري الأول ملك انجلترا له بوصفه دوق نورمانديا (١) .

والواقع أن أعظم خطر هدد الملكية الفرنسية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر جاء من ناحية ملوك انجلترا ، الذين جمعوا بين العرش الانجليزي ودوقية نورمانديا . ذلك أن حرب الحدود استمرت بين ملوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخرى حتى جرح وليم الفاتح سنة ١٠٨٧ جرحاً خطيراً أثناء مهاجمته ضواحي باريس . ثم لجأ هنري الأول ملك انجلترا (١١٠٠ - ١١٣٥) الى تأليف حلف قوى ضد لويس السادس ملك فرنسا ، وضم الى هذا الحلف أفصاله في بريتانى وأمراء جزيرة فرنسا الحائقيين على ازدياد نفوذ الملكية وأهالى المدن الفلمنكية الذين لم يكونوا على وفاق مع أمراءهم ، فضلاً عن كونت بلوا Blois . وعلى الرغم من أن الهزيمة حلت أكثر من مرة بلويس السادس إلا أنه ظل محتفظاً بشأته ومركزه (٢) .

وثمة تطور هام يستحق الإشارة في تلك الفترة ، هو نشاط الحركة القومونية في شمال فرنسا . ومع أنه لا يوجد ما يثبت أن لويس السادس أيذ المدن وشجعها ، الى أنه لا يوجد دليل في الوقت نفسه على أنه عاكس حركة تحرر المدن وقاومها . وربما كان الأقرب الى الصواب أنه منح كثيراً من المدن الناشئة براءات ساعدت على تحريرها (٣) .

(1) Stephenson; Med. Hist. pp. 400—401.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 280.

(3) Fliche; L'Europe Occidentale, p. 515.

وخلاصة القول ان دعائم بيت كابيه تم تثبيتها عند وفاة لويس السادس سنة ١١٣٧ ، الأمر الذى مكن خلفاءه من اقامة دولة قوية على هذه الدعائم (١) .

لويس السابع :

أما لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) فقد كان مركزه قويا بعد أن ضم اليه اكونين عن طريق الزواج من وريثتها كما سبق . وقد استغل لويس السابع هذه القوة فى القضاء على ثورة ثيوبولد كونت شامبني التائر (سنة ١١٤٧) ، وهى الثورة التى جاءت نتيجة نزاعه مع البابا أنوسنت الثانى (٢) . ويقال ان لويس السابع لجأ فى أثناء القضاء على هذه الثورة الى احراق كنيسة فترى Vitry التى كانت مشحونة باللاجئين ، فاحترق فى هذا الحادث ما يقرب من ألف بين رجال ونساء وأطفال . ويبدو أن هذه الجريمة ظلت تستثير ضمير لويس السابع - وهو الرجل التقى - حتى فكر فى القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه . وكان أن أسهم فى الحملة الصليبية الثانية مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ مما تطلب منه بذل كثير من الأرواح والأموال دون ثمرة .

ويدل تاريخ لويس السابع على أنه لم يتمتع بنصيب من المهارة السياسية التى كانت لأبيه بحيث لم ينقذ الأداة الحكومية فى فرنسا من الانهيار فى ذلك العهد سوى مهارة وزيره شوجر (ت ١١٥٢) Suger الذى كان مقدم دبر سانت دنيس ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا من الانهيار ، حتى جعل منه لويس السادس ثم ابنه لويس السابع مستشارا ووزيرا خاصا للملك (٣) . ولم يلبث أن تحقيق عدم الانسجام بين لويس السابع - الملك التقى الهادى - وزوجته المرحلة الطروب ، وهى اليانور حفيدة وليام التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور فى القرن الثانى عشر . وفى ذلك الوقت كان هنرى الأول ملك انجلترا قد زوج ابنته من كونت انجو ، وأنجبت

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp. 163—164.

(2) . Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 607.

(3) Lavissee : op. cit Tome III, Première Partie, pp. 20-23.

هذه الزيجة هنرى الأنجوى • وصادف أن طلق لويس السابع زوجته
اليانور صاحبة أكوئين لعدم الانسجام بينهما فى الطباع من جهة ، ولأنها لم
تنجب له ولذا ذكرا يحفظ الحكم فى بيت كاييه من جهة أخرى (١) ، فتزوجت
اليانور من هنرى الأنجوى السابق الذى اعتلى عرش انجلترا سنة ١١٥٤ تحت
اسم هنرى الثانى (٢) • وهكذا أصبحت سمملكات ملك انجلترا فى صلب
القارة تمتد من المانش حتى البرانس مما جعل الصدام بين ملكى فرنسا
وانجلترا أمرا لا مفر منه (٣) • وكان المحك بين لويس السابع وهنرى الثانى
هى مدينة تولوز ، اذ منع الأول ملك انجلترا من الاستيلاء عليها مما أثار
الحرب بين الطرفين • وقد شامت الظروف أن يرتكب هنرى الثانى فى ذلك
الوقت فعلته الشنيعة الخاصة بقتل توماس بكت رئيس أساقفة كانتربورى ،
مما أثار الشعور العام ضد ملك انجلترا وجعل الكثيرين من نبلاء بريتانى
وبواتو وجوين يساندون لويس السابع (٤) • هذا فى الوقت الذى اتبع لويس
السابع نفسه سياسة حكيمة فى الداخل والخارج • ففى الداخل
لجأ الى ربط الملكية فى فرنسا بالطبقة البرجوازية التى أقام لها
المدن لتتخذها مسرحا لنشاطها ولتكون عوناً له على كبار الأمراء الاقطاعيين (٥) •
أما فى الخارج فقد نجح لويس السابع فى تحقيق التفاهم مع الهوهنشتاوفن
فى ألمانيا ، وهو تفاهم أو تحالف ظل قائماً مدى ثلاثة أجيال • هذا فى
الوقت الذى أثار المتاعب فى وجه هنرى الثانى ملك انجلترا عن طريق اثاره
أبنائه ضده • وفعلاً ثار أبناء هنرى الثانى الثلاثة الذين كانوا يشرفون على
أملاك التاج الانجليزى فى صلب القارة ضد أبيهم مما أنقذ لويس السابع
من خطر الملكية الانجليزية (٦) •

(١) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 250.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 5 p. 609

(٣) Tout : The Empire and the Papacy, p. 268

(٤) Lavisce : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 55

(٥) Orton : op. cit. pp. 251—252.

(٦) Adams : The History of England, p. 304

فيليب أوغسطس

ثم كان أن اعتلى عرش فرنسا فيليب أوغسطس « الثاني » (١١٨٠ - ١٢٢٣) الذي تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة * ولم يلبث أن استطاع فيليب أوغسطس التخلص من الأخطاء التي وقع فيها والده ، ومن ثم بدأ يستأنف سياسة جده في التمكين للملكية الفرنسية وبسط نفوذها (١) * لذلك امتاز بعهده بازدياد قوة الملكية في الداخل والتوسع في الخارج ، وهي نتائج التي توصل اليها بعد سلسلة من الإصلاحات الداخلية الواسعة التي منحتها قوة جعلته خطراً على خصومه في إنجلترا ونورمانديا وفلاندرز وألمانيا وجنوب فرنسا (٢) * هذا الى أن فيليب أوغسطس حكم مدة قاربت أربعاً وأربعين سنة ، وهي مدة طويلة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الاقطاعيين في فرنسا ، مما أتاح للملك فرصة تأكيد حقوقه الاقطاعية قبل الأمراء الجدد * وأخيراً ينبغي أن نذكر ما كان لفيليب من أخلاق ساعدته على النجاح ، فقد عرف عنه قوة العزيمة والثبات والصبر ، زيادة على ما هو عليه من الذكاء وحسن التقدير ، مما مكنه من مواجهة الصعاب التي اعترضته والتغلب عليها واحدة بعد أخرى (٣) *

وقد بدأ فيليب أوغسطس عهده باسترضاء هنري الثاني ملك إنجلترا ، ليضمن عدم تدخله في الحركة التي أزمع القيام بها لاختضاع أمراء فلاندرز وشامبني وبرجنديا (٤) * وكان أن دخل فيليب فعلاً في حرب طويلة مع هؤلاء الأمراء (١١٨١ - ١١٨٥) حتى أخضعهم لسلطان الملك الذي أصبح يسيطر على المنطقة الغنية الممتدة من فرماندوا Vermandois حتى أرتوا Artois (٥) على أن فيليب أوغسطس كان يدرك تماماً من أول الأمر أنه من المتعذر عليه تحقيق سيطرته على الاقطاعات الكبرى في فرنسا ما دامت

(1) Stephenson : Med. Hist. p. 424

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 284—285

(3) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 520

(4) Adams : The Hist. of England, p. 338

(5) Lavissee : op. cit Tome 3. Première Partie, p. 87

ممتلكات التاج الانجليزى فى شمالها وغربها تحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتمثل خطرا جاثما عليها (١) . لذلك لجأ فيليب الى كل وسيلة ممكنة - سياسية أو حربية - لاضعاف قوة انجلترا فى القارة . من ذلك أنه عقد تحالفا سنة ١١٨٧ مع فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا (١١٥٢ - ١١٩٠) للوقوف فى وجه خصومها من كبار الاقطاعيين ، وبخاصة الانجويين فى فرنسا والجلقيين . فى ألمانيا (٢) . وقد استمر هذا التحالف الذى جعل ملوك أسرة كابيه وآل هو هنتاوفن فى جانب ، وملوك انجلترا والجلقيين فى الجانب الآخر المضاد . يلعب دورا عظيما فى السياسة الأوربية حتى موقعة بوفان Bouvines سنة ١٢١٤ . على أن جهود فيلب الثانى ضد الملكية الانجليزية لم تقف عند محالفة الهوهنتاوفن فى ألمانيا ، وانما ، استغل ملك فرنسا عقوق هنرى وريشارد وجيوفرى وحا - أبناء هنرى الثانى ملك انجلترا ، وأخذ يساعدهم ضد أبيهم ليضعف نفوذ الملكية . الانجليزية عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه (٣) .

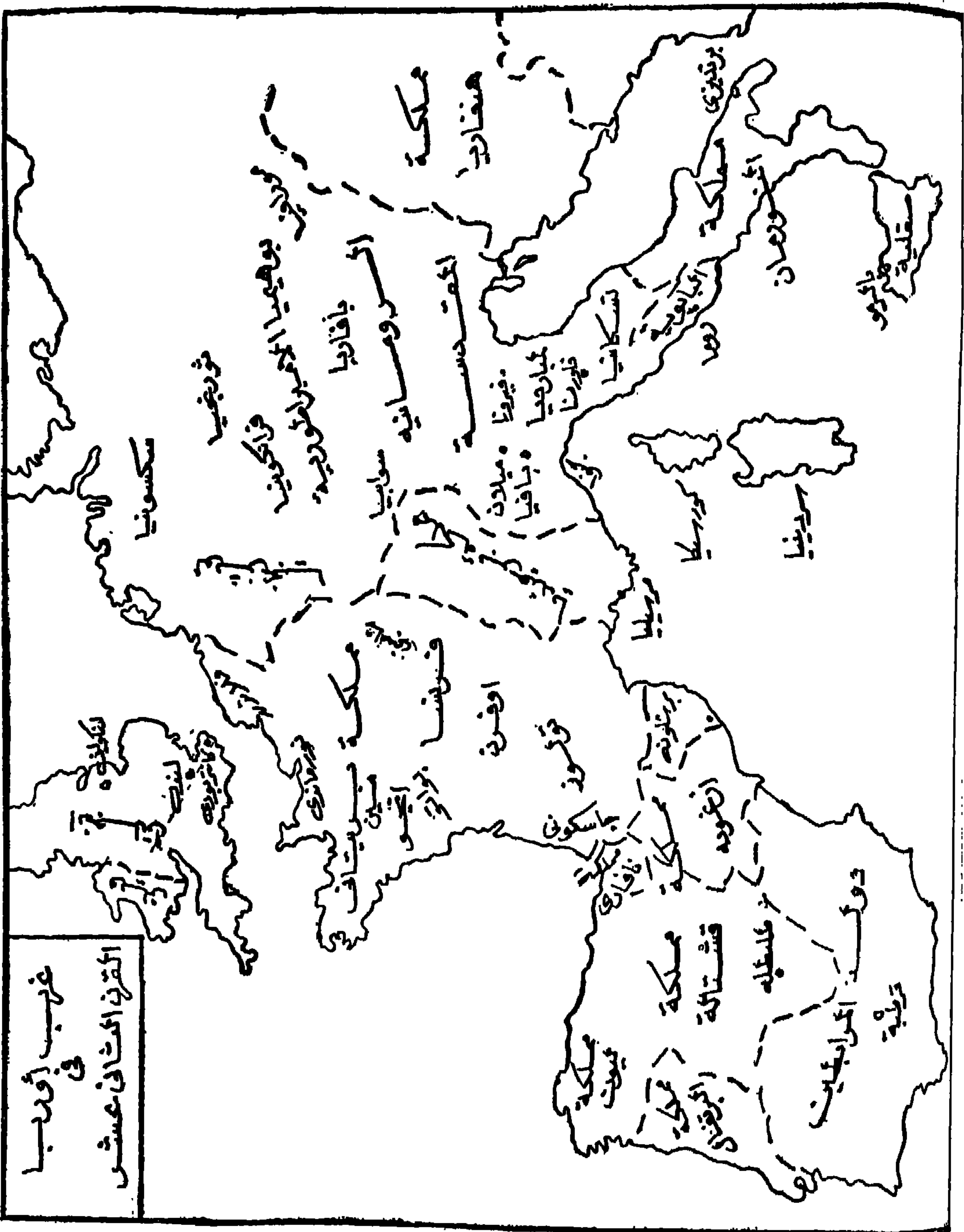
وعندما خلف ريتشارد الأول أباه فى حكم انجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩) خرج ليسهم مع فردريك بربروسا وفيليب أوغسطس فى الحملة الصليبية . الثالثة سنة ١١٩٠ . ولم تطل اقامة فيلب بالأراضى المقدسة اذ اعتذر بسوء حالته الصحية وعاد الى بلاده سنة ١١٩١ . ومن الواضح أن الحججة التى احتج بها فيلب أوغسطس كانت شكلية واهية ، وأنه عاد بقصد الحصول على نصيب زوجته فى اقليم فلاندرز بعد أن توفى كونت فلاندرز (٤) . هذا الى أنه انتهز فرصة غياب ريتشارد فى الأراضى المقدسة وحاول الهجوم على نورمانديا ، ولكن أمراءه رفضوا الاشتراك معه لأنه لا يجوز الاعتداء على أراضى صليبي يحارب فى الأراضى المقدسة ، فضلا عن أن هذه الأراضى تعتبر طيلة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايته . وعندئذ أخذ

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 291—302

(2) Adams : op. cit. p. 347

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 293

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 304



غرب أوروبا
في القرن العشرين

فيليب أوغسطس يحرض حنا ضد أخيه ريتشارد ويعدّه بمساعدته على تويجه ملكا على إنجلترا (١) . ويبدو أن أخبار هذه المؤامرات بلغت مسامع ريتشارد فعاد من الشرق بعد أن عقد صلح الرملة مع صلاح الدين ، ولكنه سلك الطريق البرى من ايطاليا الى بلاده ، فوقع فى يد دوق أوستريا الذى باعه لهنرى السادس امبراطور ألمانيا . وقد عرض فيلب أوغسطس مبلغا كبيرا على الامبراطور ليحتفظ بملك إنجلترا أسيرا ، ولكن الامبراطور أفرج عنه سنة ١١٩٤ (٢) . وهكذا استطاع ريتشارد العودة الى بلاده ليستعد للذهاب الى نورمانديا حيث تعرضت مصالحه لخطر كبير أمام تهديد فيليب أوغسطس .

وقد نصى ريتشارد السنوات الخمس الباقية من حكمه على شاطئ فرنسا ولم يعد الى إنجلترا حتى مقتله سنة ١١٩٩ . أما الأعمال التى قام بها فى نورمانديا فى تلك الفترة ، فانه بدأ بهجوم مباغت على فيليب أوغسطس قرب فريتفال Fréteval . وعندئذ لم يستطع فيلب النجاة الا بصعوبة بعد أن فقد خاتم الملك وبعض الوثائق والأمتعة المهمة (٣) . ويبدو أن الهزيمة كانت أقسى ضربة تعرض لها فيليب أوغسطس فى حياته ، مما جعله ينسحب من نورمانديا ومين وتورين ، ويطلب عقد الهدنة مع ملك إنجلترا سنة ١١٩٤ . على أن الحرب لم تلبث أن تحولت الى فلاندرز لحدوث تطور فى السياسة الامبراطورية (٤) .

ذلك أنه حدث عند وفاة الامبراطور هنرى السادس امبراطور ألمانيا سنة ١١٩٧ أن رشح كل من الجلفيين والجبلينيين فردا يتولى عرش الامبراطورية ، فاختار الفريق الأول أوتو الرابع دوق برنسيوك ابن هنرى الأسد وابن أخت ريتشارد ملك إنجلترا ، فى حين اختار الفريق الثانى فيليب دوق سوابيا وهو الأخ الأصغر للامبراطور هنرى السادس خصم ريتشارد . وكان من

(1) Painter : A Hist. of the Midlle Ages, p. 252

(2) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 112

(3) Adams : op. cit. p. 378

(4) Cam. Med. Hist, Vol, p. 305

الطبيعى أن تؤيد انجلترا أوتو الرابع مرشح الجلفين نظرا للظروف السابقة من جهة ولمصالحها التجارية فى شمال غرب ألمانيا من جهة أخرى (١) . وقد اتفقت مع انجلترا فى موقفها كل من فلاندرز وبولونيا Boulogne (٢) أما فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد ساند المرشح الآخر وهو فيليب دوق سوابيا ، ولهذا الغرض زحف الى فلاندرز حيث لم يصادفه التوفيق (٣) . ثم أعقبت ذلك هدنة بين الطرفين لمدة سنة استغلها ريتشارد فى بناء حصن جيلارد Gaillard فوق ربوة تطل على نهر السين شمالى روان ، وذلك لحراسة عاصمة نورمانديا من أى اعتداء فرنسى . ولم يلبث بناء ذلك الحصن أن أثار العداوة بين الطرفين من جديد ، فهاجم فيليب أوغسطس على نورمانديا سنة ١١٩٨ ونجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة (٤) . وأخيرا تدخل البابا ونجح سنة ١١٩٩ فى عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمس سنوات (٥) . على أن ريتشارد لم يلبث أن لقي مصرعه فى تلك السنة السابقة نفسها ، وبذلك تخلص فيلب أوغسطس من ألد خصومه وأقدرهم .

وقد خلف ريتشارد فى حكم انجلترا أخوه حنا (١١٩٩ — ١٢١٦) الذى كانت تنقصه الكفاية والقدرة الشخصية اللتين امتاز بهما أخوه ، مما أتاح فرصة لفيلب الثانى ملك فرنسا حتى يستمر فى سياسة تفتيت أملاك التساج الانجليزى بالقارة . ولتحقيق هذا الغرض أخذ فيليب يستعد بتدبير المال اللازم للحرب من جهة وبتأليب آرثر دوق بريتانى ضد عمه حنا ملك انجلترا من جهة أخرى ، وذلك كما سبق أن ألب أبناء هنرى الثانى ضد أبيهم وألب حنا ضد أخيه ريتشارد . وقد تظاهر فيليب باعترافه بسلطة آرثر فى نورمانديا وبريتانى ، وخذ يحشد قلاع هذين الاقليمين بالجند الفرنسيين

(١) Barraclough : The Origins of Modern Germany, pp. 210—213.

(٢) على بحر المانش جنوبى كاليه .

(٣) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 522

(٤) Tout : The Empire and The Papacy, pp. 394—395

(٥) Adams : op. cit. p. 385

تحت ستار مساعدته ضد عمه (١) • وبعد ذلك تخلى فيليب عن مساعدة آرثر مقابل ثمن مرتفع اضطر حنا الى دفعه ، وهو التخلي عن افرى **Evreux** لفرنسا ، وعن المحالفات التي عقدها ريتشارد في ألمانيا وفلاندرز ، فضلا عن دفع مبلغ كبير من المال • وفي الوقت الذي كان حنا ملك انجلترا مفتقرا الى المال وولاء الرجال ، كان فيليب متمتا بكل ما يعوز خصمه ، فأخذ يستولى على مدن نورمنديا واحدة بعد أخرى عن طريق رشوة حامياتها ، فان لم تنفع الرشوة لجأ الى القوة والقتال • وهكذا لم تكد تنته سنة ١٢٠٥ الا كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورمنديا وانجو ومين وتورين ، في حين دان له بالطاعة معظم أمراء بواتو ، بذلك تضاعفت أملاك التاج الفرنسى وأمدت الأملاك الجديدة ملك فرنسا بقوة عظيمة وثروة طائلة (٢) •

والواقع أن استيلاء آل كابيه على نورمنديا يعتبر نقطة تحول بالغة الأثر في تاريخ الملكيات الغربية • فعلى الرغم من حسارة انجلترا الفادحة بضياع نورمنديا الا أنها استفادت بعد أن أصبحت مملكة جزرية قائمة بذاتها ، لا مجرد امتداد لممتلكات ملوكها النورمان في القارة • أما الأمراء النورمان فقد أصبح عليهم أن يختاروا بين ممتلكاتهم واقطاعاتهم في أحد جانبي المانش ، ليكونوا أفضلا اما لملك انجلترا أو لملك فرنسا ، بعد أن كانت تبعيتهم موزعة بين الجانبين • وهكذا يمكن القول بأن استيلاء الفرنسيين على نورمنديا يعتبر الخطوة الأولى نحو تبلور القومية الانجليزية (٣) • أما من ناحية فرنسا فقد غدا فيليب أوغسطس بعد استيلائه على نورمنديا يفوق في قوته أى أمير اقطاعى آخر فى البلاد ، اذ صارت أملاكه تشمل بيكاردى ونورمنديا وأنجو وبواتو وأوفرن ، فضلا عن جزيرة فرنسا • بل ان ملك فرنسا أصبح الرجل الثانى فى أوربا بعد امبراطور الدولة الرومانية المقدسة • وذلك بعد أن تضاعفت أملاكه وموارده فى الرجال والأموال (٤) •

(1) Lasvisse : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 260e

(2) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 253

(3) Stephenson : Med. Hist. pp. 472—473

(4) Orton : op. cit. p. 253

وقد حرص فيليب في السنوات العشر التالية على تدعيم سلطانه في هذه الممتلكات الجديدة التي اغتصبها من التاج الانجليزى ، والاستعداد فيها لمواجهة أى هجوم محتمل من جانب انجلترا ، ولم تلبث أن لاحت الأخطار التي توقعها فيليب أوغسطس ، عندما عاد حنا ملك انجلترا الى بلاده ، ليجمع الأموال اللازمة لاسترداد أراضيها المفقودة في فرنسا ، وليقيم حلفا ضد ملك فرنسا يضم الأمراء الحائقين عليه مثل كونت فلاندرز ، فضلا عن زعيم الولفيين أوتو الرابع امبراطور ألمانيا . وأخيرا تم الاتفاق على أن يقوم الحلفاء بغزو فرنسا من الشمال في حين يهاجم حنا ملك انجلترا أنجو من الجزء الذى تبقى له في أكويتين (١) . وهكذا أصبح الموقف خطيرا بالنسبة لفيليب أوغسطس ، ولا سيما أن أوتو الرابع حشد سنة ١٢١٤ قوذه ضخمة في فلاندرز تبلغ ثمانين ألف مقاتل في حين أخذ حنا يستميل أمراء أكويتين . أما فيليب أوغسطس فلم يكن أمامه سوى أن يعتمد على الشعور الوطنى الذى أخذ يستيقظ في شمال فرنسا من جهة ، وعلى ما عساه أن يقسم به الهوهنشتاوفن - أعداء أوتو في ألمانيا - من جهة أخرى . وكان أن تغلب فيليب أوغسطس على أوتو الرابع وبقية الحلفاء الذين هاجموا فرنسا من جهة الشرق في موقعة بوفان Bouvines (يولية سنة ١٢١٤) ، في الوقت الذى فشل الهجوم الذى قام به حنا ملك انجلترا على اللوار (٣) . وهكذا جاء هذا الانتصار الجديد ليحمى ملوك فرنسا من أى خطر أو تهديد من جانب انجلترا لاسترداد أملاكها المفقودة في نورمانديا ومين وانجو . أما بواتو Poitou فقد ظلت منطقة انتقال بين الطرفين (٣) .

امتداد النفوذ الفرنسى جنوبا - الحملة الأليجنسية :

وبينما فيليب أوغسطس يعمل على نشر نفوذه في الشمال والغرب عن طريق الغزو والسياسة ، اذ بحملة صليبية تتجمع في شمال فرنسا لتغزو جنوبها ،

(١) Lavissee : op. cit. Tome 3; Première Partie pp. 166 — 173.

(٢) Adams : op. cit. p. 431

(٣) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 395—396.

وتبعاً لذلك تمتد نفوذ أسرة كابيه على الجنوب أيضاً . ذلك أنه وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز سياسية وحضارية كبرى ، هي دوقية اكوين وكونتية تولوز وكونتية بروفانس . وكانت الاثنتان الاولتان ضمن نطاق الملكية الفرنسية ، في حين ظلت كونتية بروفانس وراء الرون لا ترتبط بملك فرنسا .

وهكذا استمر جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها ، وهي عزلة زاد من وقعها الاختلاف الحضارى بين الجنوب والشمال ، اذ بقي الجنوب محتفظاً بطابعه الرومانى وتراثه اللاتينى القديم أكثر من أى جزء آخر من أجزاء أوروبا ، دون أن يحدث ما يغير الوضع الحضارى لهذا الاقليم سوى سيطرة العرب على مصب الرون بين سنتى ٨٨٨ ، ٩٧٢ . على أن تخلص جنوب فرنسا من سيطرة المسلمين ساعد هذا الاقليم الغنى بثروته الطبيعية ونشاطه التجارى ومناخه المعتدل على تشييد بناء حضارى امتاز بالتجديد والعظمة . ويكفى أن جنوب فرنسا شهد مولد الأدب البروفنسالى الذى تجلّى بوضوح فى شعر التروبادور فضلاً عن ظهور جو من التسامح الدينى وحرية الفكر (١) .

وقد أدت هذه الحرية وذلك التسامح من جهة ، وروح الاستياء العامة من الأوضاع التى تردت فيها الكنيسة ورجالها من جهة أخرى ، الى انتشار بعض المذاهب الهرطقية فى جنوب فرنسا . ذلك أن تولوز والمنطقة المحيطة بها اكتظت عند نهاية القرن الثانى عشر بأعداء سافرين للكنيسة ورجالها ، فى حين كان الأمراء أنفسهم من الهرطقة أو من مشجعى الهرطقة (٢) . وكان أن ظهر عندئذ مذهبان من المذاهب الهرطقة الخارجة عن تعاليم العقيدة الكاثوليكية وأصولها ، أولها مذهب الوالدنسين (Waldensian) وثانيهما مذهب الكاثارين Catharist . أما المذهب الأول فنسب الى بطرس والدو (Peter Waldo) وهو أحد تجار لبون فى القرن الثانى عشر ، وهب

(1) Thompson : op. cit. Vol. 1, p. 528.

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 397.

جميع ثروته لأوجه البر والاحسان وأخذ - حوالى سنة ١١٧٧ - يتجول ، واعظا الناس بالعودة الى سنن القديسين والرسل الأوائى ، مهاجما رجال الدين وما أصبحوا فيه من ثروة وترف مما يتعارض مع تعاليم المسيحية وروحها (١) . ولم يلبث أن التفت حوله عدد كبير من الفقراء وبخاصة فى جنوب فرنسا واقليم بروفانس حيث أخذ الوالدانسيون يهاجمون رجال الكنيسة حتى اتهمته الكنيسة بالخروج عليها وبأنه يفسر الانجيل تفسيرات غير صحيحة ، ولا سيما أن القانون الكنسى يحرم على أى فرد مباشرة الوعظ والارشاد الا باذن من الكنيسة (٢) . وعندما لجأ بطرس والدو الى البابا ليشتكو الى موقف الكنيسة منه ، رأى البابا حسن نيته ، فأقر الوالدانسيين على مذهبهم فى التقشف والحياة البسيطة ، ولكنه حرم عليهم الوعظ الا باذن من الأساقفة التابعين لهم . على أن بطرس والدو وأنباعه استكشفوا فى العهد الجديد ما ينص على أن الوعظ ركن أساسى من أركان المسيحية (٣) ، فرفضوا الامتثال لرغبة البابا سنة ١١٧٩ ، وقالوا أنهم لا يمثلون لبشر لأن الطاعة تجب عليهم للرب وحده . وهكذا صدر قرار الحرمان ضد الوالدانسيين ١١٨١ - ١١٨٤ وطردهوا من منطقة ليون ، فتحولوا الى فرقة هرطقية ، وأخذوا يباشرون طقوسهم الدينية دون وساطة رجال الدين كما تطرفوا فى اعتناق الآراء الغريبة عن الكنيسة (٤) . وقد مات بطرس والدو نفسه سنة ١١٩٧ ، ولكنه ترك أتباعا كثيرين فى بوهيميا واللورين وجنوب فرنسا وأرغونة وشمال ايطاليا . ولم يلبث أن انقسم هؤلاء الأتباع على أنفسهم وتحولوا الى فرق هرطقية عديدة ، مما أثار فى وجه البابوية مشاكل كثيرة لا حصر لها .

أما أتباع المذهب الثانى فقد أطلقوا على أنفسهم اسم الكاتاريين Cathari أى الأطهار ، وكانت تعاليمهم ذات أصل شرقى وعلى صلة بتعاليم المانويين .

(2) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 707.

(٣) « وأوصانا أن نركز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا

للأحياء والأموات » (سفر أعمال الرسل - الاصحاح العاشر - ٤٢) .

(4) Stephenson : Med Hist. p. 445.

وبينما اخلف الوالدنسيون مع الكنيسة حول أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية. دون أن يعترضوا على تعاليمها الدينية ، اذا بالكاتاريين ينادون بتعاليم تتعارض تعارضا كبيرا مع تعاليم الكنيسة مما جعل الموقف بينهم وبينها مسألة حياة أو موت (١) . ذلك أن مذهبهم لم يقيم على أساس التوحيد ، وإنما كان مذهباً ثنائياً يقول بوجود الهين أحدهما للخير والآخر للشر ، الأول يحكم العالم الروحي والثاني يحكم العالم المادي (٢) . وبعبارة أخرى فإن هذا المذهب قام على أساس الثنائية المطلقة ، فهناك روح ومادة وهناك نور وظلام ، وخير وشر . . . (٣) . كذلك نادوا بتحريم ذبح الحيوانات وأكل لحومها ، وتحريم الزواج وانكار الثالوث المقدس ، الى غير ذلك من الآراء الهدامة . ويبدو أن هذه الآراء انتشرت من شرق أوروبا الى غربها - عن طريق التجار، حتى صلت في القرن الحادي عشر الى لمبارديا وشرقي فرنسا ووسطها وحوض الراين وفلاندرز ، مما هدد الكنيسة وأفزعها فزعا شديدا (٤) . ومن الواضح أن آراء الكاتاريين انتشرت في الجهات التي تنكر فيها رجال الدين لواجباتهم ووظائفهم . وحيث اشتدت الفوارق بين كبار رجال الكنيسة وصغارهم ، الأمر الذي دفع كثيرا من الطبقات الفقيرة الى الانضمام الى هذه الفرقة حتى ازداد عددهم زيادة كبيرة (٥) . ويبدو أنهم بلغوا درجة كبيرة من الكثرة حول مدينة ألبى Albi في كونتيه تولوز - مما جعلهم ينسبون اليها ويعرفون باسم الأليجنسيين Albigensians

ومهما يكن من أمر ، فقد حاول البابا أنوسنت الثالث اقناع الهراطقة في أول الأمر بالعودة الى تعاليم المسيحية وطاعة الكنيسة ، فأرسل بعض الوعاظ - وعلى رأسهم مقدم ديرسيو ، ومندوب من قبل البابا نفسه - الى الجهات الجنوبية من فرنسا . ولكن هؤلاء المبعوثين لم يوفقوا في مهمتهم ، ولم يلقوا

(1) Eyre ; op. cit. p. 355

(2) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 262

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 701—702

(4) Ibid.

(5) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 306

تشجيعا ومساعدة للقيام برسالتهم ، حتى من جانب الأمراء ، وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز ، الذى امتاز بحبه للطرب والمرح فلم يهتم بشئون الدين والكنيسة (١) . وأخيرا يثس أنوسنت الثالث (سنة ١٢٠٤) من القضاء سلميا على هذا الخطر الذى أخذ يستفحل ويهدد الكنيسة تهديدا خطيرا ، فبدأ يفكر فى الالتجاء الى القوة للقضاء على هؤلاء الهرطقة . على أن ريموند السادس رفض أن يمد يد البابوية بالقوة اللازمة لتنفيذ عزمها ، فلجأ البابا الى فيليب أوغسطس ، وطلب منه أن يقود جيشا ضد الهرطقة ، ولكن ملك فرنسا كان هو الآخر مشغولا عندئذ بالحرب ضد حنا ملك انجلترا فلم يلب النداء البابوية الذى تكرر سنة ١٢٠٥ ، ١٢٠٧ . ويبدو أن فيليب أوغسطس لم يرض عن تدخل البابوية فى شئون فرنسا ، وادعاء البابا حق اخضاع بعض المقاطعات الفرنسية ، بحجة أن هذه المقاطعات خارجة عن تعاليم الكنيسة ، فضلا عن أنه وجد نفسه لا يستطيع مهاجمة بعض أفضاله فى الجنوب والاستيلاء على أراضيهم ، مما يعتبر خروجا على أوضاع العرف الاقطاعي (٢) . وأخيرا لجأ المندوب البابوي الى اصدار قرار الحرمان ضد ريموند السادس ١٢٠٧ ، الأمر الذى ترتب عليه مقتل هذا المندوب فى العام التالى بوساطة أحد رجال كونت تولوز . وعلى الرغم من عدد وجود ما يثبت تحريض ريموند السادس على مقتل المندوب البابوي ، الا أن البابا اعتبره مسئولاً عن هذه الجريمة ، فأقرت البابوية قرار الحرمان ضد ريموند السادس ، كما أعلنت أنه من حق أى مسيحى أن يستولى على أراضى وأموال هؤلاء الهرطقة الخارجين عن أصول الدين (٣) .

وقد تحمس كثير من مرء شمال فرنسا لتلبية دعوة البابا ، وان ظل فيليب أوغسطس نفسه على موقفه . وهكذا نجحت هذه الحملة الصليبية التى دعت لها البابوية ضد الهرطقة (سنة ١٢٠٩) ، وان كانت قد تحولت الى القضاء على

(1) Idem : pp. 310—311

(2) Cam. Med.é Hist. Vol. 6 p. 314

(3) Stephenson : op. cit. pp. 446—447

الأمراء الاقطاعيين في الجنوب وعلى رأسهم ريموند السادس كونت تولوز الذي حلت به الهزيمة في سبتمبر سنة ١٢١٣ . ولم تستول هذه الحملة الصليبية على تولوز فحسب بل أنزلت الهزيمة أيضا بملك أرغونة بطرس الثاني (١١٩٦ - ١٢١٣) في موريه Moret سنة ١٢١٣ . وبعد ذلك عقد البابا أنوسنت الثالث مجمعا دينيا بابويا سنة ١٢١٥ قرر اعطاء دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الامارات الاقطاعية المجاورة ، لسيمون دي مونتفورت أحد أمراء جزيرة فرنسا الذي تولى زعامة هذه الحملة .

أما فيليب أوغسطس الذي ظل بعيدا - في أول الأمر - عن حوادث تلك الحرب الصليبية ، فإنه لم يستطع أن يقاوم نفوذ البابا وفرار المجمع البابوي . ولم يلبث فيليب أن خرج عن عزلته تدريجيا ، فسمح لابنه لويس سنة ١٢١٣ بالمشاركة في حرب الهراقة الجنوبية ، كما ساعد سيمون دي مونتفورت في تدمير الحصون والمعازل الاقطاعية في الجنوب (١) . وعلى الرغم من أن سيمون اعترف لفيليب أوغسطس بالتبعية ، الا أن الأخير لم يلبث أن استاء من مسلك الأول المشوب بالكبرياء والعنف . لذلك ساعدت قوات ملك فرنسا المحاولة التي قام بها ريموند السادس لاسترداد أملاكه ، مما أدى الى مقتل سيمون سنة ١٢١٨ ، ثم لم يلبث أن لحق به فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣ .

اصلاحات فيليب أوغسطس :

ولم تكن انتصارات فيليب أوغسطس المصدر الوحيد لشهرته وأهميته في التاريخ ، لأن اصلاحاته لا تقل أهمية عن تلك الانتصارات . وهنا نلاحظ أنه لم يكن عنيقا مع أقصاله وأتباعه الاقطاعيين ، لأن مشاغله في الحروب والفتوح حالت دون أن يسلك مسلكا عدائيا تجاه هؤلاء الأفعال ، ومع ذلك فإنه لم يترك فرصة تمر دون أن يؤكد نفوذه وسلطانه على الأمراء الاقطاعيين . أما موقفه من الكنيسة فيلاحظ أن صداقة فيليب أوغسطس مع البابوي لم تمنعه من تشديد قبضته على الكنيسة في بلاده ، فأخذ يعمل جاهدا للحد

(١) Lavisce: op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 277

من تدخل البابا فى شئون الكنيسة ، كما ألزم رجالها بدفع ما عليهم من
خرائب والتزامات (١) .

أما فى الناحية الادارية فأول ما يبدو لنا هو أن فيلب أوغسطس كان محاربا
وسياسيا أكثر منه اداريا ومشرجا . وهكذا أصبح دوره الرئيسى فى تاريخ
فرنسا تقوية الملكية ومضاعفة سلطاتها ، لا تنظيم المملكة وشئون الحكم . ومع
ذلك فإن الظروف تطلبت منه أن يسهم بحجر جديد فى البناء الادارى لفرنسا ،
وهو البناء الذى اكتمل فى عهد حفيده لويس التاسع (٢) . ذلك أنه قاوم
الاتجاه الذى كان يرمى الى جعل الوظائف الكبرى فى الدولة وراثية ، لما
فى ذلك من خطر يهدد كيان الملكية ، كما قلل من نفوذ كبار الموظفين . وقد
أوجد فيلب أوغسطس طبقتين من الموظفين الاداريين ، تتألف الأولى من
الوكلاء الملكيين (bailis) ومهمتهم الاشراف على العدالة وجمع
الايادات الملكية . وكان يراعى فيهم أن يكونوا من أبناء الطبقة الوسطى
لضمان اخلاصهم للملك وارتباطهم به ، فضلا عن مراعاة نقلهم من منطقة
الى أخرى قبل أن ينشئوا علاقات مع أهالى المناطق العاملين فيها (٣) . أما
الطبقة الثانية فكانت من المديرين الذين عهد اليهم الاشراف على المناطق
الواقعة على الحدود قرب الأعداء ، ومن ثم اختير هؤلاء المدبرون من
الفرسان والبارونات ذوى الخبرة بشئون القتال . وفيما عدا مهامهم الحربية ،
قام المدبرون بوظائف الوكلاء الملكيين فى مناطقهم وساعدتهم فى ذلك عدد
كبير من الموظفين والمندوبين (٤) . وقد ساعد فيلب أوغسطس فى الناحية
الادارية وزيره والتر الاستبارى Walter the Hospitaler الذى امتد
نشاطه الى جميع فرع الادارة الحكومية فضلا عن شئون الجيش والقضاء .
والى جانب هذه الفئة من كبار الموظفين ، وجدت مجموعة من المستشارين -
العلمانيين والدينيين - روعى فيهم أن يكونوا من أتباع الملك المخلصين حتى
يظلوا بمثابة مجلس استشارى . وكان الملك يضيف الى هؤلاء مجموعة

(1) Idem : pp. 211—218

(2) Tout : The Empire and the Papacy, p. 404

(3) Lavissee : op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 235

(4) Painter : A Hist. of the Middle Ages, p. 254

أخرى من النبلاء والأساقفة في حالة الضرورة (١) • وعند دعوة هذا المجلس ، روعى في الدعوة تحديد مكان الاجتماع وزمانه والغرض منه • ويبدو أن هذا المجلس كان يناقش المسائل المعروضة عليه ، كما كان بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا بحيث لا يتعرض للمسائل التي تدخل في الروتين الحكومي العادي • وبعبارة أخرى فإنه كان يمثل هيئة استشارية بحيث لا يوجد ما يلزم الملك بقبول قراراتها أو تنفيذها ، لأن الملك كان مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية • على أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أنه كان حاكما مطلقا بكل معاني الكلمة ، لأن طبيعة النظام الاقطاعي وما ارتبط به هذا النظام من حقوق وواجبات كانت تحد من سلطة الملك المطلقة (٢) •

أما المدن فكان فيلب أوغسطس أعظم نصير لها ، فحالف أهلها وأظهر عطايا كبيرا على آمالهم ، حتى دخل كثير من المدن الفرنسية الخارجة عن أملاكه تحت حمايته • ولم يكتف فيلب أوغسطس بإعطاء تلك المدن براءات تضمن حريتها ، وإنما ساعدها في تقوية أسوارها واستحكاماتها وحمايتها تجارتها وتشجيع صناعاتها • كذلك شجع التجار الأجانب على التردد على الأسواق الفرنسية وشراء حاجاتهم من انتاجها (٣) • أما باريس فقد أضحت على أيام فيلب أوغسطس أول عاصمة حديثة لدولة مركزية في أوروبا • ذلك أنه شيد لها سورا قويا يضم بين جوانبه القصر الملكي والمدارس والكتدرائية والأحياء التجارية والصناعية ، كما غنى برصف شوارع المدينة وطرقاتها (٤) • وفي عهد فيلب أوغسطس حصلت جامعة باريس على أول براءة ملكية ضمنت لها امتيازاتها ، بل حققت لها اعترافا رسميا من السلطة الحاكمة • وهكذا لم تلبث أن ظهرت باريس كمركز لأعظم جامعة شمالي الألب في العصور الوسطى ، وكقاعدة للملكية المركزية الوحيدة في القارة ، فضلا عن كونها

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 326

(2) Thompson : op. cit. Vol. 1 p. 526

(3) Lavissé : op. cit. Tome 3. Première partie, pp. 222—232

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 327—330

ضمت بعض المباني القوطية الجميلة التي أخذت تنتشر في بقية أنحاء فرنسا عندئذ (١) .

وخلاصه القول أن فيلب أوغسطس استطاع - عن طريق القوة والسياسة أن يجعل من فرنسا دولة عظمى، وأن يجعل الملك على جانب من النفوذ والسلطان دونهما نفوذ أى أمير إقطاعي آخر في فرنسا . ويكفى أنه أول ملك من أسرة كاييه شعر بأن قوته وسطوته بلغت درجة من الثبات بحيث لم يعد في حاجة إلى تنويع ابنه في حياته ليضمن له العرش من بعده (٢) .

لويس الثامن :

وقد خلف فيلب أوغسطس ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦) الذي لم يكن على شيء من المقدرة التي امتاز بها أبوه ، وإن ظل حريصا على سياسة والده الخاصة بتكثيل فرنسا وبسط نفوذ الملكية على مختلف أنحائها . ولتحقيق هذه الأهداف فرض لويس الثامن سياسته على أكويتين وإن بقيت بوردو خارج قبضته ، كما أظهر رغبة صادقة في ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وفي تلك الأثناء كان قائد الحملة الصليبية الأليجنسية - سيمون دي مونتفورت - قد قتل سنة ١٢١٨ فتنازل ابنه عموري للويس الثامن ملك فرنسا عن كل الحقوق التي حصل عليها سيمون من البابوية ، مما دفع لويس الثامن إلى القيام بحملة صليبية سنة ١٢٢٦ ضد الهراقة وإن كان هدفها الحقيقي ضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا . وقد نجح لويس الثامن فعلا في تحقيق جزء كبير من هدفه قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦ (٣) .

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠) :

وعلى الرغم من أن لويس التاسع كان طفلا في الثانية عشر من عمره عند وفاة أبيه إلا أن ذلك لم يعق تقدم الملكية الفرنسية بفضل وصاية أمه بلاش

(1) Tout: The Empire and the Papacy. p. 403

(2) Idem : Ps. 402—405

(3) Cam. Med. Hist. Vol, 6 pp 322—324

القشتالية (Blanche of Castile) • ولم يلبث أن فاق لويس التاسع أمه في الصلاح والتقوى حتى سمي القديس لويس (١) • على أن الأمراء والبارونات الاقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك ووصاية أمه للحد من نفوذ الملكية المتزايد • ولتحقيق ذلك دبر البارونات أكثر من مؤامرة ضد الملك الصغير وأمه ، ولعل أهمها تلك المؤامرة التي حيكت سنة ١٢٢٩ التي تزعمها دوق برجنديا وكوتات بريتاني وشامبني ولامارش ، يؤيدهم هنري الثالث ملك إنجلترا • ولكنها باءت بالفشل بفضل حزم بلاش - الملكة الوالدة - من جهة ، ومساعدة البابوية - الحليفة الطبيعية لأعداء الهرطقة الأليجنسية - من جهة أخرى (٣) • وهكذا استمرت الأوضاع حتى انتهت فترة الوصاية سنة ١٢٣٥ •

ولم يحاول لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التي تلقاها أسلافه ، فدفعته حماسته الدينية الى القيام بالحملة الصليبية الشهيرة المعروفة بالسابعة ، على الرغم من معارضة أمه ونصح وزرائه • وقد قضى لويس التاسع عدة سنوات في الاستعداد لهذه الحملة حتى أبحر سنة ١٢٤٨ قاصدا مصر ، بعد أن أصبحت العقيدة السائدة عند الصليبيين عندئذ أن مصر هي المفتاح الموصل للسيطرة على بيت المقدس (٣) • وبعد أن استولى لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٩ ، تقدم نحو القاهرة حيث حلت الهزيمة بجيشه قرب المنصورة نتيجة لجهل الصليبيين بأحوال البلاد وطبيعتها في حين وقع لويس التاسع نفسه أسيرا في أيدي المسلمين ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفع فدية ضخمة •

واذا كان لويس التاسع ملكا متدينا حي الضمير ، فان ذلك دفعه الى التسليم بحقوق غيره مثلما تمسك هو بحقوقه • وفي ضوء هذا الاعتبار اختار لويس

(1) Idem, p: 331

(2) Orton : op. cit. p. 332

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 357

(م ١٨ - أوروبا في العصور الوسطى)

التاسع أن يسالم هنرى الثالث ملك انجلترا بدلا من محاولة طرد الانجليز من جاسكونى (١) .

ويبدو أن هذه السياسة لم تؤد فقط الى اقرار صلح باريس بين فرنسا وانجلترا سنة ١٢٥٩ بعد فترة طويلة من الحروب المتقطعة بين الدولتين ، بل دفعت هنرى الثالث أيضا الى التنازل عن كل حقوقه الاسمية فى نورمنسديا وأنجبو ، ومين وتورين وبواتو ، وان أصر على الاحتفاظ بملكية جسون وجاسكونى وليموسان وكويرسى وبريجورد ، على أن تؤدى جميعها فروض التبعية للملك فرنسا وتتعهد بعدم المشاركة فى أية ثورة ضده (٢) . وهكذا يمكن القول بأنه - بصرف النظر عن حماسة لويس التاسع الصليبية - فان سياسته الخارجية اتسمت بطابع المسالمة ، فلم يحاول أن يستغل الظروف السيئة التى أحاطت ببيت هوهنشتاوفن ليحقق لنفسه مكاسب خاصة ، ورفض أن يقدم نفسه فى النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فلم يستجب الى تحريض البابا فى مهاجمة فردريك الثانى ولم يخضع لرأى الأخير ويسلمه البابا انوسنت الرابع (٣) ، وهذا فضلا عن أنه لم يفكر فى استغلال سوء أحوال انجلترا ليعتدى على أملاكها فى فرنسا (٤) . واذا كان لويس التاسع قد استطاع أن يجعل من فرنسا فى أواخر عهده أقوى دولة فى أوروبا ، فاننا يجب أن نقدر الظروف الخارجية التى ساعدت على ابراز هذه الحقيقة ، وأهمها خرج مركز الامبراطورية الألمانية من جهة وسوء أحوال الملكية الانجليزية من جهة أخرى (٥) .

أما فى الداخل ، فان لويس التاسع حرص كل الحرص على احترام حقوق أقصاله من كبار الأمراء الاقطاعيين ، فى الوقت الذى احتفظ بسلطانه الملكى وحقوقه العليا فى السيادة على الدولة . وفى ذلك الوقت كان كبار الأمراء الذين أتبعوا أسلافه فى القرن الثانى عشر قد ماتوا ، وخلفهم خلف ضعيف من

(1) Painter : A History of the Middle Ages, p. 257

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 358

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 420—421

(4) Stephenson : Med. Hist. p. 476

(5) Tout : The Empire and the Papacy, p. 241

الأمراء الذين لم يحاولوا أن يسيبوا متاعب كثيرة للملكية (١) • لذلك لا عجب إذا رأينا عهد لويس التاسع وقد امتاز باصلاحات متعددة فى النواحي الادارية والقضائية والمالية ، وان كان من الملاحظ أن ذلك العهد لم يشهد مولد نظم جديدة بقدر ما شهد تطور النظم القديمة السائدة • وكان محور السلطة المركزية فى ذلك العصر - سواء فى فرنسا أم إنجلترا - هو المجلس الاقطاعى للملك Curia Regis الذى تألف فى جوهره من مجموعة من الوزراء الدائمين ، ينضم اليهم أفصال الملك فى حالة الشروع فى اعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو غيرها من المسائل المهمة (٢) • وعندما ازداد عدد أعضاء هذا المجلس فى القرن الثالث عشر أخذ ينقسم الى عدة لجان لكل منها مهمته، مثل الهيئة التى اختصت بالايراداب الملكية Chambre des Comptes والهيئة الخاصة بالقضاء أو المحكمة الملكية فى باريس Parlement وغيرهما • أما ممتلكات الخاصة الملكية والأراضى الاقطاعية الخاصة بالملك ، فقد عهد بالاشراف عليها الى وكلاء ملكيين Bailis ولكى يتأكد لويس التاسع من حسن سير الجهاز الحكومى ، دأب على ارسال مندوبين ملكيين (enquêteurs) لسماع شكاوى الأهالى والتحقيق فيها فضلا عن التفتيش على المحاكم المحليين ، مما جعلهم شديدي الشبه بالمبعوثين Missi على أيام شارلمان (٣) • وقد تمسك لويس التاسع بحقه فى أن تستأنف أمامه كافة القضايا على أن يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الاقطاعيين ، كما حدد عددا معينا من الجرائم يجب أن يكون الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم • أما فى الناحية المالية فقد جعل العملة الملكية صالحة للتداول فى جميع أنحاء فرنسا ، فى حين لا تسرى العملات الخاصة التى أصدرها كبار الأمراء الاقطاعيين الا فى اقطاعاتهم وحدها ، الأمر الذى ضمن البقاء والفوز النهائى للعملة الملكية (٤) • كذلك اهتم لويس التاسع برعاية

(1) Orton : op. cit. pp. 333—334

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p, 335

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 424

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6 pp. 336—338 & 351

التجارة وحماية القومونات ونشر الأمن والسلام ، مما مكن التجار من البيع والشراء في يسر وطمأنينة ، هذا فضلا عن عدة مدن أقامها لويس التاسع في الجنوب (١) .

أما سياسة لويس التاسع تجاه الكنيسة فقد قامت على أساس حمايتها من جشع الأمراء الموظفين الملكيين ، واعطائها كل مالها ، وفي الوقت نفسه تمسك بحقوق الملكية تجاه الكنيسة وحرص على استخلاص هذه الحقوق كاملة غير منقوصة ، فلم يسمح لها بالتدخل في الشؤون العلمانية وفرض عليها دفع الأموال المطلوبة منها بانتظام (٢) . وقد حظى رهبان منظمتي الفرانسيسكان والدومينكان بمكانة خاصة عند لويس التاسع على حساب غيرهم من أفراد المنظمات القديمة ، فضلا عن رجال الكنيسة العلمانيين (٣) .

وهكذا أخذ لويس التاسع يعمل على تنظيم الإدارة وإقرار العدالة والمساواة في جمع الضرائب ، مما جعل لفترة الأخيرة من حكمه - بعد عودته من الأراضي المقدسة سنة ١٢٥٤ - تمتاز بالسلام الشامل . ولم يحدث في تلك الفترة ما يعكر صفو السلام والأمن الداخلي ، وإنما أخذ الملك ينتقل من إقليم إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى في ظل إدارته الصالحة ، وما عرف عنه من عطف وبر بالضعفاء والمحتاجين . لذلك لا عجب إذا امتاز ذلك العهد بالتقدم الحضاري الكبير في ميادين العلوم والفنون ، فأخذت جامعة باريس الناشئة تخطو بالدراسات المتنوعة إلى الأمام ، في حين بلغ الفن القوطي عصره الذهبي ، كما يبدو في كتدرائيات ذلك العصر وعلى رأسها كتدرائيات أميان وبورج وبوفيه (٤) .

على أن افراط لويس التاسع في التقوى والتدين كانت له نتائج هدامة من بعض الوجوه ، إذ دفعه ذلك إلى التطرف في اضطهاد اليهود والهرطقة ، وإلى

(1) Lavissee : op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 76

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 350

(3) Tout : The Empire and the Papacy, pp. 422—423

(4) Thompson : op. cit. Vol. I, pp. 539—540

السماح باتخاذ أعنف الاجراءات ضد الأليجنسيين في الجنوب ، مما أثر في الحضارة البروفنسالية تأثيرا سيئا للغاية (١) . وعلى الرغم من أن حملة لويس التاسع الصليبية على مصر سنة ١٢٤٩ لم تأت بثمرة سوى الخسارة الفادحة في الأرواح والأموال (٢) ، فإن لويس التاسع سرعان ما نسي الدرس القاسي الذي أخذه قرب المنصورة سنة ١٢٤٩ وأخذ يفكر في أواخر أيامه في القيام بحملة صليبية جديدة . وكانت وجهة هذه الحملة تونس في شمال افريقية ، حيث أرسى أسطول لويس التاسع سنة ١٢٧٠ في وقت من أسوأ فصول السنة . ومن الواضح أن لويس لم يكن عندئذ في سن تمكنه حتى من ركوب فرسه ، الأمر الذي عجل بوفاته في السنة السابقة نفسها ، وبذلك فقدت فرنسا أبرز من جمع بين المواهب الخلقية والسياسية في سلسلة ملوكها العظام (٣) .

فيليب الثالث :

وبعد لويس التاسع حكم ابنه فيليب الجريء أو الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥) الذي يعتبر عهده عديم الأهمية ، اللهم الا من ناحية أنه يمثل مرحلة انتقال بين الملكية الاقطاعية التي ميزت عهد سلفه لويس التاسع ، والملكية القومية التي ميزت عهد خلفه فيليب الرابع . وهنا نشير الى أن القومية بمعناها الحديث الذي نعرفه ، لم يكن لها وجود في العصور الوسطى (٤) ، وكل ما هنالك هو أن انهيار النظام الاقطاعي ونشأة المدن وظهور الآداب واللغات الجديدة ، كل ذلك جعل ملوك أوروبا في أواخر العصور الوسطى يرفضون فكرة خضوع العالم لسلطة امبراطورية عليا ، وهي الفكرة التي طالما هيمنت على العصور الوسطى . وهكذا أخذ كل ملك يباشر سلطانه ويثبت نفوذه على أنه يستمد ذلك السلطان والنفوذ من الله مباشرة مما جعل الملوك يتجهون في بلادهم اتجاها محليا ، لا عالميا .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6 p. 347

(2) Orton : op. cit. p. 337

(3) Lodge : The Close of the Middle Ages, p. 46

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 306

وعلى الرغم من عدم كفاية فيليب الثالث ، الا أن الملكية الفرنسية استمرت في تقدمها بفضل الطاقة التي زودها بها ملوك فرنسا السابقين ، مما جعل عهد فيليب الثالث لا يبدو مظلماً على طول الخط + ولعل أبرز ما في هذا العهد أن الملكية الفرنسية نجحت في ضم ثلاثة أقاليم مهمة ظل اثنان منها في حوزة التاج الفرنسي + ذلك أنه كان من جملة الذين هلكوا في حملة لويس التاسع الصليبية على تونس سنة ١٢٧٠ ألفونس أمير بواتيه وزوجته دون أن يتركا وريثاً ، فاستولى التاج الفرنسي على أملاكهما الواسعة في تولوز وبواتو Boitou وأوفرن Auvergne وبروفانس (١) + ثم حدث سنة ١٢٧٤ أن توفي هنري ملك نافاري وكونت شامبني وبري Brie تاركا طفلة صغيرة في الثالثة من عمرها ، أخذتها أمها الى البلاط الفرنسي طالبة حماية فيليب الثالث + وسرعان ما انتهز ملك فرنسا الفرصة فأسرع باحتلال شامبني وبري وضمهما الى التاج الفرنسي ، في الوقت الذي وافق البابا على زواج أرملة هنري من فيليب ابن ملك فرنسا الذي اعتلى العرش تحت اسم فيليب الرابع (٢) +

فيليب الرابع :

أما فيليب الرابع أو الوسيم (١٢٨٥ - ١٣١٤) فقد امتاز ببعد النظر وقوة العزيمة والمهارة السياسية + وقد اتجهت سياسته نحو توحيد فرنسا تحت سيادة الملك ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوروبا (٣) + لذلك أعلن منذ اعتلائه العرش أن الحدود الطبيعية لبلاده هي الراين والألب والبرانس ، وبناء على ذلك أخذ يعمل على ضم الجهات التي ظلت خارج نفوذه + وقد رأينا أن التاج الفرنسي ضم شامبني عن طريق زواج فيليب الرابع من صاحبته + ولما كانت بريتانى في شبه عزلة ، فان فيليب أخذ يتطلع الى جوين وجاسكونى ، اللتين كانتا لا تزالان مملوكتين للملك انجلترا ، مع اعترافه بالتبعية فيهما لملك فرنسا + ثم كان أن تصادمت المصالح الانجليزية والفرنسية أيضا في اقليم

(1) Lavissee : op. cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 111

(2) Lodge : The Close of the Middle Ages. pp. 47—48

(3) Orton : op. cit. pp. 358—359

فلاندرز ، الذى كان من أهم المراكز الصناعية والتجارية فى غرب أوروبا (١) . فانجلترا التى لم يكن قد تم تصنيعها بعد ، اعتادت أن تصدر الصوف الخام من يوركشير الى فلاندرز حيث يتم صنعه وتسويقه ، فى حين تجبى الملكية الانجليزية ايرادها الأساسى من الضريبة المفروضة على الصوف المصدر الى فلاندرز (٢) . وكان دوق فلاندرز تابعا للتاج الفرنسى فى حين كانت مدن ذلك الاقليم حرة من الناحية العملية ، ويميل أهلها الى انجلترا بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا . هذا كله فضلا عما كان هناك من تنافس بين الانجليز والفرنسيين حول مصادد الأسماك فى بحر الشمال مما أثار كثيرا من الاشتباكات بين الصيادين الفرنسيين والانجليز فى بحر الشمال وحرك شكوك الملكية فى كل من البلدين (٣) .

وأخيرا حدث سنة ١٢٩٣ أن أعتدى بعض صيادى جاسكونى على الصيادين النورمان ، ورفض الفريق الأول الامتثال لأحكام المحاكم الفرنسية ، مما جعل فيليب الرابع ملك فرنسا يتنهر فرصة المتاعب الداخلية التى تعرض لها ادوارد الأول ملك انجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧) ويستدعيه للحضور أمامه لاستجوابه بشأن اخلاله بتعهداته الاقطاعية (٤) . على أن ادوارد كان مشغولا عندئذ بحرب الاسكتلنديين ، فوعد بالحضور فى وقت آخر قريب ، وأرسل أخاه ادنوند بدله ، كما سلم لفيليب بعض القلاع الواقعة على الحدود فى جوين ضمنا لحضوره (٥) . ويبدو أن ادوارد لم يستطع الحضور الى باريس فى الوقت المحدد ، مما أساء الى العلاقة بين الطرفين فلجأ فيليب الرابع الى التمسك بالقلاع التى أخذها ، فى حين رد عليه ادوارد باعلان تحلله من ولائه للملك فرنسا ، كما عمل تحالفا مع بعض الأمراء الألمان والفلمنكيين ضده . أما فيليب الرابع فرد على ذلك بالتحالف مع سكتلند ضد ملك انجلترا ، ثم احتل جوين

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 320.

(٢) Perroy: La Guerre de Cent Ans, pp. 16—18.

(٣) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 296.

(٤) Lodge: op. cit. p. 51.

(٥) Perroy: op. cit. p. 45.

وهاجم كونت فلاندرز حليف ادوارد سنة ١٢٩٧ ، حتى انتهى الموقف بصلح مؤقت بين الطرفين سنة ١٢٩٨ بفضل وساطة البابا بونيفيس الثامن ، فتخلى ملك إنجلترا عن مساعدة كونت فلاندرز وتخلّى ملك فرنسا عن مساعدة سكتلند . ولم يلبث أن ثار أهالي فلاندرز من الفلمنك ضد الحكم الفرنسي فذبحوا كثيرا من الفرنسيين ، كما هزموا القوات الفرنسية سنة ١٣٠٣ عند كورتراى Courtrai وأخيرا اضطر فاب الرابع الى عقد صلح نهائى مع ادوارد الأول سنة ١٣٠٣ على أساس أن يعود كونت فلاندرز الى حكم بلاده وأن تسترد إنجلترا جاسكونى وجوين (١) .

ولكن يبدو أن أطماع فيلب الرابع فى فلاندرز كانت لا يمكن أن تنتهى بهذه السرعة ، فلم يلبث بعد أن اطمأن الى وفاة بونيفيس الثامن سنة ١٣٠٣ أن عاد الى محاولة اخضاع الفلمنكيين ، ونجح فعلا فى الانتصار عليهم ، ولكنه لم يحرز نصرا حاسما . وسرعان ما استطاع أهالي فلاندرز تعبئة قواهم مما جعل ملك فرنسا يعجل بالصلح سنة ١٣٠٥ .

أما عن العلاقة بين فيلب الرابع والبابوية فكان محورها الأساسى البابا بونيفيس الثامن الذى كان أهم شخصية فى عصره ، حتى لقب بأنه آخر بوبوات العصور الوسطى العظام (٢) . كان هذا البابا (١٢٩٤ - ١٣٠٣) قد شب فى أيام سطوة البابوية وقوتها ، ومن ثم لم يستطع أن يتفهم الأوضاع الجديد التى أخذت تلم بالعالم الأوروبى ، وأنشأ يباشر سلطاته البابوية على أوسع مدى ، مما جره الى التدخل فى شئون الشلاء والملوك المعاصرين (٣) . وعندما أشرك فيلب الرابع - ملك فرنسا - رجال الكنيسة فى دفع الضرائب التى قررها لمواصلة الحرب ضد إنجلترا سنة ١٢٩٤ ، احتج رجال الكنيسة على هذا العمل وشكوا الى البابوية . والواقع أن أهم مشكلة واجهت الملكيات

(1) Lavis: op cit. Tome 3 Deuxième Partie, p. 300.

(2) Lodge: op. cit. p. 28.

(3) Pirenne : La Fin du Moyen Age, Tome 1, pp. 44 - 45.

الأوربية عند نهاية القرن الثالث عشر كانت الحاجة الى المال لمواجهة نفقة الدولة المتزايدة من جهة ونفقات الادارة وكثرة الموظفين من جهة أخرى . وفى حالة فرنسا بالذات جاء عامل جديد هو حرب فلاندرز الطويلة التى تطلبت من فيلب الرابع الالتجاء الى طرق جديدة - لا تخلو من عنف - فى جمع الأموال ، حتى من الكنيسة (١) .

لذلك أصدر البابا بونيفيس الثامن قرارا سنة ١٢٩٦ بطلان حق الملوك فى فرض ضرائب على الممتلكات الكنسية دون اذن البابوية ، وهدد بتوقيع قرار الحرمان على كل من يخالف هذا القرار (١) . وقد استاء ملكا فرنسا وانجلترا من هذا القرار الذى يعتبر محاولة من البابوية للعودة الى أوضاع القرن الثانى عشر . وسرعان ما اتخذ استياء ادوارد الأول ملك انجلترا صورة نزاع مع رئيس أساقفة كانتربورى ، فى حين أدى استياء فيلب الرابع الى صدام مباشر بينه وبين البابا بونيفيس الثامن نفسه (٣) . ذلك أن فيلب الرابع حرم على جميع الأجانب دخول فرنسا ، وبذلك حال دون وصول المندوبين البابويين ، كما حرم تصدير الذهب والفضة والنقود خارج فرنسا مما أدى الى قطع الموارد المالية التى تصل الى البابوية من فرنسا (٤) .

وكان من الطبيعى أن يحتج بونيفيس الثامن على اجراءات فيلب الرابع فدعا الى عقد مجمع من رجال الدين لاتخاذ قرار ضد الملكية الفرنسية (٥) . ولكن فيلب الرابع حال دون خروج أى واحد من رجال الدين الفرنسيين الى روما ، كما دعا مجلس الطبقات States General لأول مرة فى التاريخ الفرنسى (أبريل سنة ١٣٠٢) . وقد أقر النبلاء فى ذلك المجلس السلطة الزمنية للتاج ، فى حين كتب رجال الدين الى البابا بونيفيس الثانى

(1) Orton: op. cit. pp. 360—361.

(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, p. 45.

(3) Tout: The Hist. of England. pp. 200-201.

(4) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième/Partie, p. 132.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 313.

ينصحونه بعدم عقد المجمع الذي نادى به (١) . ولكن المجمع البابوي لم يلبث أن عقد سنة ١٣٠٢ ، وحضره بعض رجال الدين الفرنسيين على الرغم من الاجراءات المشددة التي اتخذها فيلب الرابع ، مما عرضهم لمصادرة أملاكهم . وقد أقر ذلك المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذي أثار فيلب الرابع وجعله يوجه الى البابا بونيفيس الثامن كثيرا من الاتهامات كما دعا الى عقد مجمع لمحاكمته (٢) . ثم حدث في الوقت الذي كان بونيفيس يتأهب لاصدار قرار الحرمان ضد فيلب أن تمكن أتباع الأخير من القبض على البابا واهنته ، بحيث لم يستطع البابا الخلاص الا بصعوبة ، ثم مات في روما سنة ١٣٠٣ . وبوفاة بونيفيس الثامن أنطوت آخر صفحة في تاريخ البابوية بمعناها العظيم الذي عرفته العصور الوسطى ، لأنه على الرغم من اتهامه بالمجسوبة والمحابة وعلى الرغم من أن دأته جعله من أهل الجحيم ، الا أنه كان مشرعا عظيما واداريا كبيرا ، بحيث أن فشله لا يرجع الى نقص في مواهبه بقدر ما يرجع الى عدم استطاعته تفهم الروح الجديدة التي سادت المجتمع الأوربي في أواخر العصور الوسطى (٣) . وقد جاء بعد بونيفيس الثامن البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) الذي كان رجلا معتدلا فصحب القرارات التي سبق أن صدرت ضد ملك فرنسا (٤) . ثم جاء البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) فسمح لفيلب الرابع بفرض ضريبة عشرية لمدة خمس سنوات على ممتلكات الكنيسة الفرنسية . وفي سنة ١٣٠٩ اختار كلمنت الخامس افينون مقرا له يباشر منه مهام منصبه البابوي ، وبذلك بدأت فترة الأسر البابلي التي ستتكمّل عنها فيما بعد .

ويتضح مما سبق أن فيلب الرابع لم يحقق نتائج ناجحة تستحق الذكر في نشاطه الخارجى ، اذ انتهت محاولاته فى ضم اكويتين وفلاندرز بالفشل ،

(1) Lavis: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 149—150.

(2) Pirenne: La Fin du Moyen Age, Tome, 1, pp. 49 — 50.

(3) Eyre; op. cit. pp. 465—466.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 316.

ولم ينجح الا في ضم ليون سنة ١٣١٢ • واذا كان قد حقق انتصارا على البابوية فان هذا الانتصار تم عن طريق وسائل غير مشرفة ، هذا فضلا عن أن اقامة البابوية في أفينون لم تحقق فوائد ثابتة لفرنسا • وهكذا يبدو أنه اذا كانت ثمة أهمية لعهد فيليب الرابع في التاريخ ، فان هذه الأهمية تتبع من ادارته الداخلية وجهوده في تحسين هذه الادارة والتخلص من جميع العقبات التي حالت دون سيطرة الملك على دولته سيطرة تامة (١) • وهنا نلاحظ أن الفارق الأساسي بين الدولتين الانجليزية والفرنسية في هذه الحقبة هو أن الأولى دانت كلها للملوكها الذين غزوها وفرضوا عليها نظاما حربية وقضائية ومالية موحدة ، في حين تم بناء فرنسا لبنة بعد أخرى ، إذ لم يكن للملوكها في أول الأمر سوى الجهات المحدودة المعروفة باسم جزيرة فرنسا ، ومن ثم أخذوا يبسطون سيطرتهم تدريجيا على كبار الأمراء في الجهات المجاورة • ولهذا السبب ظلت فرنسا لا تخضع لقانون عام موحد حتى ثورتها الكبرى سنة ١٧٨٩ (٢) •

ويبدو أن فيليب الرابع اضطر بحكم حاجته المستمرة الى المال اللازم لمواصلة حروبه الى اتخاذ بعض الاجراءات التعسفية • ومن ذلك أنه طرد جميع رجال المال والسياسة اللبارديين من فرنسا سنة ١٢٩١ ، كما صادر ممتلكاتهم • أما اليهود فقد قام فيليب الرابع في أول الأمر بحمايتهم مقابل مقاسمتهم أرباحهم • وكان اليهود في تلك الحقبة من العصور الوسطى يمثلون طبقة رجال المال في أوروبا والشرق • حقيقة انهم انتشروا في بلاد واسعة متعددة ، ولكن ربطت بينهم ثلاث روابط هي الدين والدم والمال • وهكذا جمعوا ثروات طائلة عن طريق الاشتغال بالأعمال المالية واقتراض الهيئات الكنسية لاتمام منشأتها الفخمة ، أو اقتراض الفرسان والأمراء لتنفيذ مشروعاتهم الصليبية ، وذلك بفوائد مالية باهظة ، منهزين فرصة تجريم الكنيسة على أتباعها أكل الربا (٣) • وأخيرا استغل فيليب الرابع الكرم

(1) Lodge: The Close of the Middle Ages, pp. 49—50.

(2) Stephenson: Med. Hist. p. 495.

(3) Orton: op. cit. pp. 631—632.

الاجماعى لليهود وصادر أملاكهم وطردهم من بلاده سنة ١٣٠٦ (١) • ولكن فيلب الرابع لم يلبث أن أدرك ما ترتب على طرد اليهود من اضطراب أصاب التجارة الفرنسية ، مما جعله يسمح لبعضهم بالعودة ، وإن كان قد عاد الى طردهم ثم ارجاعهم أكثر من مرة (٢) • ويبدو من استعراض تاريخ مختلف البلدان الأوربية فى تلك الفترة أن هذه المعاملة السيئة التى لقيها اليهود من فيلب الرابع لم تكن أمرا شاذا فريدا من نوعه • ذلك أن جشعهم وحبهم للمال وسيطرتهم على الحياة الاقتصادية دفعت ادوارد الأول ملك إنجلترا الى طردهم أيضا من بلاده ومصادرة أملاكهم سنة ١٢٩٠ (٣) ، كما لجأ أمراء ألمانيا وملوك أسبانيا والسلطات الحاكمة فى المدن الإيطالية الى اتخاذ مثل هذه الاجراءات ضد اليهود (٤) •

ولم ينبج الداوية - وهم أفراد احدى المنظمات التى أسهمت بنصيب واضح فى الحروب الصليبية - من أطماع فيلب الرابع • وكانت منظمة الداوية قد فقدت أهميتها العسكرية منذ سقوط عكا فى أيدي المماليك سنة ١٢٩١ ، ولكنها ظلت بعد ذلك تقوم بنشاط مصرفى ومالى واسع در عليها ثروة طائلة • والواقع أنها أضحت أشبه شىء بتنظيم سرى يحوطه الغموض ، ويعيش أفرادها فى رفاة ونعيم بعد أن انصرف معظمهم الى المصالح الدنيوية (٥) • وقد اقترح بعض البابوات ضم هذه المنظمة الى هيئة أخرى حصلت على صيت ذائع فى عصر الحروب الصليبية ، وهى الاستبارية التى ظل أفرادها يقومون بكثير من أعمال البر والاحسان (٦) • ولكن فرسان الداوية عارضوا فكرة ادماج الهيئتين بعضهما فى بعض ، بعد أن ألفوا حياة الدعة والراحة حتى أتخمتهم الثروة واتصفوا بالكبرياء والنفطسة • ثم كان أقدم البابا كلمنت الخامس

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74—75.

(2) Lavis: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, pp. 222—226.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 655.

(4) Tout: The Hist. of England, pp. 175—176.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316—317.

(6) Stephenson : Med. Hist. pp. 501—502.

على التحقيق في مسلك الداوية لمحاكمتهم ، وعندئذ انتهز فيلب الرابع ملك فرنسا الفرصة سنة ١٣١٠ فأحرق أربعة وخمسين من فرسانهم في باريس ، ثم أصدر أمرا سنة ١٣١٢ بحل هيئة الداوية ومصادرة أملاكها . وفي سنة ١٣١٤ أحرق مقدمهم جاك دي مولاي Jacques De Molai (١) ، وبذلك انحلت هيئتهم وتفرقوا في البلاد . ويبدو أن الاضطهاد الذي حل بالداوية جعلهم يعتقدون بعض المذاهب الهرطقية التي أدانهم بها البابا كلمنت الخامس (٢) .

ثم ان حاجة فيلب الرابع الى الأموال لم تدفعه الى التعسف في جمعها فحسب ، بل أيضا الى تغيير العملة والتلاعب في قيمتها (٣) . كذلك فرض ضرائب على المبيعات مما أدى الى تدهور أهمية أسواق شامبني العظيمة . هذا فضلا عن الضرائب غير المباشرة التي فرضها على الواردات والصادرات بعد أن توصل الى حقيقة مهمة ، هي استغلال الضرائب في تنظيم عملية التجارة . وهكذا لجأ الى فرض ضريبة على الأصواف الانجليزية والفلمنكية لحماية الانتاج المحلي والمساعدة على ترقيته . كذلك فرض فيلب الرابع ضرائب على الهيئات الخاصة مثل النقابات والأديرة والجامعات وأراضى البارونات والطبقة البورجوازية . أما المدن فقد فرض على كل منها مبلغا معينا كبيرا من المال ، ومنح البلديات حرية في جمع الضرائب من الأهالي (٤) .

أما في الناحية الادارية والتشريعية فان فيلب الرابع فصل من الهيئة القضائية المعروفة باسم برلمان باريس بقبة الاقطاعيين ، وأحل محلهم مجموعة من القانونيين الذين درسوا القانون الروماني وتشبعوا بما فيه من حب للملكية واعترف بسيادتها (٥) . كذلك أنشأ محكمة أو غرفة مالية الغرض منها

(1) Lodge: op. cit. p. 56.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 318—319.

(3) Lavis: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 233.

(4) Cam. Méd. Hist. Vol. 7, pp. 324—325.

(5) Lavis: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

الفصل فى المنازعات التى تقوم حول الضرائب وغيرها من الاشكالات المالية .
على أن أهم من هذا كله كانت دعوة فيلب الرابع لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ ، وهو المجلس الذى كان له أثر خطير فيما بعد فى تاريخ فرنسا (١) . ذلك أن فيلب الرابع دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث - رجال الدين والنبل والبورجوازيين - وتكررت هذه الدعوة أكثر من مرة ، مثلما حدث سنة (١٣٠٢ - ١٣٠٣) أثناء نزاعه مع البابا بونيفيس الثامن ، وسنة ١٣٠٨ عند حل منظمة الداوية ، وسنة ١٣١٤ عندما احتاج الى أموال للحرب فى فلاندرز (٢) . ويبدو من التجاء فيلب الرابع الى دعوة هذا المجلس أنه كان يقدر ما للرأى العام من أهمية وقوة . وعلى الرغم من أنه لم يسمح لأعضاء مجلس طبقات الأمة بمناقشة القوانين ، الا أنه سمح لهم برفع آرائهم الى الملك (٣) . وقد حدث أثناء انعقاد المجلس سنة ١٣١٤ أن اعترض الأعضاء على احدى الضرائب ، فاضطر فيلب الرابع الى الغائها والى عدم التلاعب فى العملة بعد ذلك .

نهاية اسرة كاييه :

وعند وفاة فيلب الرابع سنة ١٣١٤ خلفه أكبر أبنائه لويس العاشر لمدة عامين (١٣١٤ - ١٣١٦) وبعد ذلك اعتلى عرش فرنسا ابن آخر لفيلب الرابع هو فيلب الخامس (١٣١٦ - ١٣٢٢) الذى دعا مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد لاقرار أحقيته فى العرش واحباط المحاولة التى قام بها منافسوه لتولية ابنة لويس العاشر . وكان فيلب الخامس حاكما نشيطا ذكيا (٤) ، عمل على تركيز الادارة الملكية فى باريس وتحصيل كثير من الضرائب الاقطاعية لصالح الملكية ، ومنع الأمراء الاقطاعيين من الاحتفاظ بحاميات فى

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 7, p. 684.

(2) Lodge: op. cit. pp. 59—60.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 7, pp. 326—327.

(4) Lavissee: op. cit. Tome 3, Deuxième Partie, p. 330.

قلاعهم ما لم تكن هذه القلاع على الحدود • كذلك امتاز عهد فيلب الخامس بكثرة التشريعات التي بلغت بالنظم التي وضعها آا، كايه درجة الكمال • أما مجلس طبقات الأمة فقد بلغ عندئذ درجة كافيه من النضج وتعددت اجتماعاته حيناً بعد آخر •

وبعد فيلب الخامس تولى الحكم أخوه شارل الرابع (١٣٢٢ - ١٣٢٨) وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع ، فشابهه أباه في حب فرض الضرائب والتلاعب في قيمة النفوذ • أما في الخارج فقد شغل شارل الرابع بحرب فلاندرز ، وهي الحرب التي ظلت منذ أيام فيلب الرابع لا تخمد نارها الا لتشتعل بعد قليل (٣) • كذلك فتح شارل الرابع باب النزاع مع انجلترا من جديد نتيجة لاستيلائه على معظم جاسكوني • ومهما يكن من أمر ، فان شارل الرابع هذا لم يترك وريثا يرثه في حكم المملكة ، مما أدى الى انتهاء عهد أسرة كايه (٤) •

وكان أن اجتمع مجلس طبقات الأمة بعد وفاة شارل الرابع سنة ١٣٢٨ ، فاختار فيلب قالوا الذي أصبح فيلب السادس ملكا على فرنسا • وليس لهذا الاختيار من أهمية خاصة سوى أن النزاع حول وراثة العرش بعد وفاة شارل الرابع كان من اسباب قيام حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ، وهي الحرب التي سنعالجها في باب خاص فيما بعد •

(1) Orion: op. cit. p, 364.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 338.
(3) Lodge: op. cit. p. 65.

الباب العاشر

ألمانيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة

اختلف الجزء الشرقى من الإمبراطورية الكارولنجية (ألمانيا) عن جزئها الغربى (فرنسا) فى بنائه السياسى وتراثه الحضارى • فالجزء الشرقى لم يكن معظمه فى يوم من الأيام داخل حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة • وإذا كان الملوك الميروفنجيون ثم الكارولنجيون قد أجهدوا أنفسهم فى إخضاع بافاريا وسكسونيا ، إلا أن هذه المناطق ظلت مدة طويلة أصعب من أن يتم هضمها وتمثيلها داخل جهاز الحضارة الغربية • وهكذا استمرت ذكرى الماضى القريب ماثلة فى أذهان شعوب الجانب الشرقى من إمبراطورية الفرنجة عندما أخذت هذه الإمبراطورية تتعرض للتفكك والانهار قرب منتصف القرن التاسع (١) •

وتتضح هذه الفكرة فى شعوب ألمانيا التى أخذت تمسك بتراثها القديم وتبحث عن زعامة محلية عندما بدا لها عجز الملكية الكارولنجية عن دفع خطر الفيكنج والمجريين ، فظهر زعماء مجليون من كبار الأمراء فى كل سكسونيا وفرنكونيا وسوابيا وبافاريا ، وهى الأجزاء الرئيسية التى تألفت منها مملكة الفرنجة الشرقية أو ألمانيا (٢) • على أنه يلاحظ أن ألمانيا امتازت عن بقية الممالك التى تفرعت عن الإمبراطورية الكارولنجية بأن قوة الدولة لم تناقص فيها بشكل خطير نتيجة لازدياد نفوذ الأمراء الاقطاعيين (٣) • حقيقة أن هناك تشابه واضح فى التطور السياسى بين المملكتين الفرنسية والألمانية فى أن التيار العام فى كل منهما اتجه نحو انتقال السلطة الفعلية الى أيدي الأمراء

(1) Barraclough: The Origins of Modern Germany, pp. 6—11.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 164.

(3) Orton: op. cit. p. 160.

المحليين ، وفى أن زمام الحكم انتقل فى كل من البلدين من أيدي سلالة البيت الكارولنجي الى بيوت أخرى اقطاعية (١) • ولكن ألمانيا اختلفت عن فرنسا فى أن أراضي الملوك وممتلكاتهم ظلت واسعة فى الأولى ، كما أن نفوذ الأمراء - على الرغم من ازدياده - لم يصل الى درجة تقويض نظم الادارة القديمة كما صار الحال فى فرنسا (٢) •

الواقع أن الخطر الذى هدد الملكية الألمانية لم يأت من ناحية الأمراء الاقطاعيين بقدر ما أتى من ناحية طبيعة البلاد نفسها • فبينما جغرافية فرنسا الطبيعية ساعدت على توحيد سكانها - مع اختلاف أصولهم - اذا بألمانيا تظل منقسمة الى أقاليم كبرى تختلف اختلافا بينا من الناحية الطبيعية ، حتى أصبح لكل اقليم منها اتجاهه السياسى وعصبيته العنصرية • فاذا كان الجزء الشمالى من ألمانيا سهلى منبسطة فان الجزء الجنوبى جبلى وعرة ، واذا كانت أنهار الشمال ، تتجه لتصب فى بحر الشمال أو البحر البلطى وبذلك توجه الأهالى نحو الشمال ، فان أنهار الجنوب تجرى شرقا وغربا لتوجيه الأهالى فى هذين الاتجاهين • وهكذا ساعدت هذه العوامل على بقاء الفوارق بين الشعوب والقبائل التى تألفت منها ألمانيا فى نهاية القرن التاسع ، وهم السـوابيون والبافارـيون والسكسون والثورنـجيون والفريزيون (٣) •

أرنولف :

وكان أهم حكام ألمانيا من البيت الكارولنجي فى أواخر القرن التاسع هو الملك أرنولف (٨٨٧ - ٨٩٩) • وقد امتاز حكم أرنولف هذا - المبالغ اثنى عشرة سنة - بالحيوية والقوة ، حتى استطاعت ألمانيا فى تلك الفترة التغلب على أعدائها فى الشمال والشرق ، فضلا عن حصولها على نوع من الزعامة بين بقية الدول المسيحية فى غرب أوروبا • وحسب أرنولف أن الملوك الذين

(1) Stephenson: Med. Hist. pp. 279—280.

(2) Orton: op. cit. pp. 160—161.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 3f 63.

(م ١٩ - أوروبا فى العصور الوسطى)

حكموا مختلف أجزاء دولة الفرنجة قصدوا ألمانيا للحصول على موافقته ورضائه مما حقق له زعامة فعلية عليهم ، على الرغم من عدم تمتعه بلقب الامبراطورية (١) .

ولعل خير دليل على قوة أرنولف هو نجاحه في دفع خطر الفيكنج عن بلاده بطريقة جعلت منهم فيما بعد اقل أعداء الدولة الألمانية خطرا عليها . ذلك أنه حدث سنة ٨٩١ أن أخذ الدانيون يتدفقون على أوستراسيا في قوة وغنف حتى اجتاحتها جميع أراضي الميز والموزل ، وأنزلوا الهزيمة بالقوات المحلية التي واجهتهم في لوثرنجيا . وعندما سمع أرنولف بذلك أتى مسرعا من بافريا وأخذ يطارد الدانيين حتى معسكرهم عند لوفان *Louvain* حيث أنزل بهم هزيمة ساحقة (٢) . وكانت هذه الهزيمة درسا قاسيا تلقاه الدانيون في الجزء الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية ، بحيث لم يحاولوا بعد ذلك التوغل داخل حدود ألمانيا أو إقامة امارة مستقلة في أراضيها ، وإن استمرت اغاراتهم السريعة على شواطئ فيريزيا والراين الأدنى (٣) .

وبعد أن أخضع أرنولف بعض الثورات التي قامت بها العناصر السلافية التابعة له في الشرق - مثل التشك والمورافين - دفعه طموحه ورغبته في أن يصبح امبراطورا الى أن يزج بنفسه في السياسة الايطالية ، مما ترك أسوأ الأثر بالنسبة لتاريخ ألمانيا في العصور الوسطى . ذلك أن ايطاليا كانت عندئذ ميدانا للتنافس بين بعض الأمراء ، مما أتاح فرصة لتدخل أرنولف في شئونها ، وبخاصة عندما اشتد النزاع بين جاي *Guy* (ويدو *Wido*) وبرنجار *Berengar* حول حكم ايطاليا ، مما أثار حربا عنيفة بين الطرفين وقفت فيها لمبارديا في صف برنجار ، في حين ظهرت تسكانيا

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 468—469.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 322.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 10.

يوالبابوية جاي (١) • وكان أن توج البابا بستفن الخامس جاي امبراطورا وملكا على ايطاليا سنة ٨٩١ ، الأمر الذي حقق له النصر النهائي وجعل خصه يريجار يستعبد بأرنولف ملك ألمانيا (٢) • وهنا رحب أرنولف بهذه الفرصة التي أتاحت له التدخل في شئون ايطاليا فعبّر الألب سنة ٨٩٤ حيث أخضع حوض نهر البو ، في حين فرجاي نحو الجنوب حيث توفي • وفي العام التالي أغار أرنولف مرة أخرى على ايطاليا ودخل روما حيث رحب به البابا الجديد فورموزس Formosus (٨٩١ - ٨٩٦) وتوجه امبراطورا (٣) •

وهكذا وضع أرنولف أساس سابقة خطيرة أمام حكام ألمانيا الذين وزعوا جهودهم بين ألمانيا وايطاليا دون أن يحصلوا على أية فائدة من وراء التدخل في شئون ايطاليا سوى اضعاف نفوذهم في ألمانيا وبعثة قواهم • فعلى الرغم من الجهود الضخمة التي بذلها ملوك ألمانيا للسيطرة على ايطاليا ، إلا أن نفوذهم فيها لم يكن فعليا الا في حالة وصول الملك الألماني على رأس جيئته الى ايطاليا ، وفيما عدا ذلك سرعان ما يتقلص ذلك النفوذ ويتلاشى بعودة الألمان الى بلادهم (٤) • ذلك أن البابوية والنبلاء والمدن عارضت جميعا قيام أية سلطة سياسية قوية في ايطاليا ، ومن ثم فشل الأباطرة الألمان في الربط بين ألمانيا وايطاليا سياسيا في ظل تاجهم ، في الوقت الذي صرقتهم شئون ايطاليا عن تدعيم نفوذهم في ألمانيا ذاتها • رمهما يكن من أمر فان الانقسامات والأفكار التي تعرضت لها ألمانيا على عهد أرنولف وخلفائه المباشرين أدت الى ترك ايطاليا وشأنها دون تدخل من جانب ألمانيا لمدة ستين سنة (٥) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 64—65.

(2) Oman: The Dark Ages, pp. 463—464.

(3) Deanesly: op. cit. p. 565.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 364—365.

(5) Bryce: The Holy Roman Empire, p. 78.

أما أرنولف فقد عاد من إيطاليا متوجاً بالتاج الامبراطورى الذى أضفى عليه نوعاً من المهابة أكدت أولويته بين ملوك غسرب أوروبا المعاصرين وزعامته عليهم • على أن المشاكل التى واجهت أرنولف بعد عودته من إيطاليا كانت كثيرة وشاقة ، ومن هذه المشاكل ما هو داخلى مرتبط بمسألة الوراثة ، ومنها ما هو خارجى يتمثل فى اغارة المجرىين على ألمانيا (١) • أما هؤلاء الهنغاريون أو المجرىون فكانوا قبائل رعوية من أصل أسبوى مثل الهون والآفار ، اعتمدوا على الخيل فى حلهم وترحالهم وبرعوا فى الخسروب المخاطفة التى شنوها على خصومهم • وقد ترك هؤلاء الهنغاريون مقرهم فى شرق أوروبا - على البحر الأسود - وزحفوا سنة ٨٩٦ نحو السهول الواقعة بين الكربات والدانوب ، وهى المنطقة التى نسبت اليهم وعرفت باسم هنغاريا أو المجر • ومن هذا الموطن الجديد أغار الهنغاريون فى ربيع سنة ٨٩٩ على إيطاليا عن طريق اكويليا وقيرونا حتى وصلوا بافيا • وبعد أن نهبوا سهول إيطاليا الشمالية اضطروا الى العودة عن طريق بانونيا (٢) • على أن أرنولف يعتبر المسئول الأول عن تجرؤ الهنغاريين على أراضي الامبراطورية بعد أن استعان بهم فى حربه ضد مورافيا ، وبذلك دلهم على طريق مورافيا وألمانيا جميعاً • ومهما يكن من أمر ، فانه يبدو أن خطر الهنغاريين على ألمانيا لم يكن حسيماً فى حياة أرنولف نفسه ، لانشغالهم بتطهير سهول الدانوب من السلاف ، ولذلك لم يشتد خطرهم على بافاريا وثورنجا الا عقب وفاة أرنولف فى نهاية سنة ٨٩٩ (٣) •

لويس الطفل (٨٩٩ - ٩١١) :

أجمع أمراء ألمانيا وأساقفتها على اختيار لويس الطفل (Lewis the Child) ملكاً عقب وفاة أبيه أرنولف سنة ٨٩٩ • وكان لويس هذا فى السادسة من عمره عندئذ ، الأمر الذى جعل الاحدى عشرة سنة التى حكم فيها البلاد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 67.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, no. 43—44.

(3) Oman: The Dark Ages, p. 471.

حكما اسما من أحلك عصور التاريخ الألماني • ففي تلك الحقبة قويت النزعة
الاقطاعية عند الأمراء الألمان ، وجاءت هذه النزعة مصحوبة بروح عنصرية
قوية وعصبية قبلية واضحة ، مما ساعد على استمرار الحروب والمنازعات
فيما بينهم • وربما أدى الى حدة هذه المنازعات أن مناصب الدوقات والكوتات
أصبحت وراثية ، مما جعل لكل قسم من الأقسام الأربعة الرئيسية التي تألفت
منها ألمانيا - وهي فرانكونيا وسوابيا وبافاريا وسكسونيا - دوقا يرثه انه في
منصبه (١) • ولم تكن النزعة الانفصالية أقل وضوحا عند الأساقفة الألمان ،
الذين بلغوا هم الآخرون درجة كبيرة من الثروة واتساع الأملاك والنفوذ
حتى أصبحت لهم سيطرة على التاج ، كما ناضلوا مع الأمراء لتحقيق أطماع
سياسية بحتة (٢) • على أنه يبدو أن هؤلاء الزعماء المحليين - من دينين
وعلمانيين - ظلوا لا يجرؤون على الحركة ما دام هناك ملك قوى على رأس
الدولة ، فلما توفى أرنولف وخلفه ابنه لويس الطفل أخذوا يتحسرون
ويشتبكون بعضهم مع بعض في منازعات طويلة وحروب أهلية دامية أضرت
بالبلاذ ضررا جسيما •

وزاد الطين بلة اشتداد اغارات الهنغارين التي لم تنقطع عن ألمانيا منذ وفاة
أرنولف سنة ٨٩٦ • وقد بدأ الهنغارون بالاغارة على بافاريا وكارثيا ، ثم
اتهمزوا فرصة الحرب الأهلية في فرانكونيا وتطرقوا الى سوابيا حتى وصلوا
سكسونيا • وكان أن أنزل الهنغارون هزيمة كبرى بالقوات البافارية سنة
٩٠٧ • كما قتلوا ليتوبولد Luitpold دوق بافاريا وذبحوا رئيس
أساقفة سالزبرج وأسقف فريزنج وسبن Seben (٣) • وهكذا تمكن
الهنغارون من اجتياح بافاريا كما دخلوا ثورنجا في العام التالي وقتلوا
دوقها وأسقف ورزبرج ، الأمر الذي دفع لويس الطفل - وكان قد بلغ
السادسة عشر من عمره - الى النزول الى الميدان بنفسه لصد خطر الهنغارون ،
وفعلوا اتحد البافاريون والسوابيون والفرانكونيون تحت قيادة الملك الصغير

(1) Orton: op. cit. p. 161.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 370.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 69.

لجرب المجريين. ولكن الهزيمة حلت بهم جميعا . ولم يلبث أن توفي لويس الطفل عقب هذه الكارثة ، في سبتمبر سنة ٩١١ (١) .

كونراد الأول (٩١١ - ٩١٨) :

و وفاة لويس الطفل انتهت سلالة الست الكارولنجي من الذكور في ألمانيا ولم يعد هذا البيت ممثلا الا فـ شخص شارل البسيط في فرنسا (٢) . ولم يكن هناك سوى أحد طريقين أمام النبلاء الألمان للتغلب على مشيكة ملء العرش ، فاما اختيار ملك من سلالة الفرع الفرنسي للبيت الكارولنجي ، واما أن ينتخب النبلاء الألمان أحدهم لشغل هذا المنصب . وبعد كثير من الجدل والتردد تغلب الرأي الأخير ، فاجتمع زعماء فرانكونيا وسكسونيا وسوابيا وبافاريا واختاروا سنة ٩١١ كونراد الأول دوق فرانكونيا ملكا عليهم . وهكذا أصبحت الملكية الألمانية انتخابية ، فيشارك في انتخاب الملك كبار الأمراء فضلا عن رؤساء أساقفة مينزوكولونيا ، مما جعل عملية الانتخاب هذه مصدر خلافات وحزازات لا تنقطع (٣) .

وكانت السنوات السبع التي قضاها كونراد الأول في الحكم مليئة بالمتاعب الداخلية والخارجية ، اذ لم يكن له محد موروث - كما كان للكارولنجيين - يعتمد عليه في توطيد سلطانه وفرض كلمته على كبار الأمراء الذين نظروا اليه على أنه واحد منهم ، وازدادوا تاعدا عن السلطة المركزية . وهكذا قويت النزعة الانفصالية في أقسام ألمانيا المختلفة ، وكثرت الحروب الأهلية والثورات الداخلية في ذلك العهد (٤) . وقد جاول كونراد الأول - يساعده الأساقفة - القبض على زمام الأمراء ، ولكنه دفع الثمن غاليا ، اذ أثار كره الأمراء للملكية حتى أصبح كبار الأمراء في أواخر عهده أكثر شعورا بقوتهم

(1) Oman: The Dark Ages, pp. 472—473.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 21.

(3) Barraclough: op. cit. p. 18.

(4) Oman: The Dark Ages, pp. 475—476.

وأشد تعصبا ضد الملكية ونفوذها (١) . وهكذا يبدو أنه إذا كان كونراد الأول قد فكر في بسط سيطرته على جميع أنحاء المملكة ، فإنه سرعان ما اضطر الى التخلي عن هذه الفكرة والاعتراف بأمراء سكسونيا وسوابيا وبافاريا على أنهم أنداد مساوون له . والواقع أنه لم يكن في وسع كونراد أن يفعل غير ذلك أمام ازدياد شعور العصبية المحلية في الأقاليم السابقة من جهة ، وتجدد خطر الهنغارين على ألمانيا من جهة أخرى (٢) .

ذلك أنه في الوقت الذي أخذ السوابيون والبافاريون يقاومون جهود كونراد الأول في توحيد المملكة تحت سلطته الفعلية ، إذا بالهنغارين يوعلون في ألمانيا حتى بلغوا الراين سنة ٩١٣ ، فأغاروا على مدينة كوبلنز Coblenz بل دهموا بازل وأحرقوها سنة ٩١٧ ، وهي أهم مدن الركن الجنوبي الغربي من المملكة الألمانية . وهكذا مات كونراد الأول دون أن ينجح في دفع الأخطار الداخلية أو الخارجية التي أحاطت بدولته (٣) .

هنري الأول (الصياد) ٩١٩ - ٩٣٦ :

وكان آخر ما فعله كونراد الأول وهو على فراش الموت أن نصح من حوله بضرورة اختيار ملك قوى يخلفه إذا أرادوا انقاذ ألمانيا . ويبدو أن التفكير في الصالح العام تغلب حينئذ على كونراد لأنه اعترف بضعفه وحذرهم من اختيار أحد أفراد أسرته ، بل رشح لمنصب الملكية خصمه العنيد هنري السكسوني ، لأنه اعتقد أنه أصلح فرد يستطيع انتشال البلاد من الهوة التي ترددت فيها (٤) .

ثم سارت الأمور في الاتجاه الذي أراده كونراد الأول ، فاجتمع كبار الأمراء والأساقفة عقب وفاته وقر رأيهم على اختيار هنري دوق سكسونيا

-
- (١) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 371—372.
 - (٢) Stephenson : Med. Hist. p. 229.
 - (٣) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 33—34.
 - (٤) Cman: The Dark Ages. p. 477.

ملكا على ألمانيا سنة ٩١٩ ، ويقال ان اختيار هنرى لمنصب الملكية تم أثناء انشغاله برياضة الصيد ، ومن ثم لقب فى التاريخ بالصياد (Fowler) (١) . والواقع أن انتقال الملكية الى البيت السكسونى أمر له تأثيره العظيم ، حتى أنه يعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الأمة الألمانية . حقيقة ان قيام دولة ألمانية مستقلة أصبح حقيقة تاريخية واقعة منذ عهد لويس الألمانى وأرنولف ، ولكن السيادة ظلت لعنصر الفرنجة فى ألمانيا حتى وفاة كونراد الأول ، مما جعل ألمانيا تبدو فى صورة الجزء الشرقى من دولة الفرنجة أكثر منها دولة ألمانية مستقلة . ولكن بانتقال الحكم الى دوق سكسونيا أخذت الملكية تبدو فى طابع ألمانى بحت ، لا سيما وأن السكسون كانوا أقل العناصر التى تألفت منها ألمانيا تأثرا بتقاليد الكارولنجيين وأكثرها تمسكا بتراتها الجرمانى القديم (٢) .

والمعروف أن الفضل يرجع الى هنرى الأول فى وضع أسس الملكية الألمانية وتثبيت هذه الأسس تثبيتا ظهر أثره واضحا بعد ذلك فى عهد والده وخليفته أوتو (٣) . على أنه يبدو لنا فى أول الأمر أن سلطة هنرى الصياد وهو ملك - عندما تولى الحكم - لم تتجاوز سلطته وهو دوق سكسونيا (٤) ، فالألمانيا كانت وقتئذ أقرب الى اتحاد بين الدوقات الكبرى ، مع احتفاظ الزعيم أو الدوق الذى يحكم أقوى هذه الدوقات بلقب الملكية . ومن هنا كانت مهمة هنرى الصياد هى أن يحول هذه السيادة الاسمية الى سلطة فعلية ، ولذلك رفض - من أول الأمر - أن يتوج بيد رئيس أساقفة مينز حتى لا يظهر بمظهر النبعة للكنيسة ، كما عمل على تقوية الروابط بين الدوقات الألمانية (٥) . أما موقف هنرى الأول من كبار الدوقات ، فقد طلب اليهم اعلان ولائهم له

(١) ومن الثابت أن هذا اللقب لم يطلق عليه لأول مرة فى التاريخ الا قرب منتصف القرن الثانى عشر ، أنظر
(Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179)

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 13—14.

(3) Bryce: op. cit. p. 117.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 179.

(5) Thompson op. cit. Vol. 1, pp. 373—374.

وتقديم فروض التبعية بوصفهم أفضاله الاقطاعيين • كذلك أصر هنري على الحد من نفوذ هؤلاء الدوقات عن طريق حرمانهم من كل سيطرة على الكونتات أو المحكام المحليين ، وجعل هؤلاء الموظفين مسئولين أمام الملك مباشرة • أما الأساقفة ومقدمو الأديرة فقد أعاد اليهم أراضيهم التي اغتصبت منهم خلال حكم لويس الطفل ، وجعلهم يتمتعون في هذه الأراضي بالسلطة التي تمتع بها الكونتات وبذلك أصبحوا • يحون التاج تبعية مباشرة (١) •

ومن الواضح أن هنري الأول اعتمد في تنفيذ سياسته الداخلية والخارجية على قوته الحربية التي استمدتها من سكسونيا ، كبرى الدوقيات الألمانية التي عرف أهلها بالشجاعة وقوة الشكمية • على أنه كان من العسير أن يتمكن هنري من تنفيذ جميع أركان هذه السياسة قبل أن يؤمن بلاده ضد الأخطار الخارجية التي سببت له ولأسلافه كثيرا من الكوارث في السنوات الأخيرة • ذلك أن سكسونيا قاست كثيرا من غزوات الدانين والونديين (٢) ، فضلا عن المجرين الذين أخذوا يوجهون حرايبهم سنة ٩٢٤ نحو سكسونيا ، بعد أن لمسوا قوة معارضة البافاريين • وهكذا تلقت سكسونيا الضربة وحدها في تلك المرة ، دون أن يلقي هنري العياد أية مساعدة من سوابيا أو بافاريا ، الأمر الذي جعله يقبل الصلح مع الهنغاريين على أساس أن يدفع لهم جزية سنوية • وبذلك استطاع هنري أن يجنب بلاده خطرهم لمدة تسع سنوات استغلها في القيام بعد اصلاحات حربية • وكان أهم هذه الاصلاحات انشاء مراكز محصنة Burgwarde في نورنجميا وشرق سكسونيا ، وهو المراكز التي تحولت بسرعة الى مجمعات تجارية نشيطة تعيش داخل أسوار محصنة وتقسم بحمايتها حاميات من السكسون (٣) •

ولم يلبث أن انتهى أجل الهدنة مع الهنغاريين سنة ٩٣٣ ، وعندئذ فضل هنري القتال على الاستمرار في دفع الجزية ، فأنزل هنري الأول بالمجريين

(1) Painter: A History of the Middle Ages, p. 165.

(١) قبائل سلافية انتشرت بين البحر البلطى والكربات •

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 375.

هزيمة قرب مرسبرج (مارس ٩٣٣) وبعد ذلك حارب هنرى الأول الدانين سنة ٩٣٤ وانتزع منهم منطقة قرب نهر الأيدر جعلها مستعمرة للمستوطنين الألمان ، وبذلك ضمن لألمانيا السيطرة على مصب نهر الألب (١) . وهكذا بدأ هنرى الأول حركة توسع الألمان شرقا ، كما حال دون تصدع المملكة وانفصال أجزائها الكبرى الأمر الذى ثبت أقدام الأسرة السكسونية فى الحكم وبحق للملكية الألمانية ما كان ينقصها من مجد وهبة (٢) .

أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦ - ٩٧٣) :

أوصى هنرى الأول قبل وفاته فى يولية سنة ٩٣٦ باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده . وكان أن اختير أوتو ملكا بعد أبيه هو فى العشرين من عمره ، وتم تتويجه فى آخن .

ويعتبر أوتو الأول أو العظيم مؤسس الامبراطورية المقدسة بالمعنى الذى يعبر عنه اسم هذه الامبراطورية والذى يشير الى ارتباط ايطاليا وألمانيا تحت سيادة حاكم واحد يسيطر على شئونهما جميعا (٣) . حقيقة ان تلك الامبراطورية الألمانية تعتبر من الناحية العملية امتدادا لامبراطورية شارلمان ، كما أنها اعتمدت على الآراء التى قامت عليها امبراطورية شارلمان سنة ٨٠٠ ، ولكن

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 185.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 38—39.

(٣) المعروف أن اللقب الأساسى لهذه الامبراطورية هو « الرومانية » فقط ، أما صفة « المقدسة » فقد ظهرت لأول مرة على عهد الامبراطور فردريك الأول حوالى سنة ١١٥٧ عندما استعمله الامبراطور نداء وجهه الى زعماء الامبراطورية طالبا مساعدته ضد المدن اللمباردية ، وبعد ذلك أكثر هنرى الرابع ثم فردريك الثانى من استعمال لقب « المقدسة » فى وصف الامبراطورية حتى غدا شائعا . على أن استعمال هذا اللقب فى وصف الامبراطورية لا يعنى أى تغيير فى وضعها السياسى ، لأن هذه الامبراطورية بمعناها العالمى الواسع وضع أساسها شارلمان ، وبمعناها الضيق - أى فى حدود ألمانيا وإيطاليا - يرجع تأسيسها الى أوتو العظيم .

(أنظر . Bryce: op. cit. pp. 196—197)

القرن ونصف القرن الذى انقضى منذ تنويع شارلمان ، صحبه تغيير كثير من الأوضاع فى غرب أوروبا ، وبخاصة بالنسبة لمركز الامبراطورية وسلطانها وعلاقتها بالكنيسة ، وهو الأمر الذى يجعلنا ننظر الى أوتو فى التاريخ لا على أنه خليفة شارلمان بعد فترة طويلة من الشغور ، وانما على أنه المؤسس الثانى للامبراطورية فى الغرب (١) .

وكان أوتو الأول يعتقد فى سمو مركزه ، فأراد أن يجعل من وظيفته الملكية سلطة فعلية ، ولذلك أخذ ينشر نفوذه على مختلف أنحاء ألمانيا ، كما حرص على تعيين أقاربه فى مناصب الدوقيات الشاغرة . وقد أدت سياسة أوتو الى كثير من الثورات والحروب الأهلية ، الأمر الذى جعله يتجه نحو الكنيسة ليتخذ رجالها سلاحا يشهره فى وجه الدوقات وكبار الأمراء . ذلك أن أوتو الأول أدرك أنه فى حاجة الى أنصار لا يعتمدون على العصبية العنصرية ولا يحرصون على مصالحهم الوراثية ، ولم يجد ضالته الا فى رجال الكنيسة ، فرأى فى قوة الأساقفة اضعافا للنبلاء وللعصبية العنصرية التى هددت الوحدة الألمانية (٢) . وهكذا صار لزاما على الأساقفة ومقدمى الأديرة أن يرسلوا الفصائل اللازمة للجيش الملكى كلما طلب اليهم ذلك ، كما ضاعف أوتو من نفوذهم فى مناطقهم - وفى المناطق القريبة - على حساب الدوقات . وبذلك ضمن أوتو الأول فى حالة ثورة أحد الدوقات ضده - وجود أنصار أقوىاء للملكية من رجال الكنيسة داخل أراضى الدوق (٣) .

وقد لجأ أوتو الأول بحكم انجابه نحو الاعتماد على الكنيسة ورجالها الى التوسع فى منح الأساقفة ومقدمى الأديرة الاقطاعات الكبيرة ، كما نصب نفسه حاميا للكنيسة وأملاكها . وسرعان ما أصبح كبار رجال الدين فى ألمانيا على درجة واسعة من النفوذ والسلطان ، كما أخذوا يباشرون سلطات واسعة فى النواحي القضائية والمالية والادارية . على أنه يلاحظ أن الكنيسة دفعت الثمن

(1) Bryce: op. cit. p. 79—80.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 18—21.

(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 166.

غاليا لأن تحول الأساقفة الى أمراء اقطاعيين يتمتعون بسلطات علمانية واسعة ، جعلهم خاضعين للملك خضوعا مباشرا كما جعل تقليدهم مهام مناصبهم الدينية من حق الملك وحده . وهكذا أخذ أوتو الأول يتحرك في تسعين الأساقفة وعزلهم ، مما أضر ببناء الكنيسة ونظامها أبلغ الضرر (١) .

ويبدو أن تدخل أوتو الأول في شئون الكنيسة الألمانية ومحاويلته العمل دائما على اخضاعها لسيطرته المطلقة ، لم يتم دون معارضة ، اذ لجأ بعض كبار الأساقفة وعلى رأسهم وليم بن أوتو نفسه - الى عرض الأمر على البابا . وعلى الرغم من أن البابوية كانت في شغل عندئذ عن ألمانيا وكنيستها ، الا أن هذا الحدث جعل أوتو يشعر بأن الكنيسة الألمانية ليست وحدة قائمة بنفسها وانما ترتبط بالبابوية في روما وتخضع لهيمنتها . ويتبع ذلك أنه اذا أراد أوتو أن يسيطر على الكنيسة الألمانية كوسيلة للسيطرة على ألمانيا ، فانه يجب أن يبدأ باخضاع البابا أو على الأقل اكتسابه الى جانبه . وطالما كان البابا خارجا عن قبضة أوتو الاول ، فان أحلام الأخير في السيطرة على ألمانيا عن طريق وساطة رجال الدين لن تتحقق بشكل مضمون . وهكذا تحددت الخطوة التالية أمام أوتو ، وهي التدخل في شئون ايطاليا للسيطرة على البابوية (٢) .

ولم تلبث الظروف نفسها أن هيأت لأوتو الأول فرصة مواتية لتحقيق هذا الغرض ، وذلك عندما توفي لوثر ملك ايطاليا وفرت أرملته الى ملك ألمانيا طالبة مساعدته ضد برنجار الثاني ملك ايطاليا الجديد . لذلك أسرع أوتو الأول الى غزو لمبارديا سنة ٩٥١ حيث تزوج من الأرملة الحسنة ، وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له (٣) . وجاء هذا التوفيق الذي صادفه أوتو في ايطاليا بمثابة نصر ثالث له بعد أن أجبر ملك آرل Arles على الاعتراف له بالتبعية سنة ٩٤٦ ، وبعد أن هزم التشك في بوهيميا سنة ٩٥٠ وأجبر ملكهم على الاعتراف بسيادة ملك ألمانيا ، وبذلك مد أوتو الأول نفوذه حتى الرون

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 139—142.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 26—27.

(3) Bryce: op. cit. p. 83.

عربا وإيطاليا جنوبا(١) • على أن الثورة لم تلبث أن تجددت في إيطاليا سنة ٩٥٣ بسبب كره الإيطاليين لسيطرة حكام ألمانيا ، وعندئذ لم يستطع أوتو الذهاب لآخمادها بسبب كثرة مشاكله الداخلية والخارجية •

ذلك أن ابنه ليولف ثار ضده في سوابيا ، وثار كونراد في اللورين الأعلى كما ثار فردريك رئيس أساقفة مينز • ومهما يكن من أمر ، فإن أوتو لم يتعب كثيرا في القضاء على هؤلاء التأثيرين بسبب كثرة منافسيهم(٢) • وعندما توفي رئيس أساقفة مينز ، عين أوتو ابنه وليم بدله في كرسيه ، كذلك قسم أوتو اللورين الى قسمين ، فجعل الجزء الأعلى من اللورين لأخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا في حين نشأت تدريجيا في الجزء الأدنى كونتيه هينـو Hainaut وبرابانت Brabant • وهكذا غلب الطابع الاقطاعي على الكنيسة حتى أصبح من غير المستغرب أن يصبح أحد الأساقفة دوقا(٣) •

وفي خلال هذه الاضطرابات غزا الهنغاريون ألمانيا وأوغلوا بعيدا في بافاريا حتى أوجسبرج • ولكن أوتو العظيم أنزل بهم هزيمة ساحقة في معركة ليخفياد Lechfeld قرب أوجسبرج سنة ٩٥٥ ، مما جعلهم لا يجرون على غزو ألمانيا مرة أخرى • وقد ترتب على هذه الهزيمة أن أوتو مد نفوذه شرقا على حساب الهنغاريين وأقام في تلك الأراضي الجديدة ماركية أوستريا (النمسا) (٤) • ولكن يضمن أوتو العرش من بعده لابنه الصغير البالغ من العمر سبع سنوات فانه توجه معه شريكا في الحكم سنة ٩٦١ ، وجعله تحت رعاية أخوته أسقفى كولونيا ومينز •

ولكن يلاحظ أنه على الرغم من جهود أوتو الأول في تدعيم نفوذه الملكي والربط بين أجزاء ألمانيا تحت سلطانه ، إلا أنه ارتكب خطأ كبيرا في حق

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 280.
(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 196—197.
(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 381.
(4) Orton: op. cit. p. 162.

وحدة الدولة الألمانية عندما قسم سكسونيا ، فجعل وستفاليا وحدها للتاج وأعطى بقية سكسونيا (استقاليا) ، لـ *Hermann Billung* بيلونج . بعد أن منحه لقب دوق (١) * وسرعان ما أصبح رقات سكسونيا من سلالة بيلونج خطرا عظيما هدد وحده ألمانيا في القرن التالي (٢) * .

وهكذا لم تكد تنته سنة ٩٦١ الا كان أوتو الأول قد فرغ من معظم المشاكل الداخلية والخارجية التي واجهته ، وعاد من جديد يفكر في مشروعه الامبراطوري الضخم * ويقال ان الرغبة في احياء الامبراطورية عندئذ لم تكن وليدة تفكير أوتو وحده ، بل شاركه في هذه الرغبة كثير من المعاصرين الذين رأوا في هذا الاحياء منفذا للخلاص من الفوضى والأخطار التي تعرضت لها أوروبا حينئذ ، لا سيما وأن لفظ الامبراطورية ارتبط دائما في أوروبا المصور الوسطى بالاستقرار والأمن والنظام (٣) * .

وكانت هذه الفوضى التي شكت منها أوروبا في القرن العاشر أظهر ما تكون في ايطاليا ، حيث تعاقب على كرسي البابوية سلسلة من البابوات الضعاف غير الكفاة ، الذين تولوا مناصبهم عن طريق مؤامرات مشبته دبرها نبلاء روما العاشرين ، حتى تولى أحد هؤلاء النبلاء منصب البابوية سنة ٩٥٥ تحت اسم البابا حنا الثاني عشر (٤) * . على أن هذا البابا الجديد الذي جمع في شخصه بين السياتين الدينية والدينية في روما ، سرعان ما وجد في الملك برنجار الثاني عقبة كؤودا اعترضت سبيل البابوية وحالت دون اتساع نفوذها ، ومن ثم استتجد حنا الثاني عشر بأوتو الأول عدة مرات بين سنتي ٩٥٧ ، ٩٦١ (٥) * . وقد سبق أن أشرنا الى المشاكل العديدة التي أحاطت بأوتو الأول في تلك الفترة والتي حالت دون تلبية نداء البابوية على وجه السرعة * وأخيرا عر

(1) Barraclough: op. cit. p. 29.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 378—379.

(3) Bryce: op. cit. pp. 83—84.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 161.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 31.

أوتو جبال الألب الى إيطاليا ودخل روما في سنة ٩٦٢ حيث توجه البابا حنا الثاني عشر امبراطورا في فبراير من العام نفسه ، وفي ذات المكان الذي توج فيه شارلمان امبراطورا من قبل .

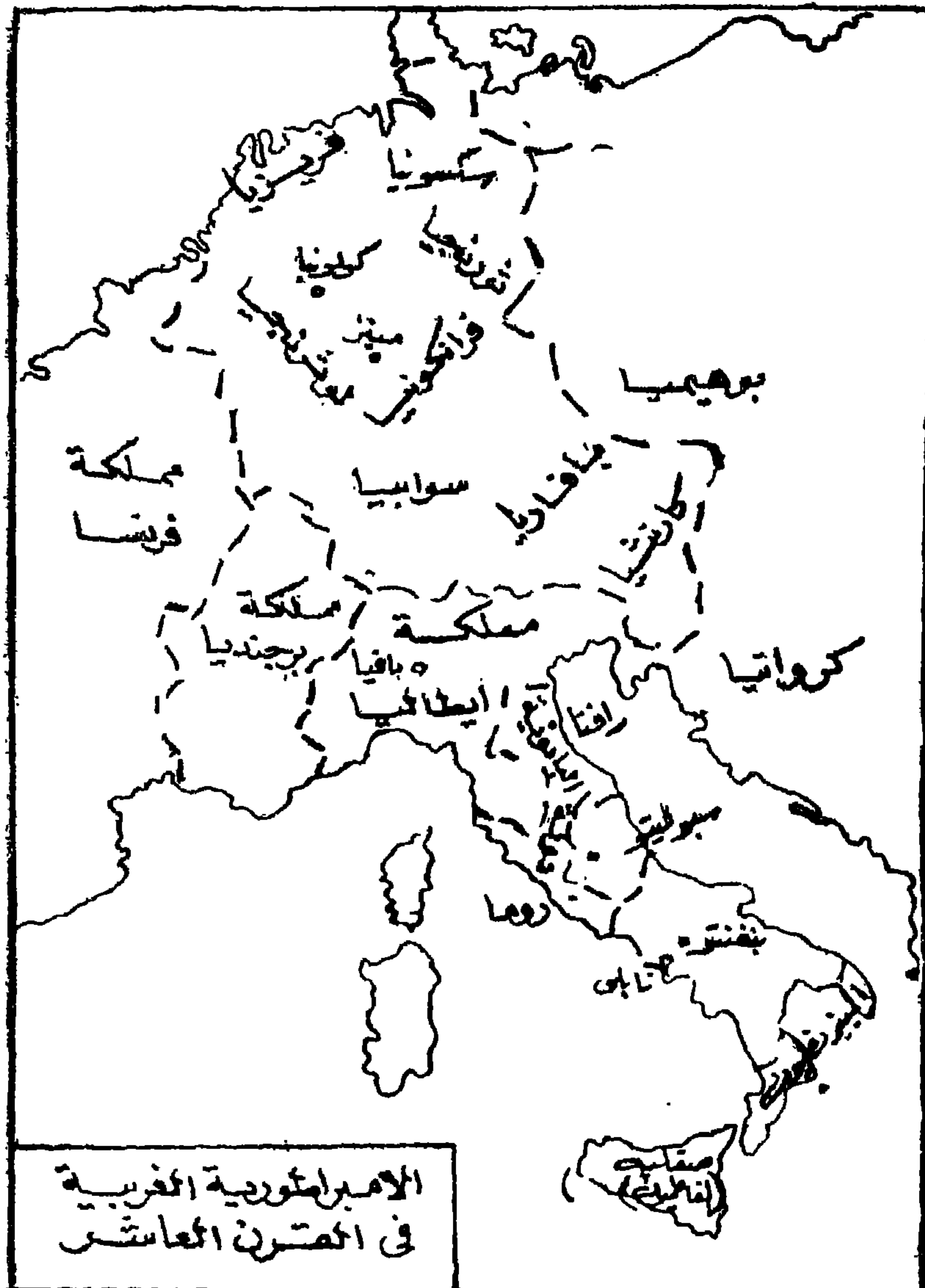
ومن الواضح أن تويج أوتو الأول امبراطورا بيد البابا ، واستمرار تدخل الملوك الألمان في شئون إيطاليا ، إنما يعنى مواصلة هؤلاء الملوك جهودهم في سبيل بسط سيطرتهم على جانبي الألب . ويبدو أن أوتو نفسه كان مصمما على فرض ارادته على البابوية كما فعل شارلمان من قبل ، كما أن البابا نفسه لم يمانع في هذا الاتجاه ما دام أوتو يقوم بحمايته ضد خصومه (١) . على أن الشرط الذي ضايق البابوية وأفزعها هو أن أوتو أصر على أن يقسم البابا قبل ترسيمه يمين الولاء للامبراطور مما جعل حنا الثاني عشر يدس لأوتو عند الامبراطور البيزنطي بل عند الهنغارين والمسلمين فضلا عن برنيجار نفسه (٢) . لذلك أسرع أوتو بالعودة الى روما ففر البابا منها ، وعندئذ دعا الامبراطور مجمعا كبيرا من الأساقفة والكرادلة ونبلاء روما ودوقات ألمانيا ، وقرر هذا المجمع سنة ٩٦٣ عزل البابا حنا الثاني عشر من منصب البابوية وحرمان أهل روما من المشاركة في انتخاب البابا في المستقبل وتعيين موظف امبراطوري في حكم المدينة . أما المنصب البابوي فد عين فيه أحد القساوسة تحت اسم البابا ليو الثامن (٣) . وقد أثار أهل روما مرتين (٩٦٤ ، ٩٦٥) ضد هذا الوضع الشائن الذي انحدروا اليه ، حتى طردوا ليو الثامن من روما ، ولكن أوتو العظيم عاد اليهم وأخضعهم مرة بعد أخرى . وهنا يصح أن نكرر أن تدخل أوتو العظيم في شئون الكنيسة البابوية جاء وليد الموقف السياسي ورغبته في السيطرة على شئون ألمانيا بوجه خاص ، لا وليد الرغبة في اكساب دولته طابعا ثيوقراطيا (٤) . ومهما يكن من أمر ، فإن أوتو الأول

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 382.

(2) Ullmann: The Growth of the Papal Government, p. 230.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 1, p. 282.

(4) Barraclough: op. cit. p. 55.



قضى عدة سنوات بعد ذلك في جنوب إيطاليا محاولا بسط سيطرته على هذا الجزء ، ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك بسبب معارضة الدولة البيزنطية وعدم اعتراف امبراطورها نقفور فوقاس به (١) .

واذا كان أوتو العظيم قد نجح في احياء الامبراطورية في الغرب ، فان امبراطوريته اختلفت اختلافا واضحا عن امبراطورية شارلمان . فالامبراطورية التي اقامها أوتو جاءت وليدة رغبته في استغلال التقاليد الامبراطورية لتنفيذ سياسته الداخلية والخارجية . هذا الى أن الامبراطورية كانت في نظر أوتو مسألة ألمانته بحتة ، فلم يكن يرضيه من أمر إيطاليا الا تنفيذ سياسته الداخلية في ألمانيا نفسها . وهكذا استغل أوتو الأول الكنيسة والبابوية واللقب الامبراطوري الى أبعد مدى ، في تنفيذ مشروعاته الألمانية لأنه أدرك جيدا أن ألمانيا هي منبع قوته الحقيقية . لذلك نستطيع أن نقرر ان امبراطورية أوتو لم تحظ مطلقا بذلك الطابع العالمي الذي امتازت به امبراطورية شارلمان ، فضلا عن أن هذه الامبراطورية المقدسة التي اقامها أوتو كانت لا يمكن أن تمثل تراث الماضي ، كما كان الحال مع امبراطورية شارلمان (٢) .

واذا كان المؤرخون المحدثون - وبخاصة الألمان - قد وجهوا اللوم الى أوتو العظيم لأنه جرى وراء الخيال ، وبذل من الجهد في سبيل الحصول على الامبراطورية وعلى إيطاليا ما كانت ألمانيا نفسها أحق به ، الا أنه من الواضح أن هذا النقد غير عادل لأن أوتو لم يجر وراء إيطاليا والبابوية والامبراطورية الا لتحقيق أهداف بعيدة ترمى الى السيطرة على ألمانيا ذاتها (٣) . فأوتو الأول نظر الى تتويجه في روما بعين الاهتمام لا لشيء سوى أن هذا التتويج سيمكنه من اتمام سيطرته على الكنيسة الألمانية بمساعدة البابا ، ثم من اتمام سيطرة الملكية على مختلف أنحاء ألمانيا (٤) .

(1) Diehl, Marçais: Le Monde Oriental, p. 469.

(2) Eyre: op. cit. p. 117.

(3) Barraclough: op. cit. p. 54.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 32.

(م ٢٠ - أوروبا في العصور الوسطى)

ولعل خير شاهد على صحة هذه النظرة أعمال أوتو الأول بعدد تويجه
امبراطورا ، اذ عكف فى همة ونشاط على اصلاح الكنيسة الألمانية واخضاعها
لاشرافه ، كما أنشأ فى مجد برج Magdeburg . أسقفية كبرى تشرف
على المناطق السلافية شرقى الامبراطورية (١) .

وبعد ، فالتنا فى ختام كلامنا عن الامبراطور أوتو العظيم ينبغى أن نشير الى
أن عهده شهد نهضة فكرية كبرى ، وأن الاحياء الدينى فى ذلك العصر جاء
مصحوبا باحياء ثقافى ، حتى غدا القصر الملكى فى ألمانيا - كما كان أيام
الكارولينجين - مركزا للنشاط الفكرى . وقد تزعم تلك النهضة - التى
تعرف فى التاريخ باسم النهضة الأوتية أو السكسونية - برونو Bruno
الأخ الأصغر للامبراطور أوتو ، كما ظهر من الأدباء كثيرون كتبوا فى
مختلف ألوان الشعر والنثر باللاتينية . أما الامبراطور أوتو نفسه فقد
أسهم فى تلك النهضة على الرغم من مشاغله الكثيرة ، كما تعلم قراءة اللاتينية
وتفهمها وان صعب عليه الحديث بها (٢) .

وأخيرا توفى أوتو الأول فجأة فى ربيع سنة ٩٧٣ بعد أن وضع أساس
تطور جديد فى تاريخ الغرب استمر ما يقرب من ثلاثة قرون ، كما جعل من
ألمانيا دولة قوية مستقرة وسط مظاهر الفوضى التى سادت غرب أوروبا فى
ذلك العصر ، بل انه حقق له مكانة الزعامة فى أوروبا المعاصرة .

أوتو الثانى (٩٧٣ - ٩٨٣) :

عندما اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية الامبراطور حنا الأول (٩٦٩ -
٩٧٦) عرض على معاصره الامبراطور أوتو الأول تصفية الموقف بين
الامبراطوريتين الشرقية والغربية - وبخاصة فى ايطاليا - عن طريق زواج
أوتو الصغير ابن أوتو الأول وولى عهده من الأميرة ثيوفانو Theophano

(1) Stephenson: Med. Hist. p. 281..

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 24—25.

ابنة رومانوس الثانى امبراطور الدولة البيزنطية الأسبق ، على أن يكون الصداق الذى تقدمه العروس لزوجها الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا (١) . وكان أن رحب أوتو الأول بهذه الفرصة فتم زواج ولى عهده أوتو من عروسه البيزنطية سنة ٩٧٢ ، وبذلك ظهر عامل جديد للربط بين إيطاليا وألمانيا فى ظل الامبراطورية المقدسة ، وإن لم يتضح أثر هذا العامل الا فى عهد أوتو الثانى (٢) .

وقد اختلف أوتو الثانى الذى اعتلى عرش الامبراطورية سنة ٩٧٣ اختلافا كبيرا فى اتجاهه وآرائه عن أبيه أوتو الأول . فبينما التزم الأب سياسة ألمانية حتى أنه فى احياء الامبراطورية كان يرمى الى خدمة المصلحة الألمانية ، اذا بالابن ينتهج سياسة أوسع أفقا امتدت الى خارج حدود ألمانيا بكثير . فأتو الثانى نظر الى إيطاليا والامبراطورية نظرة اختلفت الى حد كبير عن أبيه ، لأن إيطاليا كانت لا تقل أهمية فى نظره عن ألمانيا . ولذلك أخذ يعمل على الربط بين البلدين برباط الامبراطورية القوي ، وفى الوقت نفسه آمن ايمانا قويا بفكرة الامبراطورية العالمية وبأن سيطرة الامبراطور على العالم يجب أن تصبح حقيقة ملموسة فى كل مكان . وهنا كانت الخطورة الكامنة على ألمانيا والأسرة السكسونية ، لأن سياسة أوتو الثانى - ومن بعده أوتو الثالث - التى اتجهت نحو إيطاليا أكثر من اتجاهها نحو ألمانيا ، لم ينتج عنها الا بعثرة الجهود واضمحلال الأسرة السكسونية بل الامبراطورية الرومانية بوجه عام (٣) .

وكانت المشكلة الأولى التى واجهت أوتو الثانى هى ازدياد نفوذ بعض الدوقيات ، الأمر الذى جاء مصحوبا بنزعة انفصالية ، على الرغم من جهود أوتو الأول فى سبيل القضاء على هذه النزعة ، وربط البلاد الألمانية برباط الامبراطورية الوثيق . وقد ظهرت تلك النزعة أقوى ما تكون فى بافاريا تحت حكم الأميرة جوديث Judith أرملة هنرى الأولى دوق بافاريا ،

(1) Vasiliev: op. cit. Tome 1, pp. 433—434.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 201—202.

(3) Eyre, op. cit. p. 118.

بصفتها وصية على ابنها الصغير هنرى الثانى (١) • وزاد الأمر خطورة عندما امتد نفوذ جوديت الى سوابيا عن طريق ابنتها هيدويج Hedwig زوجة دوق سوابيا الطاعن فى السن الذى لم يلبث أن توفى بعد قليل • وهكذا رأى أوتو الثانى خطرا جسيما فى ارتباطه بفاريا وسوابيا مما أُنذر بانفصال الجزء الجنوبى من ألمانيا ، حتى دفعه الخوف الى تعيين ابن أخيه دوقا على سوابيا عند وفاة دوقها العجوز • وكان أن ثارت بارفاريا (٩٧٦ - ٩٧٨) واستنجدت أميرتها بأهالى بوهيميا وبولندا ، ولكن أوتو الثانى نجح فى اخمد هذه الثورة ، كما استغل الفرصة لاضعاف بارفاريا عن طريق سلب بعض أجزائها الشرقية والشمالية عنها (٢) • وهكذا انتصر أوتو الثانى ولم يصادف بعد ذلك متاعب شديدة فى ألمانيا ولكن بعد أن اتبع سياسة أبيه فى الاستعانة بالأساقفة ورجال الكنيسة من جهة ، والعمل على تفتيت ممتلكات كبار الأمراء من جهة أخرى (٣) •

أما فى الناحية الخارجية فقد قام لوثر ملك فرنسا بغزو اللورين سنة ٩٧٨ حتى اضطر أوتو الثانى الى الهرب من آخن ، وعندما رد أوتو الثانى على ملك فرنسا بهجوم مضاد لم يحالفه التوفيق مما غجل باقرار الصلح بين العاهلين سنة ٩٨٠ (٤) على أن المسرح الرئيسى لنشاط أوتو الثانى كانت ايطاليا التى ظلت عندئذ ميدانا للفوضى نتيجة لأطماع الأمراء من جهة واغارات المسلمين من جهة أخرى • وقد حدث أن استنجدت البابوية - كماداتها - بأوتو الثانى ضد كرسكتيوس - أقوى أمراء روما ، فعبر أوتو جبال الألب سنة ٩٨٠ وأعاد البابا بندكت السابع (٩٧٤ - ٩٨٣) الى روما • وكان أوتو الثانى يطمح دائما فى أن يجعل سلطة الامراتورية العالمية ملموسة فعلا ، وأن يثبت نفوذه فى ايطاليا بوجه خاص ، ولذلك استغل فرصة وجوده فى ايطاليا وقام بحملة على الأجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة لتحقيق غرضين : الأول طرد المسلمين

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 204—205.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 37.
 - (3) Barraclough: op. cit. p. 33
 - (4) Thompson: op cit. Vol. I, p. 385.

الذى عبروا من صقلية وهددوا بنفتو ، والثانى تأكيد حقوقه وحقوق زوجته
ثيوفانو بعد أن عادت الدولة البيزنطية الى المماثلة فى هذه الحقوق (١) . وقد
صادف أوتو الثانى توفيقا فى حربه بجنوب ايطاليا (٩٨١ - ٩٨٢) فاستولى
على كثير من المدن البيزنطية مثل سالرنو وبارى وتارنتو ، كما أنزل هزيمة
بالمسلمين عند قطرون Cotrone وقتل فى المعركة أبو القاسم أمير
صقلية . على أن المسلمين لم يلبثوا أن صبوا كميا للقوات الامبراطورية
ومزقوها شر ممزق عند خليج كولون Colonne سنة ٩٨٢ ، ولم يستطع
الامبراطور نفسه النجاة الا بصعوبة (٢) .

ولا شك فى أن هذه الهزيمة كانت الكارثة الأولى من نوعها فى تاريخ
الامبراطورية الأوتية ، اذ يتضح أثرها البعيد فى أنها قضت لمدة قرنين على
سيادة الامبراطورية الغربية فى وسط ايطاليا وجنوبها ، وزاد من وقع الكارثة
أن الأخبار جاءت الى الامبراطورية بتحريك السلاف على نهر الألب وأنهم
أعلنوا ارتدادهم الى الوثنية وذبحوا كثيرا من رجال الكنيسة . لذلك عقد
أوتو الثانى مجمعا فى فيرونا سنة ٩٨٣ لبحث الموقف من جميع الأوجه ،
وهو المجمع الذى اكتسب أهمية خاصة لجلوس مندوبى ألمانيا وايطاليا فيه
جنباً الى جنب ، اشارة الى وحدة البلدين داخل اطار الامبراطورية . على أن
لهذا المجمع دلالة أخرى خاصة فى التاريخ لأن الروح الصليبية ظهرت فيه
واضحة ، فقرر المجتمعون التضامن تحت زعامة الامبراطور لشن حرب دينية
مقدسة ضد المسلمين ، وفعلا بدأت الاستعدادات لتنفيذ هذه الفكرة التى
يمكن أن تعتبر أساسا للحروب الصليبية فى نهاية القرن التالى . ومهما يكن
من أمر فان أوتو الثانى لم يقدر له أن يعيش ليقوم بحربه ضد المسلمين أو
السلاف ، فمات فى نهاية سنة ٩٨٣ ودفن جثمانه فى كنيسة القديس بطرس
بروما (٣) .

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 38.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 169—170.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 211—213.

أوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢) :

عندما توفي أوتو الثاني كان ابنه الصغير أوتو الثالث فى الرابعة من عمره ولذلك استغلت جميع القوى المعارضة للامبراطورية هذا الوضع لتحقيق أغراضها الثورية ، فعاد هنرى دوق بافاريا الى التمرد ، بل انه نازع الامبراطورة الوالدة ثيوفانو حق الوصاية على ولدها الصغير ، حتى بلغ الأمر أن طالب بالتاج لنفسه (١) . وهنا نجد زمام الموقف ينتقل الى أيدي رجال الدين والأساقفة ، الذين أصبح فى استطاعتهم ترجيح كفة على أخرى ، بعد أن جعل منهم أوتو الأول قوة سياسية لها حسابها فى الدولة . وبفضل تأييد رجال الدين انتصرت ثيوفانو وولدها أوتو الثالث ، واضطر هنرى الى التزام سياسة المسالمة فى دوقيته بافاريا . وعندما توفيت ثيوفانو سنة ٩٩١ تألف مجلس وصاية على أوتو الثالث ، تزعمه بعض كبار الأساقفة الذين تعهدوا الملك الصغير بالرعاية الكافية والتعليم الراقى كما بثوا فيه روح الحماسة للكنيسة (٢) . وهكذا نشأ أوتو الثالث نشأة قوية تغلب عليها التقوى والايمان حتى جاوز الخامسة عشرة من عمره فذهب الى ايطاليا سنة ٩٩٥ . وهناك فى ايطاليا وجد أوتو الثالث منصب البابوية شاغرا فعين برونو فى منصب البابوية تحت اسم جريجورى الخامس ، وهو أول ألماني يتولى هذا المنصب (٣) . ولم يلبث ذلك البابا الجديد أن توج أوتو الثالث امبراطورا فى روما (مايو سنة ٩٩٦) وأخذ يعمل مع الامبراطور على تنفيذ آرائهما الخاصة بمدينة الأرض ممثلة فى الامبراطورية يتزعمها الامبراطور والبابا ، لنشر السلام واقصرار العدالة . ثم عاد الامبراطور بعد تنويجه الى ألمانيا ، فحارب السلاف الذين ماروا أثناء غيبته وطردهوا أدالبرت من أسقفيته فى براغ وأعلنوا ارتدادهم الى الوثنية (٤) .

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 209—210.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 41.
 - (3) Barraclough: op. cit, p. 59.
 - (4) Fliche: L'Europe Occidentale. pp. 223—224.

وفى ذلك الوقت ثار حنا كرسكتيوس فى روما ، فعاد الامبراطور الى ايطاليا ليخضع حركته ويعدمه سنة ٩٩٨ ، كذلك توفى البابا جريجورى الخامس فعين الامبراطور بدلا منه معلمه جريبرت الذى تسمى باسم البابا سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) فاستأنف سياسة التحالف مع الامبراطورية لتحقيق أغراضهما المشتركة . ويبدو من آراء أوتو الثالث فى تلك الفترة أنه أراد أن يجعل من نفسه ملكا مقدسا (rex-sacerdos) بمعنى السيطرة على الشؤون الدينية والسياسية جميعا ، كما أراد أن يجعل من روما قاعدة الحكم وحاضرة العالم وعاصمة المملكة (urbs regia) بعد أن أصبحت كنيستها أم الكنائس الغربية جميعا (١) . وهكذا انصرف أوتو الثالث عن شئون ألمانيا وحاول أن يجعل من نفسه قسطنطين آخر ، مما عاد بأوخم العواقب على سلطة الامبراطورية (٢) . ذلك أن البابوية أخذت تنهض بفضل تأييد الأباطرة ومساندتهم لتشمل نفسها من حسالة الضعف والفوضى التى غرقت فيها فى الرن العاشر وتصل الى المستوى الذى أصبحت فيه على عهد جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) وبعبارة أخرى فإن الأباطرة أخذوا يدعمون البابوية ، غير دارين أنهم يبنون لخدمهم بأيديهم (٣) . هذا الى أن ما حاوله البابا سلفستر الثانى من بث نفوذه فى بولنيسدا وهنغاريا أغضب الشعور القومى فى هذين البلدين ، فضلا عن استياء أساقفة ألمانيا نفسها من سياسة هذا البابا وسيطرته عليهم . أما ايطاليا - وبخاصة روما نفسها - فقد ظلت تسبب المضايقات للبابا سلفستر حتى انتهى الأمر بقيام الثورة فيها ضد الامبراطور والبابا جميعا ، فى وقت لم يجد الامبراطور حوله نصيرا يسانده - حتى فى ألمانيا نفسها . وفى ذلك الموقف توفى الامبراطور أوتو الثالث قرب روما سنة ١٠٠٢ ، ثم لحق به البابا سلفستر الثانى فى العام التالى (٤) .

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 240---241.

(2) Eyre, op. cit. p. 118.

(3) Bryce: op. cit. p. 143.

(4) Fliche: L'Europe Occidentale, 231.

وصفوة القول أن أوتو الثالث كان رجلا نظريا ياقضى حكمه غارقا في أحلام الماضي ، بعيدا عن الوقائع والحقائق التي أحاطت به ، فأقام معظم أيامه في إيطاليا الأمر الذي أضر بهيته في ألمانيا أبلغ الضرر ، حتى فقد مكانته فيها عند وفاته (١) .

هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤) :

توفي أوتو الثالث دون أن يترك ولدا يرثه في العرش فانتقل الحكم من السلالة المباشرة لأوتو العظيم الى فرع آخر من نفس البيت السكسوني ، وذلك عندما تولى العرش هنري الثاني دوق بارفاريا . واذ كان حسن الظروف شاء أن يتم هذا التحول في وراثة العرش بطريقة سلمية الا أن أول ما يلاحظ على الملك الجديد أنه لم يحظ بنصيب من قوة أسلافه الأوتيين أو نشاطهم . ذلك أنه أحس عدم توليه الملك عن طريق الوراثة عن آباءه - وان كان هو أقرب الأفراد الى أوتو الثالث الراحل بحكم كونه حفيد ابنة أوتو الأول (٢) - كما أحس أن الفضل في اختياره يرجع الى أقطاب الدولة الألمانية من كنسيين وعلمانيين ، ومن ثم لم يحاول أن يتبع سياسة استبدادية مثل أسلافه الملوك السكسون الأوائل ، واختار أن يحكم عن طريق المجامع والمجالس الاستشارية .

وقد تمتع هنري الثاني بسلطان واسع فوق الكنيسة ، فأجبه رجال الدين لتقواه وتدينه وحبه للخير ، وفي الوقت نفسه استغل الأساقفة ومقدمي الأديرة كأداة له في تنفيذ سياسته الدنيوية حتى أصبحوا ممثلين للسلطة الامبراطورية في مناطق نفوذهم . أما رهبان الأديرة الكلونية فقد حظوا بقدر كبير من عطفه وتشجيعه حتى أن الفضل يرجع اليه فيما أحرزه هؤلاء المصلحون من مركز قوى في ألمانيا (٣) .

(1) Eyre: op. cit. p. 118.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234—239.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 48.

وقد أتى الخطر الأكبر الذي هدد الدولة الألمانية - عندما اعتلى هنري الثاني العرش - من ناحية السلاف ، وبخاصة بولندا التي أخذ حاكمها بولسلاف Boleslav يعمل على توحيد الشعوب السلافية تحت سيطرته ليجعل منها قوة عظمى تطرد الألمان إلى ما وراء نهر الالب (١) * وكان أن بدأ بولسلاف في تنفيذ مشروعه فغزا بوهيميا سنة ١٠٠٣ ، وعندئذ حاول هنري الثاني بصفية الموقف سلميا مع السلاف ، ولكن دون جدوى ، فقام بحرب طويلة منتظمة ضدهم بدأت بمهاجمة بوهيميا سنة ١٠٠٤ وانتهت بالصالح الأخير معهم سنة ١٠١٨ (٢) * وهكذا استنفدت حروب هنري الثاني ضد السلاف بوجه عام والبولنديين بوجه خاص قدرا كبيرا من حكمه وجهده دون أن تؤدي في النهاية إلى نتيجة مشرفة بالنسبة له ، حتى اضطر أخيرا إلى التسليم بمطالب البولنديين الإقليمية وأعطى مارك لوزاس (Lusace) (٣) *

على أن خطر البولنديين لم يصرف هنري الثاني عن شئون إيطاليا ، وإن كان من الواضح أن النيار الذي سار فيه أوتو الثالث لم يجبرف هنري الثاني بالقوة ذاتها في طريقه ، وأن الأخير تخلى عن كثير من ملامح الأول الواسعة واتجه اتجاه ألمانيا قويا إلى حد كبير * ويبدو أن أحداث إيطاليا نفسها واضطراب أحوالها هي التي جذبت ملوك ألمانيا إلى التدخل في شئونها ، أعادت البابوية بعد وفاة سلفستر الثاني لتقع تحت رحمة أمراء روما من آل كرسنتي Crescentii في الوقت الذي نصب أردوين Ardoin نفسه ملكا على إيطاليا (٤) * لذلك ذهب هنري الثاني إلى إيطاليا سنة ١٠٠٤ ثم سنة ١٠١٣ * وفي المرة الأخيرة توجه البابا بندكت الثامن أمراء لورد في

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 222.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 234-239.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 49.

(٤) وجدت عائلتان كرسنتيان متنازعتان السيادة والنفوذ في روما عند مستهل القرن الحادي عشر ، الأولى آل كرسنتي والسانية كونيات ، سكولم Tusculum * ويبدو أن الجبابرة الثلاثة الذين خافوا سلفستر الثاني تولوا منصب البابوية بفضل تأييد الأسرة الأولى .

انظر (Hayward: A History of the Popes, p. 142.)

روما (فبراير سنة ١٠١٤) (١) • ثم كان أن زار البابا نفسه ألمانيا سنة ١٠٢٠ لتدشين كندراثة بامبرج Bamberg وفى تلك الزيارة تم الاتفاق بين البابا والامبراطور على أن يقوم الأخير بحملة شاملة على إيطاليا لاقرار الأوضاع فيها • وفعلا قام الامبراطور بحملته سنة ١٠٢١ حتى استطاع اخضاع شمال إيطاليا ووسطها ، ولكن مرضا تفشى بين رجاها فى أبوليا فاضطر الى العودة الى ألمانيا فى العام التالى قبل أن يستقر الموقف تماما فى إيطاليا • وهكذا ظل الحال مضطربا فى إيطاليا بسبب العداء بين الأساقفة والنبلاء من جهة ، وبين كبار النبلاء Capitani وصغارهم Vavassors من جهة أخرى ، وبين المدن بعضها وبعض ، أو بينها وبين السلطات الاقطاعية من جهة ثالثة (٢) •

أما هنرى الثانى فقد شغل سنواته الأخيرة بمؤازرة أنصار حركة الاصلاح الكلوذية • والحق أن هنرى الثانى يعتبر من كبار المصلحين الديريين ، وبفضل جهوده تم ادخال اصلاحات كثيرة على أديرة بروم Prum وهرسفلد Hersfeld وريختو Reichenau وفولدا وكوربي وغيرها • كذلك عقد كثيرا من المجمع الكنسية تحت رآسته وتولى هو توجيهها ، هذا فضلا عن أنه منح رجال الدين - وبخاصة الديريين - كثيرا من الامتيازات والحقوق (٣) • على أنه يلاحظ أن عطف هنرى الثانى على رجال الدين الأجانب - غير الألمان - أثار ضغينة الأساقفة الألمان وحقدهم • وقد تزعم حركة المعارضة ضد الامبراطور والبابا بندكت الثامن جميعا أريبو Aribo رئيس أساقفة مينز ، ولكن شاعت الظروف أن يموت البابا بندكت الثامن سنة ١٠٢٤ ثم يلحق به هنرى الثانى فى العام نفسه ، وذلك قبل أن تتأجج نار الفتنة ضد الامبراطور (٤) •

(1) Bryce: op. cit. p. 146.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 392.

(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 247—248.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 50.

وبوفاة هنرى الثانى انتهى البيت السكسونى الذى حكم ألمانيا مدة تزيد على قرن من الزمان استطاع فيها أن يجنبها الفوضى الشاملة التى تردت فيها فرنسا فى القرن العاشر (١) . على أنه يتضح لنا من عرضنا السابق للملك البيت السكسونى أنهم بدءوا بتشجيع الأساقفة وتزويدهم بالنفوذ القسوى كوسيلة للضغط على كبار الأمراء . ولم يكن للديرين فى أول الأمر نصيب من هذا العطف ، لأنهم بحكم عزلتهم وانقطاعهم للعبادة كانوا لا يصلحون أداة فى أيدي الملوك يستعينون بها على خصومهم السياسيين ، الأمر الذى جعل الديرين يحققون على الأساقفة ويحسدونهم على ما هم فيه من قوة ونفوذ (٢) . ثم كان أن اعتلى عرش الامبراطورية هنرى الثانى فأخذ يعطف على الديرين ويشجع حركة الإصلاح الكلونية ، مما أغضب كبار الأساقفة وأخافهم . ذلك أنه كان من مبادئ هذه الحركة الإصلاحية تحقيق استقلال الكنيسة عن السلطة الزمنية ، وفى الوقت نفسه تركيز نفوذ البابوية ونشر سلطانها الفعلى على الكنيسة الغربية فى مختلف الدول . ومع أن الأساقفة الألمان اعترفوا برأسة روما وزعاماتها الروحية ، إلا أنهم رأوا فى تحقيق هذه الآراء اضعاافا لنفوذهم الدنيوى من ناحية وحرمانهم من بعض نفوذهم الدينى من ناحية أخرى ، لا سيما فيما يتعلق باستئناف الاحكام التى يصدرونها أمام البابا . لذلك وجد الأساقفة الألمان فى الآراء الكلونية التى شجعها الديرىون خطرا هددتهم ، ومن ثم أخذوا - عقب وفاة هنرى الثانى - يبذلون قصارى جهدهم حتى لا يلى عرش الامبراطورية رجل يشايع الديرية وآراءها الإصلاحية (٣) . وهكذا اتخذت مسألة اختيار خليفة لهنرى الثانى شكل نضال بين الأساقفة من جهة والديرين من جهة أخرى ، حتى انتصر الفريق الأول واختير كونراد دوق سوابيا .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 258.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 393.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 51.

كونراد الثانى (١٠٢٤ - ١٠٣٩) :

انتخب كونراد الثانى دوق سوابيا ملكا على الرغم من معارضة أهالى اللورين حيث كانت الآراء الكلونية قد أحرزت تقدما كبيرا ، وبانتخابه بدأت سلسلة الأباطرة السالين . وكان الفارق عظيما بين هنرى الثانى وخليفته كونراد الثانى ، اذ كان الأخير جنديا ومحاربا قبل أى اعتبار آخر ، فرأى لذته الكبرى فى حياة المعسكرات لا فى المناقشات حول المسائل الدينية ، لأن الحرب كانت فى نظره الوسيلة الوحيدة التى تضمن نفوذه الامبراطورى (١) .

والواقع أن كونراد الثانى توج ملكا فى مينز سنة ١٠٢٤ ليجد كل شىء مختلا فى الدولة ، ولكن لم يمض على قيامه فى الحكم عامان حتى بث فى دولته روحا جديدة وأصلح كثيرا من مواطن الضعف والخلل فيها . وأنت أول صعوبة واجهت كونراد الثانى من اللورين ، التى لم يكتف أمراؤها بمعارضة اختيار كونراد فحسب بل رفضوا الاعتراف به بعد تويجه ملكا . ولكن كونراد الثانى قضى على هذه الفتنة وغيرها من القلاقل الداخلية وأعاد الاستقرار الى ألمانيا تحت سيادته (٢) . أما إيطاليا التى بلغت السلطة الامبراطورية فيها درجة متناهية من الضعف فى أواخر عهد هنرى الثانى ، فقد بقيت خارج نفوذ كونراد من الوجهة العلمية ، ولم ينقذ ما تبقى له من نفوذ سوى موقف الأساقفة اللبارديين الذين رأوا فى الامبراطور خير درع يقيهم سيطرة الأمراء المحليين . لذلك عبر كونراد الثانى جبال الألب سنة ١٠٢٦ حيث قضى فى شمال إيطاليا عاما كاملا ثبت فيه نفوذه وأخضع خصومه ، ثم قصد روما بعد ذلك فى ربيع سنة ١٠٢٧ حيث توج امبراطورا بيد البابا حنا التاسع عشر . وهكذا يبدو أن الطابع الألمانى الضيق الذى امتازت به سياسة كونراد لم يحل دون قيامه بالزيارة التقليدية التى اعتاد الأباطرة أن يقوموا بها لإيطاليا ، حتى قيل ان كونراد الثانى لم يصبح

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 246—247.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 254.

امبراطورا « رومانيا » الا بعد أن توجه البابا في روما (١) • وبعد أن قام كونراد الثاني بزيارة جنوب إيطاليا لتقوية وسائل الدفاع عنها ضد البيزنطيين في كالبريا ، عاد الى ألمانيا مسرعا ليتفرغ لشؤونها • وهنا نكرر القول بأن سياسة كونراد الثاني اختلفت عن سياسة سلفه هنري الثاني في أن الأول اتجه اتجاها ألمانيا عمليا وتخلي عن الاتجاه العالمى النظرى الذى أدى الى اضعاف نفوذ هنري الثاني في ألمانيا (٢) •

ويبدو أن نفوذ كونراد الثاني في ألمانيا بلغ درجة من القوة عقب عودته من إيطاليا جعلته يعمل على جعل الحكم وراثيا في أسرته فتزوج ابنه هنري في حياته سنة ١٠٢٨ • وقد أثار هذا العمل حقد كبار الأمراء ، وعلى رأسهم أرنست دوق سوابيا ، ولكن كونراد الثاني لم ينبع كثيرا في القضاء على هذه الفتنة فأخضع الثورة وحرم أرنست من دوقيته ، بحيث عاد كونراد يسيطر على ألمانيا سيطرة تامة قوية (٣) •

على أنه اذا كانت الأوضاع قد استقرت لكونراد في الداخل ، فإن أعداء الدولة في الخارج لم يتركوا له فرصة للتمتع بهذا الاستقرار • من ذلك أن كونراد الثاني دخل في صراع طويل مع البولنديين (١٠٢٨ - ١٠٣١) سبب اغاراتهم على سكسونيا الشرقية سنة ١٠٢٨ وتدميرهم كثير من القرى واحراق كنائسها • وكان السبب الأساسى لهذه الهجمات التى قام بها البولنديون على ألمانيا هو عدم اعتراف كونراد الثاني بملكهم مسكو الثانى Mesko II ولكن كونراد كان في موقف لا يساعده على انزال ضربة قاصمة بالبولنديين بسبب انشغاله بغبرهم من أعداء الدولة ، ولذلك انتهى الموقف بين الطرفين بالصلح سنة ١٠٣١ (٤) • وفي تلك الأثناء شغل

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 250

(2) Eyre: op. cit. pp. 130--131.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 54.

(4) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 251--252.

كونراد الثانى بأمر بوهيميا التى كانت تربطها علاقة التبعية بالدولة الألمانية .
وقد ساءت العلاقات بين كونراد الثانى وأودلرخ Udalrich
دوق بوهيميا سنة ١٠٣٣ ، الأمر الذى حدا بالأمر الى ارسال حملة الى
بوهيميا أخضعت أودلرخ وأرسلته أسيرا الى بافاريا ، وان ظلت الفوضى ضاربة
أطناها فى بوهيميا حتى سنة ١٠٣٥ (١) . أما الهنغاريون فقد تجمعت عدة
عوامل أساءت الى العلاقات بينهم وبين كونراد الثانى أيضا ، مما اضطره الى
الهجوم على هنغاريا سنة ١٠٣٠ ، ولكنه لم يصادف توفيقا فى تلك الحرب
وذلك بسبب العقبات الطبيعية التى اعترضت سبيله ، كالغابات والأنهار
والأحراش ، زيادة على مقاومة الهنغاريين وتفشى المرض بين جنوده ، مما
جعله يعود متقهقرا الى ألمانيا ومعه البقية الضئيلة من جنوده (٢) .

على أن أهم نصر أحرزه كونراد الثانى فى سياسته الخارجية كان نجاحه
فى ضم مملكة آرل Arles أو برجنديا Burgundy الى ممتلكاته .
وكانت هذه المملكة قد وقعت منذ منتصف القرن العاشر فى فوضى شديدة ،
حتى توفى ملكها رودلف الثالث سنة ١٠٣٣ دون أن يترك ولدا يرثه فى
المملك (٣) . وهنا استغل كونراد الثانى صلة القربى التى تربطه بالملك الراحل
وتوج نفسه ملكا على آرل ، مما جعل تلك المملكة جزءا من الامبراطورية ،
حتى استمر أمراؤها مدة طويلة يتخذون لأنفسهم لقب « أمراء الامبراطورية
المقدسة (٤) » . أما أهمية هذه الخطوة فلا ترجع الى أن ضم مملكة آرل
أتاح نفوذا جديدا للباطرة الألمان بقدر ما ترجع الى بضع حقائق أخرى
هامة ، أولها أن هذه المملكة الجديدة كانت رومانية الطابع فأدى ضمها الى
الامبراطورية الى تخفيف الطابع الألماني الذى اتصفت به الامبراطورية
المقدسة . وثانيها أن هذا الضم حال دون ارتباط آرل بفرنسا سياسيا فى ذلك

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 262.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 254.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 8, p. 309.

(4) Bryce: op. cit. p. 148.

العصر ، كما أدى الى تثبيت مبدأ الوراثة في ألمانيا (١) . فاذا أضفنا الى ذلك أن برجنديا أو آرل كانت مركزا رئيسيا لحركة الإصلاح الكلونية مما ترتب على ضمها للامبراطورية سرعة انتشار تلك الحركة في ألمانيا ، وأن ضم مملكة آرل الى الامبراطورية حال دون تدخل فرنسا في شئون ايطاليا ، اذا ذكرنا كل هذا ، أدركنا في النهاية مدى خطورة هذه العملية في التاريخ وهكذا صارت الامبراطورية تضم جميع الأراضي التي تناولتها اتفاقية فردون سنة ٨٤٣ باستثناء الجزء الغربي ، أو فرنسا بمعناها الضيق .

على أن كونراد الثاني اعتقد أن هناك أمرا واحدا ينتقص سلطانه الفعلي ويحول دون سيطرته التامة على داخلية البلاد ، وهذا الأمر هو قوة نفوذ كبار الأمراء ، وارتباط الأفعال بسادتهم الاقطاعيين ، وضعف الروابط التي تربط هؤلاء الأفعال وغيرهم من عامة الناس بالامبراطور . لذلك حاول كونراد أن يستميل الى جانبه صغار الأفعال ضد كبار الأمراء ، فناصر مبدأ توريث ما بأيديهم من اقطاعات ليهيئ لهم نوعا من الاستقرار والثبات في وجه سادتهم الاقطاعيين (٢) . هذا الى أن تطبيق مبدأ الوراثة في الاقطاعات الصغيرة من شأنه أن يدعم مبدأ توريث التاج الامبراطوري ، وهو أمر سعى كونراد لتحقيقه . كذلك لجأ كونراد الثاني الى القضاء على كبار الدوقات وسلبهم مناصبهم الوراثة ، فضلا عن تدعيم نفوذ الأساقفة والتمسك بتقليدهم تقليدا علمانيا واستخدامهم كأداة للحد من بطش كبار الأمراء (٣) .

ويبدو أن النجاح العظيم الذي صادفه كونراد الثاني في تطبيق هذه السياسة في ألمانيا وبرجنديا دفعه الى تطبيقها في ايطاليا . على أن روح الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية كانت قد أخذت تشتد في شمال ايطاليا ، حتى بين كبار الأساقفة الذين سبق أن استنجدوا بكونراد ضد كبار

(1) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 55—56.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 259.

(3) Orton: op. cit. p, 170.

(4) Eyre: op. cit. p. 222.

الأمراء العلمانيين • ومن هؤلاء الأساقفة أربرت Aribert رئيس أساقفة ميلان الذى تبثع بمركز مستقل فى أسقفيته ، وأخذ يمنى نفسه بنفسه نفوذ سياسى الى جانب نفوذه الدينى (١) • ولكن اذا كان أربرت يستطيع الاعتماد على ولاء أهالى ميلان الذين عرفوا بطاعتهم لأساقفتهم ، فان الأمراء المحليين رأوا فى تحقيق أطماعه قضاء على سلطانهم ، فثاروا ضده مما أدى الى حرب أهلية استدعت سفر كونراد الثانى الى ايطاليا لتهدئة الموقف فى شمالها سنة ١٠٣٦ • وهنا وقف أربرت من الامبراطور موقفا عنيدا ، لم يلبث أن تحول الى حرب سافرة بين الطرفين • ولم يتردد كونراد عندئذ فى استمالة صفار النبلاء والاقطاعيين الى جانبه ، فأصدر مرسوما سنة ١٠٣٧ بجعل اقطاعاتهم وراثية فى ايطاليا ، كما وعدهم بعدم ارهاقهم بالضرائب والالتزامات المالية • على أن هذه الاجراءات وأشباهاها لم تكن كافية لاختضاع أربرت الذى قوى مركزه فى ميلان فى الوقت الذى تطلبت شئون الامبراطورية من كونراد الثانى العودة الى بلاده سنة ١٠٣٨ حيث توفى فجأة فى أوترخت فى العام التالى (٢) •

ومهما يكن من أمر ، فالو وفاة الامبراطور كونراد الثانى قبل أن يتمكن من التغلب على مشكلة أربرت فى ايطاليا لا تقلل من نجاحه العام فى القيام بأعباء الوظيفة الامبراطورية • ويكفى أنه ثبت نفوذه الامبراطورى تثبيتا قويا جعل ابنه يحتل عرش الامبراطورية من بعده دون أن تعترضه ثورة أو فتنة ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة •

هنرى الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦) :

بلغت الامبراطورية المقدسة ذروة قوتها على عهد هنرى الثالث (٣) الذى أظهر كفاية فى عهد أبيه عندما عهد اليه بحرب البولنديين والهنغاريين ، فضلا

(1) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 258.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 59.

(3) Bryce: op. it. p. 148.

عن الخبرة السياسية التي اكتسبها بعد أن توجه أبوه وأشركه معه في الحكم بصورة غير رسمية • وهكذا استطاع هنري الثالث عندما تولى الحكم أن يتم رسالة أبيه ، وأن يسير وفق الخطوط العريضة التي اتبعها كونراد الثاني في سياسته ، بل انه نفخ في هذه لسياسة روحا جديدة جعلت الامبراطورية المقدسة تبدو في عهده في صورة القوة الكبرى الفعالة في توجيه مضائر غرب أوروبا (١) •

وكانت المشكلة الأولى التي واجهت هنري الثالث هي مشكلة أربرت رئيس أساقفة ميلان ، بعد أن مات كونراد الثاني قبل أن يحلها حلا يرضى كرامة الامبراطورية وهيبتها • على أن هذه المشكلة حلت حلا سلميا ، اذا تغلب العقل على أربرت عندما علم بوفاة الامبراطور كونراد الثاني ، واتجه الى ألمانيا سنة ١٠٤٠ حيث أعلن ولاءه لهنري الثالث وطلب عفوه ، وبذلك عاد السلام الى إيطاليا وأصبح في وسع الملك الجديد أن يتفرغ للمشاكل الأخرى ، وأهمها مشكلة الحدود مع بولندا وبوهيميا وهنغاريا (٢) •

والواقع أن بولندا لم تكن مصدر خطر وانسح على عصر هنري الثالث بعد أن مزقتها الحروب الأهلية وعرضت لهجوم من جانب بوهيميا التي أضحت عندئذ أقوى الدول السلافية ، ولذلك لم يصادف هنري الثالث صعوبة كبيرة في إعادة بولندا الى تبعيتها للامبراطورية • ولكن الموقف اختلف بالنسبة لبوهيميا التي أراد دوقها برتسلاف (Bretislav) أن يجعل من نفسه ملكا وأن يرفع أسقف بوهيميا في براغ الى مرتبة رئيس أساقفة حتى يحقق لبوهيميا الاستقلال السياسي والكنسي (٣) • ولذلك قاوم برتسلاف جهسود الامبراطورية في السيطرة على بوهيميا مقاومة عنيفة ، ولكنها لم تجد أمام قوة هنري الثالث الذي أوغل في بوهيميا حتى هدد براغ نفسها سنة ١٠٤١ وأخيرا أدرك برتسلاف صعوبة المقاومة فرضى بالخضوع لهنري الثالث بشروط قاسية أهمها دفع غرامة حربية باهظة ، واطلاق سراح ما لديه من

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 272—306.

(٢) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 262.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 3. pp. 300—301.

(م ٢١ — أوروبا في العصور الوسطى)

أسرى ، وهدم جميع التحصينات المقامة فى غابات بوهيميا . وبعد ذلك مثل برتسلاف بين يدي هنرى الثالث (١٠ أكتوبر سنة ١٠٤١) حيث أعلن تبعيته وخضوعه ، وعندئذ أقطعه هنرى دوقية بوهيميا التى كان الأمير السلافى يحلم بتحويلها الى مملكة مستقلة (١) .

على أن الصعوبة التى صادفها هنرى الثالث فى هنغاريا كانت أشد وأعظم ، اذ قامت فيها حركة وثنية أتت بملك جديد اسمه آبا Aba على العرش . وقد أصدر البابا قرار الحرمان ضد ذلك الملك الوثنى ، فحاول آبا أن يفوز باعتراف هنرى الثالث به ملكا ، ولما رفض هنرى أغار آبا على ألمانيا عن طريق وادى الدانوب ثم عاد الى بلاده . فى أوائل سنة ١٠٤٢ محملا بالأسلاب . لذلك هجم هنرى الثالث على هنغاريا عدة مرات (١٠٤٢ - ١٠٤٥) حتى انتهى الأمر بفرار آبا واعتراف خليفته بطرس بالتبعية للامبراطورية (٢) .

أما فى الجبهة الشمالية فقد أنزل هنرى الثالث هزيمة بالناصر السلافية التى أغارت على سكسونيا سنة ١٠٤٥ ، كما عقد الملك اجتماعا فى العام التالى مع الحكام السلاف ، اعترفوا فيه بسيادة الامبراطورية . وهكذا استطاع هنرى الثالث أن يكمل رسالة أبيه فى تحقيق عظمة ألمانيا وجعل الامبراطورية المقدسة صاحبة الكلمة العليا فى غرب أوروبا (٣) . وربما ساعد على اعلاء كلمة الامبراطورية عندئذ ضعف الملوك الأوائل من أسرة كابيه فى فرنسا ، وانشغالهم بالحروب المستمرة مع الزعماء الاقطاعيين ، مما جعل الامبراطورية المقدسة لا تجد أمامها منافسا قويا من غرب أوروبا ينازعها السيادة العالمية . ولم يحاول هنرى الثالث أن يستغل ضعف فرنسا فى ذلك العصر فى تحقيق مطامع سياسية عبر الراين ، بل على العكس حرص على استمرار العلاقات الودية مع فرنسا ، وأراد أن يؤكد حسن العلاقات بزواجه سنة ١٠٤٣ من أميرة فرنسية هى أجى Agnes

-
- (1) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 262—263.
(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 61.
(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 264.

صغرى بنات وليم كونت بواتو . وربما كانت أهم النتائج التى ترتبت على هذا الزواج ، هو الأثر القوى الذى تركته الأميرة الفرنسية فى السياسة الدينية التى اتبعها زوجها هنرى الثالث (١) .

وبعد أن خلع هنرى الثالث من مشاكله الخارجية ، أخذ يوجه عنايته نحو مشاكل الامبراطورية فى الداخل ، أى فى ألمانيا وإيطاليا . والواقع أن هذين البلدين كانا لا يزالان يشكوان الفوضى وعدم الاستقرار على الرغم من الجهود التى بذلها الأباطرة السابقون . وقد أدت سياسة كونراد الثانى - الخاصة بتشجيع صغار النبلاء الاقطاعيين - الى كثرة الحروب المحلية مما تطلب من هنرى الثالث جهدا كبيرا لحسم ذلك الوضع وقرار الأمن والنظام . وفى سبيل الوصول الى هذا الغرض تخلى هنرى الثالث عن سياسة أسلافه فى الحرص على تركيز السلطة فى يدي الملك ، واكتفى بتعيين جماعة من أقاربه وأنصاره فى الدوقيات الكبيرة ، ثم ترك لهم بعد ذلك شيئا من التصرف والنفوذ فى دوقيتهم ، بعد أن أدرك أن ألمانيا أصعب من أن تحكم حكما أوتوقراطيا مركزيا (٢) .

على أن الدور الذى قام به هنرى الثالث فى إيطاليا - وبخاصة تجاه البابوية - يسترعى منا انتباهنا خاصا . ذلك أن مركز البابوية انحط فى ذلك العصر الى الدرجة التى جعلت هنرى الثالث يتخذ تدعيم البساوية مفتاحا لسياسته الامبراطورية (٣) . وحسبنا أن البابا أصبح العوبة فى أيدي أمراء روما ، بل أصبح المنصب البابوى يباع ويشترى بالمال ، مما جرح شعور كل مسيحي غيور . من ذلك أن أحد هؤلاء الأمراء تولى منصب البابوية تحت اسم بندكت التاسع سنة ١٠٣٣ على الرغم من حداثة سنة . ثم لم يلبث أن باع منصبه لقاء حفنة من المال الى بابا آخر هو جريجورى السادس فى العام التالى . وازاء هذه الفوضى والفضائح ، عقد دعاة الاصلاح مجتمعا فى روما واستنجدوا بالملك هنرى الثالث لمساعدتهم فى وضع حد لهذه الفوضى .

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 62.

(2) Bryce: op. cit. p. 148.

(3) Barraclough: op. cit. p. 56.

والواقع هنري اهتم بحركة الاصلاح الكلونية وأخذ يتحمس لانقاذ الكنيسة والبابوية من الهوة التي سقطتا فيها ، حتى ازدادت هذه السياسة قوة بعد زواجه من آجنى (١) .

وكان أن عبر هنري الثالث جبال الألب الى ايطاليا سنة ١٠٤٦ حيث عقد مجمعا في سوتري Sutri قرب روما في ديسمبر من العام نفسه ، ثم مجمعا آخر في روما في الشهر عينه ، عزل فيهما جميع البابوات المتنازعين ، وانتهى الأمر بتعيين سويدجار Suidgar أسقف بامبرج تحت اسم البابا كلمنت الثاني . وفي اليوم الذي احتفل فيه بتعيين البابا الجديد قام البابا بتتويج هنري الثالث وزوجته بالتاج الامبراطوري (٢) . وبعد ذلك قام الامبراطور وبصحبة البابا - بجولة في جنوب ايطاليا لاختضاعها واقرار الأمور فيها . واذا كان الامبراطور قد اضطر الى العودة بعد ذلك الى ألمانيا ، الا أن سياسته استمرت نافذة في ايطاليا حيث تمتع بنفوذ لم يحظ به غيره من أباطرة الدولة المقدسة (٣) . من ذلك أنه حدث بعد وفاة البابا كلمنت الثاني سنة ١٠٤٨ أن ظل رأى الامبراطور معمولاً به في اختيار الشخص الذي يلي منصب البابوية فتعاقب على هذا المنصب البابا داماسوس الثاني الذي مات بعد أسابيع فخلفه ليو التاسع - قريب Damasus II الامبراطور (١٠٤٨ - ١٠٥٤) ، ثم فكتور الثاني (١٠٥٤ - ١٠٥٧) (٤) . وفي عهد البابا الأخير قام هنري الثالث بزيارة ايطاليا مرة أخرى لبعض أغراض سياسية ولكنه لم يلبث أن عاد الى ألمانيا لنشوب ثورة في بافاريا .

وهنا تبدو لنا سياسة هنري الثالث الدينية على جانب كبير من الأهمية والتناقض . ذلك أنه عمل اصلاح الكنيسة وشرع ضد السيمونية - أي بيع الوظائف الدينية - وغيرها من المفاصد الكنسية (٥) . ولكنه حرص في

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 290.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 265—266.

(3) Bryce: op. cit. pp. 148—149.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, pp. 297—298.

(5) Eyre: op. cit. pp. 132—133.

الوقت نفسه على السيطرة عليها وعلى البابوية جميعا دون أن يدري أن هذه السيطرة كانت من الأمراض الخطيرة التي تشكو منها الكنيسة عندئذ • وأبرز مثل لهذه السيطرة تدخل هنري الثالث في عزل البابوات وتعيين من يشاء دون الرجوع إلى أية مجامع دينية • ومن الواضح أن هدف هنري الثالث من ذلك كان سلب نبلاء روما سيطرتهم على البابوية ، علاوة على إتيان حقسه في تعيين أساقفة ألمانيا وتقليدهم علمانيا مادام هو الذي يعين البابا نفسه (١) • على أنه إذا كان ليو التاسع ومن بعده فكتور الثاني لم يتجاسرا على معارضة الامبراطور ، فإن التطور نحو تحرير الكنيسة من سيطرة السلطة العلمانية بدأ يظهر في بطء على عهد البابا ستفن التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) • ولم يلبث أن اتخذ هذا التطور شكل هجوم على السلطة العلمانية في عهد البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩ - ١٠٦١) (٢) •

وهكذا أدت سيطرة الامبراطورية على الكنيسة ورجالها من جهة ، ومحاولة الكنيسة التحرر من هذه السيطرة من جهة أخرى ، إلى نزاع حاد بين الامبراطورية والبابوية ، ظهرت أولى فصوله على مسرح العصور الوسطى بعد وفاة الامبراطور هنري الثالث ١٠٥٦ •

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 251
(2) Eyre: op. cit. p. 133.

الباب الحادي عشر

إيطاليا والبابوية

كانت إيطاليا في ختام القرن العاشر مقسمة الى عدد من الوحدات تتنازع النفوذ فيها والسيطرة عليها عدة قوى أوربية كبيرة . فالبيزنطيون امتلكوا أبوليا وكالبريا في الجنوب ، بعد أن نجحت قوات الامبراطور باسل المقدوني في طرد المسلمين من تلك الجهات واحراز نصر بحري عليهم واسترداد معاقلهم في الجنوب الشرقي من إيطاليا (٨٨٤ - ٨٨٧) (١) . هذا وان ظل المسلمون يسيطرون على بعض المراكز في جنوب إيطاليا الغربي وجزيرة صقلية ، وذلك بعد أن استطت سيراكيوز عاصمة الجزيرة في أيديهم سنة ٨٧٧ . ومع أن المسلمين فشلوا في اتخاذ مقر ثابت لهم في جنوب إيطاليا ، الا أنهم استمروا يؤثرون في توجيه مصائر ذلك الجزء من أوروبا ، ولا سيما الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة (٢) . وبالإضافة الى البيزنطيين والمسلمين ، وجد عدد من الدوقيات اللمباردية في بنفتو وسالرنو وكابوا في الجنوب (٣) . أما شمال إيطاليا ووسطها فقد أقام فيهما اللمبارديون عدة امارات قوية ، كما ظهرت في تلك الأجزاء بعض المدن التجارية النشيطة مثل أمالفى ونابلى . هذا فضلا عن البابوية التي أخذت تعمل من جانبها على أن يكون لها نفوذ سياسى فوق نفوذها الدينى . فاذا أضفنا الى هذه القوى المتعددة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي شرع أباطرتها يتدخلون في شئون إيطاليا ويطمعون في الربط بينها وبين ألمانيا تحت سيطرتهم ، أمكننا أن نكون فكرة عن الفوضى السياسية التي أضحت فيها إيطاليا في تلك الحقبة (٤) .

=

-
- (1) Diehl, Marçais: *Le Monde Oriental*, pp. 440—441.
 - (2) Thompson: *op. cit.* Vol. 1, pp. 399—400.
 - (3) Tout: *The Empire and the Papacy*, pp. 103—104.
 - (4) *Cam. Med. Hist.* Vol. 5, pp. 167—168.

قيام دولة النورمان في جنوب إيطاليا :

وقد ساعدت هذه الحالة من الفوضى وعدم الاستقرار على امتداد نفوذ النورمان الى جنوب إيطاليا في القرن الحادى عشر ، حتى استطاعوا أن يكونوا دولة قوية أسهمت بدور هام في تاريخ أوربا في العصور الوسطى . ذلك أن النورمان الذين استقروا في غرب فرنسا سرعان ما اعتنقوا المسيحية وتأثروا بالحضارة الفرنسية ، ولكن دون أن يفقدوا روح المغامرة وحب الغزو . وبعبارة أخرى فانهم أخذوا عن الفرنسيين تقواهم الدينية وورثوا عن أجدادهم حب التنقل والترحال ، حتى قام كثيرون منهم بأسفار بعيدة المدى بقصد زيارة الأماكن المقدسة أو الهجرة . وكثيرا ما انتهت هذه الأسفار بتأسيس دويلات نورمانية كان لها شأن كبير في العصور الوسطى . من ذلك ما حدث حوالى سنة ١٠١٩ من أن أربعين حاجا نومانيا مروا بجنوب إيطاليا - قرب مونت جارجانو Monte Gargano على الشاطئ الشرقى - في طريق عودتهم من الأراضي المقدسة الى وطنهم (١) وفي ذلك الوقت كان ميليس Meles - أحد مواطنى مدينة بارى Bari قد استغل فرصة توغل المسلمون وثار ضد السلطات البيزنطية ، فاستعان بهؤلاء النورمان في تحقيق غرضه ، واستغلهم كجند مرتزقة . وقد رحب زعيم هؤلاء الحجاج بالفرصة ، كما شجع البابا بندكت الثامن الفكرة ، وبفضل هذه المعونة تمكن ميليس من الانتصار على القوات البيزنطية مما أكسب النورمان شهرة كبيرة في إيطاليا كجند محاربين شجعان . (٢)

وعندما عاد هؤلاء الحجاج الى نورمانديا نقلوا الى ذويهم ما شاهدوا عليه البلاد الإيطالية من فوضى وتفكك ، الأمر الذى أغرى كثيرين من الطموحين على الهجرة من نورمانديا الى جنوب إيطاليا ليعملوا جندا مأجورين . ويقال ان دوق نابلى رحب بهم سنة ١٠٣٠ بعد أن ساعدوه ضد أمير كابوا اللباردى ، مما جعل هذا الدوق يكافئ رانولف - زعيم النورمان - بمنحه

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 198

(2) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 104—105.

منطقة غنية يقيم فيها مع قومه بصفة دائمة + وفي هذه المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠ ، التي تعتبر أول مركز دائم لهم في إيطاليا (١) . وهكذا أخذت جموع النورمان تتكاثر في جنوب إيطاليا في النصف الأول من القرن الحادى عشر ، حيث وجدوا في هذا الوطن الجديد ميدانا صالحا لنشاطهم وتحقيق أطماعهم المادية والسياسية . واشتهر من زعماء النورمان في إيطاليا في هذه الحقبة ثلاثة اخوة يلقبون بلقب « هوتفيل Hauteville » هم وليم وهمفري ودروجو ، وقد أحرزوا جميعا صيتا دائما في ميدان الحرب والقتال (٢) . وكان أن قدم هؤلاء الاخوة مساعدتهم الى البيزنطيين سنة ١٠٣٨ لطرده المسلمين من صقلية ، حتى أصبح وليم هوتفيل أسيرا على النورمان في أبوليا سنة ١٠٤٢ واتخذ ملفى Melfi مركزا له (٣) . وعندما توفى سنة ١٠٤٦ اعترف الامبراطور الغربى هنرى الثالث بأخيه دروجو أميرا على أبوليا . ولكن حدث حوالى ذلك الوقت أن حضر من نورمانديا أخ رابع لهؤلاء الثلاثة ، هوروبرت جويسكاد الذى لم يلبث أن أصبح زعيما للنورمان في إيطاليا بعد وفاة همفري سنة ١٠٥٧ (٤) . وقد اشتهر روبرت جويسكارد هذا (ت ١٠٨٥) كسياسى ماهر وقائد شجاع لا يعرف الرحمة أو الوفاء بالعهد فى سبيل الوصول الى هدفه . ومن أعماله أنه وجه كل جهوده نحو غزو جنوب إيطاليا وأراضى الدولة البيزنطية وتقويض نفوذها فى شبه الجزيرة (٥) ، دون أن يدري أن توسع النورمان فى جنوب إيطاليا ، وما صاحب هذا التوسع من أعمال الغصب والعنف ، أثار خنق البابوية ومخاوفها . ذلك أنه على الرغم من ترحيب البابوات والأساقفة الكاثوليك بأولئك النورمان ليكونوا عوناً لهم ضد المسلمين من جهة والكنيسة الشرقية من جهة أخرى ، إلا أن النورمان أثاروا كره الجميع بعد أن اشتهروا بالتهب والسلب والقسوة (٦) . هذا فضلا عن أنهم

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 3. p. 268.

(٢) Stephenson: op. cit. p. 247.

(٣) Diehl, Marcais: Le Monde Orientale, p. 560.

(٤) Haskins: The Normans in European History, p. 201

(٥) Vasiliev: op. cit. Tome 1, p. 474.

(٦) Orton: op. cit. p. 188.

أخذوا يعملون لحسابهم الخاص ، فتارة يحاربون مع الأمراء اللمبارديين وطورا في صف القوات البيزنطية ، دون أن يكون لهم هدف من وراء كل ذلك سوى توسيع رقعة أراضيهم الخاصة على حساب البيزنطيين واللمبارديين والبابوية جميعا .

وكان أن دفع شعور الخوف والاستياء البابا ليو التاسع الى أن يوجه جيشا - خليطا من الالمان والايطاليين - لمهاجمة النورمان سنة ١٠٥٣ . ولكن النورمان انتصروا على هذه الحملة البابوية في موقعة كيفيتاتي Civitate فاثبتوا مرة أخرى كفايتهم الحربية (١) ، حتى استطاع زعيمهم روبرت جويسكارد أن يغزو كالبريا بأكملها سنة ١٠٥٧ (٢) . ويبدو أن هزيمة البابوية أمام النورمان وقتئذ كانت ذات نتائج مهمة ، لأنها أثبتت للمعاصرين - وبخاصة البابوية - أنه لا يمكن طرد النورمان من ايطاليا ، هذا في الوقت الذي حالت تقوى هؤلاء النورمان دون استغلال انتصارهم في تتبع البابوية ومعاقبها (١) . وفي ذلك الوقت بالذات كانت البابوية في حاجة الى حليف قوى ، بعد أن أخذت تحس خطر الأباطرة الألمان على كيائها وتطمع في التحرر من سيطرتهم، مما جعلها تغير نظرتها تجاه النورمان وتفكر في اتخاذهم حلفاء لها يساعدونها في تحقيق استقلالها والتخلص من خطر الأباطرة من جهة ونبلاء روما من جهة أخرى . وأخيرا تمت هذه الصفقة السياسية بين البابوية والنورمان على عهد البابا نقولا الثاني (١٠٥٨ - ١٠٦١) وتحت تأثير ووساطة الكاردينال هلدبرانند (٤) ، الذي ذهب بنفسه سنة ١٠٥٩ الى كابوا ومهد للاتفاق النهائي الذي أبرم في ملفي Melfi ، والذي اعترفت فيه البابوية بشرعية حكم النورمان لجنوب ايطاليا مقابل اعترافهم بالتبعية للبابا ودفع مبلغ معين من المال له سنويا (٥) .

ولا شك في أن هذه الخطوة الحاسمة كان لها أثر خطير في تاريخ أوروبا

(1) Haskins: The Normans in European History, p. 203

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 403.

(3) Eyre: op. cit. p. 130.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 114.

(5) Haskins: the Normans in European History, p. 204.



المصور الوسطى • ذلك أن قيام دوقية أبوليا النورمانية كان الخطوة الأولى نحو قيام مملكة نابولي ، ونشأ من ذلك أن هذه الخطوة أدت الى فصل جنوب إيطاليا عن شمالها مما كان له أبعاد الأثر فى تاريخ إيطاليا • هذا الى أن اتفاقية ملفى هيأت للبابوية حليفًا قويا فى الجنوب ، اتجهت اليه عندما تأزم الموقف بينها وبين الامبراطورية نتيجة لحركة الإصلاح الواسعة التى شرعت البابوية فى النهوض بها (١) • وسرعان ما أثبتت الأحداث أن مملكة النورمان التى قامت فى جنوب إيطاليا أثرت تأثيرا خطيرا فى تاريخ إيطاليا بوجه عام والبابوية بوجه خاص • ولم يلبث الكاردينال هلد براند نفسه - عندما أصبح بابا تحت اسم جريجورى السابع سنة ١٠٧٣ - أن استبد به القلق عندما وجد النورمان ابتلعوا جميع الجزء الجنوبى من إيطاليا ، سواء الممتلكات البيزنطية أو امارة بتفتو التابعة للبابوية • لذلك أدرك جريجورى السابع خطر النورمان على سلطة الكنيسة وأملاك البابوية وحاول أن يحد من ذلك الخطر عن طريق الاستعانة بوليم كونت برجنديا (٢) • على أن محاولات هذا البابا - المعروف بالعنف والصرامة - لم تفلح فى وقف التوسع النورمانى اذ لم يلبث أن غزا روبرت جويسكارد سالرنو وأمالفى (٣) • ثم شاعت الظروف عندئذ أن يدخل البابا جريجورى السابع فى صراعه العنيف ضد الامبراطورية ، مما جعله يتلهف على مساعدة النورمان ، فأقر جويسكارد سنة ١٠٨٠ على ما بيده من أراضى مقابل قيام الأخير بحماية البابوية من خطر الامبراطور (٤) •

وقد حقق روبرت جويسكارد رغبة البابوية فعلا وقدم لها بعض المساعدات ، ولكن ذلك لم يصرفه عن التوسع فى جنوب إيطاليا حيث كان أخوه الأصغر يعمل منذ سنة ١٠٦١ حتى تم استيلاء النورمان على بارى سنة ١٠٧١ بعد

(1) Eyre: op. cit. p. 138.

(2) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 303--304.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 179.

(4) Orton: op. cit. p. 189.

حصار ثلاث سنوات ، وبذلك ثم طرد البيزنطيين نهائياً من إيطاليا (١) ، وأصبحت الخطوة التالية أمام النورمان هي الاستيلاء على جزيرة صقلية وانتزاعها من المسلمين . وأخيراً توفي روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥ قبل أن يحقق بقية أطماعه الواسعة في الشرق ، وفي الدولة البيزنطية نفسها ، وإن كان يكفيه أنه ثبت أقدام النورمان في جنوب إيطاليا (٢) . وبوفاة روبرت جويسكارد انتهت فترة الغزو النورمانى في جنوب إيطاليا ، وهى الفترة التى استمرت نصف قرن ، وبدأ دور آخر - استمر نصف قرن أيضاً - استحكم فيه النزاع الداخلى بين النورمان أنفسهم ، حتى استطاع روجر الثانى توحيد جميع الأراضى التى فتحها النورمان واتخاذ لقب ملك سنة ١١٣٠ (٣) . وهكذا قامت مملكة الصقليتين - التى شملت جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية - والتى غدت من أبرز ممالك غرب أوروبا وأرفعها حضارة فى العصور الوسطى ، وذلك بحكم مركزها المتوسط بين الشرق والغرب .

شمال إيطاليا ووسطها فى القرن الحادى عشر :

هذا عن جنوب إيطاليا ، أما شمالها فقد تعرض منذ القرن الحادى عشر لتطورات اقتصادية وسياسية أدت الى نشأة ما يعرف باسم القومونات - أو المدن ذات الكيان الاقتصادى والسياسى المستقل (٤) . وفى بداية القرن الحادى عشر ظهرت البندقية فى صورة جمهورية مستقلة لها دوقها الذى ينتخبه نبلاؤها ولها نفوذها السياسى وكيانها الاقتصادى الخاص (٥) . وفى خلال ذلك القرن أيضاً ظهرت جنوا وبيزا كقوى مستقلة أخذت تسهم فى الحروب الصليبية منذ

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 117.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 182.

(3) Haskins: The Normans in European History, pp. 206—218—219.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 220.

عن نشأة القومونات وأهميتها ، أنظر الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(5) Stephenson: Med. Hist. pp. 320—321.

نهاية القرن الحادى عشر اسهاما فعليا • ولم تلبث هذه الحركة - حركة استقلال المدن وتحررها - أن امتدت الى سهول ابارديا واقليم تسكانيا حيث حصل كثير من المدن على حكمها فى الحكم الذاتى • ومن أمثلة هذه المدن Siena وفلورنسا ولوكا وميلان وبافيا وبرسكيا وبولونيا(١) • وسوف نتكلم عن أهمية نشأة المدن وظهور القومونات فيما بعد فى باب مستقل ، ولكن الذى يعنينا الآن بالنسبة لتاريخ ايطاليا هو أن هذه المدن أو القومونات أظهرت حرصا شديدا فى التمسك باستقلالها السياسى ، فأخذت تقاوم كل سلطة أو هيئة حاولت حرمانها من ذلك الاستقلال سواء كانت هذه السلطة دينية بابوية أو سياسية امبراطورية ، مما جعلها تلعب دورا هاما فى تاريخ ايطاليا السياسى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، وبخاصة فى حوادث النزاع بين البابوية والامبراطورية(٢) • هذا فضلا عن الدور الهام الذى قامت به فى الميدان الحضارى بوجه عام وفى الجانبين الاقتصادى والفكرى بوجه خاص ، مما سنتعرض له بالتفصيل فيما بعد(٣) •

أما وسط ايطاليا فقد وجدت به بعد الغزو اللمباردى بعض الدوقيات المستقلة وأهمها دوقية تسكانيا • ولا تهمنا بقية تلك الدوقيات كثيرا ، لسرعة ما طرأ على وضعها السياسى من تغيير وتبديل طوال العصور الوسطى • على أن أهم قوة وجدت فى ذلك الجزء كانت بدون شك قوة البابوية ، التى لم تستمد أهميتها التاريخية من أثرها الروحى وزعامتها الكنيسة الغربية فحسب ، بل أيضا من الدور السياسى الذى أخذت تقوم به فى عناد واصرار لتجعل زعامتها على العالم الغربى حقيقة واقعة(٤) • وهنا نلاحظ أن البابوية لم تستطع أن تحقق أطماعها فى الزعامة والسحق الا بعد أن مرت الكنيسة الغربية بوجه عام بدور من الاسلح والتطور ، الأمر الذى مكن البابوية من الوقوف على

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 481 - 482.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 222 - 223.

(3) Pirenne, Cohen, Focillon: La Civilisation Occidentale au Moyen Ages, pp. 146 - 153.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. pp. 55 - 58.

رأس الكنيسة في وجه القوى المعارضة حتى خرجت في النهاية مرفوعة الرأس •

البابوية والكنيسة الغربية :

امتاز تطور الكنيسة ونموها في العصور الوسطى بظاهرتين أساسيتين ، الأولى ازدياد سيطرة البابا على رجال الأكليروس والثانية ازدياد تدخل هؤلاء الآخرين في الشؤون العلمانية • وقد رأينا كيف قام شارلمان بتنظيم الكنيسة ضمن نواحي الإصلاح الأخرى التي تمهدها بعنايته وذلك بوصفه رائدا أو زعيما للشعب المسيحي (Rector Populi Christiani) (١) • ولكن اضمحلال امبراطورية شارلمان حرم البابوية من حليفها القوى وتركها وحيدة في الميدان وسط مظاهر الفوضى الشاملة والأخطار الخارجية التي تعرضت لها منذ منتصف القرن التاسع • ولم يقتصر هذا التدهور على البابوية وحدها ، بل امتد الى بقية الجهاز الكنسي حتى اختلت أحوال الكنيسة الغربية بوجه عام في الفترة الواقعة بين القرن التاسع ونهاية الحادي عشر (٢) • فالبابا غدا أقرب الى أن يكون نبيلاً رومانيا لا سلطان له على كنائس بلدان غرب أوروبا المتعددة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وأسبانيا وغيرها ، وهي الكنائس التي تباين مدى استقلالها عن السلطة الزمنية أو تبعيتها لها (٣) • أما الأساقفة فكان لهم في البابوات أسوة سيئة ، وسرعان ما أصبحوا من رجال الاقطاع التابعين للملك أو لكبار الدوقات ، بل ان وظائفهم نفسها غدت اقطاعية ، كما أدى زواجهم الى انصرافهم نحو جمع الثروة ليورثوها أبناءهم (٤) • وهكذا خرج الأساقفة عن دائرة اختصاصهم الديني الى المشاركة في الحروب وعقد المجالس القضائية

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 188

(2) Eyre: op. cit. pp. 124—125.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 454.

(4) Idem: Vol. 5, pp. 5—6.

وجمع الضرائب والمكوس الاقطاعية ، لا داخل أراضيهم الخاصة فحسب ، بل فى أراضي النبلاء المجاورين أيضا(١) . وبعبارة أخرى فان كبار رجال الدين - من أساقفة ومقدمى أديرة - غدوا أفضالا اقطاعيين للملوك وكبار الأمراء ، يؤدون لهم ما جرى عليه العرف الاقطاعى من خدمات والتزامات معروفة(٢) .

على أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يسكت عنه المخلصون من رجال الدين ، لاسيما بعد أن رسم القديس أوغسطين فى القرن الخامس الحدود بين السلطين الزمنية والدينية ، وقال بأن الأولى قامت على أساس من الشر والغدر لأنها من صنع البشر ، لذلك يجب أن تخضع لسلطة الكنيسة ، وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته(٣) . والواقع أن الكنيسة لم تنس حقوقها فى السمو على السلطة الزمنية ، وهى الحقوق التى سبق أن أوضحها القديس أوغسطين . وكل ما هنالك هو أن شارلمان نظر دائما الى الامبراطورية نظرة دينية ، واعتقد أن وجود دولة قوية وكنيسة قوية فى قبضته من شأنه أن يحقق نوعا من الوحدة بين بلاد الامبراطورية المختلفة وشعوبها المتباينة(٤) . وما دامت الكنيسة قد رضيت بأن يقوم شارلمان بدور حامى حماها ، المدافع عن كيائها ، فان عليها أن تقبل - وهى صاغرة - تدخله فى كافة شئونها الدينية دون أن تجرؤ على المطالبة بوضع حدود فاصلة بين السلطين الدينية والعلمانية(٥) . وهكذا ظلت الكنيسة راضية بالأوضاع القائمة ، تخفى رغبتها فى التحرر والسيادة طالما كانت فى قبضة شارلمان القوية . هذا وان استمرت نظرة القديس أوغسطين ماثلة دائما فى أفكار ذوى الطموح من رجال الكنيسة .

على أن وفاة شارلمان وزوال قبضته القوية عن الكنيسة جعلتها تعمل على

(1) Eyre: op. cit. p. 125.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 125.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 413—414.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 443.

(5) Eyre: op. cit. p. 120.

تحرير نفسها بسرعة من سيطرة السلطة الزمنية ، كما أخذت البابوية تعمل على ابراز أهميتها وتحقيق سموها . من ذلك ما فعله البابا ستفن الرابع (الخامس) (٨١٦ - ٨١٧) من انكار شرعية تتويج لويس التقى فى حياة أبيه ، وقيامه بتتويجه مرة أخرى بيده فى ريمس سنة ٨١٦ تأكيداً لحق البابوية فى منح التاج الامبراطورى (١) . ثم جاءت ثورة ابنى لويس التقى. ضده سنة ٨٣٣ لتهىء فرصة للبابا جريجورى الرابع يؤكد فيها سلطان البابوية وسموها باسم الوساطة بين الابنين الثائرين وأبيهما . ذلك أنه حدث عندما طلب بعض الأساقفة المشايخين للامبراطور لويس التقى من البابا الخضوع لأوامر الامبراطور بصفته الرئيس الأعلى للامبراطورية والكنيسة جميعاً ، رد عليهم جريجورى الرابع بأنه بصفته بابا لا يعتبر أخاً لبقية الأساقفة وإنما أباً لهم ، يقدمون له فروض الولاء والطاعة (٢) . كذلك اختار جريجورى الرابع أن يؤكد لهم أن أوامره وآراءه ليست أقل قدسية من الأوامر الامبراطورية « لأن يجب ألا تنسوا أن الحكومة الروحية التى يهيمن عليها البابا أعلى قدراً من السلطة الامبراطورية التى لا تعدو أن تكون زمينية ومؤقتة (٣) » . وقد أكد هذه الفكرة بعد ذلك البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) الذى تمسك فى آرائه ومسلكه تجاه الامبراطور بمبدأ سمو البابوية على الامبراطورية (٤) ، وهو المبدأ الذى ظلت البابوية تجاهد فى سبيل تحقيقه منذ عهد جريجورى العظيم حتى عهد بونيفيس الثامن (٥) . هذا الى أن نقولا الأول لم يشأ أن يعترف بأن الامبراطور البيزنطى امبراطور رومانى « لأن الامبراطورية الرومانية لا توجد الا حيث ير بد البابا » . وفى ضوء هذه الآراء جميعاً يبدو لنا نيقولا الأول فى خطابه لمعاصريه من الحكام العلمانيين فى صورة السيد الأمر الذى تجب طاعته « لأن الحاكم الذى لا يطيع أوامر

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 134—144.

(2) Idem, pp. 168—169.

(3) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 115.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 453.

(5) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 121.

الكنيسة الرومانية وتعليماتها يعتبر عاصيا ويستحق اللعنة والحرمان (١) * .
ثم جاء تنويج شارلمان الثانى أو الأصملى امبراطورا بيد البابا حنا الثامن
سنة ٨٧٥ ليؤكد أن الامبراطور صنيع البابوية وربيبها ، وأن البابا عندما توج
شارل امبراطورا انما عبر عن ارادة الله والمسيح فى التفضل عليه بهذا
التشريف ، « ومنحه » التاج الامبراطورى (٢) * .

على أنه اذا كانت الكنيسة قد أخذت تسعى خلال سنوات الفوضى التى
عمت أوروبا فى القرن التاسع للتحرر من سلطان الدولة ليكون لها كيان خاص
مستقل ، الا أن الفصل بين الكنيسة والدولة بدا أمرا غير عملى فى ظل النظام
الانقطاعى * . هذا فى الوقت الذى لم تجد البابوية أمامها سابقة تستند اليها فى
تأكيد سيادتها على الملوك من جهة وعلى بقية رجال الكنيسة من جهة أخرى *
وهنا لجأ رجال الكنيسة الى التزييف والتزوير لاختلاق سوابق تستند اليها
البابوية فى تحقيق أهدافها * وثمة وثيقتان زيفهما رجال الكنيسة لتحقيق
أغراضهم ومبادئهم ، أما الوثيقة الأولى فتسمى « هبة قسطنطين Donation
of Constantine » والغرض منها اثبات سلطة البابوية الزمنية وسيادتها على
الغرب الأوروبى * وهذه الوثيقة المزورة عبارة عن مرسوم قيل ان الامبراطور
قسطنطين أصدره عندما أنشأ روما الجديدة (القسطنطينية) وتنازل بمقتضاه
للبابوية عن روما القديمة ، بل عن كل أراضى الامبراطورية الغربية (٣) * .
ويبدو أن هذه الوثيقة زورت فى القرن الثامن بعد أن منح بين الأول
(القصير) البابا سلطة زمنية فى أراضى ايطاليا سنة ٧٥٥ ، فأراد رجال الكنيسة
عندئذ أن يحيطوا هبة بيبين هذه بحق من الشرعية التقليدية التى تبنت أن حق
البابوية فى مباشرة السلطة الزمنية قديم يرجع الى أيام قسطنطين نفسه (٤) * .
ومهما يكن من أمر فقد استمرت البابوية تعتمد على هذه الوثيقة المزورة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government, pp. 202 - 203.

(2) Idem: pp. 161 - 162.

(3) Eyre: op. cit. p. 122.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 58 - 60.

وتتخذها أساسا لسلطانها الزمني حتى كشف عن تزويرها حوالى سنة ١٤٣٩ ،
أى فى عصر النهضة الإيطالية •

أما الوثيقة الثانية فظهرت حوالى ٨٥٠ - ٨٥٧ واسمها الأحكام البابوية
المزورة Forged Decretals وهى تنسب الى شخص غامض اسمه ايسيدور، وان
كان لا يمكن القول برأى قاطع فى حقيقة نشأتها (١) • وكل ما هناك هو أنه
يبدو أنها وضعت فى ريمز أو مينز ، ثم أحكمت آياتها بعد ذلك فى روما •
وكان الهدف الأساسى من وضعها خدمة مصالح الأساقفة المحليين من جهة
والبابوية من جهة أخرى (٢) ، لأنها ترمى الى اضعاف سيطرة رؤساء الأساقفة
وفى الوقت نفسه تعمل على اعلاء شأن البابوية وتضخيم نفوذها (٣) •

وهكذا أخذت هذه المبادئ تسود الدوائر الكنسية فى غرب أوربا منذ
النصف الثانى من القرن التاسع ، فأنشأ الأساقفة يتجاهلون رؤساءهم ويلجئون
الى البابوية لانصافهم ، كما تدخل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) فى
شئون كنيسة اللورين ، مستندا الى بعض الأحكام المزورة السابقة ، فأصر على
حقوق البابوية فى اصدار التعليمات والأوامر الى مختلف الكنائس المحلية (٤) •
على أنه من الملاحظ أن الفترة الواقعة بين وفاة نيقولا الأول سنة ٨٦٧ وتويج
أوتو الأول امبراطورا سنة ٩٦٢ ، كانت من أحلك السنوات فى تاريخ غرب
أوربا من النواحي السياسية والكنسية جميعا • فبالإضافة الى اضمحلال
امبراطورية شارلمان وتفككها ، شهدت هذه الفترة أيضا تدهور البسبوية
والكنيسة الغربية بوجه عام (٥) • حقيقة ان الكنائس المحلية فى مختلف بلاد
غرب أوربا ظلت تنظر الى البابا على أنه زعيمها الروحى ، ولكن نفوذ البابوية
على هذه الكنائس لم يعد أن يكون اسميا • فكثير من البابوات فى الفترة
الواقعة بين القرنين التاسع والحادى عشر أهملوا توجيه الكنيسة توجيهها
فعليا رشيدا ، ولم يفكروا فى دعوة مجامع دينية عامة ، وتركوا مهمة هذا

(1) Bryce : op. cit. p. 153.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 3, p. 448.

(3) Oman: The Dark Ages, p. 456.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 421—422.

(5) Eyre: op. cit. pp. 123—124.

التوجيه. ودعوة المجامع الى الملوك فى كل بلد من البلدان حسب مقدرة هؤلاء الملوك ومقدار سيطرتهم على الكنيسة فى بلادهم ، مما أدى الى تفكك الكنيسة وعدم وجود رابطة تربطها فى غرب أوروبا • ومن الواضح أن سيطرة الحكام العلمانيين على الكنيسة لم تؤد فقط الى تفكك الكنيسة فى تلك الحقبة ، وانما أدت أيضا الى انحطاط المستوى الخلقي لرجال الدين لأن الحكام العلمانيين لم يهتموا عند ملء الوظائف الدينية باختيار مرشحين على خلق سليم ، مما أدى الى وصول بعض ضعاف النفوس الى أرفع المناصب الكنسية (١) •

حركة الإصلاح الكلونية :

ولم يلبث هذا الفساد الذى دعم الكنيسة فى القرنين التاسع والعاشر أن أدى الى ايقاظ بعض الضمائر التى أفرعها ما آل اليه أمر الكنيسة ورجال الدين فى غرب أوروبا (٢) • وكان أن انبعثت الدعوة الى الإصلاح فى النصف الأول من القرن العاشر فى منطقة اللورين حول متزوليج ، حيث كانت الحياة الديرية قوية وسليمة • وهناك بدأ أحد المصلحين - واسمه جيرارد - تلك الحركة بتأسيس كنيسة قرب نامور سنة ٩٢٤ ، ثم ألحق بها ديرا بعد قليل • وسرعان ما سارت تلك الحركة الإصلاحية فى اللورين سيرا طيا فنادى المصلحون بالعودة الى تعاليم السلف الصالح وتطبيق نظم القديس بندكت على الحياة الديرية • ولكن تلك الحركة الإصلاحية ظلت محلية الطابع ، اذ استمر أنصار الفساد خارج المنطقة أقوى نفوذا ، فقاوم كثير من رجال الدين تلك الدعوة بعد أن ألفوا حياة الضعف والانحلال ، وبذلك حالوا دون انتشارها والافادة منها (٣) • ومهما يكن من أمر فان هذه الحركة الإصلاحية التى ظهرت فى اقليم اللورين لم تكن الوحيدة من نوعها ، اذ عاصرتها دعوة أخرى

(1) Idem: p. 126.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 128.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 128—131..

للاصلاح انبعثت في حوض الرون الأعلى حيث أسس وليم التقى دوق اكويتن ديرا جديدا في كلونى سنة ٩١٠ (١) *

وقد روعى في نظام هذا الدير تجنب الأخطاء والمفاسد التي تردت فيها
قبة الأديرة المعاصرة ، ليصبح رأسا لحركة اصلاحية ديرية شاملة * من ذلك.
أن دير كلونى لم يقبل أرضا من أمير اقطاعى أو حاكم مقابل خدمات أو
ارتباطات اقطاعية مع ذلك الأمير أو الحاكم * وهكذا جاءت جميع المنح التي
تلقاها دير كلونى - من أراض وغيرها - حرة غير مشروطة ، ولا يتقاضى
صاحبها عنها سوى حسن الثواب من الله والدعوات الطيبات من أهل الدير *
وإذا كان نظام الأديرة البندكتية قد تطلب من الديرين القيام بقسط كبير من
العمل اليدوى في الحقول إلا أنه لوحظ عدم تطبيق هذا المبدأ بصورة تكفل
تحقيق الغرض المنشود ، لأن معظم الأراضى التي كانت تمنح للأديرة عليها
أقنانها المرتبطون بها والذين يقومون بفلاحتها ، الأمر الذى وفر على الديرين
عناء العمل في الحقول من جهة وأوجد فراغا كبيرا في حياتهم من جهة
أخرى * ولسد هذا الفراغ وتلافى أخطار البطالة روعى في نظام كلونى
مضاعفة الساعات اليومية المخصصة للصلاة والعبادة (٢) *

وقد قام نظام الأديرة الكلونية على أساس الطاعة المطلقة والتفانى في خدمة
المجموع ، فالفرد لا شئ والمجموع هو كل شئ * كذلك أدرك زعماء الحركة
الكلونية أن الامراض الخطيرة التي تعرضت لها الكنيسة حينئذ انما جاءت
وليدة ارتباط الكنيسة بالدولة ، ولذلك وجدوا في الفصل بين السلطتين العلاج
الوحيد الشافى من تلك الأمراض (٣) * ولعل هذا هو السبب في حرصهم
على أن يكون نظامهم الديرى تابعا للبابوية مباشرة دون أن يكون للحكام
العلمانيين أو الأساقفة المحليين اشراف على الأديرة الكلونية التي تقع في مناطق

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 661.

(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, pp, 128-129.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 99.

تفوذهم(١) • وهكذا أصبحت الأديرة الكلوونية تخضع لاشراف مركزى شديد ، اذ لا يوجد لها سوى مقدم واحد فى الدير الرئيسى بكلونى هو المسئول الأول عن بقية الأديرة الكلوونية التى يشرف عليها رؤساء لا يتمتعون باستقلال كبير فى أديرتهم ويخضعون خضوعا مباشرا للمقدم العام فى كلونى ، الذى له حق التفتيش عليهم بين حين وآخر والذى يخضع بدوره للبابا خضوعا مباشرا(٢) • وسرعان ما اشتهر دير كلونى فانتشر هذا النظام الديرى فى غرب أوربا انتشارا واسعا فى سرعة فائقة ، حتى أن كثيرا من الأديرة البندكتية المعروفة فى فرنسا وألمانيا قبلت النظام الكلونى ودخلت تحت رئاسته • هذا زيادة على الأديرة الأخرى التى اختارت أن تحتفظ باستقلالها ولكنها تأثرت فى نظمها بمبادئ الإصلاح الكلوونية(٣) • والذى يهمنى الآن من أمر هذه الحركة أنها لم نلبث أن تطورت واتسع أفقها ، فبعد أن كانت تستهدف فى أول أمرها اصلاح الحياة الديرية وحدها ، اذا بها فى القرن الحادى عشر تسعى نحو اصلاح الكنيسة اصلاحا شاملا ، معتمدة فى ذلك على ما أصبح للأديرة الكلوونية ورجالها من قوة وعظمة ونفوذ واسع عند منتصف القرن الحادى عشر • حقيقة أن الدعوة الكلوونية تعرضت لمطرشة قوية من كثير من الأساقفة ، بل من بعض المؤسسات الديرية الأخرى التى ألف أهلها حياة الفساد ، ولكن حركة الإصلاح الكلوونية استطاعت أن تستمر فى طريقها السوى دون أن توقفها هذه المعارضة(٤) •

وكانت الكنيسة تعاني عندئذ ثلاثة أمراض خطيرة ، هى السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى • أما السيمونية فالمقصود بها شراء الوظائف

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 664.

(2) Eyre: op. cit. p. 127.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 662.

(4) Thompson: op. cit. Vol. I p. 427..

الدينية بالمال (١) ، وهو داء فشا فشا فشا خطيرا بين رجال الدين حتى توصل كثير من المجرحين وغير الصالحين الى المناصب الدينية الكبرى عن طريق المال ، مما أضعف الكنيسة وشوه سمعتها (٢) . ذلك أن ما تمتعت به الأديرة والأسقفيات من ثروة طائلة وأراض واسعة ، جعلها موضع أنظار الطامعين الذين لم يرضوا بتقديم الأموال الكثيرة الى الحكام العلمانيين أو كبار الأساقفة ليعينوهم رؤساء على تلك الأديرة والأسقفيات (٣) . وقد حاول البابا جريجورى السادس (١٠٤٥ - ١٠٤٦) وكذلك البابا ليو التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) مكافحة السيمونية ، وشجعهما في جهودهما الامبراطور هنرى الثالث ، حتى تم عزل كثير من رجال الدين الذين اشتروا مناصبهم بالمال (٤) . هذا الى أن المجامع الدينية التى عقدت سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٠ أصدرت قرارات مشددة ضد السيمونية والاتجار فى المناصب الدينية (٥) .

أما عن زواج رجال الدين فالمعروف أن معظم الأساقفة ظلوا عزابا ، فى حين أقبل على الزواج معظم القساوسة وصغار رجال الدين (٦) . والواقع أنه لم يوجد قانون كنسى يفرض حياة العزوبة على رجال الكنيسة ، وإن وجدت بعض تشريعات فى أوائل العصر المسيحى تؤيد مبدأ العزوبة (٧) ، وهى تشريعات لم يمكن تنفيذها فى سهولة على الرغم من جهود البابا جريجورى العظيم فى سبيل تطبيقها (٨) . وهكذا ظلت الكنيسة ترى ضرورة الزام رجال الكليروس

(١) تنسب السيمونية الى سيمون الساحر الذى ورد عنه فى العهد الجديد « ولما رأى سيمون أنه بوضع أيدي الرسل يعطى الروح القدس قدم لهم دراهم ، قائلا أعطينى أنا أيضا هذا السلطان حتى أى من وضعت عليه يدي يقبل الروح القدس ، فقال له بطرس لتكن فضتك معك للهلك لأنك ظننت أن تقتنى موهبة الله بدرأهم » (سفر أعمال الرسل ، الاصحاح الثامن ، ١٨ - ٢٠) .

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 10.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 122.

(4) Hayward: A Hist. of the Popes, p. 147.

(5) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 343—344.

(٦) نلفت نظر القارئ الى أننا عالجت موضوع زواج رجال الكنيسة بشئ من التفصيل فى الباب الخاص بالنظم الدينية فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(7) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 11—12.

(8) Eyre: op. cit. pp. 215—216.

بحياة العزوبة أسوة برهبان الأديرة ، لأنها رأت أن هذه الحياة من شأنها أن تظهر النفس زيادة على تدعيم النظام الكنسى نفسه(١) . والمعروف أن الاتجاه السائد منذ انقرون العاشر كان يميل الى توريث الوظائف الاقطاعية ، مما أدى بدوره الى اتجاه رجال الدين المتزوجين نحو توريث وظائفهم الدينية لأبنائهم ، الأمر الذى يجعل منهم طبقة وراثية وينزل أبلغ الضرر بالنظام الكنسى . وعلى ذلك فالكنيسة كانت تقر مبدأ الزواج كتشريع دينى لحفظ السلالة البشرية ولكنها عارضت فى زواج رجال الدين حفظا لكيانها ونظامها . وقد ظهرت هذه المعارضة فى القرارات التى أصدرتها مجامع روما الدينية سنة ١٠٥٠ ، سنة ١٠٥٩ وسنة ١٠٦٣ ، والتى حرمت على عامة الناس التعامل مع القساوسة المتزوجين(٢) .

على أنه اذا كانت المسائل المتعلقة بالسيمونية وزواج رجال الدين تعتبر من المشاكل الداخلية بالنسبة للكنيسة ، فان مسألة التقليد العلمانى اختلفت عنها فى كونها تنصل اتصالا مباشرا بسلطة الحكام العلمانيين . والمقصود بالتقليد العلمانى هو أن يقوم الحكام العلمانيون - من أباطرة وملوك وأمراء - بتقليد رجال الدين مهام مناصبهم الدينية . والمعروف أن القانون الكنسى نص منذ القدم على أن يكون تعيين القساوسة بوساطة أساقفتهم ، وأن يقوم القساوسة وغيرهم من رعايا الأسقفية بانتخاب الأسقف ، وأخيرا يعتمد كبير كبار الأساقفة - وهو البابا - هذا الاختيار . ولكن هذه الأوضاع تغيرت على مر الأيام ، فأصبح أصحاب الأراضى من الاقطاعيين يقومون بتعيين القساوسة ، فى حين تولى الأباطرة والملوك والدوقات تعيين الأساقفة ، فيكفى أن يسلم أحدهم خاتم الأسقفية وعكازها الى أحد الأفراد ويقول له « تسلم أسقفية كذا » حتى يصبح أسقفا على تلك الأسقفية(٣) .

(1) Thompson: op. cit. Vol. p. 428.

(2) Eyre: op. cit. p. 216.

(3) Orton: op. cit. pp. 166—167.

ومن الواضح أن هذا الوضع أفاد الدولة سياسيا ، اذ جعل كبار رجال الدين تابعين للحكام العلمانيين وجعل الوظائف الدينية بمثابة أقطاعات يمنحها هؤلاء الحكام لرجال الدين ، ولذلك تمسك أباطرة الدولة المقدسة - بوجه خاص - بهذا الحق ، واعتبروا تخليهم عنه خسارة كبرى. تحقيق بسلطانهم السياسى (١) ولكن الكنيسة هي التي خسرت خسرانا مينا من جراء هذا الوضع الشاذ الذي أدى الى تفككها وعدم ارتباطها تحت زعامة البابوية ، بعد أن أصبح الأساقفة أذنايا للملك أو الامبراطور يعينهم لخدمته وتحقيق أغراضه ، لا لخدمة الكنيسة وتحقيق أغراضها . فالكنيسة كانت تريد من رجالها أن يخضعوا للبابوية وحدها وينصرفوا لخدمة وظائفهم الدينية ، في حين أراد الحكام العلمانيون أن يسيطروا على رجال الدين سيطرة اقطاعية وأن يتحكموا في تعيينهم حتى يكونوا أداة في أيديهم ، ولا سيما أن رجال الكنيسة كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة - التي تستطيع القراءة والكتابة - ومن ثم اشتدت حاجة الحكام العلمانيين اليهم في الشؤون الادارية (٢) .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى تدخل الملوك والأمراء في اختيار البابوات أنفسهم ، فأخذ أمراء روما يسيطرون على البابوية - وبوجه خاص بعد وفاة بندكت الثامن سنة ١٠١٤ - واختاروا لهذا المنصب الخطير من يحقق أغراضهم ، حتى ولو كان من غير رجال الدين ، مما جعل كثيرا من البابوات يستجدون بالأباطرة الألمان كما سبق أن رأينا (٣) . ولكن قيام الأباطرة الألمان بحماية البابوية جعل هذه الأخيرة صنعة لهم ، مما ساء الكرادلة المصلحين ، فانتهزوا فرصة وفاة الامبراطور هنرى الثالث سنة ١٠٥٦ عن طفل صغير - هو هنرى الرابع - واختاروا البابا ستفن التاسع عقب وفاة

(1) Ullmann : The Growth of Papal Government. p. 237
(2) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 132.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 14—15.

البابا فكتور الثانى سنة ١٠٥٧ (١) • ويبدو أن هذا الاختيار لم يرق فى عيون أمراء روما فطردوا البابا ستفن التاسع وعينو البابا بندكت العاشر ، وعندئذ تمسك الكرادلة برأيهم ورفضوا الاعتراف بالبابا الجديد حتى تم عزله هو الآخر • ولوضع حد لهذه الفوضى دعا البابا نيقولا الثانى مجمعا دينيا فى روما سنة ١٠٥٩ لتنظيم اختيار البابا وانقاذ البابوية من الهوة التى غرقت فيها • وكان أن قرر هذا المجمع أن يتولى الكرادلة وحدهم - وهم أساقفة روما وضواحيها السبع - انتخاب البابا ، على أن يستدعى الناس ورجال الاكليروس بعد ذلك لمجرد الموافقة على هذا الاختيار (١) • هذا فضلا عن أنه تقرر ضرورة اختيار البابا من بين رجال الاكليروس فى روما نفسها ، الا فى حالة عدم توافر المؤهلات والشروط اللازمة للمنصب البابوى فى أحدهم ، فاذا تعذر لأى سبب اجراء عملية انتخاب البابا فى روما فانه يجوز اجراء هذه العملية فى أى مكان آخر (٣) • وبذلك استطاعت البابوية أن تتحرر من نفوذ نبلاء روما وسيطرة الأباطرة جميعا ، فضلا عن أن اختيار البابا أصبح انتخابيا فى هيئة مختارة من صفوف رجال الكنيسة • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن هذا الاجراء كان الخطوة الأولى فى سبيل اقامة حكومة مركزية فى الكنيسة تستطيع أن تبشر الاصلاح الكنسى بوجه عام (٤) •

ومن الشخصيات البارزة التى ظهرت فى ذلك المجمع الدينى الكاردينال هلدبراند ، الذى رأى بثاقب بصره اقناع أعضاء المجمع بعدم المساس بحقوق الامبراطور القائم وهو هنرى الرابع ، على أن يحرم خلفاؤه من أى حق فى اختيار البابوات • ولم تلبث شهرة هلدبراند ومكانته أن أدت الى المنادة به بالاجماع لتولى منصب البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم جريجورى السابع ،

(١) Hayward: op. cit. p. 153.

(2) Bryce : op. cit. p. 155.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 37 c

(4) Eyre: op. cit. p. 134.

وبذلك بدأت صفحة جديدة فى تاريخ البابوية بل فى تاريخ الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى (١) .

البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥) :

والواقع أن البابا جريجورى السابع لم يكن مجددا أو مبتكرا ولم يسهم الا بقسط ضئيل فى نظرية السمو البابوى ، لأن هذه النظرية قديمة ترجع الى أيام جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤) . بل ان البابا جلاسيوس الأول (٤٩٢ - ٤٩٦) حاول أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية فى علاقته مع الامبراطور أنسطسيوس (٢) . ولكن اذا كانت نظرية السمو البابوى فى ذاتها ليست وليدة أفكار جريجورى السابع الا أن من حقه أن يفخر بأنه أول من طبق هذه النظرية فى اصرار وعناد (٣) . ذلك أنه كان يقدر ضخامة مهمة البابوية وعظم رسالتها حتى قال « اننى لا أقبل البقاء فى روما يوما واحدا اذا أدركت أننى عديم الجدوى للكنيسة » .

وكان أن عقد جريجورى السابع مجمعا فى روما سنة ١٠٧٤ لمعالجة مشاكل الكنيسة فى ذلك الوقت وهى - كما سبق - السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلمانى (٤) . وقد أصدر هذا المجمع عدة قرارات تقضى بفصل كل من توصل الى منصب فى الكنيسة عن طريق الشراء ، وأن لا يسمح فى المستقبل بشراء الحقوق الكنسية وبيعها . كذلك تقرر فصل كل عضو فى الكنيسة اتهم بالتبذل والاستسلام لشهواته . أما عن زواج رجال الدين فقد دعا جريجورى السابع الجمهور المسيحى الى عدم التعاون مع أى قس أو أسقف لا يحرص على التمسك بسنة الرسل وتعاليم البابوية ، كما

(1) Byrce: op. cit. p. 155.

(2) Idem, p. 158.

(3) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 271.

(4) Ibid. Med. Hist. Vol. 5, p. 61.

منع القساوسة المتزوجين من الوعظ في الكنائس وحرم على الناس الاستماع اليهم (١) .

على أنه إذا كان جريجورى السابع قد استطاع مكافحة السيمونية وزواج رجال الدين عن طريق تشريعات داخلية في الكنيسة ، فإنه كان من المتعذر عليه مكافحة مبدأ التقليد العلمى دون الاصطدام بالحكام العلمانيين ، وعلى رأسهم امبراطور الدولة الرومانية المقدسة صاحب النفوذ السياسى الواسع فى ألمانيا وايطاليا . وتتضح لنا نظرة جريجورى السابع الى الحكام العلمانيين ومكانتهم من رجال الدين فى عبارته الشهيرة « ان قوى الملوك مستمدة من كبرياء البشر وقوة رجال الدين مستمدة من رحمة الله ، ان البابا سيّد الأباطرة لأنه يستمد قداسته من تراث سلفه القديس بطرس » . أما خير مايلخص آراء البابا جريجورى الخاصة بعظمة الوظيفة البابوية وسموها وسلطانها الروحى العالمى ، فهى المجموعة التى تنسب الى ذلك البابا والتى جمعت بعد وفاته بقليل (حوالى سنة ١٠٨٧) . وتعرف هذه المجموعة باسم الارادة البابوية أو الأوامر البابوية (Dictatus Papae) وأهم موادها (٣) : -

- البابا وحده هو الذى يتمتع بسلطة عالمية .
- البابا وحده يمتلك سلطة تعيين الأساقفة أو عزلهم .
- جميع الأمراء العلمانيين يجب أن يقبلوا قدم البابا وحده .
- للبابا الحق فى عزل الأباطرة .
- لا يجوز عقد أى مجمع دينى عام الا بأمر البابا .
- ليس لأى فرد أن يلغى قرارا بابويا ، فى حين أنه من حق البابا أن يلغى قرارات بقية الناس .

(1) Eyre: op. cit. p. 135.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 439—400.

— لا يسأل البابا عما يفعل ولا يحاكم على تصرفاته •

— للبابا أن يجيز لرعايا أى حاكم علمانى التحلل من العهود وايمان الولاء
التي أقسموها لحاكمهم •

وهكذا يبدو من الآراء السابقة أن جريجورى السابع آمن ايمانا قويا
بأن البابا له السلطة العليا فى حكم المجتمع المسيحى *Societas Christiani*
وأنه يعزل الملوك والأباطرة بوصفه نائبا عن القديس بطرس • فاذا امتنع
حاكم علمانى عن تنفيذ تعاليم الكنيسة فإن لها أن تحاربه بالأسلحة الروحية
والمادية *Spiritualibus et Saecularibus armis* وبعبارة أخرى
فإن جريجورى السابع رأى أن الطريق الوحيد لاصلاح العالم وتخليصه من
الفوضى والشرور ، هو اخضاعه للكنيسة واخضاع الكنيسة للبابوية • لذلك
.. توجه جريجورى السابع مجمع روما الدينى سنة ١٠٧٥ نحو اتخاذ قرار حاسم
بشأن التقليد العلمانى هذا نصه :

« ان أى فرد من الآن فصاعدا يتقلد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام
العلمانيين ، يعتبر مطرودا من هذه الوظيفة ومحروما من الكنيسة ومن رعاية
القديس بطرس • واذا جرؤ امبراطور أو ملك أو دوق أو كونت ، أو أى
شخص علمانى على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم
من الكنيسة فورا (٢) »

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعنى تحرير كافة رجال الدين فى
الأسقفيات والكنائس والأديرة من اشراف الملوك والأمراء فى مختلف البلاد ،
كما يعنى جعل البابا فى روما المشرف الوحيد على رجال الدين. فى العالم

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p.281

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 367..

المسيحي الغربي ، من حيث تعيينهم فى مناصبهم والفصل فى مشاكلهم والاشراف
على أعمالهم (١) •

وهكذا أخذت سياسة جريجورى السابع منذر بصادام .عنيف مع الحكام
العلمانيين ، فرفض وليم الفاتح ملك انجلترا الاعتراف بسيادة البابوية والتبعية
لها (٢) • فى حين لم يعبأ فيلب الاول ملك فرنسا (١٠٦٠ - ١١٠٨) بأراء
البابا وطلباته واستمر فى سياسته نحو الكنيسة (٣) • أما أباطرة ألمانيا فكان
من الطبيعي ألا يقبلوا قرار جريجورى السابع العنيف الذى يمس سيادتهم واشرافهم
على رجال الدين فى بلادهم ، ولا سيما أن نحو نصف أراضى ألمانيا وثروتها
كانت بأيدي رجال الدين من أساقفة وديرين ، فكان معنى تنفيذ قرار
جريجورى السابع خروج هذه الأراضى من قبضة الامبراطور ودخولها تحت
سيطرة البابا ، الأمر الذى يجعل الحكومة الامبراطورية ضربا من الشكليات
أو المستحيلات (٤) •

وهكذا أوشكت البابوية أن تقع فى صدام عنيف مع السلطة الزمنية ، وهو
النزاع الذى شغل أوروبا طوال القرنين التاليين ، حتى أصبح تاريخها فى تلك
الفترة من العصور الوسطى يدور حول محور واحد ، هو البابوية
والامبراطورية (٥) •

وهنا نشير الى أن جريجورى السابع عندما شرع فى تنفيذ سياسته الإصلاحية
العنيفة لم يعتمد على سلاح التشريعات والأوامر البابوية التى أصدرها فحسب ،
وانما اعتمد أيضا على سلاح قوى ، هم رجال الأديرة الكلونية أو « الرهبان
السود » كما أسماهم المعاصرون ، وهؤلاء كانوا قوة عظيمة ساندت البابا فى
سياسته واعتمد عليهم فى تنفيذها ، كما اختار منهم مندوبيه ورسله الى الزعماء
العلمانيين والدينيين (٦) •

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 64—65.

(2) Adams: The History of England, pp. 49 - 50.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 80.

(4) Bryce: op. cit. p. 156.

(5) Ullmann: Medieval Papalism, p. 1.

(6) Hoyerward : op. cit. pp. 158.

الباب الثاني عشر

الامبراطورية والبابوية

عندما توفي هنري الثالث امبراطور الدولة الرومانية المقدسة سنة ١٠٥٦ خلفه ابنه هنري الرابع الذي كان عندئذ في السادسة من عمره ، فلبث تحت الوصاية مدة تجاوزت خمس عشرة سنة (١٠٥٦ - ١٠٧٢) (١) . ولا شك في أن قيام صبي قاصر على عرش الامبراطورية تلك السنوات الطويلة كان له تأثير خطير على الامبراطورية وسلطانها ، في الوقت الذي نفخت الحركة الكلوونية روحا جديدة في الكنيسة الغربية أدت الى ازدياد نفوذ البابوية التي وجدت حلفاء أقوياء لها في النورمان بجنوب ايطاليا من جهة وفي كونتية تسكانيا من جهة أخرى (٢) .

ولم يكن منتظرا أن تستطيع آجنى Agnes - أم هنري الرابع وصاحبة الوصاية عليه - الوقوف في وجه كبار الدوقات والأمراء ، فدبر آنسون - Annon - رئيس أساقفة كولونيا - مؤامرة لخطف الملك الصغير ووضعه تحت وصايته سنة ١٠٦٢ (٣) ، الأمر الذي استدعى تنحي الامبراطورة الوالدة عن الوصاية بعد ست سنوات (١٠٥٦ - ١٠٦٢) ثم تسليم مقاليد الحكم لهنري الرابع سنة ١٠٦٥ على الرغم من أنه كان وقتئذ في الخامسة عشر من عمره (٤) . ويبدو أن السلطة الفعلية في الدولة أصبحت في تلك الفترة بأيدي أدالبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن الذي

(١) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 112.

(٢) Eyre: op. cit. p. 137.

(٣) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 351.

(٤) Tout: The Empire and the Papacy, p. 122.

كان رجلا طموحا فسيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعا ، واستباح أموال الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية وغير الدينية • هذا فى الوقت الذى استطاع أدالبرت أن يحتفظ لهنرى الرابع بسلطانه على الجزء الشمالى من ألمانيا (١) • على أن هذا الوضع لم يلبث أن أثار حنق الأمراء ، فعقدوا مؤتمرا فى تريبور Tribur سنة ١٠٦٦ وخيروا الملك الصغير بين عزل أدالبرت أو ترك العرش ، فاختار الملك الحل الأول ، وان ظل أدالبرت محتفظا بنفوذه خلال فترات متقطعة (٢) • وهكذا لم يتيسر إيجاد حل للموقف يكفل للامبراطورية شيئا من الاستقرار ، فقامت ثورة فى نورنجا سنة ١٠٦٩ وأخرى فى بافاريا سنة ١٠٧٠ ، كما أخذت إيطاليا تفلت تدريجيا من قبضة الامبراطورية (٣) •

وبوفاة أدالبرت سنة ١٠٧٢ يمكن القول بأن هنرى الرابع أخذ يباشر الحكم فى صورة عملية • ويبدو أنه كان قليل الثقة فى ولاء أهالى الأجزاء الشمالية من ألمانيا فاختار وزراءه المقربين من مقاطعة سوابيا الجنوبية التى ينتمى هو إليها ، وأكثر من تشييد القلاع فى سكسونيا ونورنجا فى الشمال (٤) ، كما حشد تلك القلاع بالجند الذين أتوا كثيرا من أعمال العبيث والاعتداء على الفلاحين • ولم تلبث هذه السياسة التى انتهجها هنرى الرابع أن استتارت غضب أمراء الشمال ، فثارت سكسونيا وبافاريا سنة ١٠٧٣ ، واشترك فى هذه الثورة الأمراء ورجال الدين فضلاعن المزارعين الأحرار (٥) • وعندما نجح هنرى الرابع فى اخماد تلك الثورة سنة ١٠٧٥ صمم على حكم البلاد حكما استبداديا ، وان كان هذا الأسلوب لم يؤد الى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع فى ألمانيا ، وخاصة فى سكسونيا التى ظلت تتحين

(١) Barraclough: op. cit. pp. 93—94.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.

(٣) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 447—448.

(٤) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 127—128.

(٥) Barraclough: op. cit. p. 95.

الفرص للثورة ضد الملك ، مما جعلها تلعب دورا مهما في الصراع المقبل بين هنرى والبابوية (١) .

وفي ذلك الوقت كان الكاردينال هلدبراند قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣ تحت اسم البابا جريجورى السابع . ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأس البابا الجديد لما عرف عنه من شدة وصرامة ، فحرضوا هنرى الرابع على إلغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التى نص عليها مجمع روما الدينى سنة ١٠٥٩ ، وانما أوصى البابا اسكندر الثانى باختياره خليفة له مما جعل جموع المصلين على البابا الراحل تنادى بهلدبراند بابا فى كنيسة القديس بطرس بروما (٢) . ولكن هنرى الرابع اختار ألا يطيع أساقفة ألمانيا فيما ذهبوا اليه ، واكتفى بأن أرسل الى روما مستفسرا عن الظروف التى أحاطت باختيار البابا الجديد . وهنا أظهر جريجورى السابع - هو الآخر - كثيرا من الاعتدال ، فأجل بقية المراسيم الخاصة بتولية المنصب البابوى حتى تتم موافقة هنرى الرابع على اختياره ، ولم تلبث أن صدرت هذه الموافقة فى يونيو سنة ١٠٧٤ . وليس أدل على حسن التفاهم بين الملك هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع فى تلك المرحلة من أن الأول استقبل البعثة التى أوفدها البابا الى ألمانيا سنة ١٠٧٤ بكل ترحاب ، كما وافق هنرى على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا اسكندر الثانى قد اتهمهم بالسيمونية وأصدر قرار الحرمان ضدهم (٣) .

على أن جريجورى السابع لم يلبث أن شرع يعالج أمراض الكنيسة فى شدة وحزم . وكان أن استغل البابا فرصة الاضطرابات التى نشبت فى سكسونيا وأصدر فى ديسمبر سنة ١٠٧٤ قرارا بمنع جميع القساوسة المتزوجين فى ألمانيا من مباشرة الطقوس الدينية فى الكنائس ، مما أوجد حالة من الاستياء وعدم الاستقرار (٤) . وبعد عدة أشهر - أى فى فبراير

(1) Eyre: op. cit. p. 137.

(2) Hayward: op. cit. pp. 156—157.

(3) Barracough: op. cit. p. 108.

(4) Ibid.

١٠٧٥ - أصدر جريجورى السابع قراره العنيف ضد التقليد العلمانى ، كما سبق أن أشرنا ، الأمر الذى أزعج هنرى الرابع بوجه خاص وبقية ملوك الغرب بوجه عام وأثار مخاوفهم جميعا (١) . ذلك أن حرمان الملك من حق تعيين رجال الدين معناه قلب نظام الحكم فى الامبراطورية رأسا على عقب ، مما تطلب من هنرى اتخاذ موقف حازم تجاه القرار البابوى السابق . وكان أن تجمعت عدة عوامل لتساعد هنرى على الصمود فى وجه البابا ، أهمها فراغه من ثورة سكسونيا فضلا عن تأييد الأساقفة الألمان له لتخوفهم من شدة البابا الجديد وعنفه (٢) . ومهما يكن من أمر فقد أدت سياسة جريجورى السابع من ناحية وموقف هنرى الرابع من هذه السياسة من ناحية أخرى ، الى فتح باب النزاع بين البابوية والامبراطورية فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا النزاع - الذى بدأ حول مشكلة التقليد العلمانى - له أهميته البالغة فى التاريخ ، لأنه أعمق من مجرد خلاف شكلى حول بعض المراسيم الكنسية - كما يظن البعض - وربما كان من الأصوب أن نتذكر دائما أن تقليد رجال الدين والنزاع الذى نشأ حول هذا التقليد ، لم يكن سوى محورا للحركة الاصلاحية الكنسية الكبرى ، وهى الحركة التى أكسبت ذلك العصر طابعه العام (٣) .

وقد مر النزاع بين البابوية والامبراطورية بعدة أدوار ، يحسن أن نعالج كلا منها على حدة ، مع عدم اغفال بقية التطورات التاريخية التى تعرضت لها الامبراطورية المقدسة خلال حوادث النزاع .

الدور الاول من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

شاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجورى السابع وهنرى الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة ، وبخاصة فى شمال ايطاليا ، اذ أصر

(١) Bryce: op. cit. p. 156.

(٢) Tout: The Empire and the Papacy, p. 128.

(٣) Eyre: op. cit. p. 137.

(م ٢٣ - أوربا فى العصور الوسطى)

بكل من البابا والملك على أنه له وحده حق تعيين من يشغلون هذه المناصب ، وتمسك كلاهما برأيه لأنه رأى في انتصار خصمه تحطيا للمبدأ السندي يسمى هو من أجل تحقيقه . فهنرى الرابع وجد فى تمسكه برأيه محافظة على حقه الذى ورثه عن أسلافه ، وأن نجاحه فى فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيئته فى ايطاليا وغير ايطاليا من بلدان الامبراطورية ، ولذلك أسرع بتعيين اثنين من أتباعه فى أسقفيتى فرمو Formo وسبوليتو Spoleto على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلا داخل منطقة النفوذ البابوى (١) . أما جريجورى السابع فقد تمسك من جانبه بنظرية السمو البابوى بحكم أن البابا خليفة المسيح فى الأرض ووريث القديس بطرس فى الغرب ، كما اعتبر نجاحه فى فرض رأيه على الامبراطور أمرا تتوقف عليه هيئته ومستقبل البابوية فضلا عن سياسته فى الاصلاح الكنسى ، وهى السياسة التى شرع فعلا فى تنفيذها .

ثم كان أن تأزم الموقف بشكل خطير عندما عين هنرى الرابع أسقفا جديدا لميلان - هو تدالد Tedald - سنة ١٠٧٥ ، وحينئذ أدرك البابا أنه لابد من العمل السريع (٢) . ويبدو أن جريجورى السابع كان مستعدا عندئذ للتحدى والنزال ، فأرسل رسالة شديدة اللهجة الى هنرى الرابع فى أواخر سنة ١٠٧٥ أنذره فيها بالعزل وهدده بالويل والثبور ان لم يخضع لرأى البابوية . وفى ذلك الوقت ثارت ثائرة الملك فعقد مجمعا فى ورمز Worms (يناير ١٠٧٦) قرر بطلان انتخاب البابا جريجورى السابع ثم عزله من منصبه (٣) . وعندما سمع جريجورى السابع بهذا القرار قابله بشيء من الهدوء فدعا هو الآخر مجمعا فى الفاتيكان (فبراير ١٠٧٦) قرر توقيع قرار المحرمان على هنرى الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التى أقسموها له ، وبذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين (٤) .

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 451.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale; Vol. 1, p. 370.

(3) Barraclough: op. cit. p. 109.

(4) Hayward: op. cit. p. 160.

ومع أن موقف الطرفين كان حرجا وصعبا ، إلا أنه من الواضح أن هنرى الرابع وجد نفسه فى موقف أشد صعوبة من خصمه ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد على عطف كثيرين من أبناء العالم المسيحى بوصفه الأب الروحى للكنيسة ، فى حين كان هنرى الرابع لا يستطيع الاعتماد حتى على ولاء رعاياه بعد أن وقع عليه البابا عقوبتين : الأولى عقوبة الحرمان بوصفه مسيحيا ، والثانية عقوبة العزل بوصفه ملكا (١) . وبعبارة أخرى فإن كفتى البابوية والامبراطورية لم تكونا متعادلتين مطلقا عند بداية النزاع ، بل طيلة الأدوار التالية التى مر بها ذلك النزاع ، لأن البابا كان يستطيع أن يعتمد دائما على أسلحة قوية أهمها شعور المعاصرين وعواطفهم فضلا عن الأسانيد المستقاة من الكتابات الدينية التى تشهد بسمو مركز الكنيسة ورجالها ، فى حين لم يكن للامبراطور سوى سندانين : أولهما القانون الرومانى الذى يمجّد الامبراطورية وسلطتها وهو مستمد من أصول وثنية يسهل على البابوية الطعن فيها ، وثانيهما الجيش الامبراطورى الذى ثبتت عجزه فى أكثر من مناسبة عن إخضاع البابوية (٢) . والواقع أن هنرى الرابع لم يجد له نصيرا سوى تلك الفئة القليلة من رجال الدين الألمان الذين عرفوا بالسيمونية وسوء السيرة ، وهؤلاء لم يكن لهم من النفوذ أو المقومات الخلقية ما يجعل منهم سندا حقيقيا للملك . أما ذوو المكانة من القديسين وكبار رجال الدين فقد شايعوا جميعا البابوية فى موقفها المعادى للملك (٣) . وسرعان ما انتهز السكسون فرصة قرار البابا بتحرير أتباع هنرى الرابع ورعاياه من أيمانهم وتعهداتهم وثاروا ضده ثورة عنيفة ، حتى طردوا الحاميات الملكية من أراضيهم (٤) . وهكذا تلفت هنرى الرابع حوله فلم يجد من يعتمد عليه من الدوقات والأمراء ، إذ كانوا جميعا يخشون نزعته الاستبدادية . وكان أن عقد أمراء ألمانيا وأساقفتها

-
- (1) Ullmann: The Growth of Papal Government, p. 301
(2) Ullmann: Medieval Papalism; p. 76.
(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 68.
(4) Eyre: op. cit. p. 138.

مجما في تريبور Tribur (أكتوبر ١٠٧٦) قرروا فيه الخروج عن طاعة هنري الرابع واندازه باختيار ملك غيره على ألمانيا ان لم يغفر له البابا في مدة أقصاها فبراير ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة بين أكتوبر ١٠٧٦ وفبراير ١٠٧٧ في أحد الأديرة محروما من جميع شعائر الملكية وحقوقها (١)

وكان أن انسحب هنري الرابع الى ذلك الدير يفكر في موقفه ، وان كان الموقف في غير حاجة الى تفكير طويل . ذلك أنه وجد نفسه وحيدا أمام خصم عنيد لا يرحم ، فلا بد له من التراجع والاستسلام اذا أراد انقاذ عرشه ، ولا سيما أن الأمراء الألمان وجهوا الدعوة الى البابا للحضور الى أوجسبرج ، مما تطلب من هنري الرابع سرعة العمل قبل أن يجتمع أعداؤه في ألمانيا فيؤدى ذلك الى مظاهرة عدائية ضد الملك تضعف مركزه وتجعل البابا يتشدد في موقفه (٢) . وأخيرا لم يجد هنري الرابع أمامه حلا سوى أن يرحل سرا الى البابا ، في الوقت الذي كان الأخير قد بدأ رحلته فعلا الى ألمانيا ، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنري الرابع عبر الألب اليه ، واحتمى البابا في قلعة كانوسا التابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا (٣) . وكان البرد قارسا عندما أخذ هنري الرابع يصعد الطريق الجبلى الوعر الى قلعة كانوسا ، حيث بقى ثلاثة أيام واقفا على الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة في وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالتول بين يديه على شرط التسليم للبابوية بكل تطلبه دون قيد (يناير ١٠٧٧ (٤)) . ويقال ان هنري الرابع دخل على البابا حافى القدمين ، مرتديا ثوبا من ثياب الرهبان المصنوعة من الصوف ، حتى اذا ما وجد نفسه أمام خصمه ارتدى بين قدميه وانفجر باكيا وهو يصيح « أغفر لى أيها الأب المقدس » ، فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطا قاسية وزوده بالنصح والارشاد (٥) .

(1) Tout: The Empire and The Papacy, p. 130.

(2) Barraclough: op. cit. 110.

(3) Stephenson: Med. Hist. p. 291.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 69.

(5) Hayward: op. cit. p. 161.

يوهكذا استطاع هنرى الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطلب بولاء رعاياه، ولكن بعد أن دفع ثمنا باهظا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة • فها هو حاكم الامبراطورية العظيم يذل نفسه للبابوية ويعترف بحقها فى حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته • وها هو خليفة قيصر وشارلمان ارتضى أن يقف البابا موقف الحكم بينه وبين شعبه ، ان شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وان شاء أمرهم بالامتثال له • لذلك ليس من المبالغة أن نقرر أن الضربة التى أنزلتها البابوية بالامبراطورية فى كانوسا كانت قاصمة ، وأن الأخيرة لم تسترد هيبتها ومكانتها السابقة مطلقا بعد ذلك (١) •

والواقع - كما يبدو فى ضوء التطورات التالية - أن هنرى الرابع لم يستفد كثيرا من مقابلة كانوسا ، كما أن هذه المقابلة لم تكن مكسبا على طول الخط بالنسبة لجريجورى السابع (٢) • حقيقة ان البابا خرج من هذه الجولة مرفوع الرأس بعد أن حقق سمو البابوية • ولكن مسلك جريجورى السابع العنيف أثار استياء نسبة كبيرة من الرأى العام فى العالم المسيحى ، فعاب كثيرون على البابا شدته وقسوته ، وهو رجل الدين الرحيم والأب الروحى الذى يجب أن يتحلى بروح التسامح والعفو عند المقدرة • أما هنرى الرابع فسرعان ما استكشف أن خسارته فى كانوسا فاقت مكسبه لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزرى لم يفده شيئا فى استرضاء أعدائه وخصومه الخارجين عليه فى ألمانيا ، بل ان أنصاره من اللبارديين فى شمال إيطاليا ساءهم أن يريق الملك ماء وجهه على تلك الصورة المشينة فنادوا بخلعهم وإحلال ابنه محله (٣) • هذا فى الوقت الذى اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرا الى كانوسا خروجاً على العهد الذى أخذه على نفسه تنفيذاً لقرارات تريبور التى قضت بانزوائه فى أحد الأديرة حتى يغفر له البابا (٤) • ولذلك عقد الأمراء

(1) Orton: op. cit. p. 212.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 455..

(4) Barraclough: op. cit. p. 110..

الألمان مؤتمرا في فورخهايم Forchheim (مارس سنة ١٠٧٧) قرروا فيه عزل هنرى الرابع عن العرش واختيار رودلف دوق سوابيا ملكا بدله . وهنا حرص الأمراء قبل البدء فى الاجراءات الخاصة بتتويج الملك الجديد على يد أسقف مينز ، على أن يأخذوا عليه موثقا ألا يطالب بأى حق وراثى لأبنائه فى العرش وألا يتدخل فى حرية انتخاب الأساقفة (١) .

على أن شعور العطف على هنرى الرابع أخذ يتزايد فى سرعة حتى بلغ حدا أصبحت عنده معظم ألمانيا فى جانبه ، ما عدا سكسونيا التى ناصرت رودلف . وقد استمرت الحرب الأهلية بين الطرفين قرابة ثلاث سنوات (١٠٧٧ - ١٠٨٠) ، ولا يعنيها من حوادثها الكثيرة المعقدة سوى أنها فتحت باب النزاع من جديد بين هنرى الرابع وجريجورى السابع . ذلك أن البابا اختار أن يقف على الحياد فى المرحلة الأولى من مراحل الحرب بين هنرى ورودلف حتى يحصل من الطرفين على اعتراف بسيادته (٢) . وعندما انتصر رودلف على خصمه فى موقعة فلارخهايم Flarchheim (يناير سنة ١٠٨٠) أعلن البابا رأيه صراحة قى أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون ، فعقد مجمعا دينيا فى مارس من نفس السنة قرر إعادة توقيع قرار الحرمان على هنرى الرابع واقصائه عن عرش الامبراطورية (٣) .

وهكذا أخذ جريجورى السابع يتأدى بأنه قبل أن تحل بداية العام التالى سيكون هنرى الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعا ، ولكن شاءت الظروف ألا تحقق له شيئا من أمانيه . ذلك أن هنرى الرابع أدرك أنها معركة حياة أو موت فأظهر اصرارا وحماسة بالعين ولا سيما بعد أن آمن بوجود أنصار كثيرين له فى ايطاليا وألمانيا (٤) . لذلك رد هنرى الرابع على البابا بعقد مجمع آخر فى بركسن Brixen (يونية سنة ١٠٨٠) دعا اليه أنصاره

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 132.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 72.
 - (3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 409.
 - (4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 133.

من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا ، وقرر هذا المجمع عزل البابا جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة وانتخاب جيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليخلفه فى منصب البابوية (١) . وقد امتاز هذا البابا الجديد - الذى اتخذ اسم كلمنت الثالث - بالخبرة الطويلة والكفاية العظيمة فأسرع عقب مؤتمر بركسن الى رافنا ليوجه الأمور فى شمال إيطاليا ضد منافسه جريجورى السابع . وهكذا اشتد النضال وتعمد الموقف ، بعد أن وجد على المسرح اثنان من البابوات يتنازعان الكرسي البابوى واثنان من الملوك يتجاذبان عرش الامبراطورية (٢) واختار الحظ أن يقف فى جانب هنرى الرابع وكلمنت الثالث فى ألمانيا وإيطاليا جميعا ، اذ دارت معركة حامية (أكتوبر سنة ١٠٨٠) على ضفاف نهر الستر Elster انتصر فيها حزب رودلف من السكسون ولكن رودلف نفسه قتل وبذلك استراح هنرى الرابع من منافس خطير (٣) . وعندما وجد هنرى الرابع أن السكسون أضاعوا ثمرة انتصارهم فى الخلاف حول اختيار خليفة لرودلف ، أسرع بعبور جبال الألب الى إيطاليا (مارس ١٠٨١) لمواجهة خصمه اللدود جريجورى السابع . وكان أن اجتمع هنرى الرابع بنصيره كلمنت الثالث فى رافنا ثم تقدم على رأس قواته صوب روما (٤) . وفى تلك المرحلة الحاسمة لم يجد البابا سندا يعتمد عليه سوى قوة حليفته الأميرة ماتيلدا من جهة وقوة النورمان من جهة أخرى . ولكن شاء سوء حظ جريجورى السابع أن تصاب قوات الأميرة ماتيلدا بهزيمة ساحقة عند فولتا Volta قرب مانتوا ، فى حين كان روبرت جويسكارد النورمانى مشغولا بمشروعه الخاص بغزو الدولة البيزنطية ، مما جعل الطريق مفتوحا أمام هنرى الرابع الى روما (٥) . أما جريجورى السابع فلم يفقد ثباته فى ذلك الموقف وانما اعتمد على حصانة روما ، وبذلك ظل هنرى الرابع فى

(1) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 351—352.

(2) Barraclough: op. cit. p. 125.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 413.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 78.

(5) Barraclough: op. cit. p. 125.

إيطاليا نحو ثلاث سنوات (١٠٨١ - ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات دون أن يستطيع الاستيلاء عليها الا بعد رشوة الحراس لفتح أبواب المدينة (مارس ١٠٨٤) • وفي روما أسرع هنري الرابع الى دعوة منجمع ديني قرر عزل جريجورى السابع وحرمانه من الكنيسة ، وأعقب ذلك اعتلاء كلمنت كرسى البابوية فى روما وتوقيع هنري الرابع امبراطورا فى كنيسة القديس بطرس (١) •

أما جريجورى السابع فكان قد احتمى بسانت أنجيلو - قلعة روما الحصينة - ومن هناك أرسل يستحث حلفاءه النورمان فى جنوب إيطاليا للانسراع الى نجدة • وكان أن تقدم جويسكارد النورمانى نحو روما ، لا حرصا على مساعدة البابا جريجورى السابع ولكن خوفا من ازدياد نفوذ هنري الرابع فى إيطاليا مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم (٢) • ولم يكن هنري الرابع على درجة من القوة تمكنه من الوقوف فى وجه النورمان ، فآثر مناداة روما قبل أن يصلوا اليها ، واتجه الى ألمانيا حيث كانت الظروف تستدعى وجوده (٣) • وهنا أسرع أهالى روما الى اغلاق أبواب مدينتهم فى وجه النورمان خوفا من عبثهم ، مما تطلب من جويسكارد استخدام العنف حتى اقتحم المدينة (مايو ١٠٨٤) ، فانساب رجاله فى شوارعها يهبون ويدمرون ويحرقون كل ما صادفهم حتى احترقت أحياء بأكملها وبيع آلاف من أهل روما فى أسواق الرقيق ، ثم انسحب النورمان بعد ذلك الى جنوب إيطاليا ، تاركين روما تنعى مجدها وحرمتها (٤) • وقد أثارت هذه الأحداث الرأى العام ضد جريجورى السابع الذى تسبب فيما حل بروما على أيدي حلفائه النورمان • لذلك خشي جريجورى السابع أن يبقى وحيدا فى روما وسط مظاهر السخط التى أحاطت به ، وآثر مراقبة حلفائه النورمان الى

(1) Hayward: op. cit. p. 162.

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 135.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 420.

(4) Haskins: The Normans in European History; p. 205

سالرنو حيث مرض ومات في مايو سنة ١٠٨٥ (١) • وكانت آخر عبارة فاه بها جريجورى السابع وهو على فراش الموت قوله « لقد أنجيت العسالة يكرهت الظلم ولذا أموت مقربا » (٢) •

على أن وفاة جريجورى السابع لم تضع حلا لمشكلة التقليد العلماني لأن البابا كلمنت الثالث لم يستطع البقاء في روما بعد أن حولها النورمان الى حطام ، فغادرها الى رافنا بشمال ايطاليا • وهكذا ظل الكرسي البابوي شاغرا في روما زهاء سنة بعد وفاة جريجورى السابع حتى اجتمع الكرادلة واختاروا فكتور الثالث لمنصب البابوية (مايو ١٠٨٦) (٣) • وكان هذا البابا الجديد صديقا حميما لجريجورى السابع ومن أنصار مبادئه ، ولكنه كان - بحكم كبر سنه - أضعف من أن يقوم بالدور الذي قام به سلفه العظيم • وعند وفاة فكتور الثالث في أواخر سنة ١٠٨٧ اختار الكرادلة رجلا أصلب عودا هو البابا أوربان الثاني الذي شابه جريجورى السابع في تحمسه للإصلاح الكنسي ، ولكنه امتاز عنه بالحرص والمهارة في انتقاء الوسائل التي ينفذ بها أغراضه ، معتمدا على التحالف بين البابوية من جهة والأميرة ماتيلدا والنورمان من جهة أخرى (٤) • على أن أوربان الثاني لم يستطع الإقامة في روما طويلا بسبب احتلال قوات البابا الامبراطوري - كلمنت الثالث - لقلعتها، فاتجه الى جنوب ايطاليا حيث قضى السنوات الأولى من عهده تحت حماية روجر الأول النورماني (٥) • وكان أهم ما قام به أوربان الثاني في تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد هنري الرابع في ألمانيا وايطاليا ، وذلك عن طريق عقد زواج سياسي سنة ١٠٨٩ بين الأميرة ماتيلدا حليفة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف Welf الخامس دوق بافاريا ، وهو أقوى منافسي هنري الرابع (٦) •

(1) Hayward: op. cit. p. 162.

(2) Bryce: op. cit. p. 160.

(3) Hayward: op. cit. p. 163.

(4) Barraclough: op. cit. p. 126.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.

(6) Fliche: L'Europe Occidentale; p. 435.

وفى ذلك الوقت كانت الأحوال قد هدأت نسبيا فى ألمانيا ، فأخذ هنرى الرابع يوجه نشاطه نحو إيطاليا وانتقل إليها من جديد سنة ١٠٩٠ (١) . وامتازت الأعمال الحربية التى قام بها هنرى الرابع فى إيطاليا بين سنتى ١٠٩٠ - ١٠٩٢ بالنجاح والتوفيق ، فاجتاح أراضى الأميرة ماتيلدا واستولى على مدنها وقلاعها ، ما عدا قلعة كانوسا التى منى بالفشل أمامها لمناعتها (٢) . ويبدو أن عجز هنرى الرابع أمام كانوسا شجع خصومه ، فحرضوا ابنه كونراد على الثورة ضد أبيه سنة ١٠٩٣ وانحاز كثير من المدن اللمباردية الى الابن الثائر الذى توج فى ميلان ملكا على إيطاليا فى السنة نفسها ، وقام بتتويجه رئيس أساقفتها انسلم بموافقة ماتيلدا أميرة تسكانيا وزوجها الولفى (٣) . أما البابا أوربان الثانى فقد شجعت هذه الأحداث على العودة الى روما فى أواخر سنة ١٠٩٣ ، ومن ثم أخذ يجوب البلاد ويعقد المجمع الديية لتقوية جانب الكنيسة . وكان أن أعلن البابا أوربان الثانى الحرب الصليبية ضد المسلمين فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ ، وبذلك حقق للبابوية نصرا عظيما وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحى فى صراعه الطويل ضد المسلمين (٤) . وقد أدت هذه الأوضاع الجديدة بالامبراطور هنرى الرابع الى مغادرة إيطاليا يائسا سنة ١٠٩٧ ، وعندئذ لم يجد أمامه خلا سوى تسوية مشاكله فى ألمانيا تسوية هادئة ، فعين الابن الأكبر للامير ولف دوقا على بافايا فى حين أقنع الابن الأصغر لذلك الأمير بترك عروسه ماتيلدا التى تكبره سنا . أما كونراد - ابن الامبراطور - فقد حرمه أبوه من وراثة العرش وأحل محله أخاه الصغير الذى توج فى حياة أبيه (٥) .

ولم ينقطع البابا أوربان الثانى فى تلك الأثناء عن العمل على توطيد مركزه فى إيطاليا وتصفية المشاكل المعلقة بين البابوية والنورمان فى الجنوب ، وذلك

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 146.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 137.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 440—441.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 147.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 139.

عندما توفي فجأة في يوليو ١٠٩٩ ثم لحق به منافسة البابا الامبراطوري كلمنت الثالث في العام التالي • وعلى الرغم من أن هنري الرابع رغب حينئذ في الصلح مع البابوية الا أن الشروط التي طلبها أوربان الثاني ثم بمسك بها خليفته باسكال الثاني جعلت تحقيق هذا الصلح أمرا متعذرا (١) • ذلك أن البابا الجديد باسكال الثاني الذي تم انتخابه في أغسطس سنة ١٠٩٩ كان شديد التمسك بمبادئ جريجوري السابع وآرائه ، ومن ثم بدأ أعماله بإصدار قرار الحرمان للمرة الثالثة ضد هنري الرابع ، كما أخذ يحرض السكسون ضده حتى ثاروا بزعامة ابنه هنري الصغير سنة ١١٠٤ (٢) • ويبدو أنه لم يتبق لدى هنري الرابع وقتئذ من الصبر والعزيمة ما يكفي للدخول في صراع جديد ضد البابوية ، فاستسلم لابنه هنري الخامس وتنازل عن العرش سنة ١١٠٥ ثم لم يلبث أن توفي الأب في العام التالي •

وسرعان ما أدرك هنري الخامس أن خيائته لأبيه لم تفده كثيرا ، وأن البابوية التي اعترفت به ملكا في حياة أبيه أخذت تعكر أمامه الجو داخل ألمانيا وخارجها • هذا في الوقت الذي استكشفت البابوية أن هنري الخامس لم يقل عن أبيه تمسكا بحقوقه في التقليد العلماني ، وأنه أخذ - بمجرد اعتلائه العرش - يملأ الأسقفيات الشاغرة في الامبراطورية وفق هواه دون الرجوع الى رأى البابوية (٣) • وهكذا استمرت مشكلة التقليد العلماني بدون حل ، اذ تمسك كل من البابا والامبراطور بحقوقه في تقليد الأساقفة • وبعد أن قضى هنري الخامس سنتين في حروب ضد هنغاريا وبوهيميا ، عزم على تصفية الموقف مع البابوية • ولكن هنري الخامس - على النقيض من والده - قرر الاتفاق أولا مع كبار الأمراء ليجمع من ألمانيا جبهة متحدة تساعده في صراعه المقبل مع البابوية (٤) • وهكذا استطاع هنري الخامس أن يستأنف معركة التقليد العلماني وهو مطمئن تماما الى مساندة أمراء

(1) Barraclough: op. cit. pp. 126—127.

(2) Hayward: op. cit. p. 170.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, pp. 454—455.

(4) Barraclough: op. cit. pp. 128—129.

ألمانيا وأساقفتها ، فرحل الى ايطاليا سنة ١١١٠ على رأس جيش من ثلاثين ألف مقاتل ليتوج امبراطورا في روما وليثبت حقوق الامبراطورية (١) وفي تلك المرة لم يصادف هنري الخامس مقاومة تذكر في ايطاليا بسبب حالة الانقسام التي كانت تعانيها من جهة وعدم كفاية البابا باسكال الثاني من جهة أخرى . وربما كان من العوامل التي أضعفت مركز البابا في تلك المرحلة أن ماتيلدا - أميرة تسكانيا - وهي الحليفة التقليدية للبابوية في نضالها ضد الامبراطورية ، أسرعت هذه المرة بالخضوع لهنري الخامس وأعلنته وريثا لها في امارتها ، وبذلك نكثت عهدا سابق بمنح أراضيها للبابوية (٢) . وفي هذه المحنة لم يبق أمام البابا باسكال الثاني سوى أن يفكر في الوصول الى حل سلمى مع هنري الخامس عندما اقترب الأخير من روما على رأس قواته في أوائل سنة ١١١١ (٣) .

أما شروط الاتفاقية التي عرضها البابا على هنري الخامس فجاءت غريبة في طابعها جديدة في نوعها ، اذ تقضى بأن تتنازل الكنيسة عن كل ما لها من أراض وحقوق اقطاعية وقضائية حصلت عليها منذ أيام شارلمان (٤) ، مكتفية بالعشور وبما يتبرع به التخيرون ، وفي مقابل ذلك تنتهي مصلحة الامبراطور في التمسك بتقليد الأساقفة ، ويترك هذا الحق للبابا وحده . ومن هذا العرض يتضح مدى استعداد الكنيسة للتضحية بكل ما تمتعت به من حقوق وامتيازات دنيوية مقابل احتفاظها بحقوقها الروحية ، وعلى رأسها تقليد الأساقفة والاشراف عليهم (٥) . ومن الطبيعي أن يقبل هنري الخامس هذا العرض الذي يعطيه ملكية ضياع الكنيسة الواسعة ، ولكن المشكلة كانت تكمن في موقف الأساقفة ورجال الكنيسة الذين سيفقدون أملاكهم وحقوقهم

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 155.

(2) Barraclough: op. cit. p. 129.

(3) Orton: op. cit. p. 216.

(4) Barraclough: op. cit. p. 129.

(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 460—461

وينخفضون في معيشتهم الى مستوى معين لم يتادوه في القرون الأخيرة (١) .
وعندما اكتظت كنيسة القديس بطرس في روما بالجموع التي وفدت لمشاهدة
تتويج الإمبراطور في يوم الأحد ٢٢ فبراير سنة ١١١١ ، بدأ البابا الحفل
بقراءة نص الاتفاقية الجديدة بينه وبين هنري الخامس ، فثار الأساقفة الألمان
والإيطاليون جميعا واشتد سخطهم على البابا الذي قبل أن يضحى بأملاتهم
وحقوقهم مع احتفاظه هو بحقوق البابوية وأملاتها سليمة لم تمس (٢) .
ولم تلبث أن امتدت الثورة الى طرقات روما حيث أخذ الناس يعملون القتل
قيمن يصادفونه من الألمان ، مما جعل البابا يعدل عن الاتفاقية ويواجه هنري
الخامس وحيدا دون نصير . وكان أن ألقى ملك ألمانيا القبض على البابا
والكرادلة وأجبرهم على الرضوخ له في مسألة التقليد العلماني ، فرضى
البابا أن يقوم الملك بتعيين الأساقفة وتقليدهم حسبما يرى ، بذلك انتصر
هنري الخامس وثار لما حل بأبيه في كانوسا (٣) .

على أن المخلصين من أبناء الكنيسة لم يرضوا عن هذا الاستسلام فاشتد
حقنهم على البابا باسكال الثاني ، ولم يجد البابا مخرجا من موقفه سوى نقض
الاتفاقية المعقودة بينه وبين الإمبراطور ، على أساس أنها تمت تحت تأثير
الضغط والارهاب (٤) . وهكذا أخذت الصعاب تحيط بالإمبراطور هنري
الخامس لا سيما بعد أن دبرت بعض المؤامرات وقامت عدة ثورات ضده في
أنحاء متفرقة من ألمانيا (٥) . وفي ذلك الوقت توفيت الأميرة ماتيلدا في
إيطاليا سنة ١١١٥ بعد أن أوصت أخيرا بممتلكاتها الواسعة للبابوية ، ولو أن
وصية الأميرة ماتيلدا نفذت فعلا واستولت البابوية على ممتلكاتها لأصبح البابا
أعظم سلطة زمنية في إيطاليا ، ولكن الإمبراطور هنري الخامس أسرع الى
إيطاليا في العام التالي لاثبات حق الإمبراطورية في تلك التركة ، واحتل روما

(1) Cam. Med. Vol. 5, pp. 102—103.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 143.

(3) Barraclough: op. cit. p. 130.

(4) Hayward: op. cit. p. 172.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, p. 144.

سنة ١١١٧ حيث توجت زوجته الانجليزية (١) . أما البابا فقد فر من روما ليحتوى بالنورمان فى الجنوب ولكنه لم يلبث أن مات سنة ١١١٨ قبل أن يبت برأى حاسم فى توقيع عقوبة الحرمان على الاسراطور (٢) . وقد خلف باسكال الثانى البابا جلاسيوس الثانى (١١١٨ - ١١١٩) ثم البابا كالكستس الثانى (١١١٩ - ١١٢٤) . وكان الأخير سياسيا قديرا جمع بين الصفتين الدينية والدنيوية لكونه ابن حاكم برجنديا . لذلك صمم البابا كالكستس الثانى من أول الأمر على فض النزاع مع الامبراطورية ، فعقد مجمعا دينيا لهذا الغرض فى ريمس كما أرسل مندوبين الى الامبراطور للتفاهم معه ، بل ان البابا اتجه بنفسه نحو موزون Mouzon (أكتوبر ١١١٩) لمفاوضة الامبراطور ، لولا أن الأخير حضر على رأس مظاهرة عسكرية ضخمة جعلت البابا يفضل الاسراع بالعودة من حيث أتى (٣) . على أنه يبدو أن الامبراطور هنرى الخامس كان قد مل النزاع هو الآخر فأظهر استعدادا للتفاهم ، وبذلك أخذ الطرفان يبحثان الاشكال لأول مرة فى جو مشبع بروح الاعتدال والرغبة فى التفاهم . وليس معنى ذلك أن طريق التفاهم أصبح ممهدا سهلا ، اذ يبدو أن الجروح القديمة لم تكن قد اندملت بعد ، ومن ثم دفع الشك الجانبين الى الدخول فى تفاصيل صغيرة حتى انتهى الأمر بقطع المفاوضات وتوقيع قرار الحرمان ضد هنرى الخامس سنة ١١٢٠ (٤) .

ولم يلبث هنرى الخامس أن أدرك عاقبة المبالغة فى التشكك والاسراف فى سوء الظن لا سيما بعد أن لمس ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى ألمانيا . هذا فى الوقت الذى عاد البابا كالكستس الثانى فأرسل الى الامبراطور موضحا له أن هدف البابوية ليس اضعاف الامبراطورية وتقليل شأنها وإنما تعظيم قدرها وتقوية نفوذها (٥) . وهكذا عادت روح الاعتدال والرغبة فى التفاهم لتمهد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 104.

(2) Barraclough: op. cit. p. 131.

(3) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 479.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 146.

(5) Barraclough: op. cit. p. 132.

لاستئناف المفاوضات التي قدر لها النجاح تلك المرة ، حتى انتهى الأمر بعقيد اتفاقية ورمز Worms الشهيرة بين هنري الخامس وكالكستس الثاني سنة ١١٢٢ (١) . وتنص هذه الاتفاقية على أن يكون انتخاب الاساقفة ومقدمي الأديرة خارج ألمانيا وفق القانون الكنسي دون أي تدخل من جانب السلطة العلمانية ، وبعد الاحتفال بتقليد الأسقف دينيا يستطيع الامبراطور أن يكلفه أو يزوده بأية سلطة . أما في ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة عن طريق الانتخاب ، وللإمبراطور أو مندوبه حق حضور عملية انتخاب الأسقف « دون اللجوء الى السيمونية أو العنف » . وبعد أن يتم انتخاب الأسقف قانونيا يقلده الامبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الديني (٢) .

ومن الواضح أن هذه الاتفاقية لم تحقق كل ما كانت تصبو اليه الكنيسة لأن حضور الامبراطور أو مندوبه عملية انتخاب الأسقف من شأنه أن يؤثر في سير الانتخاب ، ولكن يكفي - على أي حال - أن الكنيسة أحرزت نصرا ولو جزئيا بتحديد سلطة الامبراطور في اختيار رجال الدين مما جعل البابا يظل سيد الموقف في أوروبا . وبعبارة أخرى فأننا نخرج من هذه الاتفاقية بأن الامبراطورية دخلت دائرة النزاع مع البابوية حول التقليد العلماني وهي في أوج قوتها وسلطانها ، وخرجت من هذا النزاع مكسورة الجناح بعد ما نزل بها من هزائم نكراء بحيث يظهر الفارق واضحا بين موقف كل من هنري الخامس وسلفه هنري الثالث (٣) وقد حاول بعض الكتاب أن يصور الموقف عند عقد اتفاقية ورمز بأن الامبراطور كان أمامه أن يختار بين الاحتفاظ بالرغيف كاملا أو الاكتفاء بنصفه فأجبرته البابوية على الاكتفاء بالنصف ، في حين كان على البابوية أن تختار بين النصف الثاني للرغيف أو البقاء دون نصيب ففازت بالنصف . وهكذا لم يستأثر فريق دون آخر بتقليد

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 107.

(2) Fliche: L'Europe Occidentale, p. 483.

(3) Bryce: op. cit. p. 161.

رجال الدين وبقي الأمير مناصفة بين الطرفين (١) .

ولكن اذا كانت اتفاقية ورمز سنة ١١٢٢ وضعت حدا للنزاع حول التقليد العلماني وأنهت الدور الأول من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية ، الا أنها لم تضع حدا للصراع بين السلطتين الدينية والدنيوية (٢) . ذلك أنه يتضح من دراسة شروط هذه الاتفاقية أنها لم تمس جوهر النزاع بين السلطتين ولم تتعرض للمشكلة الأساسية التي كمن فيها الخلاف ، وهي أيهما أسمى وأيهما يجب أن تكون له السيادة العليا : البابوية أم الامبراطورية (٣) ؟ وما دامت هذه المشكلة الكبرى قائمة دون حل فانه لا يمكن القول بأن النزاع بين البابوية والامبراطورية قد وصل نهاية ترضى الطرفين ، لأن مشكلة التقليد العلماني لم تكن في حقيقة أمرها الا مظهرا للتنافس بين البابوية والامبراطورية حول سيادة العالم (٤) .

احوال الامبراطورية بعد اتفاقية ورمز :

أما عن نتائج هذا الصراع الطويل بين البابوية والامبراطورية حول التقليد العلماني فمن الواضح أنها كانت على جانب كبير من الخطورة بالنسبة للامبراطورية . ذلك أن محاولة البيت السالي اقامة ملكية قوية باءت بالفشل ، بمعنى أنه ليست البابوية أو الامبراطورية هي التي خرجت فائزة من هذا الصراع ، وانما كان كبار الأمراء في ألمانيا هم الذين انتهزوا فرصة انصراف ملوكهم الى النزاع مع البابوية ليدعموا قوتهم وسلطانهم (٥) . وهكذا أدى الصراع حول مشكلة التقليد العلماني الى ازدياد شدة التيار الاقطاعي في ألمانيا حتى غدت حصون الأمراء وقلاعهم بمثابة المراكز الأساسية للتنظيم

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 463.

(2) Barraclough: op. cit. p. 133.

(3) Idem: pp. 139—140.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 184.

(5) Barraclough: op. cit. p. 134.

السياسى فى البلاد • وقد ظهر أثر هذا التطور بوضوح فى المجتمع الألمانى اذ أصبح ضعاف الأحرار - وبخاصة من المزارعين - أقنانا ، فى حين غدا أقوياؤهم فرسانا وأفضالا ، تربطهم روابط عديدة بسادتهم الاقطاعيين ، الأمر الذى يجعلنا نقرر أن النزاع حول التقليد العلمانى ترك أثرا خطيرا فى بناء المجتمع الألمانى فى تلك الحقبة من العصور الوسطى (١) • ومن الواضح أن انتشار النظام الاقطاعى وازدياد نفوذ كبار الأمراء جاء على حساب الملكية وسلطانها ، لأن هذا الازدياد وما صحبه من تناقص نسبة الأحرار من السكان معناه أن الملك أو الامبراطور لم يعد له نفوذ مباشر الا على نسبة متناقصة من أهالى البلاد ، فى حين لم تعرف الأغلبية المتزايدة سلطانا مباشرا سوى سلطان سادتهم الاقطاعيين (٢) •

أما البابا كالكستس الثانى والامبراطور هنرى الخامس فلم تقدر له حياة طويلة بعد اتفاقية ورمز ، اذ توفى الأول فى ديسمبر سنة ١١٢٤ ولحق به الثانى فى مايو سنة ١١٢٥ • وقد ساعدت كثير من الظروف المختلفة التى أحاطت بالعرش الألمانى والبابوية على تهدئة الموقف بعد اتفاقية ورمز • ففى ألمانيا أجمع الأمراء عقب وفاة هنرى الخامس على اختيار لوثر الثانى دوق سكسونيا ملكا ، وهو المدبوق الذى عارض هنرى الخامس معظم حكمه والذى كان محبوبا من الألمان بسبب بلائه ضد السلاف (٣) • وكان من أشد أنصار لوثر الثانى الأمير هنرى المتكبر دوق بافاريا الذى تزوج ابنة لوثر وأنجبت هذه الزوجية هنرى الأسد وارث دوقيتى بافاريا وسكسونيا (٤) • على أنه يبدو أن اختيار لوثر الثانى للعرش سنة ١١٢٥ لم يعجب آل هو هشتاوفن

(١) Idem: pp. 136—138.

(٢) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 108, 163 & Barracclough op. cit. p. 139.

(٣) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 334—335.

(٤) Eyre, op. cit. p. 159.

(م ٢٤ - أوروبا فى العصور الوسطى)

أمرء سوابيا ، هذا فضلا عن أن لوثر الثانى لم يكن الرجل القسادر على استرداد هيبة الامبراطورية وعظمتها نتيجة لضعفه وتقدم سنه .

هذا عن ألمانيا ، أما الشطر الثانى من الامبراطورية وهو ايطاليا ، فلن البابوية سرعان ما وجدت نفسها فى مأزق خطير أمام توسع النورمان فى جنوب ايطاليا يعد أن تم لهم الاستيلاء على صقلية سنة ١٠٩١ (١) . ومن ثم وحدوا صقلية وكالبريا أبوليا تحت سيطرتهم مما أفزع البابوية ، فهبت تدافع عن نفسها أمام هذا الخطر العظيم . وكان أن أخذ البابا هنريوس الثانى (١١٢٤ - ١١٣٠) يجاهد عبثا لتأليف حلف من أمرء ايطاليا ضد النورمان ، حتى اضطر أخيرا الى الاعتراف سنة ١١٢٨ بمركز روجر الثانى فى أبوليا وصقلية . ولم يلبث النورمان أن استصغروا لقبى « كونت » و « دوق » اللذين تلقب بهما أمراؤهم الأوائل فاحتفل فى يوم رأس السنة عام ١١٣٠ بتتويج روجر الثانى ملكا فى بالرمو (٢) . ثم كان أن نشأ نزاع حول الكرسى البابوى بعد وفاة البابا هنريوس الثانى ، ففر البابا انوسنت الثانى الى ملك ألمانيا مستنجدا به ضد خصومه ، ولما أنجده لوثر الثانى ، كافأه البابا بتتويجه امبراطوريا فى روما سنة ١١٣٣ . والمهم فى أمر هذه الزيارة التى قام بها لوثر الثانى لايطاليا سنة ١١٣٣ هو أنه خالف سياسة سلفه هنرى الخامس واعترف بحق البابوية فى تركة الأميرة ماتيلدا ، على أن يأخذ الملك هذه التركة من البابا كإقطاع مقابل إيجار سنوى . ومعنى ذلك أن البابوية حصلت على دليل جديد يظهر الامبراطور فى صورة فصل إقطاعى للبابا (٣) .

وعند وفاة الامبراطور لوثر الثانى سنة ١١٣٨ ، كان أقوى رجلين فى ألمانيا هما هنرى المتكبر دوق بافاريا وسكسونيا وعميد البيت الولى ، وكونراد هو هشتافن دوق سوابيا . وقد خشي كبار النبلاء قوة هنرى وبطشه ، كما

(1) Haskins: The Normans in European History p. 209.

(2) Idem, p.. 210—211.

(3) Barracough: op. cit. p. 157.

تخوفت الكنيسة من قيام رجل قوى مثله فى عرش الامبراطورية ، ولذلك تم اختيار كونراد الثالث هوهنشتاوفن ملكا على ألمانيا « ١١٣٨ - ١١٥٢ » (١) . ومنذ ذلك الوقت أخذ يشتد التنافس والعداء بين الولفين - وهم أمراء سكسونيا - والجيليين - وهم دوقات أسرة هوهنشتاوفن - نسبة الى قلعة فى اقليم سوابيا تعرف بهذا الاسم (٢) . وقد تطور اللفظ الأول فى الصيغة الإيطالية الى الجلفين Geulfs وأصبح يطلق على أعداء الامبراطورية بوجه عام فى نزاعها مع البابوية ، فى حين أصبح اسم الجيليين يطلق على أنصار الامبراطورية وأعداء البابوية بوجه عام (٣) .

وكان كونراد الثالث هوهنشتاوفن ضعيفا ، وهو أول ملك من ملوك ألمانيا لا يتوج امبراطورا منذ أوتو العظيم (٤) . وزاد من ضعفه أن تغير البيت الحاكم أكثر من مرة سنة ١١٢٥ ثم سنة ١١٣٩ وما تبع ذلك من حروب أهلية ، أدى الى انكماش الأراضي الخاصة بالتاج ، وبالتالي ، الى ضعف الملك الذى استمد قوته فى ظل النظام الاقطاعى من ضياعه الخاصة . وهكذا وجد كونراد الثالث نفسه لا يمتلك قوة مادية - لا سيما فى شمال ألمانيا - تمكنه من الوقوف موقفا قويا من أعدائه فى الداخل والخارج . وقد جاء ضعف الملكية الألمانية فى تلك الحقبة مصحوبا بظاهرة واضحة هى ازدياد نفوذ كبار الأمراء فى انتخاب الملك ، وهى الظاهرة التى غدت بمثابة الطابع المميز للفترة الواقعة بين سنتي ١١٠٦ ، ١١٥٢ (٥) . أما فيما يتعلق بموقف كونراد الثالث من إيطاليا والبابوية فيلاحظ أنه أضاع معظم جهوده فى الحملة الصليبية الفاشلة المعروفة بالثانية ، مما أضعف هيئته فى إيطاليا حتى أعان البابا انوسنت الثانى فى السنة نفسها التى اعتلى كونراد الثالث العرش (مجمع ١١٣٩) عدم ارتباطه باتفاقية ورمز ، وأن البابا له السيادة العليا على

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 231.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 347—349 & 404.
 - (3) Eyre: op. cit. p. 159.
 - (4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 358--359.
 - (5) Barraclough: op. cit. pp. 158--160.

جميع الحكام العلمانيين الذين لا يحق لهم التدخل فى شئون الكنيسة سواء ما يتعلق بأراضيها أو بتقليد رجالها (١) . وعلى الرغم من كل ذلك فقد أبى كونراد الثالث أن يدخل فى حرب سافرة مع البابوية ، وفضل العمل على توطيد نفوذه فى ألمانيا عن طريق الحد من نفوذ البيت الولى ، مما أدى الى حرب أهلية لم تنته الا سنة ١١٤٢ (٢) .

وعندما مات كونراد الثالث سنة ١١٥٢ خلفه ابن أخيه فردريك الأول بربروسا (١١٥٢ - ١١٩٠) الذى كان شابا فى الثلاثين من عمره امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء ، مع اتصافه بسرعة الغضب والايمان المطلق بعظمة الوظيفة الامبراطورية وسموها (٣) . وقد أخذ فردريك بربروسا يعمل منذ اعتلائه العرش على استرداد مكانة الامبراطورية ومجدها المفقود ، وهو المجد الذى لا يتحقق - فى نظره - الا بالربط بين شطرى الامبراطورية فى ألمانيا وايطاليا . لذلك بدأ بعقد معاهدة كونستانس مع البابا سنة ١١٥٣ وفيها تعهد فردريك الأول بعدم عقد صلح مع روجر الثانى ملك صقلية دون موافقة البابا ، وأن يقوم فردريك باخضاع أعداء البابا والتأثرين ضده مقابل تنويع البابا له امبراطورا ومساندته ضد خصومه فى ألمانيا (٤) .

ولكن فردريك كان أعقل من أن يذهب الى ايطاليا وينصرف الى شئونها قبل أن يوطد نفوذه فى ألمانيا . لذلك أخذ يتقرب الى الأمراء ويسترضيهم ، فرد بافاريا الى هنرى الأسد عميد الولىين وأعطاه سلطانا شبه مطلق عليها وعلى سكسونيا ، كما استرضى بقية الأمراء حتى قوى نفوذهم على حسابه ، وبعد ذلك بدأ يوجه بصره شطر ايطاليا (٥) . ويبدو أن الموقف فى ايطاليا كان خطيرا حينذاك الى الدرجة التى جفلت فردريك الأول يسرع بالذهاب

(1) Hayward: op. cit. pp. 178—179.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 475.

(3) Bryce: op. cit. p. 166.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 247—248.

(5) Thompson: op. cit. Vol. 1, 447.

إليها قبل أن يفرغ من اتمام مشروعاته الرئيسية في ألمانيا نفسها . ذلك أن البابوية سرعان ما أنهكتها الصراع ضد النورمان في الجنوب ، في حين استطاعت المدن اللمباردية في شمال إيطاليا أن تتحرر من نفوذ الأمراء الاقطاعيين لتصبح قومونات مستقلة في إدارة شئونها (١) وكان أن اشتد التنافس بين هذه المدن حتى انتهى الأمر بتكليفها في حلفين متضادين ، أحدهما بزعامة ميلان والثاني بزعامة بافيا ، وإن كانت رغبتها في التمتع بالاستقلال ومباشرة نشاطها الاقتصادي جعلتها تتفق جميعا في سياسة واحدة ، هي مقاومة أية سيطرة تحاول الامبراطورية فرضها عليها (٢) . ولم يحاول أحد حكام الامبراطورية - مثل لوثر الثاني أو كونراد الثالث - أن يتدخل لاختتام هذه الحركة التحررية التي لم تلبث أن امتدت الى روما نفسها . ذلك أن أهالي روما قاموا بثورة ضد البابا انوسنت الثاني سنة ١١٤٢ مطالبين بتحويل مدينتهم هي الأخرى الى قومون مستقل ، حتى انتهى الأمر بفرار البابا ايوجنيوس الثالث Eugenius III من روما سنة ١١٤٧ (٣) . والغريب في أمر هذه الثورة أن زعيمها - وهو أرنولد البريشي Arnold of Brescia كان من رجال الدين ، فآمن بما سبق أن نادى به البابا باسكال الثاني سنة ١١١١ من آراء تستهدف تخلي الكنيسة عن أراضيها الاقطاعية واكتفائها بالعشور والعودة الى حياة البساطة التي اتسمت بها المسيحية الأولى (٤) .

ومهما يكن من أمر ، فقد استنجد البابا أيوجنيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣) ثم البابا أدريان الرابع (١١٥٤ - ١١٥٩) بالملك فردريك بربروسا ، الذي لبي النداء سنة ١١٥٤ ، كعادة أسلافه من حكام الامبراطورية الرومانية المقدسة . وهنا نلاحظ أن الغرض الأساسي من ذهاب فردريك الأول الى إيطاليا في تلك السنة كان اكتساب رضا البابوية وإثبات حسن نية لها ،

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 361.

(2) Eyre: op. cit. p. 165.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 486.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 371-372.

وليتوج امبراطورا فى روما مقابل ما يؤديه للبابا من خدمات أهمها تحطيم قوة أرنولد البريشى وتثبيت سلطة البابوية فى روما (١) • وكان أن أستطاع فردريك بجيشه الصغير الذى لم يتعد ألفا وثمانمائة فارسا أن يخضع المدن اللمباردية ، فاعترفت له بالسيادة بعد أن أرحبها وأعطاها درسا قاسيا (٢) • وبعد ذلك اتجه فردريك الى روما حيث كان أدريان الرابع قد اعتلى كرسى البابوية سنة ١١٥٤ ، وهو الانجليزى الوحيد الذى تولى هذا المنصب فى العصور الوسطى (٣) • وكان هذا البابا الجديد قوى الشخصية واسع المعرفة ، فلم يستسلم للاخطار التى واجهت البابوية عندئذ ، وانما أنزل قرار الحرمان ضد روما وأنزل اللعنة على أهلها الثائرين ، وعندئذ أحجم الحجاج عن زيارة مدينة منضوب عليها ، ففقد أهلها موردا غزيرا لثروتهم واضطروا الى طرد ارنولد البريشى والدخول فى طاعة البابوية (٤) •

على أن مشاكل البابوية لم تقف عند ذلك الحد ، اذ أغار وليم النورمانى على كامبانيا Gampania على الشاطئ الغربى جنوبى روما - ونهبه ودمره ، وهدد بالزحف على روما نفسها • لذلك أسرع أدريان الرابع بتجديد اتفاقية كونستانس التى سبق أن عقدها أيوجينوس الثالث مع فردريك الأول سنة ١١٥٣ ، حتى انتهى الأمر بتتويج فردريك الأول امبراطورا فى كندراثة القديس بطرس بروما (١١٥٥ - ١١٥٦) (٥) • وقد تم التتويج سرا وبسرعة ، خوفا من غضب أهالى روما الكارهين لفردريك ، والذين اشتدت ثورتهم عندما أعلن الخبر ، فى حين تناقصت جيوش الامبراطور واشتدت به الحاجة الى المؤن والامدادات ، فلم يستطيع الثبات فى وجه أهالى

-
- (1) Barraclough: op. cit. p. 178.
 - (2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 248.
 - (3) Orton: op. cit. p. 232.
 - (4) Tout: The Empire and the Papacy p. 249.
 - (5) Hayward: op. cit. p. 184

روما التأثيرين واضطر الى الفرار منها وبصحبة البابا (١) * وسرعان ما أدرك فردريك صعوبة البقاء في إيطاليا ، ولا سيما بعد أن سمع بأن الأوضاع في ألمانيا تستدعي عودته اليها ، فحبر جبال الألب الى بلاده تاركا البابا وحده في شمال إيطاليا . وهكذا اضطر أدريان الرابع الى مصالحة أهالي روما على أسس الاعتراف بمدىنتهم قومونا مثل غيرها من القومونات الإيطالية . وعلى هذا الأساس استطاع العودة الى روما في صيف سنة ١١٥٥ (٢) .

أما الامبراطور فردريك بربروسا فقد عاد الى ألمانيا ليواصل جهوده في توحيدها وتقوية سلطانه على الأمراء . قد تم للامبراطور ما أراد حتى بدا في نظر المعاصرين أعظم قوة في أوروبا ، لا سيما بعد أن مد نفوذه الى برجنديا عن طريق الزواج من وريثتها سنة ١١٥٦ (٣) . وزاد من نفوذ فردريك الأول وسطوته على أوروبا أن بولسلاف الرابع صاحب بولندا وبولسلاف الثاني صاحب بوهيميا دانا له بالتبعية ، في حين اعترف له ملك الدانين - بل هنري الثاني ملك انجلترا - بالسيادة (٤) ، وبذلك لم يبق أمام الامبراطور سوى تدعيم نفوذه في إيطاليا . وكانت العلاقة قد سامت بين فردريك الأول والبابا أدريان الرابع عقب انسحاب الأول الى ألمانيا في صيف سنة ١١٥٥ تاركا البابا وحيدا في إيطاليا . وهنا نعود فنكرر القول بأن المشكلة الكبرى بين الامبراطورية والبابوية كانت لاتزال قائمة . واذا كانت الظروف قد اضطرت البابا والامبراطور الى الاتفاق لمواجهة الأخطار المشتركة التي هددت نفوذهما من ناحية القومونات الإيطالية من جهة وثورة أرنولد البريشي من جهة أخرى وخطر النورمان في الجنوب من جهة ثالثة ، فان هذا الاتفاق لم يكن معناه اطمئنان الطرفين بعضهما الى بعض بأي حال من الأحوال .

والواقع أن مركز البابا أدريان الرابع كان ضعيفا فعلا عندما تركه الامبراطور

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 421.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 250.

(3) Barraclough: op. cit. p. 173.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 492.

وحيدا في صيف سنة ١١٥٥ (١) • فالامبراطور ترك البابا دون أن يساعده في اخضاع روما أو دفع الخطر النورمانى الذى هدد الأملاك البابوية تهديدا واضحا • لذلك أدرك البابا أدريان الرابع أنه لا بد من الاعتماد على نفسه ، فألف حلفا مع أمراء أبوليا الاقطاعيين الذين اشتدت رغبتهم فى التخلص من سيطرة النورمان ، كما أجرى مباحثات مع مانويل الأول امبراطور الدولة البيزنطية (١١٤٣ - ١١٨٠) لمساعدته فى حربهم (٢) • ويبدو أن وليم النورمانى أحس بخطر هذه المحالفات التى يعقدها البابا ضده ، فأسرع الى عقد اتفاقية بنفتو سنة ١١٥٦ مع البابوية ، ورضى باعلان نبعيته للبابا مقابل موافقة البابوية على قيامه فى حكم أبوليا وصقلية (٣) • وفى نفس هذه السنة أنزل وليم الأول النورمانى هزيمة كبرى بالبيزنطيين عند برنديزى حتى اضطر الامبراطور مانويل كومنين الى عقد الصلح مع الملك النورمانى سنة ١١٥٨ ونجحت وساطة البابوية فى اتمام ذلك الصلح (٤) • هذا فى الوقت الذى استرضى البابا أهالى روما بأن أقرهم نهائيا على قيام القومون الرومانى وبذلك تغلب أدريان الرابع على جميع المشاكل التى واجهته دون حاجة الى مساعدة الامبراطورية •

النور الثانى من ادوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

هكذا يبدو أن كلا من البابا أدريان الرابع والامبراطور فردريك الأول استطاع أن يمكن لنفسه ويقوى مركزه فى بلاده ، ولم يبق بعد ذلك سوى أن يواجه كل منهما الآخر • والواقع أن فردريك الأول استاء من تحالف البابا مع وليم النورمانى من جهة ومع أهالى روما من جهة أخرى واعتبر ذلك نقضا للعهد بين الطرفين ، فى حين أخذ البابا أدريان الرابع يتخوف من ازدياد نفوذ الامبراطور واتساع سلطانه بعد أن استقرت له الأمور داخل

-
- (1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 422.
 - (2) Vasiliev: op. cit. Tome 11, p. 13.
 - (3) Orton: op. cit. p. 233.
 - (4) Ostrogorsky: op. cit. p. 342.

الامبراطورية وخارجها (١) * وصادف أن اختار البابا مندوبا أرسله الى ألمانيا - هو الكاردينال رولاند ، الذي عرف بصلابه رأيه وفوة عقيدته في ستمو الكنيسة ، فذهب المندوب ليحرب عن استياء البابا من بعض تصرفات الامبراطور ، لا سيما حبس كبير أساقفة لوند Lund الذي كان صديقا حميما لأدريان الرابع . وعندما دخل المندوب البابوي على الامبراطور في مجمع بسانسون Besancon سنة ١١٥٧ حياه تحية غريبة ، اذ قال « ان البابا يحييك كوالد والكرادلة يحيونك كاخوة » فدهش فردريك من هذه التحية التي جعلت من الكرادلة اخوة مساوين للامبراطور ، وهو السيد العظيم خليفة قيصر وشارلمان (٢) . على أن الذي ضايق فردريك هو أن رسالة البابا اليه احتوت عبارة مؤداها أن التاج الامبراطوري يعتبر Beneficium من البابا (٣) . وهذا اللفظ اللاتيني يحتمل معنيين ، اذ يمكن تفسيره على أنه يعني « حميلا أو معروفا Benefit » كما يمكن تفسيره بمعنى اقطاع « Benefice » (٤) . واختار الامبراطور وأنصاره أن يفسروا اللفظ بمعناه الأخير ، أي أن البابا يعتبر التاج الامبراطوري منحة أقطعها للامبراطور ووهبها له . ومن ثم ثار فردريك لكرامته وكرامة وظيفته الامبراطورية ، وأيده في موقفه الأساقفة الألمان . ولم يكن الامبراطور مبالغا في غضبه أو ثورته لأن المندوب البابوي نفسه أصر على تفسير اللفظ على أنه يعني « اقطاع » ، وقال لفردريك في شجاعة « ممن اذن يتسلم الامبراطور امبراطوريته ان لم يتسلمها من البابا (٥) ؟ » ولكن فردريك أدرك جيدا أن التسليم بهذا المبدأ يعني خضوع الامبراطور للبابا ، ولذلك رد مدافعا عن حقوقه « انا نتسلم الامبراطورية من الله عن طريق انتخاب الأمراء ، ان شريعة الله تقضى بأن يكون حكم العالم بواسطة سيفي الامبراطورية والبابوية ،

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 253.

(2) Ibid.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, pp. 390—420.

(4) Ullmann: The Growth of Papal Government, pp. 341—342.

(5) Bryce: op. cit. p. 166.

كما قضت تعاليم القديس بطرس بأنه يجب على الناس أن يخافوا الله ويكرموا الملك (١) • وعلى هذا فإن كل من يقول بأننا تسلمنا التاج الامبراطورى اقطاعا من البابا يعتبر ملحدا باطل العقيدة لأنه يخالف أوامر الله وتعاليم القديس بطرس • (٢)

أما البابا أدريان الرابع فقد ارتبك فى ذلك الموقف واضطر الى التصريح فى أوائل العام التالى بأنه قصد باللفظ معناه العام - أى معروف أو جميل - ولم يقصد معناه الاقطاعى الخاص • وبذلك تجنب البابا الاصطدام السريع المباشر مع الامبراطورية ، وإن ظل سوء النية قائما عند الطرفين (٣) • وبعبارة أخرى فإن أهمية هذا الحدث تبدو فى أنه كشف النقاب عن حقيقة شعور كل من البابوية والامبراطورية نحو الطرف الآخر كما مهد لتجدد النزاع السافر بين الجانبين • وإذا كان النزاع بين الامبراطورية والبابوية قد اتخذ فى دوره الأول من مشكلة التقليد العلمانى محورا له فإنه فى هذا الدور الثانى تركز فى مشكلة القومونات الايطالية (٤) •

ذلك أن الامبراطور فردريك بربروسا كان - كما سبقت الاشارة - يعتقد اعتقادا راسخا فى عظمة الامبراطورية ، ويؤمن بأنه خليفة قيصر وشارلمان ، ومن ثم يجب أن يتمتع بما كان لهذين الامبراطورين من نفوذ عالمى وسلطان واسع • وقد رأى الامبراطور فردريك الأول أن كثيرا من الحقوق التى تمتعت بها المدن اللمباردية انما هى فى حقيقة أمرها حقوق منحها ملوك الفرنجة لكونتات المدن ومنهم انتقلت الى أساقفتها حتى استغلت القومونات فرصة مشكلة التقليد العلمانى فاستأثرت بهذه الحقوق (٥) • وبعبارة أخرى

(١) من الواضح أن الامبراطور استند فى هذه العبارة الى ما جاء فى العهد الجديد : (أكرموا الجميع ، أحبوا الاخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك) رسالة بطرس الأولى ، الاصحاح الثانى ، ١٧ •

(2) Tout: The Empire and The Papacy, p. 254.

(3) Bryce: op. cit. p. 197.

(4) Eyre: op. cit. p. 65.

(5) Barraclough: op. cit. p. 180.

فان سيطرة الامبراطورية على المدن اللمباردية لا تعنى أكثر من استرداد حقوق الامبراطورية المفقودة في شمال ايطاليا * ومن الواضح أن تطبيق هذه الآراء عمليا كان يعنى اخضاع المدن اللمباردية في شمال ايطاليا لسلطة الامبراطورية المباشرة ، بل أيضا فرض السيطرة الامبراطورية على الأراضي البابوية نفسها بما فيها تركة الأميرة ماتيلدا التي استأثرت بها البابوية * وليمي أن البابا كان لا يمكنه أن يفر هذا الوضع ، لأن أخطر ما كانت تخشاه البابوية هو ازدياد نفوذ الامبراطور في ايطاليا مما يؤدي الى وقوع البابا تحت رحمته * ولم يلبث أن أتاح الانشقاق بين المدن اللمباردية فرصة طيبة لتدخل الامبراطور (١) ، واذ وقف حزب كريمونا وبافيا في جانب الامبراطور ضد الحزب الآخر الذي تزعمته ميلان * وكان أن عبر الامبراطور فردريك الأول جبال الألب في يولية سنة ١١٥٨ فخضعت له ميلان بعد مقاومة عنيفة ثم عقد الامبراطور مجمعا في رونساجليا Roncaglia (نوفمبر سنة ١١٥٨) أعلن فيه تمسكه بحقوقه في تعيين حكام امبراطوريين (Podesta) في المدن اللمباردية يسرفون على سك العملة وجمع الضرائب (٢) *

على أن الأمور لم تتم للامبراطور في شمال ايطاليا في سهولة ويسر ، اذ توفي البابا أدريان الرابع سنة ١١٥٩ فخلفه الكاردينال رولاند الذي تلقب باسم اسكندر الثالث ، والذي ظل في منصب البابوية قرابة اثنين وعشرين عاما (١١٥٩ - ١١٨١) حرص طوالها على التمسك بمصالح البابوية وحقوقها ، مما جعل النزاع بين البابوية والامبراطورية يتخذ جميع مظاهر العنف التي رأيناها في الدور الأول * وكان أن تألف تحالف بين سقلية والبابوية وميلان مما أحل بالتوازن الذي حققه فردريك في ايطاليا سنة ١١٥٤ - ١١٥٥ (٣) * وسرعان ما تجددت ثورة المدن اللمباردية وعلى رأسها ميلان بتحرر من البابوية ، فطردت الحكام الامبراطوريين وأخذ يشهد فيها شعور التعصب العنصري ضد الدخلاء الألمان * وهنا واجه فردريك الموقف

(1) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 279.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 427.

(3) Barracklough: op. cit. pp. 181 - 182.

بشدة وحزم فأخذ يحاصر المدن الثائرة ويدمرها - كما فعل مع كريما Crema - . أما ميلان فقد صمدت وقاومت حصار الامبراطور ثلاث سنوات حتى أرغمتها المجاعة على الاستسلام سنة ١١٦٢ ، وعندئذ دمرها فردريك تدميرا شاملا كما أخذ زعماءها رهائن عنده ، وبذلك أصبح الامبراطور سيد الموقف في شمال ايطاليا (١) .

أما عن موقف فردريك الأول من البابا اسكندر الثالث فانه كان يعرف اخلاقه وآراءه جيدا ، لأن اسكندر البابا لم يكن سوى رولاند الكاردينال الذى أزعجت شدته الامبراطور في مجمع سانسون سنة ١١٥٧ . ولذلك صدم فردريك باختياره للبابوية ولم يجد أمامه سوى العودة الى سلاح الامبراطورية القديم ، وهو تعيين فكتور الرابع بابا امبراطوريا منافسا للبابا اسكندر الثالث (٢) . وإذا كان اسكندر الثالث قد اضطر الى الانسحاب من روما بعد عدة أيام من توليه منصبه ، الا أنه ظل متمسكا بموقفه ، لا سيما بعد أن تم عقد مجمع دينى سنة ١١٦٠ تحت رعاية لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وقرر كبار الأساقفة في هذا المجمع الاعتراف ببابوية اسكندر الثالث والوقوف الى جانبه . وقد شجع هذا القرار البابا اسكندر الثالث على الفرار الى فرنسا بعد أن سقطت ميلان في يد الامبراطور سنة ١١٦٢ وأضحى موقف البابوية محفوفا بالخطر في ايطاليا (٣) وفى العام التالى - أى سنة ١١٦٣ - عقد اسكندر الثالث مجمعا في تور أصدر قرار الحرمان ضد البابا الامبراطورى فكتور الرابع وأعوانه من الكرادلة (٤) .

وعلى الرغم من أن فردريك الأول استكشف عند عودته الى ألمانيا سنة ١١٦٢ أن كثيرا من رجال الكنيسة الألمانية وقفوا الى جانب البابا اسكندر

(1) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 497.

(2) Hayward: op. cit. p. 185.

(3) Lavisse, op. cit. Tome 3, Première Partie, p. 39..

(4) Tout: The Empire and the Papacy, p. 257.

الثالث مطالبين بعقد مجمع لتسوية الخلاف بين البابوية والامبراطورية ، الا أنه لم يتأثر بهذه الازمة وأصر على موقفه . وعند وفاة البابا الامبراطوري فكتور الرابع أثناء زيارة الامبراطور لاطاليا للمرة الثالثة سنة ١١٦٤ ، اختار الامبراطور البابا باسكال الثالث ليحل محله (١) . وفي تلك الأثناء أخذ الحكم الالمانى فى شمال ايطاليا يتصف بالقسوة والخشونة حتى أصبح الايطاليون يعاملون على أنهم أعداء الامبراطور لا رعاياه . وليس هناك من شك فى أن هذه السياسة كانت خطرا على مصالح الامبراطورية وأهدافها ، حتى تألف حلف فيرونا سنة ١١٦٤ لمقاومة الحكم الامبراطورى (٢) . وفى ذلك الوقت لم يستطع البابا الامبراطورى باسكال الثالث أن يحتفظ بمركزه فى روما ، كما أن تلك الأخبار شجعت اسكندر الثالث على المغامرة والعودة الى ايطاليا سنة ١١٦٥ ، فدخل روما دخول الظافر وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور (٣) . وسرعان ما تجدد نشاط المدن اللمباردية ، فتقدمت البندقية لمساعدة حلف فيرونا ، مما جعل الامبراطور يعجل بالسودة الى ايطاليا للمرة الرابعة سنة ١١٦٦ . وفى تلك المرة لم يبدأ فردريك بالمدن اللمباردية (٤) ، وإنما اختار أن يستأصل « رأس الأفعى » فزحف على روما مباشرة وحاصرها حصارا عنيفا حتى سقطت فى يده سنة ١١٦٧ ، وعندئذ كانت خيبة أمل الامبراطور كبيرة عندما عرف أن غريمه اسكندر الثالث تمكن من الفرار جنوبا محتميا بحلفائه النورمان (٥) . ومهما يكن من أمر فقد دخل فردريك الأول روما فى تلك السنة ليتوج امبراطورا - للمرة الثانية - بيد البابا الامبراطورى باسكال الثالث . وجدير بالملاحظة أن العداء بين الامبراطوريتين الغربية والشرقية بلغ أشده فى هذه المرحلة ، فلم يحسول الامبراطور فردريك ببروسا اكتساب الامبراطور البيزنطى مانويل كومنين الى جانبه

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 394.

(2) Barraclough: op. cit. p. 182.

(3) Hayward: op. cit. p. 186.

(4) Eyre: op. cit. p. 166.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 441.

ضد النورمان حلفاء البابا ، بل على العكس اتصل فردريك بقلج أرسلان سلطان قونية السلجوقي والعدو اللدود للامبراطور البيزنطى (١) .

ثم كانت أن أخذت المصائب تتري على الامبراطور ، فانتشر الطاعون فى جيشه وقتك برجاله فتكا ذريعا ، مما جعل المعاصرين يفسرون ذلك فى ضوء غضب الله ولعنة البابا اسكندر الثالث على الامبراطور . وقد شجعت هذه الأخبار المدن اللباردية ، فكونت فيما بينها ما يعرف باسم الحلف اللباردى سنة ١١٦٨ الذى اتسع حتى شمل جميع مدن سهول ايطاليا الشمالية من ميلان حتى البندقية ، ومن برجامو حتى بولونيا . وهكذا انسدت المسالك فى وجه الامبراطور فردريك ببروسا بحيث أنه لم يستطع العودة الى ألمانيا فى ربيع سنة ١١٦٨ الا بمشقة بالغية (٢) . وسرعان ما اكتسب الحلف اللباردى قوة جديدة عندما باركه البابا باشاء مدينة جديدة تحمل اسمه - هى مدينة ألسندريا أو اسكندرية - *Alessandria* الى الشمال الغربى من جنوا (٣) .

وكان أن ساد السلام مدن العصبة اللباردية مدة ست سنوات توفى أثناءها البابا الامبراطورى باسكال الثالث سنة ١١٦٨ وحل محله كالكستس الثالث . ولكن ايطاليا أصبحت من الناحية العملية خارج نفوذ الامبراطور فى الوقت الذى ازداد نفوذ البابا اسكندر الثالث زيادة كبيرة حتى فى ألمانيا نفسها . على أن الامبراطور فردريك ببروسا لم يكن بالرجل الذى يرضى بهذا الوضع ، وهو صاحب العقيدة الراسخة فى عظمة الامبراطورية وسموها . لذلك قام بحملته الخامسة على ايطاليا سنة ١١٧٤ ، وحينئذ تأهبت المدن اللباردية للدخول من جديد فى صراع رهيب ضد الامبراطور (٤) . ولا يعنينا من حوادث هذه الفترة المتشابكة - بين حروب ومفاوضات - سوى

(1) Ostrogorsky, op. cit. p. 342.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 259.

(3) Hayward, op. cit. n. 187.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 445.

موقعة لينانو ، Legnano الى الشمال الغربى من ميلان ، وهى الموقعة الفاصلة بين جيوش مدن الحلف اللباردى من جهة والجيوش الامبراطورية من جهة أخرى (٢٩ مايو ١١٧٦) • ويبدو أن الروح الوطنية والشعور بالفوارق العنصرية واللغوية فعلت فعلها عندئذ لتجمع مختلف المدن فى شمال ايطاليا فى هيئة جبهة متحدة تقف فى وجه سيطرة الألمان وتدخلهم (١) • وهكذا حلت الهزيمة فى هذه الموقعة بالجيوش الامبراطورية ، ولم يستطع فردريك الأول الفرار الى بافيا الا بمشقة بالغة • وثمة أهمية أخرى لهذه الموقعة ، هى أنها تعتبر فاتحة عصر جديد فى تاريخ أوروبا الحربى ، نظرا لأنها المرة الأولى التى استطاعت فيها جيوش المدن الناشئة أن تنزل الهزيمة بجيش امبراطورى يتبع النظم الاقطاعية التقليدية التى عرفت أوروبا منذ القرن التاسع (٢) •

أما عن الموقف بين فردريك الأول وأعدائه بعد لينانو فيبدو أن نشوة النصر صرفت المدن اللباردية عن مطاردة الامبراطور وقلول جيشه ، بل ان بعض المدن - مثل كريمونا - أخذت تفكر فى عقد صلح منفرد مع الامبراطور (٣) • ولم يكن فردريك الأول أقل رغبة فى الصلح بعد أن سئم النضال وهدده بعض أعوانه - مثل رئيس أساقفة كولونيا - بالانشقاق عنه ان لم يسو أموره تسوية سريعة مع البابا • أما البابا اسكندر الثالث فقد أظهر من جانبه وقتئذ كفاية سياسية ، فلم يمانع فى فتح باب المفاوضات مع الامبراطور سنة ١١٧٦ (٤) • وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين بعض الوقت بسبب اصرار البابوية على شروطها وتمسكها بآرائها ، حتى انتقل البابا الى البندقية فى مارس سنة ١١٧٧ ليكون على مقربة من سير المحادثات • وأخيرا لم يجد الامبراطور فردريك مقرا من الخضوع والتسليم ، فدخل البندقية حيث كان البابا اسكندر الثالث فى انتظاره يحيط به جمع حافل من الكرادلة (٥) • ولم تلبث أن تكررت تمثيلية كانوسا بعد مرور مائة عام

(1) Bryce: op. cit. p. 175.

(2) Eyre: op. cit. 166.

(3) Tout: The Empire and the Papacy, p. 262.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 502.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p 448.

بالضبط ، فأتى الامبراطور فردريك الأول العظيم ، خليفة قيصر وشارلمان ،
ليزتمى بين قدمي البابا اسكندر الثالث باكيا طالبا منه الصفح والغفران ، مثلما
فعل سلفه - العظيم أيضا - هنري الرابع مع البابا جريجورى السابع سنة
١٠٧٧ (١) •

وهكذا تم الصلح بين الامبراطورية والبابوية في أغسطس ١١٧٧ ، فوافق
فردريك الأول على رد جميع الأراضي المقتصة من البابوية ، وتعهد كل من
الطرفين بمساعدة الطرف الثاني ضد أى عدو يهدده • هذا علاوة عما وافق
عليه الامبراطور من عمل هدنة مع حلفاء البابا النورمان في صقلية لمدة خمس
عشرة سنة ، وهدنة أخرى مع المدن اللمباردية لمدة ست سنوات (٢) • وقبل
أن تنتهى هذه الهدنة الأخيرة مع المدن اللمباردية تم توقيع صلح كونستانس
سنة ١١٨٣ بين المدن اللمباردية والامبراطورية ، وهو الصلح الذى نص على
أن تتمتع هذه المدن بجميع أركان الاستقلال السياسى والقضائى والاقتصادى
والحربى ، مع احتفاظ الامبراطور ببعض المظاهر التى تصور سيادته الاسمية ،
مثل موافقته على تعيين حكام المدن وفرض ضريبة شكلية تافهة للمساهمة في
نفقات الجيوش الامبراطورية • على أنه من الواضح أن هذه الشروط لا
تخفى الحقيقة الواقة وهى أن المدن اللمباردية أصبحت دويلات مستقلة
بمقتضى معاهدة كونستانس ، وأن نفوذ الامبراطور في شمال ايطاليا أضحى
اسما ، مما أدى الى تفكك الامبراطورية وانفصال ايطاليا عن ألمانيا في
تطورها (٣) •

الامبراطورية عقب صلح البندقية سنة ١١٧٧ :

وقد أتاح الهدوء الذى ساد العلاقة بين الامبراطور وايطاليا عقب صلح
البندقية فرصة لفردريك الأول لوجه عنايته نحو شئون ألمانيا ، بعد أن شغلته
الأحداث البطالة عنها طويلا • وكان منبع الخطر الرئيسى الذى هدد سلطة

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 263.

(2) Barraclough: op. cit. n. 183.

(3) Bryce: op. cit. n. 175.

(م ٢٥ - أوروبا في العصور الوسطى)

الامبراطور في ألمانيا هو هنري الأسد الذي استغل فرصة انشغال الامبراطور ليحصل على امتيازات واسعة ، ويزيد من أملاكه ونفوذه على حساب جيرانه في الشمال والجنوب ، حتى غدا خطرا حقيقيا هدد الامبراطور فضلا عن بقية الأمراء . هذا الى أن زواج هنري الأسد من ماتيلدا ابنة هنري الثاني ملك إنجلترا (١) ، جعله على صلة وثيقة بالبلاط الانجليزي ، ومكنه من اتباع سياسة خارجية مستقلة عن سياسة الامبراطورية . وقد ظهرت بعض أركان هذه السياسة في مشروعات هنري الأسد لضم الدانمرك وفي البعثات الدبلوماسية المتبادلة بينه وبين الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين ، على الرغم مما كان من عدااء شديد بين هذا الامبراطور والامبراطور فردريك بربروسا . بل ان هنري الأسد تعمد زيارة القسطنطينية سنة ١١٧٢ وهو في طريقه الى الأراضي المقدسة مما أثار الشكوك بأنه يتآمر مع الامبراطور البيزنطي ضد فردريك (٢) . لذلك وجه فردريك الأول جهوده نحو هنري الأسد فأنزل به الهزيمة سنة ١١٨٠ وعندئذ قسم سكسونيا بين عدد من النبلاء ولم يترك لهنري سوى أجزاء محدودة (٣) .

ثم كان أن أحرز الامبراطور فردريك الأول نصرا سياسيا عظيما سنة ١١٨٤ عندما وضع مشروعا لزواج ابنه وخليفته هنري من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٤) . ومن الواضح أن هذا الزواج جاء على جانب خطير من الأهمية لأن من شأنه أن يؤدي في المستقبل الى التوحيد بين الامبراطورية ومملكة صقلية مما يجعل الأملاك البابوية في وسط ايطاليا تقع بين شقي الرحى (٥) . ولم يكن هذا هو كل ما صادفه الامبراطور فردريك الأول من توفيق في تلك المرحلة ، اذ أن الحلف اللمباردي تفكك بعد أن أحست المدن اللمباردية بزوال الخطر الامبراطوري ، فاشتد التنافس فيما بينهما ، فما مكن الامبراطور من النفاذ الى شئون ايطاليا مرة أخرى وصادف

(1) Adams: The Hist. of England pp. 291—292.

(2) Barraclough: op. cit. p. 187.

(3) Thompson: op. cit. Vol. 1, pp. 200—201 & 507.

(4) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 280.

(5) Cam. Med. Hist, Vol. 5, p. 453.

أن توفي البابا اسكندر الثالث سنة ١١٨١ فترك فراغا كبيرا في روما لأن أحدا من البابوات الخمسة الذين خلفوه في منصبه بين سنتي ١١٨١ ، ١١٩٨ لم تتح له فرصة البقاء طويلا في الوظيفة البابوية ليقوم بعمل ذي أهمية في التاريخ (١) . وقد أوشك النزاع بين البابوية والامبراطورية أن يتجدد سنة ١١٨٤ عندما ماطل البابا لوكيوس الثالث في تنصيب هنري - ابن الامبراطور فردريك الأول - في حياة أبيه ، ثم تجدد النزاع فعلا في عهد البابا أوربان الثالث (١١٨٥ - ١١٨٧) عندما عين كل من البابا والامبراطور رئيسا لأساقفة تريير Trier وتمسك كل منهما برأيه (٢) . وسرعان ما تألف حلف ضد الامبراطور فردريك الأول من البابا ورئيس أساقفة كولونيا وهنري الأسد ، ولكن موقف الامبراطور أصبح قويا بعد أن استمال اليه أعداءه القدامى في ايطاليا وألمانيا ، وعلى رأسهم مدينة ميلان التي شهدت الاحتفال بزواج هنري ابن الامبراطور من الأميرة كونستانس . وعلى الرغم من الهزائم التي لحقت بالبابا وحلفائه في ألمانيا وايطاليا إلا أن أوربان الثالث أصر على موقفه واستعد لإصدار قرار الحرمان ضد الامبراطور ، في الوقت الذي جاءت الأخبار من الشرق بانتصارات صلاح الدين على الصليبيين بالأراضي المقدسة سنة ١١٨٧ . وبعد ذلك بأيام قلائل توفي البابا أوربان الثالث فعمل خليفته جريجوري الثامن على لم شعث القوى المسيحية لإرسال حملة جديدة الى الشرق تثار لما حل بالصليبيين على أيدي صلاح الدين (٣) . على أن هذا البابا لم يمكث في منصب البابوية سوى أسابيع قليلة توفي بعدها فخلفه كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١) الذي استأنف سياسة سلفه في ضم صفوف الغرب المسيحي فاسترضى الامبراطور فردريك بربروسا بأن عزل رئيس أساقفة تريير المفضوب عليه من الفريق الامبراطوري ، كما وعد فردريك بتنصيب ابنه هنري . وهكذا عادت للامبراطور فردريك الأول سيادته من جديد على ألمانيا وايطاليا ، فنفي هنري الأسد وثبت الأمن والنظام في شطري الامبراطورية (٤) . وفي سنة ١١٨٩ غادر الامبراطور فردريك

(١) Hayward: op. cit. pp. 189—191.

(٢) Idem. p. 189.

(٣) Tout: The Empire and the Papacy. pp. 270 --271.

(٤) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 509.

بربروسا ألمانيا على رأس الشطر الألماني من الحملة الصليبية الثالثة في الوقت الذي كان الأمير هنري الأسد يدبر له المؤامرات من منفاه في البلاط الانجليزي . وقد انتهز هنري الأسد فرصة سفر الامبراطور الى الشرق وعاد الى ألمانيا محاولا استرجاع سكسونيا بالقوة ، مما جعل السياسة الأوربية تمر في تلك الحقبة بدور شديد التعقيد بسبب علاقة الصداقة بين ألمانيا وفرنسا من جهة وعداء انجلترا لفرنسا وبالتالي لألمانيا من جهة أخرى (١) . أما فيما يتعلق بفردريك بربروسا فقد شاعت الأقايل أن يلقى هذا الامبراطور الشيخ حتفه غرقا في أحد أنهار آسيا الصغرى سنة ١١٩٠ قبل أن يصل الى الأراضي المقدسة .

وكان أن جاء في العرش بعد فردريك بربروسا ابنه هنري السادس (١١٩٠ - ١١٩٧) الذي ورث عن أبيه مقدرته وقوة عزيمته وتشبعه بفكرة الامبراطورية العالمية (٣) . ذلك أنه وضع لنفسه برنامجا ضخما يتضمن جعل المنصب الامبراطوري وراثيا في ذريته والغاء مبدأ الانتخاب في اختيار الامبراطور، واستغلال مركز زوجته كورثية لعرش صقلية في تدعيم نفوذه في جنوب ايطاليا . على أن هنري السادس لم يستطع اتمام مشروعاته السابقة دون الاصطدام مع خصومه ومنافسيه ، وعلى رأسهم هنري الأسد الذي ذكرنا أنه عاد من منفاه بانجلترا ليطالب بأملكه ويستعيد نفوذه (٣) . هذا في الوقت الذي كان وليم ملك صقلية قد ترقى في أواخر سنة ١١٨٩ وأراد الوطنيون اعطاء عرش المملكة لتتكرد بدلا من كونستانس زوجة هنري السادس والوريثة الشرعية للعرش (٤) .

ويبدو أن هذه المشكلة الأخيرة كانت أهم المشاكل في نظر هنري السادس حتى أنه صفى المسائل المعلقة بينه وبين هنري الأسد ، ثم عبر جبال الألب الى

(1) Barraclough: op. cit. p. 195.

(2) Bryce: op. cit. p. 201.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 460,

(4) Eyre: op. cit. p. 167.

إيطاليا في أوائل سنة ١١٩١ حيث اكتسب تأييد أهالي روما وتغلب على مما طلة
إليابا كاستين اثاث Calistine III حتى تم تنويجه مع زوجته الامبراطورة
نونساس في شهر أبريل من السنة نفسها (١) * وعندما زحف هنري
السادس جنوبا لاسترداد مملكه صقلية من مغتصبها تنكرد ، تنكر نه الحظ
بسبب مقاومة نابلي وانتشار الطاعون بين الجنود الالمان ، حتى اضطر
الامبراطور الى العودة شمالا الى المانيا (٢) * ولانت الاوضاع في المانيا عندئذ
تندر بعدام جديد بين الهوهنشتاوفن والجلفيين او بعبارة اخرى بين
الامبراطور وهنري الاسد ، فعلا قامت الحرب بين الطرفين سنة ١١٩٢ *
ولم نلبث أن تعقدت حوادث هذه الحرب عندما ثار أمراء الراين سنة ١١٩٣
نتيجة لسياسة هنري السادس ، وبذلك اشتدت أواصر التحالف بين
الهوهنشتاوفن في ألمانيا وآل كايه في فرنسا ضد أفصالحهم الولفيين وأمراء
الراين وملك انجلترا (٣) * على ان الحظ حالف هنري السادس ، اذ حدث
في الوقت الذي ثار أمراء الراين أن وصله خبر وقوع ريتشارد ملك انجلترا
- أثناء عودته من الحملة الصليبية الثالثة - في أسر دوق أوستريا الذي سلمه
بدوره لهنري السادس * وقد ظل ريتشارد في الأسر أكثر من عامين
أرسل خلالها فيلب ملك فرنسا الى حليفة هنري السادس يطلب منه عدم
الافراج عنه ، ولكن هنري السادس أفرج عنه أخيرا سنة ١١٩٤ بشروط
قاسية (٤) * وسرعان ما تابعت انتصارات هنري السادس على خصومه ،
فخضع أمراء الراين واستسلم هنري الأسد وبقية حلفائه ، وبذلك أصبح
هنري السادس سيد الموقف في ألمانيا ، مما مكنه من توجيه كل جهوده نحو
إيطاليا (٥) *

وقد ساعدت هنري السادس في تحقيق أطماعه الإيطالية المقدرة التي امتاز بها

(1) Hayward: op. cit. p. 191.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 464.

(٣) كان ملك انجلترا عندئذ يعتبر فصلا اقطاعيا للملك فرنسا بالنسبة
للأراضي الواسعة التي كانت تحت سيادة الأول في غرب فرنسا ر نورمانديا
وأنجو ومين وتورين وبواتو وجوين وجاسكوني) *

(4) Adams: op. cit. pp. 374—376.

(5) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 306—309.

على الانحناء أمام التيارات الصغيرة والثورات المحلية حتى تمر بسلام ، هذا فضلا عن اشغال المدن اللمباردية في شمال ايطاليا بما نشب بينها من خلاف .
وعنا نجد هنرى السادس يحرص على عدم الزج بنفسه في تلك الخلافات ، وعلى استرضاء مختلف الفرق المتنازعة ، مما مكّنه من الحصول على معونة بحرية من جنوا وبيزا في حربه ضد صقلية ، كما حرم مملكة صقلية من الحصول على مساعدة حلفائها في شمال ايطاليا . أما البابا كالستين Galestine III (ت ١١٩٨) فكانت تنقصه الجرأة واكتفى بالوسائل السياسية لعرقة مشروعات الامبراطورية مما جعل ملك صقلية يواجه هنرى السادس وحيدا منفردا(١) .

وكان تنكرد قد توفي عند وصول هنرى السادس الى ايطاليا سنة ١١٩٤ ، فحل محله ابنه وليم الثالث الذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس قبل نهاية سنة ١١٩٤ من الاستيلاء على مملكة الصقليتين ، حيث ترك زوجته كونستانس تنوب عنه في حكمها في حين عاد هو الى ألمانيا سنة ١١٩٥ . وهكذا حرمت البابوية من أقوى حلفائها في ايطاليا بعد . أن أصبحت الأجزاء الجنوبية في قبضة الامبراطورية(٢) . أما هنرى السادس فقد بلغ وقتئذ درجة من اتساع النفوذ لم يصل اليها امبراطور في غرب أوروبا منذ أيام شارلمان ، لا سيما بعد أن خلصه الموت من خصمه هنرى الأسد سنة ١١٩٥(٣) . ويلاحظ بصفة خاصة أن نجاح هنرى السادس في صقلية يعتبر نقطة تحول فعالة في تاريخ الامبراطورية وسياستها الخارجية ، لأن هذا النجاح لم يجعل الأباطرة ورثة النورمان في أراضيهم بجنوب ايطاليا وصقلية فحسب ، بل ورثوهم أيضا في أطماعهم الخاصة بالسيطرة على البحر المتوسط وفي عدائهم الشديد للدولة البيزنطية ، الأمر الذى جعل السياسة الخارجية للامبراطورية المقدسة تتحول عن مجراها الطبيعي الى مجرى آخر لا يتفق ومصالح الامبراطورية(٤) .
وبعبارة أخرى فان ضم صقلية الى الامبراطورية سبب للاخيرة مشاكل داخلية

(1) Hayward: op. cit. p. 191.

(2) Eyre: op. cit. p. 167.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 5, p. 469.

(4) Barraclough: op. cit. p. 197.

وخارجية لم تستطع أن تتحملها ، اذ استمرت صقلية مدة ستين عاما
منذ سنة ١١٩٠ - تستأثر بجهود الأباطرة الذين صبرفوا أبصارهم عن شئون
ألمانيا ، حتى انتهى الأمر بإهيار أسرة هوهنشتاوفن وتفكك حكمه ألمانيا (١) .
أما هنري السادس فقد حصل سنة ١١٩٦ على موافقة أمراء ألمانيا على اختيار
ابنه فردريك الثاني ليخلفه في عرش الامبراطورية ، ثم ذهب بعد ذلك الى
إيطاليا حيث توفي سنة ١١٩٧ وهو يتأهب للقيام بحملة صليبية كبيرة (٢) .

وصادف في ذلك الوقت أن البابا كالستين الثالث لحق بالامبراطور بعد أربعة
أشهر تقريبا ، فخلفه سنة ١١٩٨ البابا أنوسنت الثالث الذي امتاز بشخصية
عظيمة مكتبته من تحقيق كل ما كانت تطمح فيه البابوية من سمو في ضوء
مبادئ جريجوري السابع واسكندر الثالث . وقد شبه أنوسنت الثالث البابويه
بالشمس والامبراطورية بالقمر الذي يستمد ضوءه من الشمس ، وبذلك
عاد الى نعمة سيادة البابوية على الامبراطورية مما هدد بفتح باب النزاع من
جديد بين السلطتين (٣) . وربما كان من العوامل التي ساعدت أنوسنت الثالث
على الظهور عدم وجود امبراطور قوى على رأس الامبراطورية الغربية ، لأنه
حدث بعد وفاة هنري السادس أن انفصل تاج صقلية عن الامبراطورية وعندئذ
لم تبذل أية محاولة جديدة للاحتفاظ بوحدة عرشى صقلية وألمانيا (٤) .
ويبدو أن كونستانس - الامبراطورة الوالدة - آثرت الاحتفاظ لابنها بملك
صقلية ، مبتعدة به عن ألمانيا ومشاكلها ، وفي سبيل ذلك أعلنت تبعيتها للبابوية
وتعهدت بدفع مبلغ معين من المال للبابا سنويا . وهكذا استطاعت كونستانس
أن تحكم نابلي وصقلية باسم ابنها فردريك الصغير فأبعدت الموظفين الألمان
الذين شكوا منهم الأهالي ، كما أوصت قبل وفاتها سنة ١١٩٨ بأن يخلفها البابا

(1) Ibid.

(2) Thompson: op. cit. Vol. 1, p. 512.

(3) Tout: The Empire and the Papacy: p. 314.

(4) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 44—45.

فى الوصاية على ابنها الصغير (١) • وقد قام البابا انوسنت الثالث بالوصاية على فردريك الثانى على خير وجه كما أخذ يمكن للبابوية فى أواسط ايطاليا وشمالها بعد طرد الحاميات الالمانية من روما ، هذا فى الوقت الذى أخذ البابا يرقب - بارتياح - حوادث الانقسام التى هددت ألمانيا بحرب أهلية (٢) •

ذلك أن فيليب دوق سوابيا - وعم فردريك الثانى - أسرع الى ألمانيا عقب وفاة أخيه هنرى السادس للاحتفاظ بعرشها للهوهنشتاوفن ، حتى انتهى الامر باختياره ملكا على ألمانيا سنة ١١٩٨ • على أن عددا كبيرا من الأمراء أيدوا أوتو - الابن الثانى لهنرى الاسد - الذى كان يعيش فى بلاط ريتشارد ملك إنجلترا ، وعندئذ أمد ريتشارد بالمال وأرسله الى ألمانيا ليستخلص حقوقه بوصفه ممثل الولفيين (٣) ، مما جعل ألمانيا مسرحا لحرب أهلية استمرت عشر سنوات وانتهت بانتصار فيليب سنة ١٢٠٧ ، ثم مقتله فى العام الى • وهكذا تبسم الحظ لأوتو الرابع الذى لم يجد أمامه من ينافسه من بيت هوهنشتاوفن ، فأسرع الى الزواج من ابنة غريمه فيليب ليربط بين الجلفين والجليليين • هذا الى أنه عمل على استرضاء البابوية ، فقصدا إيطاليا سنة ١٢٠٩ ليقوم بالزيارة التقليدية التى تمسك بها ملوك ألمانيا وليبحث مع البابا مشكلة تركة الأميرة ماتلدا (٤) • وقد انتهز أوتو الرابع فرصة مقابله للبابا وأعلن ولاءه للبابوية كما أقسم على أن يحافظ على حرية انتخاب رجال الدين ، وعلى أن يساعد البابا ضد خصومه ، فكافأ البابا على ولاءه بتتويجه فى أكتوبر من العام نفسه (٥) • على أن موقف أوتو من البابوية بعد أن توج امبراطورا اختلف كثيرا عن موقفه منها وهو يسعى لاكتساب عطفها للوصول الى العرش • ذلك أن أوتو الرابع لم يلبث أن أفزعته سياسة البابا انوسنت الثالث وأطماعه ، فاضطر - وهو الامبراطور

(1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 317.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 45.

(3) Painter: A Hist. of the Middle Ages, p. 233.

(4) Barraclough: op. cit. p. 212.

(5) Hayward: op. cit. p. 193.

الجلقي - الى اتباع سياسة خصومه من ال هوهنشتاوفن تجاه البابوية (١) * وهكذا اخذت العلاقة بين البابوية والامبراطورية تتخذ شكل حرب بارده ، فبدأ أوتو الرابع يعمل على ابعاد فردريك الثاني عن عرش صقلية لادخالها تحت سلطانه ، مما افزع البابا انوسنت الثالث ، لا سيما بعد ان تمسك أوتو الرابع بحق الامبراطورية في تركة الأميرة ماتيلدا (٢) * ولم تلبث هسذه الحرب الباردة أن تحولت الى حرب ساخنة عندما شرع أوتو الرابع في تنفيذ أطماعه عمليا ، فاحتل تسكانيا سنة ١٢١٠ ثم غزا ابوليا وأخذ يذهب لنزول صقلية بمساعدة الاسطول البيزي (٣) * وقد ارتاع البابا من تلك الاحداث ، فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور ، وابع لرعاياه الخروج عن داعته ، كما أعلن فردريك الثاني امبراطورا * وهكذا انقلبت الاوضاع في اوربا فأصبح أوتو الرابع - وهو ابن هنري الأسد الولفي - يقوم بدور الهوهنشتاوفن في مناوئة البابوية والتمسك بسيادة الامبراطورية ، في حين أخذ البابا يساند فردريك الثاني الجبليني سليل الهوهنشتاوفن (٤) * وكيفما كان الامر فقد آنت السياسة البابوية آكلها ، فاجتمع عدد من امراء ألمانيا الكارهيين للامبراطور في نورنبرج Nurnberg سنة ١٢١١ ، واعتبروا قرار البابا ضد الامبراطور مرسوما بعزله ، واختاروا فردريك الثاني ملك صقلية - وابن هنري السادس - ملكا على ألمانيا بدلا من أوتو الرابع المحروم من الكنيسة * ومن الواضح أنه لم يكن من مصلحة البابا أن يختار الألمان فردريك الثاني ملكا عليهم حتى لا تعود البابوية من جديد بين فكي الكماشة فيحيط بها النفوذ الامبراطوري من الشمال والجنوب (٥) ، ولكن الموقف الذي كان فيه البابا أنوسنت الثالث عندئذ جعله لا يفكر في شيء سوى التخلص من أوتو

(1) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 73.

(2) Tout: The Empire and the Papacy, p. 318.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 74.

(4) Thompson: op. cit. Vol. 2, p. 621.

(5) Barraclough: op. cit. p. 212.

الرابع ، فوافق على اختيار فردريك الثانى لعرش ألمانيا دون أن يدرى ما سيترتب على هذا الاختيار من نتائج فريية (١) .

أما فردريك الثانى فلم يلبث أن غادر صقلية - وكان فى السادسة عشر من عمره - وقصد روما حيث أعلن ولاءه للبابوية ، ثم قصد ألمانيا حيث رحبت به سوابيا وبافيا ، حتى تتم تتويجه رسماً ملكاً على ألمانيا بيد رئيس أساقفة مينز سنة ١٢١٢ (٢) . ولم يبق أمام أوتو الرابع عندئذ سوى الاعتماد على إمارة سكسونيا ، فطلب المعونة من خاله حنا ملك إنجلترا الذى كان مغضوباً عليه من البابوية هو الآخر . على أن التحالف بين فردريك الثانى وفيلب أوغسطس ملك فرنسا والبابوية كان أقوى أثراً من التحالف بين ملك إنجلترا وأوتو الرابع وغيرهما من أمراء فلاندرز وبرابانت واللورين (٣) . وسرعان ما أنزل فيلب أوغسطس هزيمة ساحقة بخصومه فى موقعة بوفان سنة ١٢١٤ ، وهى الموقعة التى تعتبر نقطة تحول ، لا فى تاريخ ألمانيا فحسب ، بل فى تاريخ أوروبا بأسرها . أما فيما يتعلق بألمانيا فإن أوتو الرابع انسحب يجر أذيال الهزيمة نحو سكسونيا حيث توفى سنة ١٢١٨ فى حين استسلم أنصاره وأتباعه لفردريك الثانى بسهولة (٤) . وقد احتفل فردريك الثانى بانتصاره بإعادة تتويجه فى كترائية آخن ، وبذلك أصبح بعد موقعة بوفان الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى حكم ألمانيا والصقليتين (٥) . والواقع أن هناك عدة ظروف تجمعت لتجعل من فردريك الثانى شخصية من أبرز الشخصيات التى شهدتها العصور الوسطى وأشدّها غرابة . ذلك أنه ولد من أب ألمانى وأم نصف إيطالية ، وتلقى تعليمه فى صقلية على مقربة من المؤثرات العربية والبيزنطية ، فنشأ فيلسوفاً محباً للجدل والرياضيات (٦) ، يجيد عدة لغات منها اللغة العربية ، ويتذوق الشعر

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 239.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 76.
 - (3) Adams: op. cit. 431.
 - (4) Barraclough: op. cit. p. 214.
 - (5) Eyre: op. cit. p. 169.
 - (6) Kantorowicz: op. cit. pp. 293—395.

العربي وغير العربي ، هذا كله فضلا عن مهارته كسياسي ومحارب وقانوني ، حتى أطلق عليه المؤرخون « أعجوبة الدنيا » (١) . وقد شاعت الظروف تساعد فردريك الثاني في أوائل عهده لأن البابا انوسنت الثالث توفي سنة ١٢١٦ فتحرر فردريك الثاني من سيطرته ، ولا سيما أن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) كان هادئ الطبع ، ففضل توجيه جهود العالم العربي نحو الحروب الصليبية بدلا من المنازعات العقيمة بين البابوية والامبراطورية .

النور الثالث من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية :

على أن جهود فردريك الثاني في التمكين لنفسه من جهة ، واتخاذ إيطاليا وصقلية - لا ألمانيا - مسرحا أساسيا لهذه الجهود من جهة أخرى ، كان من شأنها أن تثير مخاوف البابوية (٢) . وازدادت هذه المخاوف عندما اتضح للبابوية أن فردريك الثاني غير قانع بصقلية وجنوب إيطاليا ، وإنما أخذ يعمل على توطيد نفوذه في شمالها - أي في لمبارديا . حقيقة أن فردريك حرص عندئذ على احترام مركز البابوية في إيطاليا ، ولكن سيطرة الامبراطور على جنوب إيطاليا وشمالها أُنذرت بوقوع الأملك البابوية بين شقي الرحى ، مما جعل البابا ينظر الى محاولات فردريك وسياسته بعين ملؤها الشك والخوف مما سيتمخض عنه المستقبل (٣) .

وكان فردريك الثاني قد وعد البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحملة صليبية ، كما وعده بفصل صقلية عن الامبراطورية . ولكنه عاد فأخذ يماطل في القيام بالحملة التي وعد بها ، كما توج ابنه هنري سنة ١٢٢٠ ملكا ليخلف أباه في حكم صقلية والامبراطورية جميعا مما ضايق البابوية وأفزعها (٤) . وفي سنة ١٢٢٠ تم تنصيب فردريك الثاني امبراطورا في روما بعد أن جدد

(1) Bryce: op. cit. pp. 203—204.

(2) Barraclough: op. cit. pp. 222—223.

(3) Idem, p. 228.

(4) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 364—365.

العهد بالقيام بالحملة الصليبية • ويبدو ان فردريك لم يكن جادا فى مشروع الصليبي فى الوقت الذى كانت البابويه تتوق لارسال حملة صليبية على وجه السرعة لاصلاح الموقف انذى نجم عن فشل حملة خسابرين على مصر (١٢١٩ - ١٢٢١) • وأخيرا لجأ البابا الى تشجيع فكرة زواج الامبراطور من الاميرة يولاند وريثة مملكة بيت المقدس ليجعل له مصلحة فى الذهاب الى الاراضى المقدسة واسترداد بيت المقدس من المسلمين • وفعلًا تم الزواج سنة ١٢٢٥ ، ومع ذلك لم يخط فردريك الثانى خطوة جدية فى سبيل تنفيذ وعده الصليبي (١) • هذا الى أن فردريك الثانى لجأ بعد تويجه الى فرض قوانين مشددة على رجال الدين ترمى الى الحد من نفوذهم وانتقاص حقوقهم ، كما عقد مؤتمرا فى كريمونا سنة ١٢٢٦ أعلن فيه تمسكه بحقوقه الامبراطورية كاملة فى السيطرة على لمبارديا ، مما أفرغ المدن اللمباردية ، فجددت حلفها ضد الامبراطور وسدت ممرات الألب فى وجهه • وكان صبر البابا هنريوس الثالث قد أوشك أن ينفذ عندئذ ، فأخذ يتأهب لتجديد الحلف بين البابوية والمدن اللمباردية ، ولكنه توفى فى مارس سنة ١٢٢٧ مما أجل فتح باب النزاع بين الامبراطورية والبابوية (٢) •

وعلى الرغم من أن البابا الجديد جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١) كان طاعنا فى السن ، الا أنه امتاز بارادة حديدية لا تفل ، فلم يقبل الاعذار التى طالما انتحلها فردريك الثانى لتأجيل حملته الصليبية ، وأصر على ضرورة رحيل الامبراطور الى الشرق فورا (٣) • وكان أن أبحر الامبراطور فعلا من برنديزى قاصدا الأراضى المقدسة ، ولكنه عاد بعد أيام مدعيا المرض ، مما جعل البابا يعتبر المرض تمارضا فأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧ (٤) • وهنا يجدر بنا أن نوضح مرة أخرى أن توقيع هذا القرار على الامبراطور لم يكن سببه مماثلة فردريك الثانى فى

(1) Kantorowicz: Frederick the Second, p. 139.

(2) Hayward: op. cit. p. 200.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 146.

(4) Kantorowicz: op. cit. p. 171.

تنفيذ وعده الصليبي فحسب ، بل أيضا تخوف البابوية من سياسة فردريك في ايطاليا بوجه عام وتجاه البابوية بوجه خاص (١) . ومهما يكن من أمر فان هذا الاجراء فتح باب النزاع على مصراعيه بين البابوية والامبراطورية . وكانت ميلان مسئولة الى حد كبير عن فتح هذا الباب لأنها عارضت بشدة احياء النفوذ الامبراطوري في لمبارديا ، فجددت الحلف اللمباردي لمدة خمس وعشرين سنة جديدة تبدأ من سنة ١٢٢٦ ، كما أنها سدت ممرات الألب في وجه الجيوش الامبراطورية الوافدة من ألمانيا (٢) . أما البابا فقد أرسل رسله ومندوبيه الى كافة انحاء ايطاليا وألمانيا لابلغ الناس القرار البابوي ضد الامبراطور وتحريضهم على الخروج عن طاعته . على أنه يبدو أن الامبراطور فردريك لم يتأثر بتلك الدعوة ، وظل ثابتا في مركزه يرقب فشل عملاء البابا في تحريك الثورة ضده ، بل على العكس نجح دعاة الامبراطور في اثارة فتنة ضد البابا في روما مما اضطر جريجوري التاسع الى الفرار منها سنة ١٢٢٨ (٣) .

وأخيرا أدرك فردريك الثاني أن مصلحته تستدعي القيام بحملته الصليبية المزعومة حتى يبدو في ثوب المجاهد في سبيل الغرض الصليبي ، فوصل عكا على رأس قوة صغيرة في سبتمبر سنة ١٢٢٨ . ويفهم من حوادث هذه الحملة الصغيرة أن فردريك الثاني لم يخرج الى الشرق بقصد الحرب ، وانما كان ينبغي مفاوضة المسلمين للحصول على كسب سريع . ولم تلبث هذه المفارضة أن انقلبت الى نوع من الاستعطاف ، وهو السلاح الوحيد الذي كان بملكه فردريك الثاني عندما قدم الى الشرق في بضع مئات من أتباعه . وتشير بعض المراجع المعاصرة الى أن فردريك كان يبكي في بعض مراحل مفاوضاته مع المسلمين عندما يتذكر أنه سيعود الى الغرب فاشلا ليواجه البابوية وبقية أعدائه في ايطاليا وألمانيا (٤) . ويفسر هذا الشعور رسالة أرسلها فردريك الثاني الى السلطان الكامل الأيوبي أثناء المفاوضات يقول

(1) Creighton: A Hist. of the Papacy, p. 26.

(2) Barracough: op. cit. p. 230.

(3) Tou : The Empire and the Papacy, pp. 367- 368.

(4) Kantorowicz: op. cit. p. 185.

فيها « أنا مملوكك وعتيقتك » وليس لي عما تأمره خروج ! وأنت تعلم أنني أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي ، فإن رجعت خائبا انكسرت حرمتي بينهم .. ! (١) » .

وهكذا استطاع فردريك الثاني أن يكتسب عطف السلطان الكامل ، فعقدت معاهدة بين الطرفين سنة ١٢٢٩ سلم بمقتضاها الكامل بيت المقدس للامبراطور الذي استطاع أن يحقق نصرا عجزت عنه بقية الحملات الصليبية الضخمة التي وفدت الى المشرق بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ . وكان أن دخل فردريك الثاني كنيسة القيامة في بيت المقدس حيث أعلن من ذلك المكان المرموق أن قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده باطل ! ، كما توج نفسه بيده داخل تلك الكنيسة (٢) . وهنا نلاحظ أن تتويج الامبراطور لنفسه في هذه المناسبة له مغزى عميق ، اذ ربما أراد الامبراطور بذلك أن يعلن بطريقة صامتة في تلك الكنيسة ذات الأهمية العظمى أنه لم يتلق التاج الامبراطوري من رجال الدين ، وأنه تلقاه من الله مباشرة دون وساطة أحد من رجال الكنيسة . هذا وان كانت بعض المراجع المعاصرة تفسر تتويج الامبراطور لنفسه بأن رجال الدين في بيت المقدس امتنعوا عن تتويج امبراطور محروم من الكنيسة ، مطرود من رحمتها (٣) . ومهما يكن من أمر فإن اقامة فردريك الثاني لم تطل في الأراضي المقدسة ، اذ عاد سرعة الى ايطاليا ليجد قوات البابا جريجوري التاسع قد استغلت فرصة غيابه وأغارت على أملاكه في جنوب ايطاليا . بل بلغ الأمر بالبابا أن أذاع خبر وفاة الامبراطور في الشرق ليضعف مركزه في ايطاليا وألمانيا ، واستغل هذه الفرية ليستولي على الأملاك الامبراطورية ، كما يتضح ذلك من رسالة بعث بها الامبراطور الى أحد أصدقائه المسلمين في الشرق بعد

(١) المكتبة الصقلية ج ٢ ص ١٤ (ذيل الباب الثاني والسبعين من كتاب البوافي بالوفيات) .

(2) Kantorowicz: op. cit. p. 199,

(3) Ibid.

عودته (١) • لذلك وقع خبر وصول الامبراطور فردريك الثانى الى ميناء برنديزى (يونيو ١٢٢٩) وقع الصاعقة على البابا جريجورى التاسع ، الذى يبدو أنه كان يخشى هجوما مسلحا يقوم به فردريك الثانى على روما ، فأرسل سنة ١٢٢٩ عدة رسائل الى كبار الأساقفة يأمرهم بسرعة الحضور ومع كل منهم قوة مسلحة للدفاع عن الكنيسة الرومانية ضد هجوم الامبراطور المتوقع (٢) • وأخيرا لم يجد البابا مفرًا من الاعتراف بما حققه الامبراطور من مكاسب للمسيحية باسترداده بيت المقدس ، فعقد صلح سان جرمانو سنة ١٢٣٠ مع الامبراطور ، وبمقتضاه رفع عنه قرار الحرمان مقابل تعهده بحماية أملاك البابا والاعتراف بحق البابوية فى السيادة على صقلية (٣) •

ومن الواضح أن صلح سان جرمانو لم يتعرض لأسباب الخلاف الحقيقية بين البابا والامبراطور ، لذلك لم يكن هذا الصلح أكثر من هدنة مؤقتة بين الطرفين • ومهما يكن من أمر ، فإن فردريك الثانى استغل هذه الهدنة لتقوية نفوذه فى جنوب ايطاليا وصقلية • وهنا يظهر التناقض الشديد بين سياسة الامبراطور فى ايطاليا وسياسته فى ألمانيا ، اذ بينما هو يعمل على توطيد نفوذه فى ايطاليا عن طريق اضعاف الأمراء الاقطاعيين ، اذا به يعتمد على أمرائه

(١) أرسل الامبراطور فردريك الثانى رسالة بعد عودته الى ايطاليا الى الأمير فخر الدين ، رسول السلطان الكامل فى المفاوضات بينه وبين فردريك قبل تسليم بيت المقدس • وفى هذه الرسالة الطريفة يحسكى الامبراطور لصديقه المسلم ما فعله البابا فى غيابه ، فضلا عما توضحه الرسالة من شعور عدائى متبادل بين البابوية والامبراطورية عندئذ ، فيقول « بسم الله الرحمن الرحيم ، من قيصر العظيم امبراطور رومية فردريك ... وبعد علمنا أنه محب لسمع السار من أنبائنا • فنشعره أن البابا باء بالخدر والخديعة • أخذ احدى قلاعنا المنيعه • واضطر الى أن زعم أننا متنا وحلف القرذنالية (الكرادلة) على ذلك ، وعلى أن رجوعنا مستحيل ، وراوضوا العامة بمثل هذه الأباطيل ، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن جراية بلادنا وحفظها برسم ولدنا مثل البابا ... » •

أنظر المكتبة الصقلية ج ٢ ص ٣٤ الباب ١٠٣ من التاريخ المنصورى تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان لأس. الفضائل الحموى •

(2) Ullmann : The Growth of Papal Government, p. 296 N.I.

(3) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 147.

الألمان فى امداده بالقوة اللازمة لتنفيذ سياسته الايطالية (١) • لذلك اضطر الامبراطور الى ترك الجبل على الغارب بالنسبة للامراء الألمان ، مما أدى الى تقويض نفوذ الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى أخذت المدن الألمانية تنمو لتتحول الى قومونات ذات نفوذ سياسى واقتصادى مستقل • وفى تلك الأثناء كانت المدن اللمباردية ترقب بعين القلق ازدياد نفوذ الامبراطور فى ايطاليا ، مما دعى الى تجديد الحلف فيما بينهما سنة ١٢٣٢ لمواجهة هذا الخطر المشترك (٢) • ولم تلبث تلك المدن أن ثارت ضد الامبراطور الذى اعتمد على معونة كبار الأمراء الاقطاعيين حتى تمكن من انزال هزيمة بقوات الحلف اللمباردى عند كورتنوا Cortenuova قرب ميلان سنة ١٢٣٨ ، وبذلك ثار فردريك الثانى لما حل بفردريك الأول فى لينانو سنة ١١٧٦ (٣) • ويبدو أن هذه الهزيمة أثارت شعور اليأس عند كثير من المدن التى أسرع الى عقد الصلح مع الامبراطور ، بل ان ميلان نفسها عرضت حل الحلف اللمباردى الذى اصبح لا يضم سوى ست مدن ، ولكن فردريك أصر على أن يكون استسلام ميلان غير مشروط بقيد ، وبذلك أضاع فرصة طيبة للوصول الى تسوية سرية سريعة (٤) •

ذلك أن البابا جريجورى التاسع كان قد استعد للدخول فى نضال جديد مع الامبراطورية ، ولا سيما أن الاستياء بلغ به حدا كبيرا عندما أخذ فردريك الثانى - عقب انتصاره على المدن اللمباردية سنة ١٢٣٧ - يتصل بأهالى روما ويحرضهم على الثورة ضد البابا (٥) • وفى سنة ١٢٣٨ - ١٢٣٩ أصدر البابا جريجورى التاسع قرار الحرمان - للمرة الثانية - ضد الامبراطور فردريك الثانى ، كما حرض رعاياه على الثورة ضده ، بل بلغ الأمر بالبابا أن عرض تاج الامبراطورية على أخ لملك فرنسا ، ولكن لويس التاسع لم يهتم ببدء البابا الذى

-
- (1) Tout: The Empire and the Papacy, p. 370.
 - (2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, n. 151.
 - (3) Thompson: op. cit. Vol. 2, pp. 629—630.
 - (4) Barraclough: op. cit. p. 230.
 - (5) Cam. Med. Hist, Vol. 6, p. 135.

وجهه اليه في أكتوبر سنة ١٢٣٩ ، واختار أن يحترم اتفاقية الصداقة التي عقدتها أمه بلانش مع الامبراطورية (١) . أما جهود البابا في إثارة المتاعب ضد الامبراطور بألمانيا فقد منيت كلها بالفشل ، مما مكن الامبراطور من مواصلة الحرب ضد البابوية في ايطاليا ، وهو مطمئن تماما الى ناحية الجبهة الالمانية . وكان البابا يظن أنه يستطيع باكتساب القوى البحرية - جنوا وبيزا والبندقية - الى جانبه ، أن يشن هجوما على صقلية ليقتضى على المركز الرئيسى لفردريك ، ولكن الهزيمة التي حلت باسطنبول جنوا سنة ١٢٤١ خيبت أملة (٢) ، في حين أخذت القوات الامبراطورية تهاجم الأراضى والمدن الموالية للبابا في أواسط ايطاليا ، فاستولت على أنكونا ودوقية سبوليتو ، كما أصبح الامبراطور شيد رافنا وفاينزا Faenza ، بل أنه استولى على بعض المدن الشديدة القرب من روما مثل فوليجنو وفيتربو Viterbo بحيث أنه لم ينقذ البابا عندئذ سوى بقاء أهالى روما على ولائهم له (٣) . وأخيرا لم يجد البابا وسيلة لإخراج مركز فردريك الثانى فى أوروبا كلها سوى عقد مجمع دينى فى روما يشترك فيه كبار رجال الدين بالغرب لانزال اللعنة بالامبراطور . وفعلا لى دعوة البابا فريق من أساقفة شمال ايطاليا وفرنسا وأسبانيا واجتمعوا فى ربيع سنة ١١٤١ فى جنوا استعدادا للابحار منها الى روما . ولكن عددا كبيرا من مدن ايطاليا البحرية - وعلى رأسها بيزا - كانت موالية للامبراطور ، واستطاعت هذه القوة البحرية أن تنصيد السفن الجنوية التى تنقل الأساقفة الوافدين لحضور المجمع البابوى ، مما أوقع معظمهم فى أسر الامبراطور وأدى الى فشل مشروع البابا (٤) . ولم ينقذ هؤلاء الأساقفة من قبضة الامبراطور سوى تهديد لويس التاسع ملك فرنسا باعلان الحرب ، وعندئذ أطلق فردريك الثانى سراخهم ، وكان ذلك فى الوقت نفسه الذى توفى البابا جريجورى التاسع (أغسطس ١٢٤١) وهو فى الثامنة والتسعين من عمره (٥) .

(1) Hayward : op. cit. p. 202

(2) Barraclough : op. cit. p. 231.

(3) Tout : The Empire and the Papacy, p. 284.

(4) Kantorowicz : op. cit. pp. 544-546.

(5) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 156.

وقد أعقب جريجورى التاسع فى منصب البابويه كلستين الرابع ، ولكنه توفى فى العام نفسه (سنة ١٢٤١) وعندئذ تعذر انتخاب بابا جديد ، فظل كرسى البابوية شاغرا مدة سنة ونصف - بسبب دسائس فردريك الثانى - حتى اختير أنوسنت الرابع فى يونيه سنة ١٢٤٣ (١) . وفى تلك الأثناء كانت المحادثات دائمة بين الفريق الامبراطورى من جهة والبابا جريجورى التاسع ثم أنوسنت الرابع من جهة أخرى للوصول الى اتفاق ينهى حالة النزاع بين الطرفين ، ولكن هذه المحادثات منيت بالفشل مرة بعد أخرى لاصطدامها بصخرة واحدة هى تمسك البابوية بالسيطرة على الموقف بين فردريك والمدن اللمباردية ، فى حين كان فردريك مستعدا للتساهل فى كافة المشاكل الكنسية المتعلقة دون أن يسمح للبابا بالتدخل فى حقوقه الامبراطورية فى لمبارديا (٢) . وكان أن صمم أنوسنت الرابع على مواصلة سياسة جريجورى التاسع تجاه الامبراطورية ، مما جعل قوات الامبراطور - من المسلمين الذين استعان بهم وأسكنهم فى جنوب ايطاليا - تهجم على الأراضى البابوية . وقد اضطر البابا ازاء هذه الأخطار الى الفرار من روما سنة ١٢٤٤ الى جنوا ومنها الى فرنسا حيث عقد مجمعا دينيا فى ليون سنة ١٢٤٥ لبحث المشاكل الكبرى التى تواجه الكنيسة ، وعلى رأسها مسألة النزاع مع الامبراطورية (٣) . وقد قرر ذلك المجمع عزل فردريك من منصبه على أن يختار من يحل محله فى هذا المنصب . ويبدو أن فردريك الثانى أدرك خطر هذا القرار فأصدر نداء الى ملوك أوروبا وحكامها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا من أجله واكتفوا باظهار العطف المقرون بالحرص والتحفظ الشديدين ، على الرغم من أن هؤلاء الملوك كانوا يواجهون الخطر نفسه فى بلادهم نتيجة لازدياد نفوذ الكنيسة ورجالها (٤) . وقد أدرك أنوسنت الرابع بعد الانتصارات التى أحرزها فردريك الثانى فى ايطاليا أنه لن يستطيع كسب المعركة ضد الامبراطورية فى

(1) Hayward : op. cit. p. 203.

(2) Barraclough : op. cit. p. 321.

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6. p. 156.

(4) Thompson. op. cit. Vol. 2. p. 630.

ايطاليا نفسها ، فأخذ يوجه جهوده منذ سنة ١٢٤٥ نحو ألمانيا لتنظيم عناصر المقاومة الداخلية ضد الامبراطور . وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من أساقفة ألمانيا وأمرائها قرروا سنة ١٢٤٦ اختيار أمير ثورنجا ملكا على ألمانيا ، إلا أن غالبية ألمانيا ظلت على ولائها للامبراطور في الوقت الذي أخذ فردريك الثاني يستغل كل أداة توصله الى غرضه . وكان الصراع عنيفا - وبصفة خاصة في الأراضي الايطالية - في تلك المرحلة الأخيرة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، فبذل البابا جهودا قوية للحيلولة دون قيام وحدة امبراطورية متصلة تمتد من ألمانيا شمالا حتى صقلية جنوبا مما يهدد البابوية تهديدا خطيرا (١) . ويبدو أن الفريق الامبراطوري أحرز تفوقا ملحوظا بين سنتي ١٢٤٥ ، ١٢٥٠ حتى بات الامبراطور يحلم بعبور جبال الألب الى ليون حيث يقيم خصمه أنوسنت الرابع (٢) . ولكن فردريك الثاني فوجيء باشتعال نار الثورة في بارما ١٢٤٧ ، حتى استطاع أهالي هذه المدينة احراز انتصار كبير على القوات الامبراطورية في العام التالي . ويعتبر هذا الحادث نقطة تحول خطيرة في تلك المرحلة من مراحل النزاع بين البابوية والامبراطورية ، اذ سرعان ما أخذ التيار يتحول بسرعة ضد الامبراطورية فثار أمراء أبوليا في جنوب ايطاليا ، كما اشتدت مقاومة المدن المعادية للامبراطور في شمالها (٣) . حقيقة ان الحظ ابتسم مرة للامبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ عندما انتصرت قواته في شمال ايطاليا ، كما جاءت الأخبار من ألمانيا بانتصار ابنه كونراد على غريمه وليم أمير هولندا الذي اختارته البابوية ملكا على ألمانيا (٤) . ولكن لم يكن لهذه الانتصارات أية ثمرة نتيجة لوفاة الامبراطور فردريك الثاني في ديسمبر سنة ١٢٥٠ وهو في طريقه من جنوب ايطاليا الى شمالها . وبوفاة فردريك الثاني انتهت الصفة العالمية للامبراطورية الرومانية المقدسة،

(1) Barraclough : op. cit. p. 232

(2) Tout . The Empire and the Papacy, n. 390

(3) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 161-162.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 390

لأنه كان فى الواقع آخر الأباطرة العظام الذين تمسكوا بالعقيدة الامبراطورية. وأصروا على سمو الامبراطورية وطابعها العالمى (١) . واذا كنا فى حديثنا عن الصراع بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى قد تعمدنا عدم الاستطراد الى مختلف التطورات التى أخذت تسرى فى جوف الامبراطورية ، وذلك لعرض الصراع فى صورة متصلة الحلقات ، الا أن ذلك لا يعنى الاقلال من شأن هذه التطورات وأثرها . وأول ما نلاحظه أن حوادث النزاع بين الامبراطورية والبابوية صرفت الأباطرة عن ألمانيا وشؤونها ، مما أدى الى ازدياد نفوذ السلطات المحلية . ونخص بالذكر فردريك الثانى الذى جعل لصقلية وإيطاليا المكانة الأولى فى برنامج ونشاطه ، مما زاد من أهمية العنصر الايطالى فى الحكومة الامبراطورية وذلك طبعاً على حساب ألمانيا . ولا عجب ، فان فردريك الثانى اعتبر نفسه صقلياً قبل أن يكون ألمانيا حتى أنه لم يمض فى ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذى امتد من سنة ١٢١٢ حتى سنة ١٢٥٠ (٢) . على أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع لم تعرقل بأى حال التطور الحضارى الذى أسرعته ألمانيا فى طريقه وقتئذ ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزاً عالمياً للتجارة فى غرب أوروبا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التى ازدهرت فيها الآداب والقانون والنشاط التشريعى ، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين جباهم فردريك الثانى بقسط من رعايته . وفى ذلك الوقت استمر النفوذ الألمانى فى اتساعه شرقاً وشمالاً حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضي البلطيق والدانمرك فضلاً عن العناصر السلافية فى الشرق (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فالتنا نكرر القول بأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد انتهت من الوجهة العملية بوفاة الامبراطور فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ ، وأن ظلت اسماً حتى القرن التاسع عشر . وقد حدث أن توفى كونراد الرابع ابن

(١) Cam. Med. Hist. Vol, 6, p. 164

(٢) Barraclough : op. cit. p. 219-220.

(٣) Tout : The Empire and the Papacy, p. 373

فردريك الثانى سنة ١٢٥٤ ، وأعقبت ذلك فترة استمرت عشرين سنة ظلت ألمانيا طوالها مسرحا للمنازعات والحروب الأهلية دون امبراطور يحكمها أو يسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) فى التاريخ الألمانى . وهكذا يبدو لنا فى وضوح كيف ذهبت الملكية ضحية فكرة الامبراطورية العالمية ، اذ ضحى ملوك ألمانيا بمستقبل بلدهم السياسى القومى فى سبيل تمسكهم بسراب الامبراطورية الرومانية العالمية وجريهم وراء مشروعات فاشلة فى ايطاليا(١) . ولا شك فى أن المدن الألمانية استفادت من ذلك الوضع فائدة كبرى ، اذ أخذ كثير منها يخطو خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى(٢) . . . وقد شعرت هذه المدن بحاجتها الى الترابط للمحافظة على حريتها واستقلالها مما أدى الى مولد « عصبة الراين » حوالى سنة ١٢٥٤ التى تألفت من عدة مدن أهمها ميترورمز وبازل وستراسبورج ، كما أن التحالف الذى تم بين هامبورج وليوبك حوالى ذلك الوقت وضع أساس العصبة الهانزية Henseatic League

أما قصة النزاع بين البابوية الامبراطورية فقد انتهت على هذا الوجه السلبى بعد أن عجز الأباطرة عن اخضاع البابوية وادخالهم تحت سيطرتهم . ومن السهل الوقوف على أسباب انتصار البابوية ، اذ ظل الأباطرة يستندون الى أحلام الماضى ومجد أسلافهم القدامى ، دون أن يحسبوا حسابا لروح العصور الوسطى - عصور الايمان والدين . أما البابوات فكانوا يستندون الى دعائم أقوى وأكثر تنملا فى نفوس الناس ، لأنهم استمدوا قوتهم من نفوذهم الروحى وما للدين من سلطان كبير على قلوب الأفراد . وحسب البابوات قوة أن ينادوا بأنهم خلفاء المسيح فى الأرض وأن بأيادهم مفاتيح الجنة والنار . فإذا كان الأباطرة يسيطرون على الدنيا فإن هذه الدنيا ليست الا عرضا زائلا

(1) Bryce : op. cit. p. 210.

(2) Cam. Med. Hist. Vol. 6, pp. 112-113.

(3) Thompson : op. cit. Vol. 2, p. 637.

لا يلبث أن ينتهى بالموت ، وعندئذ تصبح الكلمة فى حياة البقاء والخلود للدين
ولأهل الدين • • ويكفى قول المسيح للمحاورين « الحق أقول لكم كل ما
تربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض
يكون • • محلولا فى السماء (١) » •

(١) العهد الجديد - انجيل متى - الاصحاح الثامن عشر ، ١٨ •

فهرس الموضوعات

المستشار الدكتور

د. محمد عفيف

الصفحة

٧	الباب الاول : الامبراطورية الرومانية
٣٠	الباب الثاني : الامبراطورية والمسيحية
٥٣	الباب الثالث : البرابرة وسقوط الامبراطورية في الغرب
٩٤	الباب الرابع : الاسلام
١٠٩	الباب الخامس : ايطاليا بين ثلاث قوى
١٢٧	الباب السادس : ظهور الديرية
١٤٧	الباب السابع : شارلمان وامبراطورية الفرنجة
١٧٤	الباب الثامن : الفكيكنج
٢٠٤	الباب التاسع : أسرة كاييه في فرنسا
٢٤٥	الباب العاشر : المانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة
٢٨٣	الباب الحادي عشر : ايطاليا والبابوية
٣٠٧	الباب الثاني عشر : الامبراطورية والبابوية



